

مقدمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل التاريخ لأولى الالباب تذكره وجلا لنواظر الافكار مرايا من صحفه المنشره وقدم الباحثين فيه بالاستحقاق وان تأخرت أيامهم واختص بالحفظ لآثارهم طروسا أودعتها الحق على شرط الوفاء أقلامهم والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى جاء بالعجب العجاب وأنطق ألسنة السيوف بفصل الخطاب وعلى كافة الانبياء والمرسلين ومن له من أتباعهم أثر فى العالمين (أما بعد) فان التاريخ لسان يخبر به الزمان عن عجائب الوقائع بل أستاذ يقرر دروس الحوادث ليعيها السامع بل ماشئت من محمود وممدوح يدفع كروب النفس ويروح الروح وله من رجاله أئمة فضلاء وسادة جلة نبلاء صرفوا فيه من نقود أعمارهم النفيس حتى كشفوا عن وجهه نقاب التلبيس فتيسر سبيله واتضح دليله وعلمت مجاهله ووردت مناهله وأصبح صراطا للمجتاز سويا فلم يخش آتى سار فى جادته هويا

ولما كانت الحروب الصليبية من أكبر طوارئ الزمان وأشد ما دهى به العالم من طوارق الحدثان توجهت اليها أفكار متنبهه وأنظار لم تكن لغير البحث فيها متهيئه وكنا ممن بالتدبر فيها والتنقير عن ظواهرها وخوافيها لان أقل ما يستفاد من ذلك معرفة كيف كان شأن القوم فى الاختلاط وأوربا اذ ذاك فى انحطاط والشرق منبع المعارف ومنتدى الفضائل والعوارف حتى انتهى الامر الى اتضاع المرتفع وارتفاع المتضع ضرورة أن الزمان أدوار والظلم تجليها الانوار فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ولكن يؤاخذها بجناية يديها تلك نتيجة مساعى الامتين الشرقية والغربية ولا نقول الاسلامية والنصرانية فان مشاحنتهما أصلها الاسلامى جنسى سياسى لم يكن منظورا فيه لدين ولا مذهب وان زعم غير ذلك اليوم من لم يفرق بين الشبابيك والمسالك وقد كنا فى أحد أسفارنا منذ نحو ثمانية أعوام قد اجتمعنا ببعض علماء طرابلس

الشام فتجاذبنا معه أطراف الحديث وتذاكرنا فى القديم والحديث فاذا هو فى الفضل آية بينه غنيت بالعيان عن الشهود والبينه فلزمنا الاطفه معاشرته واستدمنا فى مجاورته محاورته حتى وقفنا فى بعض نوادى التدانى على كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى لعماد الدين الكاتب الاصفهانى فاذا فيه المعجب والمطرب مما يفيد المؤرخ والمتأدب وقد وصفه مؤلفه بما يغنى اذ يقول يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول فادللنا عليه بطلبه على مبارقة طبعه فأنعم على شرط نشرطيه بطبعه فوعدناه بالوفاء لاقتران الشرط بالجزاء ثم لم نتمكن من مباشرة الطبع حالا لعدم تفرغنا له بالا حتى دنا الاجل فخف العمل هنالك رأينا نسخة قيمة فى المكتبة الليدنيه من الممالك الهولنديه وقد كتبت بعد وفاة المؤلف بأربع سنين وعارضها بأصله بعض المصلحين فأخذنا فى الطبع مقابلين بين النسختين وما نقله أبو شامة عن العماد فى كتاب الروضتين

وانما عمدنا فقط الى طبع هذا الكتاب مع تعدد سواه فى هذا الباب لاغراض جمه وأسباب مهمه منها أن للعماد بين الشرقيين شهرة عمت الآفاق وكلهم فى فضله على اتفاق فما من أديب منهم يجهل مقامه أو يحرك لسانه فى أدبه بملامه وهم لم يروا له كتابا أصلا وان شئت فقل لم يقرؤوه على التمام فصلا ونحن نود لهم النفع التام كما انتفعنا بما آثرناه عن اسلافهم الكرام وان جهل حقيقة الواقع من لم يتدبر ماجريات الوقائع ومنها ان العماد قد حضر تلك الملاحم وهو لصلاح الدين أبدا ملازم فشاهدها والها عيانا وحدث عنها بيانا والعيان لا شاهد بعده خصوصا من مثل العماد فانه عمده ومنها ان هذا الكتاب قد اشتمل على حوادث سبعة أعوام هى اهم ماجرى فى تلك الازمنة بلا كلام لوقوع الحرب فى بعضها بين ملكين كبيرين شهيرين بشدة البأس خطيرين وهما السلطان الناصر صلاح الدين الايوبى صاحب مصر والشام والحجاز واليمن وريتشرد ملك انكلترة الملقب بقلب الاسد عند أهل ذلك الزمن فقد امتازا بالشجاعة التى لم يصل اليها أحد من القاده حتى كادت تعد من خوارق العاده وطالما ضرب بينهما المصاف ولم ينتصف أحدهما من الآخر كل

الانتصاف ومنها تأدبه بالعهد والوفاء بالوعد فالمرء أسير لفظه والحر من راعى وداد لحظه

ونحن نعلم ان مؤرخى العرب فى تلك الايام لم ينتبذوا الحق ظهريا ولم يأتوا فيما دونوه أمرا فريا فيجب علينا التصديق بما قالوا والميل عما عنه مالوا ثم لا بأس بعد ذلك بالتطبيق رعاية لتمام التحقيق ومع ذلك فكلنا بتقدم الشرق اذ ذاك مسلم عالم ان الفضل للمتقدم فالمرجوا من اخواننا الشرقيين ان ينبهوا هممهم ويوجهوا الى التعاون كلهم ويساعدونا بما يصل اليه امكانهم ويقوم به بيانهم جزاهم الله كل خير ودفع عنهم كل ضير ما تعاقب الليل والنهار وأبدت حكمها الادوار آمين



((فهرست كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي على حسب ترتيب المؤلف))

صحيفه

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

(تمت)

كتاب

الفتح القسي في الفتح القدسي

تأليف

الوزير المنشئ البليغ
أبي عبد الله محمد بن محمد الشهير بعماد الدين الكاتب الاصفهاني

(الطبعة الاولى)
بالمطبعة الخيريه
سنة ١٣٢٢
هجريه

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد ما يبلغ قضاء حقه وان حقه لعظيم ومن الرشد ما يكتب سلامة نياتنا في الطريق الى كرمه وانه لكريم ونشكر بسر القلب وجهر اللسان احسانيه الينا بأنهما حادث وقديم ونستزيده ونستديمه نعمه وان يجيب على الشكر والرضا مستزيد ومستديم ونستعين به على الدهر وقد فعل فاذا وهو الذى بيننا وبينه عداوة كأنه ولى حميم والحمد لله الذى بدأ بنعمه متطولا وعم بزيده متفضلا وعلمنا شكر فضله الموفور وقبل منا عفو خواطرنا المنزور فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقه ولا يطلع من النعم الطالعة الا وو راءها من المزيد الساقه وقد وصف المشكور منه نفسه بانه شاكر عليم فرب غافل منا عن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم فلا عدمنا ينتاب منتابه راجيا وداعيا ومستيقظا وساهيا وصامتا ومتقاضيا لنا منه على كل حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها لسان شكرنا وضمير ذكرنا وبانت سارية الينا الا طيفا بل حقيقة على نوم فكرنا ثم ان الله سامحنا في حقه من الشكر فقبله من عيينا وبليغنا ومنجرعنا ومسيغنا فتارة يقبله ضميرا مجمجما وتارة يحيط به قولا مترجما ومرة يعلمه نظرا من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات ضلوعه ومرة يسمعه همسا من لسان يناجى ملكه بنغمات مسموعه وكيف لا يعلم السر واخفى من بعينه مسارحه وكيف لا يعلم الغيب من عنده مفاتحه ونرغب اليه في ان يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فانا لا نرضى بعفو استحقاقه من الوصف جهدنا فنصل اليه صلاتنا ونؤدى اليه ودنا ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين او ادنى ونشكره على ان فتح علينا الدار التى كانت الى الله طريقه ليلة اسرى به فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين في اقترابه ما كذب الفؤاد ولا خاب المراد ولا صدق المراد وأين من اخبر عنه انه رآه بالافق الاعلى ممن امتن عليه بانك بالواد فمن كان في روض القرآن يسرح فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم نشرح ونصلى على آله

وأصحابه ولاة الحق وقضاة الخلق ورتقه الفتق وغرر السبق وألسنة الفرق وفتحة الغرب والشرق منهم من رد ردة العرب عن اسلامها ومنهم من استنزل أرجل العجم عن أسرتها وتيجانها عن هامها وأخمد عبدة نيرانه ان يطعموها حطبا ولو وصلت اليهم لاكلتهم وأخمل عبدة أوثانه عن ان يقعوا لها سجدا ولو وقعت عليهم لقتلتهم ومنهم من أنفق في سبيل الله وجهز ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز ومنهم الاشداء على الكفار ومنهم الاسداء اذا زاغت الابصار ومنهم الساجدون الراكعون ومنهم السابقون ومنهم التابعون ومنهم نحن أهل الزمن الآخر وقد سلم علينا سلام الله عليه في زمنه الحاضر وسمانا اخوانا واشتاق الى ان يلقانا فنحن الآن انما نرد عليه تحيته والبادى أكرم وانما نرجو شفاعته بالمودة التى قدمها والفضل للاقدم

هذا كتاب أسهمت فيه بين الادباء الذين يتطلعون الى الغرر المتجليه وبين المستخبرين الذين يستشرفون الى السير المتحليه يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ويكون حظ المستخبر أن يسمع والاديب ان يقول فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التى نولدها ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التى نوردها وانما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لان التواريخ معتادها اما ان تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الاولى واما مستفتحة بعقب من الدول الاخرى فلا أمة من الامم ذوات الملل وذوات الدول الاولهم تاريخ يرجعون اليه ويعولون عليه ينقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الايام وتنصب به معالم الاعلام ولولا ذلك لانقطعت الوصل وجهلت الدول ومات في أيام الآخر ذكر الاول ولم يعلم الناس انهم لعرق الثرى وانهم نطف في ظلمات الاصلاب طويلة السرى وان أعمارهم مبتدأة من العهد الذى تقادم لآدم وقد أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم لما أراده من ظهورهم فليعلم المرء قبل انقضاء عمره وقبل نزول قبره ما استبعده أهل الطى من حقيقة النشر ولنقبل في واحدة من الاطوار شهادة عشر فقد قطع عمرا بعد عمر وسار دهرا بعد دهر وثوى وأنشر

في ألف قبر وانما كان من الظهور في ليل الى ان وصل من العيون الى فجر ولولا
التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضله ولم تكن المدائح بينهم وبين
المذام هي الفاصله ولقل الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها وجهل ماوراء
صعوبة الايام من سهولتها وماوراء سهولتها من صعوبتها فأرخ بنو آدم بيومه
وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه ثم أرخ الاولون بالطوفان
الذي بلل الارض وأغرقها ثم بالعام الذي بلبل الالسن وفرقها وأرخت الفرس
أربعة تواريخ لاربع طبقات من ملوكها أولهم كيشاه ومعنى هذا الاسم ملك الطين
فاليه ترجع الفرس بأنسابها وعليه ينسق عقد حسابها وهي الآن تؤرخ
بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزه الاسلام تاج ايوانه واطفأ نور الله بيت نيرانه
وأرخ اليونان من فيلبس أبي الاسكندر والى قلوبطره آخرهم وهؤلاء المسمون
بالحنفاء وهم الصابئون وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره وشهرة أثره وأرخ
النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي خلدوها والازياج
التي رصدوها وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم وبعمارة البيت المقدس وبخرابه
على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ
بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذي ويسمى بقيل وكانت
غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل وأرخت العرب اليمانية
بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق
واخراجهم عن الحرم ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب
تنازع في الديار فتقاتلوا منها وافترقوا عنها ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل
وهي حرب البسوس ثم أرخوا بحرب عبس وذبيان ابني بغيض وهي حرب داحس
والغبراء وكانت قبل المبعث بستين سنة ثم أرخوا بعام الختان قال النابغة الذبياني

فمن يك سائلا عني فاني * من الفتيان في عام الختان

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام الخنانق وعام الذنائب ويوم ذي
قار وبحرب الفجار وهي أربع حروب ذكرها المؤرخون وأسندها الراوون
وأدنى ما أرخوا به قبل الاسلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع

وبحلف المطيبين وهو قبيل حلف الفضول ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى
لتاريخ الاسلام وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الاقلام وأظهر
الله على الاديان الدين القيم ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم فأمن وقوع
الخلف الواقع في تواريخ الامم وجبت الهجرة ماقبلها وحجب الانوار للظلم ودفع
الله الناس بعضهم ببعض واستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والارض
وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الاموال والانفس ما يعيده اليهم مضاعفا
من القرض ووقت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به أمر الاسلام ويومها اليوم
الذي ماولدت الليالي مثله من بنيها الايام وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده بعد
من عوام الاعوام

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن أمدها بالقيامة معذوق وبأن
موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممذوق وهذه الهجرة هي
هجرة الاسلام الى البيت المقدس وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف
ابن أيوب وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق وتسفر عن أهلتها دادئ
المداد وتنشق وهي وان كانت هجرة الاسلام الى القدس ثانيه فقد كان انثنى
عن وطنه منها لما اثنته يد الكفر ثانيه وهذه الهجرة أبقى الهجرتين وهذه
الكرة بقوة الله أبقى الكرتين فان العرب كانت اذا تناهت في وصف الرجل بالقوة
قالت كانه كسر ثم جبر والحق أن نقول ان أطول الحياتين حياة المرء اذا مات ثم نشر
والعيان يشهد ان أمنع السورين ماعمر بعد ان ثغر والفرق بين فتوح الشام
في هذا العصر وبين فتوحه في أول الامر فرق يتبين تبين الخيط الابيض من الخيط
الاسود من الفجر فان الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم فغير بعيد
والوحي ما كاد يتعطل في طريقه من السماء الى الارض بريد والعيون التي شاهدت
رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسل سيوفها من أجفانها والقلوب التي
شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره في الفتح منها بعيانها ورسل عالم الغيب الى عالم
الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفه ونجدات السماء الى الارض متصلة بالملائكة
منزلة ومسومة ومردفه وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم ان الارض زويت له مشارقها

ومغاربها وانه سيبلغ ملك أمته المثوبة المرحومة ماضمت عليه جوانبها والروم حينئذ بغاث مااستنسر والفرس يومئذ رخم مااستبصر والحديد ماتنوعت أشكاله الرائعه ولاطبعت سيوفه هذه القاطعة ولانسجت ثيابه هذه المانعة والبروج لاتعرف الامشيدة لامجلدة والمنجنيقات لايتوثب مايتوثب اليوم من خشبها المسندة والاقران لاتتراجم بالنيران المذكاه والاثوار لاتتناطح بالكباش المشلاه وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها الو كانوا عزلا والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون الى الموقف حفاة غرلا وكانوا أحرص على الموت منا على البقاء وكان شوقهم الى لقاء الله باعثهم على لقاء الاعداء بذلك اللقاء والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا وهرىق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا وقد أطلع شرف السمائة وهى للملك المعترك وكثرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب وذوى غصنه وكان الرطيب ونصلت كفه وكانت الخضيب وطال الامد على القلوب فقست ورانت الفتن على البصائر فطمست وعرض هذا الادنى قد أعمى وأصم حبه ومتاع هذه الحياة القليل قد شغل عن الحظ الجزيل فى الآخرة كسبه والكفار قد خشنت عرائكهم واتسعت ممالكهم واستبصر وا فى الضلال واستبضعوا للقتال وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البرناشية الصوت وقاتلوا جندا ورعيه واستباحوا الانفس متورعين فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعيه وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وأمدهم فى طغيانهم يعمهون ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولامسح واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها الامزورا والشفاه على القطوب بلابشر ولامرح شقرا كانما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالحون زرقا كانما عيونهم من حديدهم فهم بقلوبهم وعيونهم يكاشفون قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقلها الى غروبهم وعذبهم لما يريده من تعذيبهم واشتعلت نار جهلهم فى فحم ذنوبهم تستعبد المردة من مردتهم ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم فظاظ غلاظ

جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكنى عنهم بوقود جهنم حين قال وقودها الناس والحجارة والافالحجارة لاتستحق الوقود الاأن يرادبها القلوب التى هى كالجلمود فى الجمود ومضت ملوك الاسلام ومضت أيامهم كالبارق وان لم تخلع الاظلام وزارت أيامهم الايام خيالا فتنازع الناس طرائف الاحلام وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كسالمين وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما نسميهم ظالمين اللهم غفرا لكل أجل كتاب وكل يوم هو فى شأن ولكل مقدور أجل ولكل ماخلق له تيسير ولكل ماتقدم الكتاب الموقوت تأخير والايام تمخض وتمطل بالزبده والسور تتلى الى ان تأتى بالسجده والناس يريدون الخروج ولكن ماأعدوا له عده والعذر على كل اسان لكل قوم مده

اذا عجزوا قالوا مقادير قدرت * وما العجز الاما تجر المقادير

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا وكفى بلفظة النبوة لوما صريحا فلما أراد الله الساعة التى جلاها لوقتها وأظهر الآية التى لاأخت لها فنقول هى أكبر من أختها أفضت الليلة الماطلة الى فجرها ووصلت الدنيا الحامل الى تمام شهرها وجاءت بواحدها الذى تضاف اليه الاعداد ومالكها الذى له السماء خيمة والحبك أطناب والارض بساط والجبال أوتاد والشمس دينار والقطر دراهم والافلاك خدم والنجوم أولاد صلاح الدنيا والدين ومهما دعوناله فان الله قد سبق اليه كونا ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا فهو سبحانه أكرم بالنوال منا بالسؤال والكريم بكرم الله مجزى والساكت عن الدعاء له مكفى فان قلنا أحسن الله اليه فقد قال (انالانضيع أجر من أحسن عملا) وان قلنا جزاه الله بالاحسان فقد قال (هل جزاء الاحسان الاالاحسان) وان قلنا هداه الله سبيله فقد قال (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وان قلنا لاضيع الله عمله فقد قال (فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل) وان قلنا لاجعل الله لدهر عليه سبيلا فقد قال (ماعلى

المحسنين من سبيل) وان قلنا زاده الله هدى فقد قال (والذين اهتدوا زادهم هدى)

كل مسؤل سائل * فى معاليه قد كمل
لا يسل فيه سائل * سبق الجود ما سأل
وليصح نأملا * بحد الله قد فعل

ونعود الى ذكره اعز الله ذكره جاد الى ان لم يبق مال ولا أمل وجاهد الى ان لم يبق سيف ولا قلل فلا كفتح على يديه فتح وما هو فتح واحد ما هو الافتحان فتح والدم ذائب وفتح والذهب جامد فما البلاد التى جمعها فاتحا بأغرب من البلاد التى فرقها مانحا فقد استوعب بأسه أكثر ما ولدت المعادن حديدا او زاد لانه ضرب بالسيوف التى كسرها ثم ضربها واستوعب جوده ما ولدت المعادن ذهبا و زاد لانه نقل الى الاعداء ثمن سلع ثم نهبها فوهبها فكل معاد معادى الا هذا المعاد وكل مداد يكتب به اسود الا هذا المداد (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح وما على يد الجود من قبل المدائح

(الناس أكيس من ان يمدحوا ملكا * ولم يروا عنده آثار احسان)

وانا لنرجوا ان نكون قد كتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمر الذين آمنوا ان يكونوا معهم وان نكون قد كتبنا مع المحسنين لانا أحسنا وصف احسان الله الى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم واناوان كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقه وان القلم فى أيدينا ليهتز طربا بالذكره كانه جان وكان السيف ليشنع بانه فروقه ولسنا نسميه قصيرا وان جدع انفه ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا الى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه ونقول للقلم اذا فاخره السيف ان شانئك هو الابتر ونزيد اذا أوردناه وصف مولانا انا أعطيناك الكوثر على ان هذا القلم يلزم الادب لذكره أعلاه الله فينكس راسه ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الارض قرطاسه ولست ببعيد فى تقييد هذه المفاخر وتشييد هذه المآثر من رجال الطعن والضرب الذين فتحوا بين يديه واوجبوا الحق عليه بل حق من حقوقهم أوجه وأوجب وقلمى من سيوفهم أضرى وأضرب ومن رماحهم اخطى وأخطب ومن سهامهم أنجى وأنجب ومن قسيهم اكسى وأكسب ومن

جيادهم أسرى واسرب ومدادى من نقعهم أغلى واغلب وقرطاسى من راياتهم اجلى واجلب وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يعمد وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها وآثارى من الذكر لا تخمل ولا تخمد

* وما السيف أسوى ضربة من لسانيا * فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته وينقطع صيت الاثر بانقطاع صوته والذى اخبرانا به عنه روض يزهو اذا اقلعت الايام صبا ونجم يبدو اذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله لا قول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتى فى غد الا جاهله فهذه الكتب تهب الاعمار الثانيه وتفاخر الالسنة القائلة بها الايدى الكاتبه البانيه فانظروا الى ايوان كسرى وسينية البحترى فى وصفه تجدوا الايوان قد خرت شعفاته وعفرت شرفاته وتجدوا سينية البحترى قد بقى بها اسم كسرى فى ديوانه أضعاف ما بقى شخصه فى ايوانه وانما نراوح بين الاوصاف الغاديه ونناوب بين السمات الساميه للاشارة الى من ينبه على مسماه وينوه بسيماه فامامن يقول الله لاسمه أنت من معقبات حمدى ويقول الدهر لذكره أنت الباقى من بعدى فانما يلزم الادب بوصف فضله العظيم ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم ويسر الله هذه الفتوح وأنزل بها الملائكة والروح فى أيام سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبى العباس أحمد ابن الامام المستضىء بالله أبى محمد الحسن ابن الامام المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن الامام المقتفى لامر الله أبى عبد الله محمد ابن الامام المستظهر بالله أبى العباس أحمد ابن الامام المقتدى بالله عبد الله ابن الذخيرة محمد بن الامام القائم بامر الله عبد الله ابن الامام القادر بالله أبى العباس أحمد ابن الامير اسحق ابن الامام المقتدر بالله أبى الفضل جعفر ابن الامام المعتضد بالله أبى العباس أحمد ابن الموفق بالله أبى أحمد طلحة ابن الامام المتوكل على الله أبى الفضل جعفر ابن الامام المعتصم بالله أبى اسحق محمد ابن الامام الرشيد بالله أبى جعفر هرون بن الامام المهدى بالله أبى عبد الله محمد ابن الامام المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين وهى الايام التى زواهر أيامها ذواه ومضاه

مضار بها للقضاء مضاءه فما أجلها فضلا وأفضلها جلالا وأقبلها جدا وأجدها اقبالا وأقربها ندى ونوالا وأبعدها مدى ومنالا وما أعلى سنى مجدها وأحلى جنى رفدها وأفعم رياض فضائلها وأفعم حيا حياض فواضلها وأسمح سماء سماحها أمطارا وأصح جناح نجاحها مطارا والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ناصر دعوته وداعي نصرته ووليه الطائع وسيفه القاطع والمحكم بأمره والمؤمن بحكمه فرأيت ابداء ميامن هذه الايام الغر على الآباد بغرر الآداب وقيدت شوارد معانيها وسيرت محامد معاليها بهذا الكتاب وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتوأم در السحاب ودر السخاب (وسميته الفتح القدسي) تنبيها على جلالة قدره وتنويها بدلالة فخره وعرضته على القاضي الاجل الفاضل وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل فقال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز والقدرة في البيان عن صياغته ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها وأنشأت رياضي بسحبها وما شهدت الا بما شاهدته وشهدته وما استمطرت الاعهاد العهد الذي عهدته وما عنيت الا بايراد ما عاينته ولا بنيت القاعدة الاعلى أس ما تبينته فبينته وما توخيت الا الصدق وما انتهيت الا الحق ولا ذكرت كلمة تسقط ولا اعتمدت الا ما يرضى الله ولا يسخط وبالله التوفيق والعصمه وله الحمد ومنه النعمه

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الى الاقطار والبلاد يستدعي من جميع الجهات جموع الجهاد وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد واستحضر الغزو من الحضر والبدو وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود واستحشاد الحشود واصحار الاسود واحضار البيض والسود مضيء العزماضي العزم صائب السهم ثاقب الفهم ثابت السعود كابت الحسود وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج اليد القصرى وأقام على ارتقاب اقتراب الحاج

وقد رتب الفرنج من الارصاد أفواجا على تلك الفجاج لا سيما برنس الكرك فانه كان حريصا على الدرك ناصبا شر الشرك نصب الشرك فلما شم ذلك الذئب رائحة الاسد عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد ووصل الحاج في أول صفر وقد قضوا حاجهم ورضوا منهاجهم وخرجوا عن فرضهم ودخلوا الى أرضهم وفرغ القلب من شغلهم وخف ما لزم من ثقلهم وانتظر السلطان وصول العسكر المصري المستدعى ورعى منه حصول المدد المسترعى فأبطأ عليه وروده واختلفت في الاسراع وعوده فأمر ولده الاكبر الملك الافضل نور الدين عليا ولم يزل مكانه عنده عليا أن يقيم على رأس الامراء برأس الماء وتجتمع العساكر الواصلة منه تحت اللواء وتقدم السلطان في أتباعه وأشياعه الى الكرك وضياعه فأقام عليها يرهق ويزهق ويخرب ويحرق ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتى ألحق الموجود بالمعدوم وأتى بالقطع على البساتين والكروم ورعى الزروع وعرى الضروع واستأصل الاصول والفروع حتى أقوت من الاقوات واستعرت الغلة بغلاء سعر الغلات وحلت آجال الارزاق وانحلت عرا الارماق واقفر بلد الشرك وامتلأ من الكرد والترك وسار الى الشوبك فأسار به شوبا وألحفه من عريه ثوبا وأخلاه من زرع ونبات وفرغه من أقوات وقوات وأذهب ضياء تلك الضياع وأزال بقاء تلك البقاع وجاس الخلال وداس الغلال وقشر الثرى وبشره وحشر الردى ونشره وسلب قرار القرى وسكون مسكونها وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها فقد عدم ليلها المصباح وصباحها الاصباح ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين وفرقه على أعمال القلعتين وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العظماء وعنده الجحافل الحافله والحواصل الواصله والعساكر الكاسره والقساور القاسره والبواتر الواتره والخضرم الضرم والعرمرم العرم واللهام الملتهم والجيش الجائش والترك الاكادش والجنود والبنود والاسود السود والفيالق الفوالق والبيارق البوارق وبنات الاغماد قد برزن من خدورها حب المعانقة العدى ظامئات

الى وردالوريد وما أحسن حلى تجييع الكفر على عرائس الهدى والعزم يستنهضه والعز يحرضه والدين يستبطيه والنصر يستعطيه والقدر يحركه والظفر يدركه والكفر قدمات من ذعره والاسلام قدمت بعذره وهو ينتظر أمرامن أبيه يأتيه بما يأتيه ويكتب اليه و يقتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه ولما استمر تأخر الامر استمر التأخير وقدم فى الاقدام التبكير والتكبير وانتهز الفرصه وأحرز الحصه وانتخى وانتخب الاجناد الانجاد وجرد الجرد واستجاد الجياد وسرى السرية السريه وأمرها بالغارة على الغرة باعمال طبريه ومظفر الدين ابن زين الدين على كوجك المقدم المقدام والهمام الهمام والاسد الاسد والارشد الاشد وعلى عسكر دمشق قايماز النجمى وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقى فسار وا مدجين وسر وا مدلجين وصبحوا صفوريه وساء صباح المنذرين فخرج اليهم الفرنج فى جمع شالك وجمر ذالك وقنطاريات طائرات وساريات سابغات وللداوى دوى وللاسبتارى هوى والبارونى يقدم على البوار والتركبولى يلقى نفسه على النار وقد ثاروا والثار قد وقد والجو قد عقد وقد انصدع زجاج الزجاج وارتجز عجاج العجاج وانفض الفضاء وانقض القضاء وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل ويحلون العقد ويعقدون ما انحل فثبت قايماز النجمى فى صدورهم وأشرع الاسنة الى نحورهم وروى اللهاذم من ثامورهم وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم ولا يكترث بكثرتهم ويستقلهم ولقيهم دلدرم بالوجه الابيض والعزم الانهض والجد الاجد والحد الاحد وانجلى الغبار وقد عم الفرنج القتل والاسار وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار وأفلت مقدم الداويه وله حصاص ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك محاص واختلفت رنة السراء انة الاسراء وكانت هذه النوبة بلا نبوه والهبة بلا هبوه وسكنت القلوب بهذه الحركه وركنت النفوس الى هذه البركه وسارت البشرى وسرت ودارت النعمى ودرت وعد ذلك من اقبال الملك الافضل وفضل الملك المقبل وحسنت السنة بالنصر وأحسنت الالسنة فى الشكر هذا والعساكر فى كل يوم يفدون ويفيدون وفيما يجدون الطريق اليه من النكاية فى العدو

يجدون ويجيدون وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك فأيقنت الآمال بالنجح والدرك وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا فغصت بسيول الخيل الوهاد والذرى واجتمع به ولده وقر عينا بشبل العرين أسده ومارأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر ولا أكرث للكفر ولا أكثر وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض وماشاهده الامن تلا (ولله جنود السموات والارض) فى ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها وبيارق كأنما حبتها أنف الرياض بزهرها ويوم كالليل عجاجا وليل كاليوم ابتلاجا ومناصل بالمنى صلت وقساطل بالقسى طلت وفيلق لهام اللهام يفلق وقلوب يمانية رقاق فى صدور الاغماد تقلق وطيور سهام من أوتار الحنايا الى أوكار المنايا تمرق وسوابغ مفاضه وسوابق مرتاضه وهضاب راسيات وهواضب ساريات ولما تم العرض حم الفرض وتعين الجهاد وتبين الاجتهاد واضطربت السهول والوعوث وانبعثت الهمم وهمت البعوث وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم وزخرة اليم الخضم وبروز التوحيد الى التثليث وانتهاض الطيب لادحاض الخبيث فخافوا وخابوا وهبوا وهابوا وعرفوا ان حزبهم مخذول وان غربهم مفلول وان حدهم مثلوم وأن جندهم مهزوم وانه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله وان الايمان كله برز الى الشرك كله وقد كان بينهم حينئذ خلف منبعث وحلف منتكث ووقوع نفار بين الانفار ووقود شرار بين الشرار ولما استدنوا حين حينهم سعوا فى اصلاح ذات بينهم ودخل الملك على القومص ليتقمص له بالود الاخلص ورمى عليه بنفسه واستبدل وحشته بأنسه فاصطحبا بعدما اصطلحا وأصحبا بعدما جمحا وتزاور الفرنج وتوازروا وتآمروا ما بينهم وتشاوروا وقالوا هذا دين متى دنا منه الوهاهوى وعود اذا عاده الاذى ذوى فالمسيح لنا والصليب معنا والمعمودية عمدتنا والنصرانية نصرتنا ورماحنا مراحنا وصفاحنا صفاحنا وفى لوائنا اللاواء ومع أودائنا الداوية الادواء وطوارقنا الطوارق وبيارقنا البوائق وسيف الاسبتار بتار ولقرن البارونى من مقارنته بوار ومعنا الدلاص والصلادوا اصعاب والصعاد وفى كل قنطارى قنطار

ولكل سارى من استنثنا مسبار وقد عم بحرنا الساحل وشدد نابه المعاقد والمعاقل وهذه الارض تسعنا نيفا وتسعين سنه وما تضيق بنا فى هذه السنه وازماحنا الى هذه الغايه من الاسواء أسوار هذه البقاع والامكنه وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسلموا الينا ويسالمونا ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا وطالما ناصفونا وما صافونا وهادونا وهادنونا وفى جمعنا تفريقهم وفى وقعتنا تعويقهم فقال القومص وكان محربا مجربا متدبرا متدربا هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه واقدامه على المخاوف وتورطه وان كسر كم مرة فلا يصح لكم الجبر وليس الا المراوغة والمغاورة والصبر والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه ولا نخالفه ونقبل شرائطه فقال له الملك أنت قد قلبتك الافه وفى قلبك المخافه وأنت للخور رخو وللخشية حشو وأنا لا بد أن أصدمه وأصده وأكدمه وأكده وأرادده حتى أرده وأقيم صليب الصلبوت فلا يقعد عنه من أهل الاحد احد وأمد يد الايد بجمعى فلا تمتد لاهل الجمعة يد فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان فى الباطن من مرض ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق وعدم أهل الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق اشتغلوا بالحشد والحشر والطى والنشر

《ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف》

لما هلك الملك أمارى بن فلك فى آخر سنة تسع وستين وخمسمائة خلف ولدا مجذوما وكان مع الوجود معدوما قد أعضل داؤه وأيس شفاؤه وسقطت أعضاؤه وطال بلاؤه فوضع الفرنج التاج على راسه وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه ونفخوا فى ضرمه وتسمنوا بورمه وصحوا بسقمه ورقوا فى سمه ورضوا بتقدمه وأكبروه وأركبوه وأقدموا به وقدموه وهم يكرثون بجذام ملكهم هذا ولا يكترثون بجذامه ويحمون حماه أن يحم حول حمامه وبقى بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا معارا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى فلما أحس بهلاكه وسكون حراكه أحضر البطرك والقسوس والمقدمين والرؤس وكان له ابن أخت صغير عن التطاول الى الملك قصير وقال لهم الملك فى هذا ولكن القومص يكفله مدة

سنى صغره وهو يستقل به بعد كبره فهو الآن لا يستبد ومن أمر القومص يستمد فقبل القومص الوصيه وجمع اليه الاطراف الدانيه والقصيه وسكن بطبريه فان صاحبتها كانت تزوجت به وطمعت فى قوته وقربه وهلك الملك المجذوم وظهر السر المكتوم وطمع القومص فى الملك استقلالا فعدم موافقة الداويه وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصيه فتكفل بالامر وهو مغلوب وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب ورغب فى مقاربة السلطان صلاح الدنيا والدين ليقوى بجانبه ويحظى من مواهبه فاشتد أزره واستد أمره واستقل بنفسه واستولى على جنسه حتى مات الملك الصغير فانتقل الملك منه الى أمه وبطل ما كان فى عزم القومص برغمه وانتقل الملك اليها واجتمع الفرنج عليها فقالت لهم زوجى أقدر وهو أحق بالملك وأجدر وأخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه وعاش رجاؤه بعد يأسه وراش غناه بعد افلاسه وانتاش ابليسه بعد ابلاسه وقامت قيامة القومص باجلاسه وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه فما أجاب دعوته ولا لباه واستنصر عليه بسلطاننا الملك الناصر وأقام بطبريه فى زى المتطاول المتقاصر وضم اليه من الافرنجيه من استرغبه بما استماحه من سلطاننا واستوهبه وحث العزم السلطانى على قصدهم ليرد اليه الملك ويجد له فى نظم أمره السلك فلما اجتمعت العساكر الاسلاميه وتألفت منها الجزريه والديار بكريه والمصريه والشاميه جاء الملك الى القومص بنفسه وفتح له ما وجده من وحشته وعدمه من أنسه وقال أصحاب القومص له ان لم تنصره فنحن ما نخذل الدين ولا نكون بايدينا مسلمين الى المسلمين وتمت بينهم ليوم المصاف المصافاه وزالت المنافرة والمنافاه

《ذكر دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر الى ديار الفرنج》

أصبح بالمخيم عارضا من العسكر لعارض ثجاج وبحر بالعجاج عجاج وخضم بالصواهل السوابح والمناصل والصفائح ذى أمواج وقد رتب أبطاله وأطلابه وسحب على وجه الارض سحابه ونقل به من الثرى الى الثريا ترابه وأطار الى النسر الواقع من الغبار غرابه وقد فض الفضاء ختام القتام وشدت للشدائد كتب الكبت على

جام الحمام وحنت ضلوع الحنايا على أجنة السهام وتكفلت العوجاء بالمعتدله
وضمت المنفلتة الى المنفتله ووفت الاوتار بالاوتار وثار كل طلب لطلب الثار
ووقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيبا ويبوبه تبويبا ويعبيه تعبيدا
وقريبا وقرر لكل أمير أمرا ولكل مقدام مقاما ولكل موفق موقفا ولكل كمين
مكانا ولكل قرن قرانا ولكل جمر مطفئا ولكل جمع مكفئا ولكل زند موريا
ولكل حد مميها ولكل قضية حكما ولكل حنية سهما ولكل عين مقضبا
ولكل عنان مقبضا ولكل ضامر مضمارا ولكل مغوار مغارا ولكل رام مرمى
ولكل نام منتمى ولكل سام مسمى ولكل اسم مسمى وعين لكل أمير موقفا
فى الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه ولا يغيب جمعه ولا يبرح أحد منه وأخرج
الجاليشية الكماة من كل طلب ووصى كل حزب بما يقربه من حزب وقال اذا دخلنا
بلد العدو فهذه هيأة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا ومواضع أطلابنا
ومطالع أبطالنا ومصارع أسنتنا وشوارع أعنتنا وميادين جردنا وبساتين
وردنا ومواقف صروفنا ومصارف وقوفنا ومرامى مرامنا ومجالى مجالنا وقوى
الآمال بما بذله من الاموال وحقق فى انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال
وجمع العدد وفرق العدد ووهب الجياد وأجاد المواهب ورغب فى العطايا
وأعطى الرغائب ونثر الخزائن ونثل الكنائن وأنفق الذخائر واستنفد كرائمها
والاخاير وقسم أحمال النشاب فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب
وأجرى الجرد وأجنى الاجناد وأذكى المذاكى وأشهد الاشهاد وأذال
مناقب المقانب واستمال معاطف المعاطب وقوى القواطع وروى الروائع
وعاد الى المخيم مسرورا محبورا مقبولا مبرورا موفورا مشكورا وقد رتب ورتب
وقنب وكتب وثبت ونبت قد برعمله وأبر آمله وفاح نشره ولاح بشره وتأرج
رياه وتبلج محياه وأيقن بالظفر وظفر باليقين وأمن الى الدعوة المستدعية
للتأمين وتيمن بأوضاح غرابه المبامين وايضاح اعرابه فى اقتضاء دين الدين
وأنس ببهجة الجيل ولهجة الخير وسر سره بما سرى له من وجه السير وشد حزم
الحزم وجد فى العزم الجزم وقدم الاسراج للاسراء وألجم العراب للعراء

ورحل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر والتوفيق مسايره والتأييد
موازره والتمكين مضافره والسعد مظاهره والجد مكاثره واليمن محاضره
والعزم مساهره والظفر مجاوره والاسلام شاكره والله عز وجل ناصره
وسار على الهيئة التى قدمنا ذكرها من المقانب المقنبه والكتائب المكتبه
والمراتب المرتبه والمذاهب المهذبه والسلاهب المجنبه والصوائب المجعبه
والقواضب المقربه والثعالب المذربه واللهاذم الهادمه والصلادم اللازمه
والضراغم الضاغمه وخيم على خسفين وقد أدنى الله الخسف بالعدو وخسوفه
وكسف الكفر وكسوفه وبات والوجوه سافره والعيون فى سبيل الله ساهره
والايدى لسيوف الأيد شاهره والالسن لأنعم الله شاكره والقلوب بالاخلاص
عامره والانفس للانس مسامره والاقدام بالاقدار متضافرة متظاهرة ثم أصبح
سائرا ونزل على الاردن بثغر الاقحوانه بعزم الصيال وعز الصيانه وأحاط
ببحيرة طبريه ببحره المحيط وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط وبرزت الارض فى
قشب أثوابها وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها ورست سفن المضارب على
تلك الاثباج وطمت الاطلاب أمواجا على أمواج وانعقدت سماء العجاج
وطلعت فيها أنجم الخرصان والزجاج وأعاد الاقحوانة رياضا نضره وحدائق
مزهره من فرس ورد وفارس كالاسد الورد ومشرفيات كطاقات الرياحين
ويزنيات كأشجار البساتين ورايات صفر تخفق بعذبات الياسمين وألوية حمر
كشقائق النعمان وموضونة زغف كالغدران ومصقولة بيض كالخلجان
ومريشة زرق كالاطيار ومحنية عوج كالافنان وبيض تلمع كثغور الاقحوان
وحبب ترائك على بحور الدارعين وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين
والسامعين والفرنج قد صفوا راياتهم بصفوريه ولووا الالويه ومدوا على
ممدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات وأوقدوا فى ظلام القتام الثائر
سرج السريجيات وصوبوا الى صوب قرا الاقران نبات اليزنيات وأحاطوا حول
مراكزهم بدوائرهم وحاطوا بواترهم بواترهم وجمعوا الاوشاب والاوباش

ورتبوا الجيش وثبتوا الجاش وحشدوا الفارس والراجل والرامح والنابل ونشروا ذوائب الذوابل وحشروا ابطال الباطل ورفعوا صليب الصلبوت فاجتمع اليه عباد الطاغوت وضلال الناسوت واللاهوت ونادوا فى نوادى أقاليم أهل الاقانيم وصلبوا الصليب الاعظم بالتعظيم وماعصاهم من له عصا وخرجوا عن العد والاحصا وكانوا عدد الحصى وصاروا فى زهاء خمسين ألفا أو يزيدون ويكيدون مايكيدون قد توافوا على صعيد ووافوا من قريب و بعيد وهم هنالك مقيمون لايرومون حركة ولا يريعون والسلطان صلاح الدين فى كل صباح يسير اليهم و يشرف عليهم و يراميهم و ينكى فيهم و يتعرض لهم ليتعرضوا له و يردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله فربضوا وما نبضوا وقعدوا وما نهضوا فلو برزوا لبرز اليهم القتل فى مضاجعهم وعاينوا مقام مصارعهم فى سوقهم الى مصارعهم وفزعوا مما فيه وقعوا وجبنوا عما له تشجعوا فرأى السلطان ان يطيب ريه من طبريه ويشرف على خطتها بالخطية والمشرفيه و يحوز حوزتها ويملك مملكتها بحرعلى الاردن أردان الردينيات وأطلع النقع المثار من البحر بحوافر الاعوجيات واستسهل عليها ولم يستوعر بيات العربيات فأمر عساكره وأمراء جيشه وأكابره أن يقيموا قبالة الفرنج و يضيقوا عليهم واسع النهج فان خرجوا للمصاف بادروا الى الانتقام منهم والانتصاف وان تحركوا الى بعض الجوانب وثبوا بهم وثب الاسود بالارانب وان قصدوا طبريه لصونها وان يكونوا فى عونها عجلوا الاعلام ليجل عليهم الاقدام

﴿ذكر فتح طبرية﴾

ونزل على طبريه فى خواصه وذوى استخلاصه وأحضر الجانداريه والنقابين والخراسانية والجارين وأطاف بسورها وشرع فى هدم معمورها وصدقها القتال وما صدف عنها النزال وكان ذلك يوم الخميس وهو يوم الخميس وأخذ النقابون النقب فى برج فهدوه وهدموه وتسلقوا فيه وتسلموه ودخل الليل وصباح الفتح مسفر وليل الويل على العدو معتكر وامتنعت القلعة بمن فيها من القومصية ست طبريه و بنيها ولما سمع القومص بفتح طبريه وأخذ بلاده

سقط فى يده وخرج عن جلده جلده وسمح للفرنج بسبده ولبده وقال لهم لاقعود بعد اليوم ولابد لنا من وقم القوم واذا أخذت طبريه أخذت البلاد وذهبت الطراف والتلاد ومابقى لى صبر ومابعد هذا الكسر لى جبر وكان الملك قد حالفه فما خالفه ووافقه فما نافقه وماحضه فما ماذقه ووادده فما راده وواعده فما عاوده ورحل بجمعه و بصره وسمعه وثعابينه وشياطينه وسراحينه وسراحينه واتباع غيه واشياع بغيه فمادت الارض بحركته وغامت السماء من غبرته ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا وعبوا وعبوا ودبوا حتى يذبوا وشبوا النار ولبوا الثار وقدموا للنزول بالدار البدار وذلك فى يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه بما سبق به حكمه وسرحين أحاط بسيرهم علمه وقال قد حصل المطلوب وكمل المخطوب وجاءنا مانريد ولنا بحمد الله الجد الجديد والحد الحديد والبأس الشديد والنصر العتيد واذا صحت كسرتهم وقتلت وأسرت أسرتهم فطبريه وجميع الساحل مادونها مانع ولا عن فتحها وازع واستخار الله وسار وعدم القرار وجاء يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون الى طبرية بقضهم وقضيضهم وكانهم على البقاع فى حضيضهم وقد ماجت خضارمهم وهاجت ضراغمهم وطارت قشاعمهم وثارت غماغمهم وسدت الآفاق غماغمهم وشاقت ضاربها جماجمهم وهم كالجبال السائره وكالبحار الزاخره أمواجها ملتطمة وأفواجها مزدحمه وفجاجها محتدمه واعلاجها مصطلمه وقد جوى الجو وضوى الضو ودوى الدو والفضاء منفض والقضاء منقض والثريا قد استزار الثرى وجر ذيل الخيل قد برى البرى والحوافر الحوافر للارض حوافر والفوارس اللوابس فى البيض سوافر وذئاب الذياد واجلاد الجلاد قد جملوا كل عده وكملوا كل عده فرتب السلطان فى مقابلتهم اطلابه وقصر على مقاتلتهم آرابه وحصل بعسكره قدامهم ورقب على الحملة اقدامهم وحجز بينهم و بين الماء ومنع ذماءهم على الذماء وحلأهم عن الورد وصدعهم بالصد ذاك واليوم قيظ وللقوم غيظ وقد وقدت الهاجره فوقدتها غير هاجره وشربت ما كان فى اداوتها

فهي على الظماء غير صابره وحجز الليل بين الفريقين وحجزت الخيل على الطريقين وبات الاسلام للكفر مقابلا والتوحيد للتثليث مقاتلا والهدى للضلال مراقبا والايمان للشرك محاربا وهيئت دركات النيران وهنئت درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان حتى اذا أسفر الصباح وسفر الصباح وبجر الفجر انهار النهار ونفر النفير غراب الغبار وانتبهت فى الجفون الصوارم والتهبت فى الضوامر الضوارم وتيقظت الاوتار وتغيظت النار وسل الغرار وسلب القرار خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ورنت القسي وغنت الاوتار ورقصت مران المراد لجلاء عرائس الجلاد وبرزت البيض من ملائها فى الملاءة عاريه ورتعت السمر لكنها من الكلى راعيه فرجا الفرنج فرجا وطلب طالبهم المحرج مخرجا فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فما برحوا وحملوا وهم ظماء ومالهم سوى ما بايديهم من ماء الفرند ماء فشوتهم نار السهام وأشوتهم وصممت عليهم قلوب القسى القاسية وأصمتهم وأعجزوا وأزعجوا وأحرجوا وأخرجوا وكلما حملوا ردوا وأردوا وكلما ساروا وشدوا أسروا وشدوا وما دبت منهم نمله ولا ذبت عنهم حمله واضطرموا واضطربوا والتهفوا والتهبوا وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ فآووا الى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار فأحاطت بحطين بوارق البوار ورشقتهم الظبا وفرشتهم على الربا ورشقتهم الحنايا وقشرتهم المنايا وقرشتهم البلايا ورقشتهم الرزايا وصاروا للردى درايا وللقضايا رمايا ولما أحس القومص بالكسره حسر عن ذراع الحسره واقتال من العزيمه واحتال فى الهزيمه وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر واحتداد الحرب واحتدام الحر فخرج بطلبه يطلب الخروج واعوج الى الوادى وما ودان يعوج ومضى كومض البرق ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق وافلت فى عدة معدوده ولم يلتفت الى ردة مردوده وغاب حالة حضور الوغى ونابه الرعب الذى نوى الهزيمه به وماوني ثم استحرت الحرب واستعر الطعن والضرب وأحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا اليهم ودارت دائرة الدوائر عليهم وشرعوا فى ضرب خيامهم وضم

نظامهم فخطوا على حطين مضاربهم وفلت حدود الرماة الكماة مضاربهم وأعجلوا عن نصب الخيم ورفعها وشغلوا من أصل الحياة وفرعها وترجلوا خيرا فترجلوا عن الخيل وتجلدوا وتجالدوا بجرفهم السيف جرف السيل وأحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها ولجؤا الى حزم الارض فبلغ حزامهم الطبيين من سهلها وأسر الشيطان وجنوده وملك الملك وكنوده وجلس السلطان لعرض أكابر الاسارى وهم يتهادون فى القيود تهادى السكارى فقدم بدائه مقدم الداويه ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاسبتاريه واحضر الملك كى وأخوه جفرى وأولك صاحب جبيل وهنفرى والابرنس ارناط صاحب الكرك وهو أول من وقع فى الشرك وكان السلطان نذر دمه وقال لاعجلن عند وجدانه عدمه فلما حضر بين يديه أجلسه الى جنب الملك والملك بجنبه وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له كم تحلف وتحنث وتعهد وتنكث وتبرم الميثاق وتنقض وتقبل على الوفاق ثم تعرض فقال الترجمان عنه انه يقول قد جرت بذلك عادة الملوك وما سلكت غير السنن المسلوك وكان الملك يلهث ظمئا ويميل من سكرة الرعب منتشيا فآنسه السلطان وحاوره وفثأ سورة الوجل الذى ساوره وسكن رعبه وأمن قلبه وأتى بماء مثلوج ازال لهثه وأزاح من العطش ما كرثه وناوله الابرنس ليخمد أيضا لهبه فأخذه من يده وشربه فقال السلطان للملك لم تأخذنى فى سقيه اذنا فلا يوجب ذلك له منى أمنا ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل اصلاهما ولم يزل الى ان ضرب سرادقه وركزت أعلامه وبيارقه وعادت عن الحومة الى الحمى فيالقه فلما دخل سرادقه استحضر الابرنس فقام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه وحين صرع أمر برأسه فقطع وجر برجله قدام الملك حين أخرج فارتاع وانزعج فعرف السلطان انه خامره الفزع وساوره الهلع وسامره الجزع فاستدعاه واستدناه وأمنه وطمنه ومكنه من قربه وسكنه وقال له ذالك رداءته أردته وغدرته كما تراه غادرته وقد هلك ببغيه وبغيه ونبا زند حياته وورد ها عن وريه ووريه وصحت هذه الكسره وتمت هذه النصره يوم السبت وضربت ذلة أهل السبت على أهل الاحد وكانوا اسودا فعادوا من النقد فما أفلت من تلك

الآلاف الآحاد وما نجا من أولئك الاعداء الا أعداد وامتلأ الملا بالاسرى والقتلى وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذى تجلى وقيدت الاسارى فى الحبال واجبة القلوب وفرشت القتلى فى الوهاد والجبال واجبة الجنوب وحطت حطين تلك الجيف عن متنها وطاب نشر النصر بنتنها وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلوابين فى الملتقى ملقاه بالعراء عراه ممزقة بالمازق مفصلة المفاصل مفرقة المرافق مفلقة المفارق محذوفة الرقاب مقصوفة الاصلاب مقطعة الهام موزعة الاقدام مجدوعة الآناف منزوعة الاطراف معضاة الاعضاء مجزأة الاجزاء مفقوءة العيون مبعوجة البطون مخضوبة الضفائر معضوبة المرائر مبرية البنان مفرية اللبان مقصومة الاضالع مفصومة الاشاجع مرضوضة الصدور مفضوضة النحور منصفة الاجساد مقصفة الاعضاد مقلصة الشفاه مخلصة الجباه قانية الذوائب دامية الترائب مشكوكة الاضلع مفكوكة الاذرع مكسورة العظام محسورة اللثام بائدة الوجوه بادية المكروه مبشورة الابشار معشورة الاعشار منشورة الشعور مقشورة الظهور مهدومة البنيان مهتومة الاسنان مهرقة الدماء مرهقة الدماء هاوية الذرى واهية العرى سائلة الاحداق مائلة الاعناق مفتوتة الافلاذ مبتوتة الافخاذ مشدوخة الهامات مسلوخة اللبات عديمة الارواح هشيمة الاشباح كالاحجار بين الاحجار عبرة لاولى الابصار وصارت تلك المعركة بالدماء دأماء وعادت الغبرة حمراء وجرت انهار الدم المنهر وسفر بتلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث وما ألهب عذابات العذاب فى تلك الجثث وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث وما اجرأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث هذا حساب من قتل فقد حصرت ألسنة الامم عن حصره وعده وأما من اسر فلم تكف اطناب الخيم لقيده وشده ولقد رأيت فى حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس وفى بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس وهنالك العتاة عناة والعداة عراة وذوو الاسرة أسرى واولوا الاثرة عثرى والقوامص قنائص والفوارس فرائس وغوالى الارواح

رخائص ووجوه الداوية الداوية عوابس والرؤس تحت الاخامص ومطالع الاجسام ذوات المقاطع والمخالص فكم أصيد صيد وقائد قيد وقيد ومشرك مكشر وكافر مفكر ومثلث منصف ومكيف مكتف وجارح مجروح وقارح مقروح ومالك مملوك وهاتك مهتوك ومتبر مبتور ومحسر محسور وكاب فى المكبول ومختال فى الغلول وحر فى الرق ومبطل فى يد المحق

• ((ذكر الصليب الاعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف))

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت وأهلك دونه أهل الطاغوت وهو الذى اذا نصب وأقيم ورفع سجد له كل نصرانى وركع وهم يزعمون انه من الخشبة التى يزعمون انه صلب عليها معبودهم فهو معبودهم ومسجودهم وقد غلفوه بالذهب الاحمر وكللوه بالدر والجوهر واعدوه ليوم الروع المشهود ولموسم عيدهم الموعود فاذا أخرجته القسوس وحملته الرؤس تبادروا اليه وانثالوا عليه ولا يسع لاحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه فى نفسه التصرف وآخذه أعظم عندهم من اسر الملك وهو أشد مصاب لهم فى ذلك المعترك فان الصليب السليب ماله عوض ولا لهم فى سواه غرض والتأله له عليهم مفترض فهو الههم وتعفر له جباههم وتسبح له أفواههم يتغاشون عند احضاره ويتعاشون لابصاره ويتلاشون لاظهاره ويتغاضون اذا شاهدوه ويتواجدون اذا وجدوه ويبذلون دونه المهج ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها ويخشعون لها فى بيوتهم ويشهدونها فلما أخذ هذا الصليب الاعظم عظم مصابهم ووهت اصلابهم وكان الجمع المكسور عظيما والموقف المنصور كريما فكانهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب فهلكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا ونزل السلطان على صحراء طبرية كالاسد المصحر والقمر المبدر

((ذكر فتح حصن طبرية))

وندب الى حصنها من تسلمه أمانا واسكنه بعد الكفر ايمانا وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته ونقلت اليه كل ما ملكته وحوته فأمنها على أصحابها وأموالها

وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها وسارت الى طرابلس بلدة وجها القومص عيالها وحالها وعادت طبريه آهلة آمنة باهل الايمان وعين لولايتها صارم الدين قايماز النجمي وهو من الاكابر الاعيان هذا والملك الناصر نازل ظاهر طبريه وقد طبب البريه وعسكره طبق البريه

﴿ذكر ما اعتمده فى الاسارى الداويه والاسبتاريه من ضرب رقابهم
واعطائه بشر الوجوه باعطائهم﴾

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشرى شهر ربيع الآخر بعد الفتح بيومين طلب الاسارى من الداويه والاسبتاريه وقال انا أطهر الارض من الجنسين النجسين وجعل لكل من يحضر منهما أسيرا خمسين فاحضر العسكر فى الحال مئين وأمر بضرب أعناقهم واختار قتلهم على استرقاقهم وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف وعدة من ذوى التعفف والتعيف فسأل كل واحد فى قتل واحد وسل سيفه وحسر عن ساعد والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس والعساكر صفوف والامراء فى السماطين وقوف فمنهم من فرى وبرى وشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر ومنهم من يضحك منه وينوب سواه عنه وشاهدت هناك الضحوك القتال ورأيت منه القوال الفعال فكم وعد انجزه وحمد احرزه وأجر استدامه بدم اجراه وبر أعنق اليه بعنق براه ونصل خضبه لنصر خطبه وأسل اعتقله لاسد عقله وداء داواه لداوى أدواه وقوة أهداها لهداة قواها ولواء نشره للاواء طواها وكفر أماته لاسلام احياه وشرك هدمه لتوحيد بناه وعزمة أمضاها لامة ارضاها وعدو قصمه لولى عصمه وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفرى وصاحب جبيل ومقدم الداويه وجميع أكابرهم المأسورين الى دمشق ليودعوا السجون وتستبدل حركاتهم السكون وتفرقت العساكر بما حوته أيديهم من السبى ايدى سبا وخمد جمر جمع الكفر وخبا

﴿ذكر فتح عكا﴾

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على أهل التثليث مديلا للطيب هزيلا للخبيث وسار عسكره وثار عثيره وظهرت راياته وبهرت آياته ونعرت كوساته

وصاحت بوقاته وجالت خيوله وسالت سيوله وطلعت فى سماء العجاج نجوم خرصانه وقلعت قلاع تلك الجبال جبال فرسانه وحفرت حوافر الصلادم اصلاب الصلاد الصلاب وفحصت باعراب الجماجم صواهل الجياد العراب والاسنة مشرعه والاعنة مسرعه وبحور السوابح متموجه وغدران السوابغ مترجرجه وبوارق البيارق متبوجه وأوضاح الجرد وغررها كاوضاح النصر وغرره متبلجه ونزل عشية بأرض لوبية لداعى الفتح ملبيا وللجيش المنصور معبيا ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا وبات بها معرسا بانيا على عروس الظفر البكر جانيا ثمار الامانى من غروس البيض والسمر وأصبح وقد أصحب جماح الدهر وصح جناح الامر وحص جناح الكفر واسفر فجر الفرج وسفر وجه البهج وسار سار اسره بارا بأرباب الدين بره زائرة أسوده طائرة بنوده ظاهرة جنوده زاهرة جدوده سامية اضواؤه هامية أنواؤه رائعة مواكبه رائقة مراكبه مجنبة عتاقه مذربة رقاقه وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها فى موكبه فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سير للفقير الى نصرته من يثرى به من يثربه وهذا الامير عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنى الحسينى قد وفد فى تلك السنة أوان عود الحاج وهو ذو شيبة تقد كالسراج وما برح مع الملك الناصر مأثور المآثر ميمون الصحبه مأمون المحبه مبارك الطلعه مشاركا فى الوقعه فما تم فتح فى تلك السنين الا بحضوره ولا أشرق مطلع من النصر الا بنوره فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسايرا ورأيت السلطان له مشاورا محاورا وانا أسير معهما وقد دنوت منهما ليسمعانى وأسمعهما ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى وكان عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها وقد توافرت عساكر الاسلام البها من وعرها وسهلها فلما قرب منها خيم وراء تلها وآذنت عروش معاشر الشرك بثلها وعقود معاقدى الكفر بحلها وأصبح يوم الخميس وركب فى خميسه ووقف كالاسد فى عريسه فخرج أهل البلد يطلبون الامان ويبذلون الاذعان فامنهم وخيرهم بين المقام والانتقال ووهب لهم عصمة الانفس والاموال وكانه

فى ظنهم انه يستبيح دماءهم ويسبي ذريتهم ونساءهم وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقله واغتنموا تلك المهله وفتح الباب للخاصه واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوى الخصاصه فان القوم ماصدقوا من الخوف المزعج والفرق المحرج كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون وعندهم انهم اذا نجوا بأنفسهم انهم يغنمون فترك معظمهم المدينه وعندهم انه ما كسب السكينه الامن ركب السفينه وذلك ان الجند لما دخلوها استولوا على الدور ونزلوها وركز كل منهم بيرقه على دار وقال صاحبها كيف يصح المقام مع الاسد فى غابة ولا مقام على زار وكان السلطان جعل للفقيه عيسى الهكارى كل ما يتعلق بالداويه من منازل وضياع ومواضع ورباع فأخذها بما فيها من غلال ومتاع ووهب عكاء لولده الملك الافضل فاجراها من نظره على الاحسن الاجمل ودخلناها يوم الجمعه مستهل جمادى الاولى فاقمنا بها الجمعه ووصلنا فريضتها المنقطعه وأعدنا الكنيسه العظمى مسجدا جامعا وعاد نور الهدى الخافى بالضلالة لامعا وحضر القاضى الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر وتبسم بيامنه للاسلام بعد الاظلام سنى الصبح المسفر وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبى النجيب السهروردى فانه تولى بها القضاء والخطابه وملأنا بعد الذئاب بالاساد السادة تلك الغابه وخلى سكان البلد دورهم ومخزونهم ومذخورهم وتركوها لمن أخذها ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذها واقتقر من الفرنج أغنياء واستغنى من أجنادنا فقراء ولو ذخرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر لكان عدة ليوم الشدائد وعمدة لنجح المقاصد فرتعت فى خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروح الاطماع وطال لمستحليها ومستحليها الامتاع بذلك المتاع وأقام السلطان بباب عكاء على التل مخيما وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمما ولملكتها متمما وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر وهو بمصر بما آتاه الله من النصر وقيضه له من اقتضاض الفتح البكر فوصلت البشرى بوصوله باشرا وللواء الحمد ناشرا ولاستفتاح ما فى طريقه من الحصون مباشرا وانه فتح حصن مجدل يابا

ومدينة يافا عنوه واغتنمها غزوه وتسلمها حظوه فقصده من عسا كرنا القصاد ووفد اليه من عندنا الوفاد فحباهم بالحباء من السبايا وآتاهم المرباع والصفايا وخصهم من الحاصل بالنقود وعدهم مما يحصل بالنسايا وشرع يستضيف حصنا فحصنا ويستفيض حسنى وحسنا ويستزيد بلدا ويستزير مددا ويستزيل من الكفر يدا ويستميل الى الهدى هدى والدين بسيف سيفه منصور والاسلام بنصر ناصره مسرور والملك العادل مالك بعدله سالك نهج النجح بفضله فائز العزيمه حائز الغنيمه ماضى الضريبه قاضى الكتيبه ميمون النقيبه مأمول الرغيبه

((ذكر فتح عدة من البلاد))

وأقام السلطان بمخيمه ظافرا بمغنمه ظاهرا بكرمه شاكرا عرام عزمه ملهبا ذمرام مخذمه مرويا أوام لهذمه وأمر أمراءه بقصد البلاد المجاوره وأمدهم بالضراغم المراوغة المغاوره

((فتح الناصرة وصفورية))

فسار مظفر الدين كوكبورى الى الناصرة فاستباح حماها واستبى دماها وحلها واستحلها وازالها وأزلها وخف اليها واستخفها واستشفها وشفها وشافهها بشفار البواتر فشفه منها موارد الذخائر واجتلى عرائسها واجتنى مغارسها وجمع نفائسها ونزع ملابسها واستدر طيبها واسترد سبيها واستقل منها بما استقل به من كل غانية عانية ورقيقة رقيقة ومصابة مصبيه ومسبية مصبيه ومجلوة مجلوبه وسالبة مسلوبه ودمية داميه وجارية لطيفة بالعنف جاريه وأسيرة من أسره وحاسرة عن حسره وثاكلة لواحدها وآكلة لساعدها وعاضة على يديها وفاضة ختم الدمع على خديها وناهدة متنهده وفريدة متفرده وناعمة شقيه وقينة نقيه وعذراء مفترعه وحسناء منتزعه ومختطفة مختطفه وقوية مستضعفه وعزيزة ذليله وصحيحة عليله وساجية عبرى وصاحية سكرى وغريرة غراء وظبية ظمياء وغضيضة غضه وفضة منفضه وخمارة مخموره وسجارة مسجوره ومخدرة مهتوكه وموقرة منهوكه

وجاؤا بالاسارى بين يديه مقرنين فى الاصفاد مقودين فى الاقياد مسوقين الى السوق والحديد منهم فى الاعناق والسوق وصفرت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر وكان بها من الذخائر مبلغ وافر

﴿فتح قيسارية﴾

وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الامراء الى قيسارية فافتتحوها بالسيف وسلطوا على الانفس والنفائس بها حا كمى الحتف والحيف وسبوا وحبوا وسلبوا وجلبوا وجالوا ونالوا ووقذوا وأخذوا واحتووا وارتووا وربطوا وضبطوا واستفادوا واستقادوا وفرسوا الفوارس وكنسوا الكنائس واستبوا الابكار العرائس والعون العوانس وتسلمت بعدها جبفا وارسوف واستولى على تلك الشموس والاقمار الكسوف والخسوف

﴿فتح نابلس﴾

وسار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس حاسما بحسامه داء الشرك مالئا بسهام الفتك جعاب الترك تاليا آى الفتح جاليا رأى النجح ووصل الى سبسطية فتسلمها وتعجل مغنمها ووجد مشهد زكريا عليه السلام قد اتخذه القسوس كنيسه وأعادوها بالصور والآلات النفيسة أنيسه فاستخرج المصونات والمصوغات واستوعب العدد والآلات وأعاده مشهدا ورده مسجدا ووضع فيه من بره بالاسلام منبرا وأصبح الدين به مثريا والكفر مقترا ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب وطرف جده غير كاب وحد بأسه طرير وناظر الدولة به قرير وكان من قبيل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون وأيقنوا انهم ان أقاموا لا يأمنون المنون فان المسلمين بها وباعمالها نهضوا اليهم فى مواطنهم فأجفلوا من مساكنهم وانتقلوا من أماكنهم وخلوا دورهم وأخلوها وتسلموا منها وسلوها وتحول الاقوياء الى قلعتها وتحصنوا بقلعتها ونازلها حسام الدين وحاصرها وطال عليه حصرها وصادرها ولم يزل عليها مقيما ولقتالها مديما الى أن وثقوا بأمانه وعلقوا باحسانه وسلموا وسلموا واستأمنوا وأمنوا وخلصت له نابلس وأعمالها وحليت به أحوالها ولكون

معظم أهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الا أن يكونوا لحصنهم مسلمين فانمحى بالسعود رسم النحوس ونزع عنها البوس البوس واستبشرت وجوه أهلها بعد العبوس وقام جاه الاذان وانكسر ناموس الناقوس

﴿فتح الفولة وغيرها﴾

وكانت الفولة أحسن قلعة وأحصنها وأملأها بالرجال والعدد وأشحنها وهى للداوية حصن حصين ومكان مكين وركن ركين ولهم بها منبع منيع ومربع مريع ومسند مشيد ومهاد مهيد وفيها مشتاهم ومصيفهم ومقراهم ومضيفهم ومربط خيولهم ومجر ذيولهم ومجرى سيولهم ومجمع اخوانهم ومشرع شيطانهم وموضع صلبانهم ومورد جنتهم وموقد جمرتهم فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم الى مصرعهم واتقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم فلما كسروا وأسروا وخسروا وتحسروا خلت طلول الفوله بجدود أهلها المفلوله ودماء داويتها المطلوله ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلوله ولم يبق بها الا رعايا رعاع وغلمان وأتباع واشياع شعاع فعدموا امكان حماية المكان ووجدوا أمنهم فى الاستئمان فسلموا الحصن بما فيه الى السلطان وكانت فيه أخاير الذخائر ونفائس الاعلاق فوثقوا بما أحكموه من الميثاق وخرجوا ناجين ودخلوا فى الذمام لاجين وللسلامة راجين وتسلم جميع ما كان فى تلك الناحية من البلاد مثل دبورية وجينين وزرعين والطور واللجون وبيسان والقيمون وجميع ما الطبرية وعكاء من الولايات والزيب ومعليا والبعنة واسكندرونة ومنوات

﴿فتح تبنين﴾

ولما خلصت تلك الممالك والاعمال وقلصت من الضلال تلك الظلال وصفت الممالك ووفت المدارك أوعز السلطان الى ابن أخيه الملك المظفر عمر بن شاهنشاه تقى الدين بقصد حصن تبنين وان يتوكل على الله فيه ويستعين فالقى عليه جران باسه ولقى بالتذليل حران ناسه وأخذ فى مضايقته بأنفاسه ولمح ما لمع من قبس قدحه فشغف باقتباسه وسنح له قنصه فاشرأب باقتناصه وافتراسه وكتب الى السلطان يبعثه على الوصول اليه بعسكره والنهوض نحوه بأبيضه

وأسمره فضرب الكوس وسمت النفوس وأثارت فى ظلام القتام من الترك والترائك الاقمار والشموس واشتعلت من شيب البيارق فى شعاع تلك البوارق الرؤس وتحرك السواد كمهل المنقا واشتبك على الآساد غيل القنا وسالت الاودية بالسابحات العتاق وطالت على السير أعناق الاعناق ومالت الى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر رقاب الرقاق وجرت الفجاج وجرب الزجاج وتموجت الافواج وتفوجت الامواج وتحركت غدران السوابغ من رياح السوابق وتدركت ضوامن الضوامر بالارداف فى ارداف الحق اللاحق وأسفر من بريق البيض والبيض فلق الفيالق وترنمت الصواهل وترنحت الذوابل وساح الساحل وراح الراحل ووصلنا الى تبنين فى ثلاث مراحل فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الاثافى وأوطأناهم بشفاه الشفار على حدود الاشافى ونزلنا عليها بالنوازل وبسطنا من المجانيق عليها أيدى الغوائل فتبلدوا من الرعب وتجلدوا على الحرب ثم خاروا وحاروا وجأروا وجاروا ورغبوا ورهبوا وصحوا من سكر الجماح واصحبوا وعجزوا فجزعوا وفزهم الحصر وفزعوا وشكوا الندوب وندبوا فدانوا ودنوا وأذعنوا اذعنوا واعتذروا واسماجنوا وراسلوا السلطان وسألوا الامان واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فامهلوا وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا واقلع من بالقلعة عن الجهله وتعلق لبت العلق بالمهله وتقربوا باطلاق الاسارى المسلمين وترقبوا انقضاء المهلة لسلامة المسلمين فخرج المأسورون مسرورين وأصبح الصحب المكسورون مجبورين محبوبين بالفرج بعد الشدة محبورين وسرهم السلطان وسرهم وأقرهم وقربهم وكساهم وحباهم وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غناهم وهذا دأبه فى كل بلد يفتحه وملك يربحه انه يبدأ بالاسارى فيفك قيودها ويعيد بعد عدمها وجودها ويحيى بعد اليأس آمالها ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الاسر آجالها فخلص تلك السنة من الاسرا أكثر من عشرين ألف أسير للقيود الف ووقع فى أسرنا من الكفار مائة ألف ولما خلوا القلعه واخلوا البقعه سيرهم ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم الى صور ورتب فى الموضع مملوكه سنقر الدووى فأرشد به ذلك الصقع

الغوى فان أعمال جبل عاملة مجبولة على الشر وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا لاهل الكفر فوصى سنقر بتأنيس النافر وتعكيس الكافر وتأليف الجافل وتعريف الجاهل وقال له تبنى بتبنين ما هدم بالمنجنيق وتجدد لسورها وخندقها كل ما يمكن من التوثيق والتعميق ورحل ومعه رفيق التوفيق وكان النزول على تبنين يوم الاحد حادى عشر جمادى الاولى وتسلمها يوم الاحد الثامن عشر منه

((فتح صيداء))

يوم الاربعاء الحادى والعشرين من جمادى الاولى يوم النزول عليها

وسنحت له صيداء فتصدى لصيدها وكانت همته فى قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها وسرنا وسرنا امر تاح ونصرنا متاح والجد جديد والمزاح مزاح والعزم جزم والحكم حتم ونفحات الفتوح لمناشق أهل الهدى تفوح ولفحات الردى لاعين العدى تلوح ونص النصر قد تنزل وقصد الصدق قد تعدل وفكر الكفر قد توزع وشرك الشرك قد تقطع وتقلع وظل الظفر ضاف وسر السرور غير خاف والقدر عون والمعين قادر والنظر سعيد والسعد ناظر وأوجهنا وأوجه البشائر باشره ونيوب النوائب فى أوجه المشركين كاشره والالسن لحديث الفتح الحديث ناشره وقد جفت أجفانها البواتر الواتره وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافره واتصلت للمالك من الملائك أمداد النصرة المتوالية المتواتره ووصلنا فى يومين الى صيداء الى منهل فتحها صادين وعن حمى الحق دونها لاهل الباطل صادين ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ما توعر وصفا من الامر ما ظن انه تكدر فصرفنا الاعنة الى صرفند وأمعنا فى مسارحها الجند وهى مدينة لطيفة على الساحل موروده المناهل ذات بساتين وأزهار ورياحين وأشجار النارنج والاترنج تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج فجسنا خلالها وكل قلب مشغول خلالها ورافقنا وشاقتنا تلك الحالة والحليه وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القريه ولم نعرج عليها حتى خيمنا على صيداء وقد حصلنا على صيدها وخلصنا من كيدها وانطلقت هممنا من قيدها فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها واذهبنا طماتها

من العزائم الغر بعصا بيحها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها وجلت غياهب تلك المذاهب بنورها وفتحت أبوابها وأنجحت آرابها وعز مسلموها وذل مشركوها وسكن ساكنوها وهلك أهلوها وعادت معالمها مأهوله بعد ان كانت مقفرة مجهوله وصدح منبرها وصدق مفخرها وربح متجرها ووضح منظرها وأقيمت بها الجمعة والجماعه واستدعيت بها بعد العصيان لله الطاعه

(فتح بيروت)

وكان النزول عليها يوم الخميس ثانى عشرى جمادى الاولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين وجمع لهما التحصين والتحسين قال لعصمة الله شيذى ما بصيداء وتبنين تبنين والحفهما رداء الحمايه فما يضيع ما تحفظين ولا يطرق ما تحمين ثم صرف عنانه وارهف سنانه ورحل على سمت بيروت مالئا بعسكره الآكام والمروت وسار على الساحل بتلك الجحافل يجر على البحر ما يخ ويجر بحر الى الهياج هائج وتقدم من عقد الجدرائج وعزم على صدق القصد عائج ووصل اليها ونزل عليها وبنيت القباب وطفا على خضم المعسكر من الخيم الحباب وزحف الى الاعداء الاحباب وضويق البلد وفورق الجلد وأحاط الرجال بارجائه ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال فى سمائه وانقضت نجوم السهام من ابراجه وتلاطم عباب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه وترجل دونه الناس وتجل نحوه الباس واصطفت التراس واشتد المراس واحتد القتال واحتدم النزال وامتد المصاع والمصال واتصل خروج الجروح للجروح ودام احتراق الروح على اقتراح القروح ومدت الجفاتى كأنها أعناق البخاتى وأتى العانى وعنا الآتى وأجد النصر المواتى المواتى ودارت كؤس المنايا للارواح بخذى وهاتى وطارت القوارير وثارت المساعير واشتعل النفط واشتعل الرهط والتهم الزراق والتهب الحراق وحرق الشهم الكمى هروف السهم من الرمى وأتى الوادى فطم على القرى ودب

الدبابة بليوث الرجال وصبت لصبابة غيوث النبال وارتجزت رواعد الابطال وانتجزت مواعد الآجال وجالت فى الضمائر ضوامر الاوجال وهالت بالنوازل نوازى الاهوال ورعدت بوارق البوار واسعدت الاقدار بالاقدار وشغلت الرقاب قواضى القواضب وحملت العدد النواكب على المناكب وخفت للاثقال اكتاف القتال وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الاشراك ودام القتال أياما يتضاعف اصطلاء واصطلاما ويتظاهر اضطرابا واضطراما وبنات الحنايا هاتجه وأمات المنايا ناتجه ورجمت بشهب النفاطات شياطين الداوية المرده وتعادت الاسود العادية على أولئك القرده حتى خرق الخندق وطرق وعلق النقاب بالسور فنقب وعلق وكاد النقب يتسع والبرج يقع والجدار ينقض والحجار بالحجار تنفض وترفض وسوار السور ينكسر وقناع لنقع لا ينحسر وخرج من البلد رجال الى الموت عجال وقفوا دون الباشورة مباشرين ولمعاشر أصحابنا بمعاطاة كؤس المنون معاشرين فتلاقوا بسلام السلام وكلام الكلام وتصافحوا بالصفائح وتجار وا بالجرائح وتواصلوا بالقواطع وتعانقوا بالمقامع وتصارعوا على المصارع وتجالدوا وتجالدوا وتواقعوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا والبيض بقد والبيض تقد والباسل يرد والباس يرد والصقيل الصادى يصدأ بالدم ويروى وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام يقوى ثم انحصروا فى البلد وانحشروا على اللدد وضافهم الرعب وضاق بهم الرحب وذلوا وخاروا وضلوا وحاروا ولما خام المقاتله وخذلوا ظن أهل بيروت ان المسلمين دخلوا فاجفلوا الى البحر اذ عدموا اسكينتهم ليركبوا سفينتهم ويخلوا مدينتهم فخرج أحد المقدمين يستدعى الامان ويستعدى الايمان ويطلب مثالا يعصمهم وذماما يحرمهم وعهدا يسلمون به ويسلمهم وعقدا فى عقد الامن ينظمهم وكنت يومئذ فى مرض قد ازعجنى واعجزنى ومضض اخفانى ولعيون العواد ابرزنى وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان فطلب السلطان كل كاتب فى ديوانه

وكل من عملك قلما من أفاضل الملك وأعيانه فلم يرضه ما كتبوه ولم يكفه ما رتبوه فجاءني في تلك الحالة من استملاه مني ومرضت اذهان الاصحاء ولم يمرض ذهني فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطي وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزبره وأنسوا سوى ما أذكره واحبره وألفوا الصحة فيه فالفوه والقوا السقم في غيره فأنفوه فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق بل كله توفيق من الله توثيق فما فتح فتح الا بمفتاحه ولا رتق فتق الا باصلاحه ولا جلي ظلام الا باصباحه ولا ورى زند الا باقتداحه وكانت يومئذ جمرة الحرم توهجه ووقدة القيظ متأججه وضرم مرضي ملتهبا وروح روحي منتهبا وبقيت مضطرا مضطربا ولقيت من ذلك الوصب نصبا وحصلت من الاقامة أو السفر على الخطر أو الحذر وتعذر المقام لعذر السقام واشتغلت عن آلاء شغلي بالآلام وحملني اختلالي بنصبي على اخلالي بمنصبي وعزت على مفارقة السلطان وهو باعزازي على مواصلة الاحسان فضيت على مضض وانصرفت بغصة ومرض وحملت الى دمشق في محفه وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد الثقل بخفه فتفضل الله بالشفاء وبدل الكدر بالصفاء وعدت الى السلطان يوم فتح القدس وانتهت الوحشة الى الانس وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الاولى مطاع الامر مشاع النصر مذاع السر في تضوع النشر وتوضح البشر مستفيض السياده مستضيف الزياده ناجح الاراده راجح العباده رابح المتجر واضح المفخر قد شب غرب الهدى وجب غارب العدى واستجدى من من الله منحا واستجد باستفتاحه فتحا واستفاد ملكا واستزاد ملكا وبر ببيروت اذ برت وانبرى لبرى قوسها فأبرت وقرر مصالحها ومناجحها فاستقرت وحفلت له أخلاف الفتوحات فدرت واستمرى صوب الصواب من عزائمه وصرائمه فاستمرت

﴿فتح جبيل﴾

يوم الثلاثاء سابع عشري جمادى الاولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق الى الكافي

الناهض يتضمن ان أولك صاحب جبيل أسراليه في أسره واستشاره في أمره وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل سلمت وسلمت وأبحتها الحكم وتحرمت وأخرجتها من عصمتي وخرجت واعتصمت فأنا أطلقها ان أطلقت وأزيلها من وثاقي اذا وثقت فأجيب باحترازه من كيده واحضاره في قيده فأحضر في صفده وسمح ببلده فخلص ناجيا وملص راجيا وملكت مدينة جبيل وجرت عليها الفتوح الذيل ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون ولاعداء الله مصابرون مكابرون وكان معظم أهل صيداء وبيروت وجبيل مسلمين مساكين لساكنة الفرنج مستسلمين فذاقوا العزة بعد الذله وفاقوا الكثرة بعد القله وصدقت البشائر وصدحت المنابر وترنمت المحاريب وترنحت المطاريب وتليت الآيات وجليت الغيابات وخربت الكنائس وعمرت المدارس وظهر عيب البيع وشهر جمع الجمع وقرئ القرآن واستشاط الشيطان ونطقت الاعواد وحقت الاعياد وخرست النواقيس وبطلت النواميس ورفع المسلمون رؤسهم وعرفوا نفوسهم وانتعشوا من شكاة عثارهم وانتقشوا من شوكة عارهم وقروا في ديارهم وقروا أبصارا بأنصارهم وكان كل من استأمن من الكفار يمضي الى صور محمي الذمار وصارت صور عش غشهم ووكر مكرهم وملجأ طريدهم وملتجأ شريدهم ومأمن خاشيهم ومكمن غاشيهم وهي التي فر القومص اليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم

﴿ذكر هلاك القومص ودخول المركيس الى صور﴾

ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها وآوى الى طرابلس وثواها فامتنع بما ملك وكان مما قيل

راح يبغي نجوة من هلاك فهلك

فما أنجاه الفرار من القضاء وفر من البلاء الى بلاده فوقع في البلاء وظن ان صور خلت وان مجانيها حلت وان جماحها أذعن وان كفاحها أمكن وان فرصتها انتهزت وانه حصتها أحرزت وان قيادها أطاع وان مرتاها استطاع لكنها تعوضت عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بابليس فادرك

ذماء الكفر بعدما أشفى وأيقظ روع الروع بعدما أغفى وضبط صور بمن فيها من مهزومى الفرنج وعنفيها وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغوى شياطينه وأضرى سراحينه وأخبث ذئابه وأنجس كلابه وأمش صلاله وأخش ضلاله وأعوى اعوانه وأخون اخوانه وأبغى بغاته وأجفى جفاته وأرعى جناته وأحمى رعاته وشر شراره وأنكر نكاره وأفجر فجاره وأروغ ثعالبه وألسب عقاربه وأحنث معاهديه وأنكث معاقديه وهو الطاغية الداهيه الذى خلقت له ولأمثاله الهاويه ولم يكن وصل الى بلاد الساحل قبل هذا العام ولا خلف مقدمى الكفر غيره فى الاقدام على خلاف الاسلام واتفق وصوله الى مينا عكا وهو بفتحها جاهل وعمن فيها من المسلمين ذاهل فعزم على ارساء الشينى بالمينا ثم تعجب وقال مانرى أحدا من أهلها يلتقينا ورأى زى الناس غير الزى الذى يعرفه فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه وبان تندمه وتأخر تقدمه وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر فى النجاة وكيف يتعلق بأسبابها ثم وقف بالقرب فلبث على الرعب والهواء راكد والقضاء عنه راقد فانه لو خرج اليه مركب لاخذه ولو وقف له قاصد لوقذه فاحتال كيف يخرج بسفينته ولا يدخل مع فقد سكينته وانتظر هبوب الريح الموافقه له فلم تهب وما تم له الافلات على ما أحب فسأل عن البلد ومن اليه أمره ومن بيده نفعه وضره فقيل هو الملك الافضل والمالك الاكمل فقال خذوا لى منه أمانا حتى أدخل وأرفع اليكم ما معى من المتاع وأنقل فجىء اليه بالامان وقيل هذا بعلامة السلطان فقال ما أثق الا بخط يده ولا أنزل الا بعهده الى بلده فما زال يردد الرسل ويدبر الحيل حتى وافقته الريح فاقلع وأفلت من الشرك بعدما وقع وصار فى صور فرزم الامور وأجم الجمهور وجرأ الكفر بعد خوره وبصر الشيطان بعد عماه وعوره فاستعلى بالخزى واستولى بالغى والبغى وأرسل رسله الى الجزائر وذوى الجرائر يستعدى ويستدعى ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعى ويستثير ويستنزر ويستنفر ويستنصر وثبت فى صور وثبت وجمع اليه من الفرنج من تشتت وما فتح بلد بالامان الا سار أهله فى حفظ السلطان

حتى يصير وافى صور ويأمنوا المحذور فاجتمع اليها أهل البلاد المفتوحه بقلوبه المقفلة المغلقه المقروحه فامتلأت وكانت خاليه وانتشات وكانت باليه وتعلت وكانت معتله وتعقدت وكانت منحله وتسددت وكانت مختله ولم يحتفل بها فأخر فتحها وما ظن بها الضن حتى علم شحها فاستجدت رمقا بالمهله وتصعبت بعد مقادتها السهله فقضى اهمالها باهمالها وعادت عيونها الى الاغفاء باغفالها وألهى عن طلبها طلب ما هو أشرف والعزم بفتحه أشغف وهو البيت المقدس فان فتحه من كل فتح أنفس والمركيس فى أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه ويجمع المفرق وينظمه ويسند كرما تجدد منه فى أوقاته وما فات من فرصة الامكان فى دفع آفاته

﴿ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعاقل التى يأتى ذكرها﴾

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه يجر ويجرى من العسكر والعثير على السماء والارض الذيل والسيل وعاد عابرا على صيدا وصرفند وقد أورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها غير مكترث بامرها ولا متحدث فى حصرها ولا معتقد فى نعقدها ولا متئد فى توردها وعلم أيضا انها ممتنعه وعن سوم مهاجم ترفعه فعمل بالحزم وعمد الى العزم ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب ومزاولتها تتعب وليس بالساحل بلد منها أحصن فعطف الاعنة الى ما هو منها أهون وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداويه وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبليه متى تمكن باعانتهما من البلاد البقيه وعبر والعيون صورات صور والمركيس ماشك انه بها محصور محصور فلم أرخى من وثاقه واتسع ضيق خناقه حاق فى مطار أوطاره وحرك لغوانه أوتارا أوتاره واجتمع السلطان باخيه الملك العادل واتفقا على طى المراحل ونشر القساطل وحل معاقد المعاقل وسل قواصم القواصل ونزل على عسقلان وشد يدها قدلان وقد آتاها الله الخذلان فتجلد من بها على الحصار وتحوفت أسودها الخادرة من الانجحار وتربصوا وتصبروا وتترسوا وتستروا وحاصوا

وصاحوا وحانوا وناحوا وأبلسوا وأبلوا وأعولوا مما عليه عولوا وشبوا وشابوا وخبوا وخابوا لكنهم استقبلوا الموت واستقتلوا وتعقدوا على القتح وما تحللوا وأحزنوا فى الاباء وما أسهلوا وجهدوا وجهلوا فاقام السلطان عليهم المجانيق مجت نيقها وفرجت بالحجارة طريقها ورجت بالتفريق فريقها ووسعت بالتضييق ضيقها وأضعفت بالتوثيق وثوقها وجمعت شمل الحجارة بالنار التى وقودها الناس والحجاره ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد الشرارة الشراره وخربت منهم العماره ووجبت بالجسارة منالهم الخساره وتهدمت الصخور بالصخور ولزم عبث بورهم بالثبور وجسر النقاب فحسر النقاب وباشر الباشورة فرفع الحجاب واشتد القتال واحتد المصال وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال قد بان عذركم حين نقب السور وجرت حالات وتكررت حوالات وترددت رسالات وقال لهم الملك الاسير لا تخالفوا ما به أشير وأطيعونى ما استطعتم واسمعوا منى اذا سمعتم واحفظوا رأسى فهو رأس مالكم وحليه حالكم ولا تخطروا غيرى ببالكم فانى اذا تخلصت خلصت واذا استنقذت استنقذت وخرج مقدمون وشاوروا الملك ونهجوا فى التسليم نهج السالك وسلموا عسقلان على خروجهم باموالهم سالمين واستوفوا بذلك الميثاق واليمين وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة وتلالأت السعود فى أوجها بالاوجه السافره وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبراء ابراهيم بن حسين المهرانى وهو أول أمير افتتح بالشهاده واختتم بالسعاده وكان السلطان قد أخذ فى طريقه اليها الرملة ويبنى وبيت لحم والخليل وأقام بها حتى تسلم حصون الداويه غزة والنطرون وبيت جبريل وكان قد استصحب معه مقدم الداويه وشرط معه انه متى سلم معاقلهم أطلقه فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر الملك العزيز عثمان على عسقلان بشارة وبشاره ورايه وآيه وهيئه وهيبه وثرة وثروه وهزة وعزه وعدة وعده وجدة وجده وشد وشده وحد وحده وضوعه وروعه ونخوه وسطوه وصوت وصيت ومصاعب ومصالبت ومساعير ومغاوير ودهم ودهم وشهب وكمت وصلاب وصلاد

وانجاب وانجاد وجاب وجلب وبيض ويلب وبيض وسود وأساود وأسود وجرد ومرد وكهول وفحول ورقاق وعتاق وقود وقيدود واطلاب وابطال وفوارس ورجال وخفاف وثقال وعراب وأعاريب وسراحين وسراحيب وحد لا يكل وجد لا يمل وجمع لا يلتقى ومعه رماة الاحداق كماة الاتراك وهداة التوحيد عداة الاشراك فقرت عينه بولده واعتضد بعضده ووضع يده بتأييد الله فى يده وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر بالفلك المواخر وجاءت كانها أمواج تلاطم أمواجا وأفواج تزاحم أفواجا تدب على البحر عقاربها وتخب كقطع الليل سحائبها وتجر بالذوابل ذوائبها وتزاحم مناكب الاطواد مناكبها والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها وضرغام غابها وهمامها فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ويقف له فى جزائر البحر على مذاهبه وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ويظهر فى وقائعه حسن موقعه

(فتح بيت الله المقدس)

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا وبالعزم غالبا وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا قد أصحب ريض مناه وأخصب روض غناه وأصبح رائع الرجاء أرج الارجاء سيب العرف طيب العرف ظاهر اليد قاهر الايد سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء وملأ الملا فأفاض الآلاء وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق فالارض شاكية من اجحاف الجحافل والسماء حاظية باقساط القساطل وسار سارا بالاحوال الحوالى مروية أحاديث فتوحه العوالى من العوالى مطوية مدارج مناججه على ما نشره الآمال من الامالى وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعة المجانى والمجالى والاسلام يخطب من القدس عروسا ويبذل لها فى المهر نفوسا ويحمل لها نعمى ليحمل عنها بوسا ويهدى بشرا ليذهب عبوسا ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على أعدائها واجابة دعائها وتلبية ندائها واطلاع زهر المصابيح فى سمائها واعادة الايمان الغريب منها الى وطنه ورده

الى سكونه وسكنه واقصاء الذين أقصاهم الله بلعنته من الاقصى وجذب قياد فتحه الذى استعصى واسكات الناقوس منه بانطاق الاذان وكف كف الكفر عنه بايمان الايمان وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس وادناس أدنى الناس وارغام الافهام باخراس الاجراس وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت وخفقت أفئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت وغمت الفرنج لما شاعت الاخبار انها ما عاشت وكان به من مقدمى الافرنج باليان بن بارزان والبطرك الاعظم ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم فاشتغل بال باليان واشتعل بالنيران وخمدت نار بطر البطرك وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك وقاموا بالتدبير فى مقام الادبار وتقسمت أفكار الكفار وأيس الفرنج من الفرج وأجمعوا على بذل المهج

﴿ذكر كنيسة قمامة﴾

وقالوا ههنا نطرح الرؤس ونسبك النفوس ونسفك الدماء ونهلك الدهماء ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح فهذه قمامتنا فيها مقامتنا ومنها تقوم قيامتنا وتصح هامتنا وتصح ندامتنا وتسح علامتنا وتسح غمامتنا وبها غرامتنا وعليها غرامتنا وبا كرامها كرامتنا وبسلامتها سلامتنا وباستقامتها استقامتنا وفى استدامتها استدامتنا وان تخلينا عنها لزمت لآمتنا ووجبت ملامتنا ففيها المصلب والمطلب والمذبح والمقرب والمجمع والمعبد والمهبط والمصعد والمرقى والمرقب والمشرب والملعب والمموه والمذهب والمطلع والمقطع والمربى والمربع والمرخم والمخرم والمحلل والمحرم والصور والاشكال والانظار والامثال والآساد والاشبال والاشباه والاشباح والاعمدة والالواح والاجسام والارواح وفيها صور الحواريين فى حوارهم والاحبار فى أخبارهم والرهابين فى صوامعهم والاقساء فى مجامعهم والسحرة وحبالها والكهنة وخيالها ومثال السيدة والسيد والهيكل والمولد والمائدة والحوت والمنعوت والمنحوت والتلميذ والمعلم والمهد والصبى المتكلم وصورة الكبش والحمار والجنة والنار والنواقيس

والنواميس قالوا وفيها صلب المسيح وقرب الذبيح وتجسد اللاهوت وتأله الناسوت واستقام التركيب وقام الصليب ونزل النور وزل الديجور وازدوجت الطبيعة بالاقنوم وامتزج الموجود بالمعدوم وعمدت معمودية المعبود وتمخضت البتول بالمولود وأضافوا الى متعبدهم من هذه الضلالات ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات وقالوا دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا نفوت وعنها ندافع وعليها نقارع ومالنا لا نقاتل وكيف لا ننازع ولا ننازل ولاى معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا وتأهبوا وتباهوا وما انتهوا بل تناهوا ونصبوا المجانيق أمام الاسواء على الاسوار وستروا بظلمات الستائر وجوه الانوار واستشاطت شياطينهم وسرحت سراحينهم وطغت طواغيتهم وأصلتت مصاليتهم ونشرت طواميرهم وتسعرت مساعيرهم وهاج هائجهم وماج مائجهم ودعت دواعيهم وعدت عواديهم وسعت أفاعيهم وحضتهم قسوسهم وحرضتهم رؤسهم وحركتهم نفوسهم وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم وأخبرتهم باقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود منشورة البنود موصولة القواطع بالاشاجع مهجورة الغمود مشهورة القواضب مشهودة الكتائب مقودة الضوامر الى ثار العدى موقدة الضمائر بنار الهدى مشبوبة العزائم مجنوبة الصلادم مسلولة الظبا مطاولة الربا مجنونة أجنة اعمادها مسنونة أسنة صعادها مطلقة أعنة جيادها محققة مظنة طرادها قد سالت الوهاد بآكامها وجالت الاعلام فى أعلامها وسدت الفجاج أفواجها ومدت العجاج أمواجها وحجبت الغزالة عقبانها والهبت الذبالة خرصانها وجرت بالجبال رياحها وجرت كالحبال رماحها واشتمل على الضراغم غيلها وأقبل بالعظائم قبيلها ووافى كل واف يهدر به كاف لكف خطبه شاف لهم قلبه ضاف بفيض شربه خاف فى لبوسه ناف لبوسه باسل بباسه عاسل بامراسه ناسل بنت الغمد من جفنه غاسل نبت الحد بدم قرنه واصل بيض الهند بسواعده فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده جاد بجده وكل شاب لنار الحرب شاب ورب دين لدين الرب

راب وكل جيش كالبحر عباب وكل سال ذي ذباب عن الهدى ذاب وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال مائل في سبيل الله الى انفاق مال وأقبل السلطان باقبال سلطانه وابطال شجعانه واقيال أولاده واخوانه وأشبال مماليكه وغلمانه وكرام امرائه وعظام أوليائه في مقانب بالمناقب مقنبه وكتائب بالمواكب مكتبه وذوابل بالكواكب منصله وجحافل بعضاء المضارب محفله وألوية صفر للاواء بني الاصفر وبيض وسمر تزق زرق العدى من الموت الاحمر وقباب وقبائل وقنا وقنابل وصوافن وصواهل وعوامل وعواسل وفوارس فوارس وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه الادنى وفريقه الاسنى ويذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى

((وصف البيت المقدس))

وقال ان أسعدنا من الله على اخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا وأي يدله عندنا اذا أيدنا فانه مكث في يد الكفر احدى وتسعين سنه لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه ودامت همم الملوك دونه متوسنه وخلت القرون عنه متخليه وحلت الفرنج به متوليه فما ادخر الله فضيلة فتحه الا لآل أيوب ليجمع لهم بالقبول القلوب وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله به على الاعصار ولتفتخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الاقوى والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى وهو مقام الانبياء وموقف الاولياء ومعبد الانقياء ومزار ابدال الارض وملائكة السماء ومنه المحشر والمنشر ويتوافد اليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج ومنها منهاج المعراج ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق ومن أبوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود وفيه كرسي سليمان ومحراب داود وله عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود وهو أول القبلتين وثاني البيتين

وثالث الحرمين وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال ويعقد الرجاء بها الرجال ولعل الله يعيده بنا الى أحسن صوره كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سوره وقال عز من قائل سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وله فضائل ومناقب لا تحصى واليه ومنه كان الاسراء ولارضه فتحت السماء وعنه تؤثر أنباء الانبياء وآلاء الاولياء ومشاهد الشهداء وكرامات الكرماء وعلامات العلماء وفيه مبارك المبار ومسارح المسار وصخرته الطولى القبلة الاولى ومنها تعالت القدم النبويه وتوالت البركة العلويه وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين وصحب الروح الامين وصعد منها الى أعلى عليين وفيه محراب مريم عليها السلام الذي قال الله فيه كلما دخل عليها زكريا ولنهاره التعبد ولليله المحيا وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان ولاجل اجلاله أنزل الله سبحان وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان فما أجله وأعظمه وأشرفه وأفخمه وأعلاه وأجلاه وأسماه وأسناه وأيمن بركاته وأبرك ميامنه وأحسن حالاته وأحلى محاسنه وأزين مباهجه وأبهج مزاينه وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله الذي باركنا حوله وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه وجعل مسموعنا من فضائله مرئيه ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ما وثق على استعادة آلائه مواثيقه والاياه وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه ويرفع باعلاء علمه وتخطو الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه ويصغى الى صرخة الصخره ويبغى بالبشرى بشر أسرة الاسره وسار واثقا بكمال النصرة وزوال العسره وحسر الفرنج قناع الحسره ونزل على غربي القدس يوم الاحد خامس عشر رجب وقلب الكفر قد وجب وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب والقدر قد أظهر العجب وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من سائف ونابل وبطل للباطل وعاس عاسل بالعاسل قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون ويعاجزون ويناجزون ويرمون ويدمون ويحمون ويحتمون ويحتدون ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون ويذودون ويذبون

ويشبون ويسبون ويصرخون ويحرضون ويلهثون ويتغوثون ويلوذون ويلوبون ويجولون ويجوبون ويقدمون ويحجمون ويتمالون ويألمون ويتعاوون ويتضاغون ويحترقون للبلايا ويقترحون المنايا وقاتلوا أشد قتال وناضلوا أحد نضال ونازلوا أجد نزال وطافوا بصحاف الصفاح لارواء الظبا الظماء من ماء الارواح وجالوا بالاوجال وأجالوا اقداح الآجال وصالوا لقطع الاوصال والتهبوا والتهبوا وتأشبوا ونشبوا واستهدفوا للسهام واستوقفوا للحمام وقالوا كل واحد منا بعشرين وكل عشرة بمئتين ودون القمامة تقوم القيامة ولحب سلامتها تقلى السلامة ودامت الحرب واستمر الطعن والضرب فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم هنالك وضيق على الفرنج المسالك ووسع عليهم المهالك ونصب المجانيق ومرى من آفاتها الافاويق وأصرخ الصخرة بالصخور وحشر حشر السوء منهم وراء السور فعادوا يخرجون من السور الرؤس الا ويلقون البوس واليوم العبوس ويلقون على الردى النفوس فللداوية دوى وللبارونية من البوار في الهاوية هوى وللاسبتار تبار وما للفرير به من الموت فرار وما بين الجدار المحلقة وبين المرمى ليهم حجاب وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب اذ الوجوه لقبل النصال مكشوفه والقلوب للوجد والقتال ملهوفه والايدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومه والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومه وقواعد السور ونواجذ شرار يفه بالاحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومه فكان المجانيق مجانين يرامون ومناجيد لا يرامون وحبال تجذبها حبال ورجال تجذها رجال وأمات الدواهي والمنايا وحوامل تلد البلايا لا حجر عليها في حجر ولا أمن عندها من حذر ولا تخطر سهامها الا بالخطر ولا يفطر مرورها الامرارات ذوي الفطر فكم نجم من سمائها ينقض وصخر من أرضها يرفض وجمر من شرارها ينفض وماشئ كافات كفاتها وآيات نكاياتها ودركات ادراكاتها ولفتات فلتاتها وجذبات عذباتها فما زالت تقلع عقالها وتقرع عقارعها وتمتع بأشطانها وتمرح في أرسانها وتصدم وتهدم

وتصرع وتصدع وتنهز بدلائها وتجهز ببلائها وتحل تركيب الجلاميد بافراد جلاميدها وتفل شمل المباني بتفريقها وتبديدها وتقوض القواعد بضربها من أساسها وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها وتشفه الموارد بشربها من كأسها حتى تركت السور سورا وجعلت الذاب عنه محسورا وعاد العدو من نظمه المنثور متبورا وخرق الخندق وحفر الزحف وظهر للاسلام الفتح وللكفر الحتف وأخذ النقب وسهل الصعب وبذل المجهود وحصل المقصود وكمل المراد وكاد المراد وثغر الثغر وأمر الامر وأربى الارب واستتب السبب وخاف القوم الوقم واستعاضوا من الصحة السقم وأسلم البلد وقطع زنار خندقه وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه وطلب الامان لقومه وتمنع السلطان وتسامى في سومه وقال لا أمن لكم ولا أمان وما هوانا الا أن نديم لكم الهوان وغدا نملككم قسرا ونوسعكم قتلا وأسرا ونسفك من الرجال الدماء ونسلط على الذرية والنساء السباء وأبى في تأمينهم الا الاباء فتعرضوا للتضرع وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع وقالوا اذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم وخبنا من احسانكم وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح ولا صلح ولا صلاح ولا سلم ولا سلامه ولا نعمة ولا كرامه فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم ونقابل الوجود بالعدم ونقدم اقدام المستشري بالشر ونقتحم اقتحام المستضري من الضر ونلقي أنفسنا على النار ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار ولا يجرح واحد منا حتى يجرح عشره ولا نضمنا يد القتل حتى ترى أيدينا بالقتل منتشره وانا نحرق الدور ونخرب القبه ونترك عليكم في سبينا السبه ونقلع الصخره ونوجدكم عليها الحسره ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف وقد عرف ان كلا منا من الذل عزوف وللعز ألوف وأما الاموال فانا نعطيها ولا نعطيها وأما الذراري فانا نسارع الى اعدامها ولا نستبطيها فأية فائدة لكم في هذا الشح وكل خسر لكم في هذا الربح ورب خيبة جاءت من رجاء النجح ولا يصلح السوء سوى الصلح ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل اسفار الصبح فعقد السلطان محضرا للمشوره وأحضر كبراء عساكره المنصوره وشاورهم في الامر وحاورهم

في السر والجهر واستطلع خبايا ضمائرهم واستكشف خفايا سرائرهم واستورى زندهم واستعلم ماعندهم وراوضهم على المصلحة المترجحه وفاوضهم في المصالحة المربحه وقال ان الفرصه قد أمكنت فنحرص في انتهازها وان الحصة قد حصلت ونستخير الله في احرازها وان فاتت لا تستدرك وان افلتت لا تملك فقالوا لقد خصك الله بالسعاده واخلصك لهذه العباده ورأيك راشد وعزمك لضالة النصر ناشد وأمرك لاشتات المناجح وأسباب المناجح حاشد وكانالك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد واستقر بعد مراودات ومعاودات ومفاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات على قطيعة تكمل بها الغبطه وتحصل منها الحوطه اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم على انه من عجز بعد أربعين يوما عما لزمه أو امتنع منه وماسلمه ضرب عليه الرق وثبت في تملكه لنا الحق وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل صغير أو صغيرة ديناران ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار في الضمان وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء فمن سلم خرج من بيته آمنا ولم يعد اليه ساكنا وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعه وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعه وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان فأغلقت دونهم الابواب ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير يحصر الخارجين ويحصى الوالجين فمن استخرج منه خرج ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج ولو حفظ هذا المال حق حفظه لفاز منه بيت المال باوفر حظه لكنه تم التفريط وعم التخليط فكل من رشا مشى وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا فمنهم من أدلى من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفيا في الرحال ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد وكانت في القدس ملكة رومية مترهبه في عبادة الصليب متصلبه وعلى مصابها به متلهبه وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبه انفاسها متصاعدة

للعزن وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال وأشياء وأشياع ومتاع وأتباع فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج وأذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج فراحت فرحى وان كانت من سجنها قرحى وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك اماري مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخول والجواري فخلصت هي بمن معها ومن تبعها ومن ادعى انه ممن صحبها وشيعها وكذلك الابرنساسة ابنة فليب أم هنفرى أعفيت من الوزن وتوفر مالها عليها في الخزن واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده وان الواصل منهم الى القدس لاجل متعبده وطلب مظفر الدين ابن على كوجك زهاء ألف أرمني ادعى انهم من الرها فأجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى وكان السلطان قد رتب عدة دواوين في كل ديوان منها عدة من النواب المصريين ومنهم من الشاميين فمن أخذ من أحد الدواوين خطا بالاداء انطلق مع الطلقاء بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء فذكر لي من لا اشك في مقاله انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله فربما كتبوا خط المن نقده في كيسهم ويلبس أمر تلبيسهم فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضمر غناه ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار وبقى من بقى تحت رق واسار ينتظر به انقضاء المدة المضروبه والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبه

﴿ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب﴾

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج وزاد من الالسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج وجلس السلطان للهناء للقاء الاكابر والامراء والمتصوفة والعلماء وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار ووجهه بنور البشر سافر وأمله بعز النجح ظافر وبابه مفتوح ورفده ممنوح وحجابه مرفوع وخطابه مسموع ونشاطه مقبل وبساطه مقبل ومحياه يلوح ورياه يفوح ومحبته تروق ومهابته تروع وآفاقه تضيء وأخلاقه تضوع ويده

لفيض أمواه السخاء وفض أفواه العطاء ظاهرها قبلة القبل وباطنها كعبة الامل قد حلت له حالة الظفر وكان دسته به هالة القمر والقراء جلوس يقرؤن ويرشدون والشعراء وقوف ينشدون وينشدون والاعلام تبرز لتنشر والاقلام تبرز لتبشر والعيون من فرط المسرة تدمع والقلوب للفرح بالنصرة تخشع والالسنة بالابتهال الى الله تضرع والكاتب ينشئ ويوشي ويوشع والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع فاشبهت قلمى الابشائر أرى البشائر ولا وجهت كلمى الالطائف وحى اللطائف وما أرسلت يراعى الاليراعى الرسائل ويشيع الفضائل ويشيع الفواضل ويشبع القول ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان في حجمه قصر ويصول باللهجة وان كان في هجمه حصر ويسمن الملك به وهو نحيف ويثقل الجيش به وهو خفيف ويبدى بياض الغرة من سواد الدهمه ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمه ويجرى بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق والخلف والوفاق والارفاق والاعناق والعدة والانجاز والجدة والاعواز والفتق والرتق والرقع والخرق وهو الذى يجمع الجيوش ويرفع العروش ويوحش المستأنس ويؤنس المستوحش وينوش العاثر وينتر المنتعش يجرى بالاعداء على الاعداء وبالالاء للاولياء فبشرت باقلامى اقاليم البشر وعبرت بأعاجيبى عن عجائب العبر وملأت البروج بالدرارى والدروج بالدرر وروبت تلك البشرى حتى أطابت ريا الرى وسمر سمرقند وأطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند وعاقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت وشرحت فضيلتها وبينت وأديت فريضة زيارتها وتعينت

﴿ذكر حالى فى العود الى الخدمه﴾

وكنت قد انقطعت من الصحبه لما عرض لى فى المرض من النوبه فأقمت بدمشق اداوى مزاجى وأدارى منهاجى وأعالج تدبيرى وأدبر علاجى الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت خفة فى النفس وأنست بابلالى بعض الانس وأمنت لوثوقى بالصحة والاستقامة من النكس فأوجهت الى تلك الجهه وسرت بطاعة النفس المتنزهه وعصيان الطبيعة المتكرهه واخترت تعب

السفر على راحة الاقامه ورأيت فى ركوب طريق العطب وجه السلامه ووصلت بكرة السبت ثانى يوم الفتح بالسعد واليمن والنجح فوصلنى السلطان عند وصولى بأحلى بشاشه واحلى هشاشه وسرى عنه وسر وأبر وبر وقال أين كنت ولم أبطأت وحيث أصبت فى المجىء فما أخطأت وقد كنا فى انتظارك والسؤال عن أخبارك وهذا أوان احسانك فأين احسان أوانك فأجر بنانك بجراة بيانك وأجر فى ميدانك وما للبشائر الا واصفها وللفرائد الا راصفها وللفصاحة الا قسها وللحصافة الا قيسها وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها واقتضاب معان ما اقتضاها وكانوا سألوه فى كتاب الديوان العزيز فقال لهذا من هو اقوم به وعنانى فلما رآنى نادانى واستدنانى فصرفت الى امتثال أمره عنانى وسلم الى الكتب التى كتبوها بالالفاظ التى رتبوها وقال غيرها ولا تسيرها وغرضه انى أعدل معوجها وأبدل منهجها وأقترع المعنى البكر للفتح البكر وأوشح كرآياته بآيات الذكر فاستبعديتها فاستعدتها واستلمعتها فاستملحتها وشممتها وبهاسهك وكشفتها وسترها هتك وكانوا قد تعاونوا عليها وفيم الهم شرك فشرعت فى اقتضاض الابكار واقتضاء الافكار واقتراح القريحه واقتراء رحاب الكلم لفصيحة الفسيحه وافتتحت فى بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز وأوردت المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز ووشحت ووشعت وشعبت وأشبعت وأطلت وأطبت وصبت وأصبت وأعجزت وأعجبت وأطربت وأطربت وأبعدت وأبدعت ورصعت وصرعت وطابقت وجانست ووافقت وآنست وبينت فضل عصر الامام الناصر على الاعصار السابقه بالابصار الصادقه وان هذا الفتح ادخره الله لزمانه ومكن منه لمكانه وسلط عليه بسلطانه وحسنه لنا باحسانه فقد عبرت القرون الماضيه على حسرته وظفر هو وأشياعه بنصرته وما حصل لنا الا ببركة أيامه وحركة اعتزامه وذكرت من هذا كل ماراق وشاق ونور الآفاق وان هذه الفتوح تفوح بأرج نشره وتحيى بحباره فما أيمن أيامنا بأيامه وما أسعد آمالنا بانعامه وكتبت الى كل

ذى طرف بمعنى طريف ولفظ فصيح حصيف وسهرت تلك الليالى حتى نظمت الالآلى وجليت المعالى وقرحت المعادى وفرحت الموالى وسارت شواردى الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى ونلون شرع لكم من الدين ماوصى وهنأت الحجر الاسود بالصخرة البيضاء ومنزل الوحى بمحل الاسراء ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء ومقام ابراهيم بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم أجمعين وأدام أهل الاسلام بشرف بنيه مستمتعين وتسامع الناس بهذا النصر الكريم والفتح العظيم فوفدوا للزيارة من كل فج عميق وسلكوا اليه فى كل طريق وأحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق وتنزهوا من ازهار كراماته فى الروض الانيق

《ذكر ماجرت عليه حال الفرنج فى خروجهم من القدس》

وشرع الافرنج فى بيع الامتعه واستخراج ذخائرهم المودعه وباعوها بالمجان فى سوق الهوان وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص الاثمان وباعوا بأقل من دينار كل مايساوى أكثر من عشره وجدوا فى ضم ماوجد وامن أمورهم منتشره وكنسوا كنائسهم وأخذوا منها نفائسهم ونقلوا منها الذهبيات والفضيات من الاوانى والقناديل والحريريات والمذهبات من الستور والمناديل ونقضوا من الكنائس الكنائن واستخرجوا من الخزائن الدفائن وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين وجمع ماكان فى قمامة من الجنسين والنسجين فقلت للسلطان هذه أموال وافره وأحوال ظاهره تبلغ مائتى ألف دينار والامان على أموالهم لا أموال الكنائس والاديار فلا نتركها فى أيدى هؤلاء الفجار فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولا نتركهم يرمون أهل الايمان بنكث الايمان بل يتحدثون بما أفضناه من الاحسان فتركوا مانقل وحملوا ماعز وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الى صور وكثفوا بالديجور الديجور وبقى منهم زهاء خمسة عشر ألفا

امتنعوا من مشروع الحق فاختصوا بشروط الرق فأما الرجال وكانوا فى تقدير سبعة آلاف فانهم الفوا ذلا لم يكونوا ألفوه بآلاف فاقتسمتهم أيدى السبى أيدى سبا وتفرق الغازون بجمعهم فى الوهاد والربا وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمه عادت بيننا مقتسمه وأصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمه فكم محجوبة هتكت ومالكة ملكت وعزباء نكحت وعزيزة منحت وبخيلة نسمحت وخبيئة توقحت ومجدة مزحت ومصونة ابتذلت وفارغة شغلت وعقيلة امتهنت وجميلة امتحنت وعذراء افترعت وشماء فرعت ولمياء رشفت وظمياء فرشت وربضة أصحبت ورضية أصحبت فكم تسرى منهن سرى وتجرأ عليهن جرى وقضى وطره عزب ونقى نهمه سغب وفثأ سورته شغب وكم غانية استخلصت وغالية استرخصت ووالية اعتزلت وعالية استنزلت ووحشية صيدت وعرشية قيدت ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز وخلع لباس الذل ولبس خلع العز أبى النصارى بعد أداء القطيعة ان يخرجوا وتضرعوا فى ان يسكنوا ولا يزعجوا وبذلوا خدما وخدموا ببذول وقابلوا كل ما ألزموا به بالتزام وقبول وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وشحت أفواههم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون ودخلوا فى الذمه وخرجوا الى العصمه وشغلوا بالخدمه واستعملوا فى المهنه وعدوا المنحة فى تلك المحنه

《ذكر ما أظهره السلطان فى القدس من الحسنات ومحاه من السيئات》

ولما تسلم السلطان القدس أمر باظهار المحراب وحتم به أمر الايجاب وكان الداويه قد بنوا فى وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا وكانوا قد بنوا من غربى القبلة دارا وسيعه وكنيسة رفيعه فأوعز برفع ذلك الحجاب وكشف النقاب عن عروس المحراب وهدم ماقدامه من الابنيه وتنظيف ماحوله من الافنيه بحيث يجتمع الناس فى الجمعه فى العرصة المتسعه ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر ونقض ما أحدثوه بين السوارى وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبوارى وعلقت القناديل وتلى التنزيل وحق الحق وبطلت الاباطيل وتولى الفرقان

وعزل الانجيل وصفت السجادات وصفت العبادات وأقيمت الصلوات وأديمت الدعوات وتجلت البركات وانجلت الكربات وانجابت الغيابات وانتابت الهدايات وتليت الآيات واعليت الرايات ونطق الاذان وخرس الناقوس وحضر المؤذنون وغاب القسوس وزال العبوس والبوس وطابت الانفاس والنفوس وأقبلت السعود وأدبرت النحوس وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه وطلب الفضل من معدنه وورد القراء وقرئ الاوراد واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد وعبد الواحد ووحد العابد وتوافد الراكع والساجد والخاشع ولواجد والزاهي والزاهد والحاكم والشاهد والجاهد والمجاهد والقائم والقاعد والمتهجد الساهد والزائر والوافد وصدح المنبر وصدع المذكر وانبعث المعشر وذكر البعث والحشر واملى الحفاظ واملى الوعاظ وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء وتحدث الرواة وروى المحدثون وتحنف الهداة وهدى المتحنفون وأخاص الداعون ودعا المخاصون وأخذ بالعزيمة المترخصون ونخص المفسرون وفسر المخصون وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء وكثر المترشحون للخطابة المتوشحون بالاصابة المعروفون بالفصاحة الموصوفون بالحصافة فما فيهم الا من خطب الرتبة ورتب الخطبة وأنشأ معنى شائقا ووشى لفظا رائقا وسوى كلاما بالموضع لائقا وروى مبتكرا من البلاغة فائقا وفيهم من عرض على خطبته وطلب مني نصبته وتمنى ان ترجح فضيلته وتنجح وسيلته وتسبق منيته فيها أمنيته وكلهم طال الى الانتهاء بها عنقه وسال من الالتهاب عليها عرقه وما منهم الا من يتأهب ويترقب ويتوصل ويتقرب وفيهم من يتعرض ويتضرع ويتشوف ويتشفع وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه وضرب في أخماسه أسداسه ورفع لهذه الرياسة راسه والسلطان لا يعين ولا يبين ولا يخص ولا ينص ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الاولى وفزت باليد الطولى واذا ظفرت بطالع سعدي فما أبالي بمن يخطب بعدي فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان وامتلأ الجامع واحتفلت المجامع وتوجست الابصار

والمسامع وفاضت لرقة القلوب المدامع وراعت حلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع وشاعت من سر السرور رابس حبر الحبور الشوائع وغصت بالسابقين اليها المواضع وتوسمت العيون وتقسمت الظنون وقال الناس هذا يوم كريم وفضل عميم وموسم عظيم هذا يوم تجاب فيه الدعوات وتصب البركات وتسال العبرات وتقال العثرات ويتيقظ الغافلون ويتعظ العاملون وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم الذي فيه انتعش الاسلام وارتاش وما أفضل هذه الطائفة الحاضره والعصبة الطاهره والامة الظاهره وما أكرم هذه النصرة الناصريه والاسرة الامامية والدعوة العباسيه والمملكة الايوبيه والدولة الصلاحيه وهل في بلاد الاسلام أشرف من هذه الجماعه التي شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعه وتكلموا فيمن يخطب ولمن يكون المنصب وتفاوضوا في التفويض وتحدثوا بالتصريح والتعريض والاعلام تعلى والمنبر يكسى ويجلى والاصوات ترتفع والجماعات تجتمع والافواج تزدحم والامواج تلتطم وللعارفين من الضجيج ما في عرفات للحجيج حتى حان الزوال وزال الاعتدال وجعل الداعي واعجل الساعي فنصب السلطان الخطيب بنصه وابان عن اختياره بعد فحصه وأوعز الى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بان يرقى ذلك المرقى وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى فأعرته من عندي أهبة سوداء من تشريف الخلافه حتى تكمل له شرف الافاضة والاضافه فرقي العود ولقي السعود واهتزت اعطاف المنبر واعتزت اطراف المعشر وخطب وانصتوا ونطق وسكتوا وافصح واعرب وابدع واغرب واعجز واعجب وأوجز واسهب ووعظ في خطبتيه وخطب بموعظتيه وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه والمسجد الاقصى من أول تأسيسه وتطهيره بعد تنجيسه واخراس ناقوسه واخراج قسيسه ودعا للخليفة والسلطان وختم بقوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ونزل وصلى في المحراب وافتتح بسم الله من أم الكتاب فائتم بذلك الامه وتم نزول الرحمه وكمل وصول النعمه ولما قضيت الصلاة انتشر الناس واشتهر الايناس وانعقد الاجماع واطرد القياس وكانه

قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ليفرعه كبير فجلس عليه زين الدين أبو الحسن على بن نجا فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجا وخوف بالحجة ذوى الحجا وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا وأتى بكل عظة للراقدين موقظه وللظالمين محفظه ولاولياء الله مرققه ولاعداء الله مغلظه وضج المتباكون وعج المتشاكون ورقت القلوب وخفت الكروب وتصاعدت النعرات وتحدرت العبرات وتاب المذنبون واناب المحوبون وصاح التوابون وناح الاوابون وجرت حالات جلت وجلوات حلت ودعوات علت وضراعات قبلت وفرص من الولاية الالهية انتهزت وحصص من العناية الربانيه أحرزت وصلى السلطان فى قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله والامة الى الله بدوام نصره مبتهله والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبله والايدى الى الله مرفوعه والدعوات له مسموعه ثم رتب فى المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته

《 وصف الصخرة المعظمة عمرها الله 》

وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا ولم يتركوا فيها للايدى المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمعا وقد زينوها بالصور والتماثيل وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصبه وقالوا محل قدم المسيح وهو مقام التقديس والتسبيح وكانت فيها صور الانعام مثبتة فى الرخام ورايت فى تلك التصاوير أشباه الخنازير والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره وبتلك الكنيسة المعمورة مغموره فأمر السلطان بكشف نقابها ورفع حجابها وحسر لثامها وقشر رخامها وكسر رجامها ونقض بنائها وفض غطائها وابرازها للزائرين واظهارها للناظرين ونزع لبوسها وزفاف عروسها واخراج درها من الصدف واطلاع بدرها من السدف وهدم سجنها وفك رهنها واراءة حسنها واضاءة يمنها وابداء وجهها الصبيح وجلاء شرفها الصريح وردها الى الحالة الحاليه والقيمة الغاليه

والرتبه العاليه وهى التى حليها اعطل وعطلها حلى وعريها كسوة وكسوتها عرى فعادت كما كانت فى الزمن القديم وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم وسيم بهاء حسنها الوسيم وما كان يظهر منها قبل الفتح الا قطعة من تحتها قد أساء أهل الكفر فى نحتها وظهرت الآن أحسن ظهور وسفرت اعين سفور وأشرقت القناديل من فوقها نورا على نور وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد والاعتناء بها الى الآن كل يوم فى مزيد ورتب السلطان فى قبة الصخرة اماما من أحسن القراء تلاوه وأزينهم طلاوه واندا هم صوتا وأسماهم فى الديانة صيتا وأعرفهم بالقراآت السبع بل العشر وأطيبهم فى العرف والنشر وأغناه وأقناه وأولاه لما اولاه ووقف عليه دارا وأرضا وبستانا وأسدى اليه معروفا دارا واحسانا وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختمات وربعات معظمات لا تزال بين أيدى الزائرين على كراسيها مرفوعه وعلى اسرتها موضوعه ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامه قومة لشمل مصالحها ضامه فما ترتب الا العارفون العاكفون القائمون بالعبادة الواقفون فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع وزهرت الشموع وبان الخشوع ودان الخضوع ودرت من المتقين الدموع واستعرت من العارفين الضلوع فهنالك كل ولى يعبد ربه ويأمل بره وكل اشعث أغبر لا يوبه له لو أقسم على الله لابره وهنالك كل من يحيى الليل ويقومه ويسمو بالحق ويسومه وهنالك كل من يختم القرآن ويرتله ويطرد الشيطان ويبطله ومن عرفته اعرفته الاسحار ومن ألفته لتهجده الاوراد والاذكار وما أسعد نهارها حين تستقبل الملائكة زوارها وتلحف الشمس أنوارها أنوارها وتحمل القلوب اليها أسرارها وتضع الجناة عندها أوزارها وتستهدى صبيحة كل يوم منها اسفارها وما أظهر من تولى اطهارها واطهر من باشر اطهارها وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينيه ونقلوا منها الى صقليه وقيل باعوها بوزنها ذهبا واتخذوا ذلك مكسبا ولما ظهرت ظهرت مواضعها وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها فهى الآن مبرزة للعيون بحزها باقية على الايام بوزها مصونة للاسلام فى خدرها

وحوزها وهذا كله تم بعد انفصال السلطان والشروع فى العمران وأمر بترخيم محراب الاقصى وان يبالغ فيه ويستقصى وتنافس ملوك بنى أيوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنه وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر الالسنه فامنهم الامن أجمل وأحسن وفعل ماأمكن وجلى وبين وحلى وزين وأشفق وأنفق وأغنى وأقنى واعتنى وابتنى ووفى وأوفى وأصفى وأضفى وأتى الملك العادل سيف الدين أبو بكر بكل صنع بكر موجب لكل شكر وكل فعل جميل ورفد جزيل ومن جلى ومنح جليل ومكرمة حميده ومحمدة كريمه وفضيلة بها ترجح ووصيلة بها تنجح وأتى الملك المظفر تقى الدين عمر بكل ماعم به العرف وغمر ونهى وأمر وبنى وعمر ومن جملة أفعاله المشكوره ومكرماته المشهوره انه حضر يومافى قبة الصخره مع جماعة من السراة الاسره ومعه من ماء الورد احمال ولاجل الصدقة والرفد مال فانتهز فرصة هذه الفضيلة التى ابتكرها بالافتراص وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت وكذلك طهر حيطانها وغسل جدرانها ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت وتعرفت وفغمت مناشق أهل الهدى وأرغمت آناف العدى ومازال مع قومه فى تطهير البقعة المباركة طول يومه حتى تيقنت طهارتها وبينت عمارتها وراقت نضارتها ووقفت عليها الاستحسان نظارتها ثم فرق ذلك المال فيها على ذوى الاستحقاق وافتخر بان فاق الكرام بالانفاق وجاء الملك الافضل نور الدين على بكل نور جلى وكرم ملى واحسان سنى وانعام هنى وعرف ذكى وعطاء مبتدع وسخاء مخترع وجود مبتكر ورفد معتبر وأتى بكل ماخلد الاثر الحسن وانطق بحمده الالسن وبسط بها الصنيعه وفرش فيها البسط الرفيعه وهدى واهدى واعاد بعدما بدى وانار وأسدى وأفاض الندى وفض الجدا ونفض الاكياس حتى خلا بها الانفاض والافلاس وسيأتى ذكر مااعتمده من بناء اسوار القدس وحفر خنادقه وعجزها أعجب من سوابق معروفه ولواحقه مالم يشق أحد فيه غباره ولاملك سابق فيه مضماره وأما الملك

العزيز عثمان فانه أتى بالاحسان الذى استظهر به الايمان وذلك انه لما عاد الى مصر وقد شاهد الفتح والنصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها ولم يرد بعد حصولها به نقلها وكانت احمالا بأموال واثقالا كجبال وذخائر وافيه وعددا واقيه ودروعا سوابغ ونصولا دوامغ وخوذا وترائك ورماحا ونيازك وقنا وقنابل وصواقل وذوابل وجروخا وقسيا وعمانيا وهنديا ويزنيا ورديفيا ومشرفيا وجفاتى وجنويات وطوارق وقنطاريات ورانات حديد وزانات وآلات وزيارات وزراقات ونفاطات وقطاعات وعدد النقوب وجميع أدوات الحروب فاستظهرت بها المدينه وتوثقت بها عراها المتينة وكان من جملة ماشرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعدتهم ويخرجوا قبل ان يستوفى الباقون فى أداء القطيعة مدتهم فتوفرت بذلك عدد البلد واستغنى بذلك عما يصل من المدد

(ذكر محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام وتبطيل الكنائس وانشاء المدارس)

وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه فى حصن عند باب المدينة منيع وموضع عال رفيع وهو الحصن الذى يقيم به الوالى فاعتنى السلطان بأحواله الحوالى ورتب له اماما ومؤذنين وقواما وهو مثابة الصالحين ومزار الغادين والرائحين فاحياه وجدده ونهج لقاصديه جدده وأمر بعمارة جميع المساجد وصون المشاهد وانجاح المقاصد واصفاء الموارد للقاصد والوارد وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام وكان ينتابهما فيها الانام وكان الملك العادل نازلا فى كنيسة صهيون وأجناده على بابها مخيمون وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الابرار والاتقياء الاخيار فى مدرسة للفقهاء الشافعيه ورباط للصلحاء الصوفيه فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب أسباط وعين دار البطرك وهى بقرب كنيسة قمامة للرباط ووقف عليهما وقوفا واسدى بذلك الى الطائفتين معروفا وارتاد أيضا مدارس للطوائف ليضيفها الى ماأولاه من العوارف وأمر باغلاق أبواب كنيسة قمامه

وحرم على النصارى زيارتها ولا الالمامه وتفاوض الناس عنده فيها فنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها وتعمية نهج مزارها وازالة تماثيلها وازاحة أباطيلها واطفاء قناديلها واعفاء أناجيلها واذهاب تساويلها واكذاب أقاويلها وقالوا اذا هدمت مبانيها وألحقت بأسافلها أعاليها ونبشت المقبرة وعفيت وأخمدت نيرانها وأطفيت ومحيت رسومها ونفيت وحرثت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار ومهما استمرت العماره استمرت الزياره وقال أكثر الناس لا فائدة فى هدمها ولا هدها ولا يؤذن بصد أبواب الزيارة عن الكفرة وسدها فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء ولا ينقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولو نسفت أرضها فى السماء ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان

ومما كتبته الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس
مع الرسول ضياء الدين الشهرزورى من رسالة

قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم والنصر العميم والعرف الجسيم والفضل الوسيم واليوم الاغر الاعز الكريم والشرف الذى ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الاعصار وأراد تأخير ذخاره الى هذه الايام ليكون بها تاريخ الفخار فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته واقتضاض عذرته وخص من اجراه على يده بسمو قدره وعلو قدرته وأعاد به القدس الى قدسه وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه وقد رجع الاسلام الغريب منه الى داره وخرج قمر الهدى به من سراره وذهبت ظلم الضلالة بأنواره وعادت الارض المقدسة الى ما كانت موصوفة به من التقديس وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس وقد أقصى عن المسجد الاقصى الاقصون من الله الابعدون وتوافد اليه المصطفون الاقربون والملائكة المقربون وخرس الناقوس بزجل المسبحين وخرج المفسدون بدخول المصلحين وقال المحراب لاهله

مرحبا وأهلا وشمل جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة ما جمع للاسلام فيه شملا ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب وتليت بألسنة عذبها نصر من الله وفتح قريب وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين وبعد أهل الالحاد من قربها بقرب الموحدين فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوى وقامت بدلالتها براهين الاعجاز المحمدى وصافحت الايدى منها موضع القدم وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها فى القدم فهو ثانى المسجدين بل ثالث الحرمين فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الاسر واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر وتطهير مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من ادناس الارجاس وتضوع أرج الرجاء فى ارجائه بعد الياس فالحمد لله الذى أبدل الايحاش بالايناس ونزع عنه بافاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على الاعصر مفضلا وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين والدنيا به مكملا ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها ولقد حل الكفر عروة عروه وهد ذروة ذروه وعادت حباله رثاثا وعقوده انكاثا ومساكنه اجداثا وصار حديثا بعد ان شوهد أهل الذمة أحداثا فالرتاج مستفتح والرجاء مستنجح والبلاد مستخلصه والقيم الغوالى منها بسوم العوالى مسترخصه والعقائل مقتضه والمعاقل منفضة ومناهل المنى بمياه النجاح مرفضه ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضه والثغور مبتسمه والامور منتظمه والحصون متسلمه والخصوم مذعنة مستسلمه وأرض الكفر ينقصها الاسلام كل يوم من أطرافها بل يستولى على أوساطها واكنافها ويعيد الى الطاعة كرها مذهب خلافها ولقد اينع زرعها وثمرها من روس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها والنعمة بحمد الله عظيمه والموهبه وان خصت هذا الاقليم فهى فى جميع أقاليم المسلمين عميمه ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ فى مضمار

البيان ولم يبلغ مدى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا والقاضي ضياء الدين القاسم الشهرزوري قد توجه لهذه النعمة واصفا وعند ما يؤمر به من انهاء البشرى بها واقفا وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفا وأحق من شرح الحق والحقيقة من نفى بشرح الصدور مصادر شرحه ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بانهاء ما تسنى من فتحه ويحدث وهو الضياء باسفار صبحه

((عاد الحديث الى ما جرى بعد فتح القدس))

وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما يقرب بها من حصون واستباح كل ما للكفر بها من مصون ورحل ولده الملك الافضل قبله الى عكاء عائدا وعن حوزتها ببأسه وجوده ذائدا ثم تبعه الملك المظفر فرحل وسار الى عكاء وبها نزل ثم عمد السلطان الى ما جمعه ففرقه وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه وفرضه بعوارفه وفضه في مصارفه فسد خلة المعيل واسهم منه ابن السبيل وحل به عن الغارم وأحيى به سنن المكارم ووضعه في أهله وأحله في محله وصرفه في حله وقدم التوسعة على ذوي الاضاقه والانفاق في أهل الفاقه واجنى الاجناد منه مقاطف وجعل للمجاهدين منه وظائف وابقاء بافنائه ذخرا للآخره وكسب المحامد الفاخره فأكثروا عذله على بذله واستكثروا ما قضه بفضله فقال كيف أمنع الحق مستحقيه وهذا الذي أنفقه هو الذي أبقيه واذا قبله مني المستحق فالمنة له على فيه فانه يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها فان الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها فعاد الوفد الاوفر وذو الوافر الافاضة في نظم من حمده ونثر وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا وتفيأ كل فئة من فيئه ظلا وكثر السائلون بالفضائل والقائلون بالوسائل والقاصدون بالقصائد والوافدون بالفوائد والواردون بالفوارد والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق والسالكون للطرائق والمالكون للحقائق فما ترى الا قارئا باللسان الفصيح وراويا للكتاب الصحيح ومتكلما في مسئله ومتفحصا عن مشكله ومواردا لحديث نبوي وذاكرا لحكم مذهبي وسائلا عن لفظ لغوي

ومعنى نحوي أو مقرضا بقريض أو معرضا بتصريح أو مصرحا بتعريض أو جالبا لمدحه أو طالبا لمنحه أو مستضعفا بفاقه أو مستسعفا بافاقه أو ناشدا بنشيد أو مسمعا بتغريب وتغريد وما فيهم الا من أحظى بسهم أو أرضى بقسم وأصيب بنصيب وأجيب وأجيز بتقرير وتقريب فقيل له لو ذخرت هذا المال للمآل لشفيت به ما يقع من الاعتلال وكفيت بالحقيقة ما ينسخ من الاختلال فقال أملي قوي من الله الكافل بنجح الآمال وجمع الاسراء المطلقين وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم وآساهم وواساهم وأذهب أساهم فانطلق كل منهم الى وطنه ووطره ناجيا من ضرره وضره ومكث السلطان عليه مقيما للنظر في مصالحه مستديما فقيل ما قعودك عن صور فانهض اليها عسكرك المنصور وأنت تدخلها يوم وصولك وتحظى منها بمرادك وسولك انو السير وانو الخير واحصر الخير واحظر التأخير وفي تعجيل النهضه تحصيلها في القبضه وفي بدار الالمام بدارها بشرى اهلة الفتوح المقمرة بابدارها فأسر بالعسكر وأسرع واقطع عن الكفر تلك الاعمال وأقطع وأكثر من كان يستحثه وعلى النهوض يبعثه الامير علي بن أحمد المعروف بالمشطوب وكان من أكابر الامراء الكافين للخطوب الكافين في الحروب وكانت معه صيداء وبيروت وهما بقرب صور وقد أشفق ان فتحها يفوت فرأى الحظ في الحض وحرض على الفرض ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل اليها وانه يشق في هذا الوقت النزول عليها وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشتغلا وعلى الاستهتار بتحصينها مشتعلا وقد استجد قدامها من البحر الى البحر خندقا وجعل الطريق اليها مضيقا وأحكم أسباب الاحكام وأخذ بالحزم في الاهتمام

((ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور))

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان وقد عنا لامره كل قاص ودان وودعه ولده عزيز مصر في أول منزله وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحله ثم وصاه وشيعه واستصحب أخاه الملك العادل معه مستظهرا باخائه مستبشرا بآلائه مستبصرا بآرائه مستنصرا بعضائه

مستغنيا بغنائه موفيا بوفائه وهو بعقده يعقد وبحله يحل وبشده يشد وبحوله يحول والعساكر بالفضاء فائضه وللخطوب الربضة رائضه والى استنهاض النصر لانصارها ناهضه ومن هواها انها فى دأماء الدماء من أهل الكفر خائضه فوصل الى عكاء فى أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه باهرا بتأخيره وتقديمه قاهرا بشباه المبير زاهرا بسناه المنير جاهرا بسره ظاهرا فى بحره وأقام أياما يتفكر ويتدبر ويستشير ويستخبر والمشطوب يستعجله ولا يمهله ويحرض بالبعث ويحذر من المكث ويقول الفرصة تدرك بالحث وتفوت باللبث فسار لنـدائه ملبيا ولجيش النصر معبيا ولرأيه معتقدا وبالله عز وجل متأيدا فوصل الى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعه بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعه فنزل بعيدا من سورها سعيدا فى ترتيب أمورها مضروبة قبابه محجوبة عرابه محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماؤه منشورة راياته منصورة آراؤه خافقة على الاعداء عذبات عذابه دافقة فى ثرى النجح فى الانحاء ثرات صوب صوابه قد كست خيامه عرى العراء وفضت أشعة بيضه وسمره الفضة بالفضاء واحتوت مضاربه المضيئة بآلائه وآرائه على مضارب المضاء وباحت استباحة حمى المشركين للموحدين بسر السراء فمكث أياما حتى تواصل المدد وتكامل العدد واستحضر آلات الحصار واستكثر من المجانيق الصغار والكبار ثم تقدم اليها وخيم عليها الثانى والعشرين من الشهر يوم الخميس فى خميس يسير فى الوشيج كالاسد فى الخيس ونزلت النوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس فوقع فى الدرد بيس والعذاب البئيس فكانما نفخ فى صور صور فحشر أهل جهنم وملؤا السور واتصلت زيارة الزيارات للجروح بالجروح وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ وأرسلت الحجارات حاجرة حاجزه وألسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزه وكانت صور على السوء منطويه وعلى كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتويه فضجوا وارتجوا وعاجوا وعجوا ولجوا ولجوا ونصبوا على كل نيق منجنيقا وشدوا من كل جانب ركنا وثيقا وشدوا فى الجبال ومدوا فى الحبال ورموا من

الشرافات بالشرور والآفات وسلب الحجار حجاها وأمت الامة وجاءها وجاها فكم من رؤس أطارت ونفوس أبارت وبر خسفت وبدر كسفت وبحر نزفت وطود نسفت فحول السلطان الى قربها له خيمة صغيره وأنهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيره وصف الجفاتى فصدف أنيها الآتى وعارض بحرها بعرض بحره ورد كيد الكفر من المنجنيق بما نصبه من المنجنيق فى نحره فاحبط أعمالهم بأعماله وأهبط رجالهم برجاله وقابل الابراج بالابراج وحاول بالردى علاج الاعلاج وولاها حجارات وصخورا حتى جعلت سور صور رسوما وجد فى أمرها وأجاد فى حصرها ووصل اليه فى تلك الايام من قوى به ظهر الاسلام ولده الملك الظاهر غياث الدين غازى وهو الذى جل فى سماحته وحماسته عن الموازن والموازى فقدم مبارك القدم متدارك النعم عالى الهمم غالى القيم ومعه عسكر مجر لجب جلبه من حلب قد استصحب البيض والسمر والبيض واليلب فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب وأغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ورأى نصب خيمته وراء خيمة أبيه المنصوبه وجد فى استرجاع مدينة الاسلام المغصوبه وقدم بين يديه كل حجار راج وكل نقاب ناج اصم الصفاح مصافح وكل جاندار جان در الردى للكفار وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار وكل منجنيقى من جنانه تقتبس ذبالة البساله وكل جرخى رخى البال بالهدى لاصماء أهل الضلاله وكل رام رام النجم فى الافق فراماه وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه وكل مقدام قرنه دام وكل ضرغام صريعه فى رغام وكل قمقام ضارب بصمصام وكل حام شارب بكأس حمام وكل ذمر مشيح لذمار الكفر مبيح ولروح الجد مريح ولدماء المراح مزيح وكل فاتك لحبل الوريد باتك ولستر الحياة هاتك ولدم العداة سافك وكل شجاع الى الموت داع والى المجد ساع وللاسلام راع وللاشراك ناع وكل فارس للفوارس فارس وللذوابل فى النحور غارس وفى اليوم العابس غير عابس وكل راجل لقهر العدو راج وبسر البأس مناج ومن شر الناس بشجاعته ناج وبباغت المنون لمن يلاقيه شاج وكل عمال عات ونجار ونشار ونحات وحداد وقين وكل زائر

للعدى بحين فاجتمعوا وزحفوا وجفوا على القوم ورجفوا وأصموا وصمموا
وأوقدوا نارا وأضرموا وأطاروا من أعشاش الاقواس الى أوكار الاحداق أفراخا
واستصرخوا الاقدار لاقدارهم فخيبتهم حين أجبتهم اصراخا وغلظوا على الرقاب
الغلاظ بالرقاق وأولوا الشقاء لاولى الشقاق وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا
وما تقاصروا وما فيهم الامن أبان عن جد وأبان بجد وألان الشديد وأعان
السديد وألح ففلح الحديد بالحديد وجد الجديد ومد المديد وصور مرتجة أبوابها
مرتجة أربابها مغتصة جوانبها مرتصة عصائبها مشحونة أبراجها مسجونة
أعلاجها محصورة كلابها محسورة ذئابها محشورة ثعالبها محشودة كتائبها
والمركيس بها مقيم وابليس عليه متحكم وقد سقط في يده ومحط البلده
وارتبط بجلده واختلط بكمده وغلت مراجل غلوائه وعدت عوائل عدوائه
وطاش وجاش وأوحش الاوباش والاوخاش وتوشح بالشر وتوحش وترشح
للردى وتحرش واشتعل بجمره وبعل بأمره وضرى بضره وجال بوجله في
مكر مكره وكرفي وكره وعشا عشه وعشى غشه وثبت على لجاجه ونبت في
أجاجه وتسعر وتعسر وتربص وتصبر والسلطان مصيب حكمه صائب سهمه
ماض عزمه قاض حزمه بارحده جارجده وارزنده ساروفده باتك غربه
فاتك ضربه قاطع شباباسه ساطع سنى ايناسه قد اتسقت أسبابه واتسعت
رحابه واجتمع أصحابه فازدحم على بابه وحول قبابه كل مبارز بار وكل ضارب
ضار وكل جار رجار وكل رامح ورام وكل حامل سلاح وحام وكل سائف حائف
وكل عاصف قاصف وكل آكل للحرب شارب وكل طالع بالضرب غارب وكل
هاجم هائج وكل راجم رائج وكل معتقل متقلد وكل مجرب مجرد وكل ذكر
مذكور وكل غضنفر مشكور وكل ليث ملاث وكل غيث غياث وكل سفاك
لدم الكفر سفاح وكل جراد لسيف الفتك جراح وكل مكتتم في درعه مكتمن في
نقعه ملثم بزغفه متلثم بحرفه مقنع بلامه ملفع بقتامه سابح في بحر الموت
بسابحه سامع في الصباح صوت صائحه فجمع اليه أمراءه واستحضر عظماء
ملكه وكبراءه وقالوا هذا بلد حصين ومكانه من الارض مكين في البحر ثلاثة

أرباعه وفي السماء ارتفاع يفاعه وطريقه الذي يسلك من البر اليه قد أحاط
به البحر من جانبيه وقد قطعوه بخندق في عرضه وعمقوه ونزلوا في أرضه وكان
من احكام الحزم واتمام العزم تكميل الآلات وتتميمها وتحصيل المنجنيقات
وتقديمها وتركيب الابراج والدبابات وتأليفها وتقريب الجفاتي والجنويات
وتصفيفها وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها وتعبئة أثقال العسكر وتخفيفها
وتعبئة نخب الرجال وتصريفها وتسنية الاسباب وتهيئة الاخشاب واستحضار
كل ما يراد للحصار واستنفار كل من يرام من الانصار فاذا حضرت هذه
الاشياء والاشياع وتيسرت وتوفرت الاصول والاتباع رحب الذرع في الحصر
والمضايقة وطال الباع واذا حالت الاحوال وضاعت الاوضاع اختل واعتل
النزال والنزاع وأمر السلطان بازاحة العلل وازالة الخلل وشغل الصناع
بالعمل ونقل الامل الى طريق الاجل وتقدم بقطع أشجار الغياض وحمل
ما بتلك النواحي من الانقاض فاجتمع هنالك كل آلة وآلة وذباب وذباله وقضيب
ومقضب ومجرب ومحرب وسهم وشهم وشهب ودهم وأحمال وأثقال
ونظمت الستائر من القضيب وصفت من سور صور بالمكان القريب وكمت
من ورائها الكماة واستترت بالجفاتي قدامها الرماة واشتغل كل صانع بصنعه
وكل جامع بجمعه وكل دافع مانع بمنعه ودفعه فمن جان بمجنيق ودان الى نيق
وداب بدبابه وذاب بذبابه ونازع في حنيه ونازع بمنيه وقاذف بشراره وحاذف
بحجاره وهاتك من ستاره وفاتك بجساره وجاذب في حبال وجالب لوبال
ومر وفي قلع ومسول قلاع ومدبر باجحاف ومدمر باجحاع ولم تزل المنجنيقات ترمي
والجارات تدمر وتدمي والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروخ واطباق
البرج تبنى وتعطى بالسلوخ حتى امتد الزمان واشتد الحران وضاق الحصر
واعتاق النصر وكان العسكر قد ألف تيسر الفتح وتسرع النجح فصعب عليه
حين صعب وتبع هواه لما تعب ولم يألف الناس الا رواء ظمئهم بنهله والحصول
على أكساب سهله وفتح ما يقصدونه من البلاد بغير مهله فلما توقف هذا الفتح

وتوقفوا وملوا وضجروا وتأففوا والسلطان مع ذلك يزداد فى حده حده وفى شده شده وفى جده جده يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ويقويهم بجوده ويوجدهم القوات ويقول ان الله أمر بالمصابره ولا مصابرة الا بالمثابره فاصبروا وافلحوا وصابروا وانفحوا

(ذكر ما تم على الاسطول)

وكان السلطان قد نفذ من صور واحضر اليها من عكاء ما كان بها من مراكب الاسطول المنصور فوصلت منها عشر شوان على العدى جوان وللردى لهم جوان فعمرها بالرجال وجهزها للقتال واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجبيل فاستشعر المركيس وأشياعه منها الويل وعمروا لهم مراكب ورفعوا بها منا كب وسفننا بالساحل عند نامر بوطه وبحفظنا مضبوطه محوطه ودامت تدب عقاربها وتذب سواريها وتجرى سوار بها وتسرى جواريها وتطير للقنص بزاتها وتغير للفرس غزاتها وتكسر بكواسرها وتدور بدوائرها وتلاطم الامواج بأمواجها وتزاحم الاثباج بأثباجها وترفع شرع الهداة بشراعها وتقلع غرش الغواة باقلاعها وتنقض على شياطين الكفر شهبها وترفض بشآبيب الذعر سحبها فكأنها الاساود السود ركبتها الاسود من كل افعوان بحمله افعوان وشجاع امتطنه شجعان وغراب بشتات العدى ناعق وسحاب بوميض الهدى بارق فيالها من اغربة دارت بعقبان واجنحة طارت بظلمان ورواس سوار وغواز بغوار وقد ملئت برماة الحدق وحماة الحلق وزراقى النار وطراقى الثار والخاطفين بالخطاطيف والقاذفين بالمقاذيف والكالمين بالكلاليب والسالبين بالاساليب والحاربين بالمحاريب والراجمين بالرجام والمعلمين على الاعلام فانشقت مراكب الفرنج وأزاحت سفنها عن النهج وفرنصت بزاة البيزانيه وتقلصت جناة الجنويه وكثرت أدواء الداويه وكثرت أسواء الاسبتاريه وزادت آلام الالمانيه وعادت اسقام الافرنسيسيه وصارت مراكبهم فى الميناء لاتبين وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين وقد ربطوا عندهم السفن فلو خرجت كانت حبالا نسفن وأنس أصحابنا بعلو الامر وخلو

البحر وأمنوا من الخوف وادمنوا على الطوف ودام تطوافهم واستقام ايجافهم واغتروا بالسلامه وسروا بالاستقامه وبانت لنا شوان خمس لها بزوال الوحشه أنس وربطت بقرب ميناء صور راصده ولاخذ ما يخرج من شوانيها قاصده والدياجى مدلهمه والدواهى ملتمه وعيون الزهر راقده وعيون الكفر ساهده وللمكايد مصايد وللعوادى عوائد وللغوائل طوائل وللمسائل دلائل وللمقادير مقاد ولا ولكن المراد مراد فحفظ أصحابنا الى السحر الحرس وسهروا الى ان شارفوا الغلس وكل منهم لما استأنس نعس وغاص فى النوم وما تنفس فما انتبهوا الا وسفن الفرنج بهم محدقه ونيرانهم محرقه فولجوا فى البحر والتجوا وتطافروا الى الماء لينجوا وعدت العداه وأخذت تلك الشوانى الشناه وأسروا منها عده ولقى الباقون شده فاغتم السلطان بسبب هذه النكبه وفرح الكفار بتلك الضربه وكانت تلك أولى حادثه كرثت وكارثه حدثت ونائبه رابت ورائبه نابت فضاقت القلوب وضافت الكروب وحصلت تجربة الغارين واتصلت حركة القارين واستيقظ الناعس واستوحش الآنس وهب الراقد ودب الراكد وذاب الجامد وشب الخامد وهاج الزائر وماج الزاخر وتحرك الساكن وتورك الراكن وعقل من غفل وذهن من ذهل وتيقظ من غفا وتحفظ من هفا وتقبض من انبسط وتقيد من نشط وهم من عف وألم من كف ورجفت الآفاق بالمرجفين وطالت ألسنة المعنفين فمنهم من يؤنب ويذنب ومنهم من يقول ويطنب والعاقل يتجنب ويقيم العذر لمن يذنب ويقول هذه من الله موعظه وآية لنا موقظه وأشار الناس بانفاذ الشوانى البواقى وقطعوا بان هذه القطع لاتكفى لملاقاة من يلاقى فجهزوها نهارا وصيروا اسرها اجهارا وأمروا بتسييرها الى بيروت ورجوا ان تسبق وتفوته وركب العسكر فى الساحل يباريها وهى بالقرب تجاريه فى البحر وهو فى البر يجاريها فابصر ملاحوها شوانى الفرنج لمبارزتها مبرزه وللاجهاز وراءها مجهزه وكانوا رجالا من بحريه مصر مجمعه وأصبحت قلوبهم بما جرى على آنظارهم مروعه فتواقعوا



الى الماء وخافوا على دمائهم فى الدأماء وخرجوا الى البر على وجوههم وخافوا مكرهم فى مكروههم وفروا وفاروا وطاروا وثاروا ولم يلفت أحد منهم الينا ولم يزدهم دعاؤهم الى التجمع الا تشتيتا فظهر بهذه النوبة الواقعه والنبوة الرائعه ان نواب مصر لم يجرمهم بالاسطول احتفال ولم يرتب فيه على ما يراد رجال وانما حشد واليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفه ومستضعفة غير آلفة ولا مألوفه فلا جرم لما شاهدوا الروع ارتاعوا ولما ألزموا بالطاعة ما استطاعوا وكان فى جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جبيل كأنها جبيل وفيها بحرية من ذوى التجربة والتجرى والتجرية ما لها جبن ولا ميل فطال بأسلحة الدفاع وطار بأجنحة الشراع وفاز بالسبق وفات وهيهات ان يدرك هيهات فنجا النجباء وآب بهم الاباء فبقيت المراكب الباقيه وقد أخلاها حماتها الواقيه فرفعناها الى البر ورأينا الصحة منها فى الكسر وفرغنا من شغل المراكب فى البحر هذا والمنجنيقات ترميهم والمفوقات الموفقات تعميهم وتصميهم والقتال قائم والنزال دائم والصخور تفلق والصدور تقلق والاحجار تقلقل والاسوار تحلحل والاطواد تضعضع والابراج القيام تسجد وتركع والاصلاد تقدح والاجلاد تقرح والالواح تصدع والارواح تودع والحدود بشفاه الشفار ملثومه والحدود بضراب الاضراب مثلومه والجروح بين أكفاء الكفاح مقسومه والقروح بها قوارح القوارع موسومه والخنايا واترة موتره والمنايا مأثورة مؤثره وظعائن الضغائن تحدى بصليل البواتر وصهيل الضوامر وحقوق الحقود تقتضى بألسنة الاسنة وعنت الاعنة من الغريم المكافر والاوداج شاخبة كالعيون البواكى والابشار دامية من الزنبوركات والناوكات النواكى وهنالك العقل معزول بالتهور والرأى مشغول عن التدبر والعلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه والجرخى يبتدئ باسم الله والمنجنيقى يختم بلا اله الا الله والزراق بالنار يطيب القارورة ويحرق الساتوره والسباق الى المضمار يساور السور ويباشر الباشوره

﴿ذكر خروج الفرنج للقتال﴾

ولما عثر الفرنج على تلك العثره ظنوا فينا الفتور لاجل تلك الفتره وقالوا مراكبهم انحل تركيبها وكتائبهم اختل ترتيبها وستجرى بها عنا الندامة التى يحدثها تجريبها وهم الآن على صوت لهم مخيف وفوت بهم مطيف فلا معنى لتقاعدنا عنهم ولا وجه لتباعدنا منهم فلو خرجنا صدمناهم وأقدمنا عليهم وهزمناهم وخرجوا يوما قبل العصر فى عدة كالميل خارجة عن الحصر قد التأموا واستلأموا وانضموا وانتظموا وتقدموا وأقدموا وللطوارق حاملين وللعمالات مطرقين وعلى الفرق مجتمعين وللجماعات مفرقين وبالرهق جادين وبالجدم هقين وللقود حالين ومن الغمود سالين وللمناصل منتضين وللطوائل مقتضين وللسيوف مجردين وللسيول مجرين وبالزغف ملتثمين وفى الحتف مقتحمين وبالقطاريات طائرين وبالزيارات زائرين من كل مغوار وار ومحضار ضار وفاجر جار وجبار بار وعدو عنود وكند كنود وداوى ذى دوى وبارونى غوى ومن كل مصمم اذا وتر مصم اذا أوتر مصم اذا نعر مصر اذا ذعر هائج اذا استعر مائج اذا ذخر متنمر اذا زأر متذمر اذا زحر فتناوبوا وتواثبوا وتجولوا وتجاوبوا ودنوا من متارس المنجنيقات وجنوا من مغارس الجنويات وبنوا أمرهم على ان الناس ناسون غارون وان أهل البأس فى خيمهم هاجون قارون فتلقاهم منا كل ضارب للهام ضار بالحمام جار الى الاقدام ملب للصوت محب للموت مشتهر بالغناء مشتبه للقاء مستهتر بالبلاء ماض بالمواضى متقاض بالقراضب القواضى وكل أبيض بالبيض ضراب وللبيض رضاض وأغلب المغلب قضقاض والى الحرب نهاض وكل معتقل رماحه معتقد مراحه مهتز لطرب الشهاده معتز بأرب السعاده متمن للمنون متحن على الجنون مضرم نار الحديد فى ماء الوريد مغرم فى ترقيق العدى بجمع الايدى مفروغ ماء الظباء على نار التجميع مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ المريع قد ائتم باللام وتلفع باللثام وتقنع بالزرد وتدرع بالجلد وتجرشن الصبر وتحصن بالزبر وصال بالقضب وجال بالهضب وطال بالهندى على الفرنجى وخاض من دم الشرك فى البحر اللجى فلم يسمع الا أنين الجنيبه لحنين المنيه ورنين الاوتار

من كنين الاوتار وهفيف السهام لذفيف اللهام وصليل بنات الغمود من غليل أبناء الحقود وهمهمة الابطال وغمغمة الاقتال وزئير الضرغام وزفير الضرام وقرع الظبا بالظبا ووقع الشبا على الشبا وضجة الحديد من الحديد وعجة الشديد من الشديد وجعجعة رحى الحرب وقعقعة أداة الطعن والضرب وجرجرة الفحول وزمجرة الذحول وهديل حمام الحمام وهدير قروم الاقدام ووعوعة ذئاب الوغى ومعمعة التهاب اللظى ودعدعة صاع المصاع وجلجلة سباع القراع وصلصلة الزبر وولولة الزمر وجعجعة دعاة النصر وهيضلة رعاة الكفر ورفرفة المريشات الراشقه وهسهسة الطعنات الفاهقه وزهزهة أعطاف المران وزهزهة أصوات الشجعان ونعير الغالبين وصخب السالبين ولجب الجالبين وزحير الطالبين ونهيت الاسود وقصيف الرعود وهدة الاركان ودهدهة الرعان وقهقهة الاقران وقرقرة كوم الكماه وصرصرة بزاة الغزاه وكشيش صلال الضلال ونشيش مراجل الرجال وهزيز ريح الباس وهزيم رعد المراس وارنان المعاجس وارزام القناعس وهيعة الصارخ وصيحة النافخ وزعقة المستفزع ونعقة المستنزع وشعشعة الخرصان وزهزمة النيران وهينمة الاجل وجمجمة الزجل وتكبير المؤمنين وتهليل الموحدين وصرير أبواب الجنان للشهداء وصريف أنياب الجنان للاعداء والدعاء الى اللقاء والنداء الى الارداء وارتفعت الاصوات واشتبهت الاحياء والاموات ووقع أصحابنا فيهم وقوع النار فى الحطب وأروهم فى مرايا البيض وجوه العطب وولوا مدبرين بعدما تولوا مدبرين وجنودنا تشلهم وحدودنا تفلهم ولتوتنا ترضهم ولبوثنا تفضهم وعادوا الى البلد عادمى الجلد وفيهم ندوب وعليهم نوادب وأيدى الردى بهم لواعب ومنهم لواغب ودخل الليل وعمهم الويل وأسرنا منهم مقدمين ثبتوا على الموت مقدمين وممن أسر نخسر قومص عظيم مثل شيطان رجيم فترك فى قيد الاسار ليكشف عن حاله بالنهار وكان الملك الظاهر غازى لم يحضر فيما تقدم من المغازى فرأى أن يحقق اسمه بقتله فضرب عنقه بحد نصله وكان للمركيس شبيها وفى الفرنج وجيها فظنوا أنه هو للشبه

وبات أهل الكفر بالعمى والعمه ثم عرف أن المركيس فى نفسه لم ينكا ولم ينكب ولما عطب أشياعه لم يعطب وندم على ما قدم ومن تقدم على غرة تندم

((ذكر ما دبروه من الرأى ورأوه من التدبير))

ولما امتنع البلد وارتدع الجلد وارتتج العدو ولج ضجر العسكر وضج واجتمع امراء يحبون الافلات ولا يكرهون الفوات وقالوا مطاولة ما نقصر عنه تتعب ومزاولة ما لا يزول تصعب ومحاولة الممتنع محال ومطال غريم هذا الفتح مطال وما يتسع لنا فى هذه الحلبة الضيقة مجال وهذا السلطان جلد على المصابره مجد فى المكابره لا يكترث بالكارث ولا يدخل سمعه حديث الحادث ولا يبالى بمن بلى ولا يفكر فيمن أولى أو ولى ولا راحة له الا فى التعب ولا يعلم له نصيب سلامة الا من النصب وكل ما جرى الى اليوم منا ومن القوم لم يرعه ولم يردعه وقد قيل اذا لم تستطع شيأ فدعه فكيف السبيل الى استعطافه وما التدبير فى استسعافه وبم نتوسل ونتوصل واذا عرفناه ان الداء يعضل والخطب يشكل لعله يجتوى الاقامة ويرحل فاطلع على ما أسروه ومر به ما أمروه وهمه ما به هموا وآلمه ما به ألموا فراسلهم بالهبات وواصلهم بالصلات ورغبهم فيما عند الله من لزلفى ووعدهم بكل ما على أملهم أوفى وقال لهم كيف نخلى هذا المكان وما استفرغنا فى شغله الامكان وما استنفدنا فى مضايقته الوسع ولا أحسنا بعد فى محاصرته الصنع ولا زحف اليه الجمع ولا حفز منه المنع ولا أصابنا من مكر أهله مكروه ولا ورد الصبر منه بشفاه مشفوه وكيف تجرى بنا الخيل عنه قبل التجريب وهذا الارب ما يخطر بخاطر الاريب وما عذرنا الى الله والى المسلمين اذا تركناه وكيف نقول فاتنا هذا القنص وما أدركناه والفرصة اذا فاتت لا تدرك والبغية اذا وانت تخفقها أعين ونواظر الناس الى ما سيكون منا فى صور صور وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها الا نور ومن لا يتعب لا يستريح ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح وان تجدوا تجدوا وان تردوا عن المنهل العذب تردوا وان تصبروا تصيبوا فارجعوا الى الله وأنيبوا وهذا الراجل متواصل والغرض به حاصل ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها

ولزم كلا منهم ملازمة البقعة التي هو بها وهذا البرج قد ارتفع والوسع قد اتسع وقد امتلأت بالرجال طبقاته وتوالت منها في الكفر رشقاته والنصر قد آن أن تطيب نشقاته والمركيس أبعده الله قد قرب أن تخونه ثقاته ورأينا طول الارواح لا التطاول الى الرواح وفي التثبت عن المقام التوثب على المرام ثم أخرج المال وصبه من أكياسه وفرقه على ناسه وأنفقه في أهل باسه وواصل البذل وهجر العذل وملأ الايدي بالغنى وروج للرجاء نجح المنى وأمر فامتثل وقال فقبل ونادى فسمع وحشر فجمع وعادت عادة الحصار وأسعدت سعادة الانصار

﴿ذكر فتح حصن هونين﴾

وورد الخبر عن هونين أنها هانت ودنا أمرها ودانت وان طريق فتحها بانت وأنها عنت فان ألطاف الله أعانت وانها بذلت ما صانت ولم تبق للكفر على ما كانت وان شدتها لانت وكان السلطان قد وكل بها بعض أمرائه وأمده بمدد جنده وعطائه فلبث الى هذه الغاية يصميها بسهام النكاية حتى طلب أهلها الامان على الوفاء بما يشترطون ويشطون منها ولا يشتطون فاول ما قالوا أمهلونا حتى نعلم ما يكون من صور ونكشف هذه الامور فان أخذتموها أخذتم هذه وشفعنا أمر السلطان بنفاذه وان خليتموها فيا هوان هونين ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب برهونين فندب السلطان بدر الدين دلدرم الياروقي وهو من أكابر من عظمائه وأكارم أمرائه وأمره باستنزالهم واستزلالهم والامان لنسائهم ورجالهم فمضى ورغبهم في الامن والسلامه وخوفهم عقبى الحسرة والندامه وقال لهم أنتم بين حصنين هما تبنين وبانياس وماذا تصنعون اذا خاب رجاؤكم وبان الياس واذا أبيتم التسليم عدمتم سلامتكم وأقمتم قيامتكم واستباحكم السلطان واستباكم وكرهكم وأباكم وحل بالقتل حباكم وفل شباكم فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا وأخذوا الامان على ان يذهبوا ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم ولمقاتلة أهلها مستديم والى ما عند الله من نصره مستنيم وتسلمت هونين بما فيها

من عدة وذخيره وقوة وميره وآلات وأدوات كثيره وتسلمها بيرم أخو صاحب بانياس واستشعر الفرنج منها الياس وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها وبرح بالقلوب برحها من عمل صيدا وقلعة أبي الحسن وشقيف أرنون ومن عمل طبريه والغور صفد وكوكب وهما من أحكم الحصون وقد وكل بهما أميرين من خواصه كبيرين وقد ضيقا على من بهما من العلوج ومنعاهم الدخول والخروج وأقام السلطان على صور محاصرا وللدين الحنيف ناصرا ولكيد الشرك بتطاوله قاصرا يقاتلها بكل سلاح ويقابلها بكل كفاح حتى كادت تستكين وشدتها تلين وأبيتها تدين وسريرها يبين وكان قد دخل كانون وظهر من سر الشتاء المكنون وقبض البرد الايدي عن الانبساط وأعدم الهمم دواعي النشاط وعادت العزائم المتوهجة تبرد والصرائم المتأججة تخمد والنخوات المتحركة تجمد والحميات المتيقظة ترقد والضرام المحتدم يخبو والحسام المخذم ينبو والطباع تتنكره والسباع تتأوه ومناوبة القتال تختل ومعاقدة النزال تنحل فلحاهم السلطان على ما لاح وعرفهم ان في الصبر الفلاح وأمرهم بالمقام والاستقامة على الامر وانه لا ظفر الا مع الصبر وان الظلم تنجلي عند تجلي الفجر وكان في الامراء جماعة منتخبون منتخون أبت أماناتهم في حمية الدين ان تخون مقيمون على الكريهة ولا كراهة منهم للمقام ويحبون ان تقام وظيفة الانتقام ويؤثرن بأنفسهم في طاعة الله وموافقة السلطان وعصيان الشيطان في مفارقة المكان فاذا أرجف بالرحيل رجفوا وسخفوا رأي المشير به وضعفوا واضطربوا واضطرموا وتذمموا وتلوموا وقالوا كيف نترك ما حويناه ونعوج ما سويناه وننشر كفرا طويناه ونهجر خيرا نويناه وندوي توحيدا شفيناه ونشفي اشراكا أدويناه وما للراحة اليوم طالب الا وهو غدا بالتعب مطلوب ومن أمسى وهو الآن غالب يوشك اذا ولى أن يصبح وهو مغلوب وهذه صورة صور قد تشوهت وموارد قوتها اشفهت واذا تخلينا عنها او خليناها ترفهت واستفرهت واذا حلمنا عنها سفهت وهبت من غشية خشيتها وتنبهت وتارك المصابرة مصاب والآخذ بالمثابرة مثاب فمنهم الامير طمان بن غازي ما طمأن

يوماً فى الغزو ولا سكن وعز الدين جرديك النورى كم جرد على أعناق المشركين سيفه الذي به تمكن وهما همامان مقدمان مقدامان من عادتهما الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولا يريمان وجماعة أخر بهما يتشبهون وبالكريهة لا يتكرهون وأما الباقون فانهم أحبوا البقاء وابغضوا اللقاء واتقوا الاتقاء وأبوا الا الاباء وقالوا قد لغبنا وما بلغنا وجرحنا وما ربحنا فلو رحنا استرحنا ثم عجنا ورجعنا وما نحن بأول واضع للاصر راجع عن الحصر معتف للعقل مستعف من الثقل عامل بمحض الحزم عالم بوقت العزم هذا وقد علم ما عرا من ضروب الكروب وثلم ما برى من غروب الحروب وبقدر ما هدم من مبانى البلد هدم أكثر منه من مبانى الجلد فقال السلطان بل نجد فى القتال أياما ونقدم بأسا واقداما ونزحف بجميع رجالنا ونصدقهم فى نزالنا ونقاتلهم من جميع النواحى فان تعذر لاح العذر للاحى وأصبح العسكر وقد استعد وامتد قبالة البلد من البحر الى البحر وللنصر استمد وركب الامراء باجنادهم ووقفوا وأغرلهم ورق الحديد الاخضر فقطفوا وتناوبوا فى الزحف وتعاقبوا على الحتف وكلما ترجلت طائفة قاتلت ثم رجعت وجاءت الطائفة الاخرى فصدقت وصدعت وقارعت وقرعت وصارعت وصرعت فلم ير أشد من ذلك اليوم فى وقم القوم واجترأ أصحابنا وراض جماحهم اصحابنا وخاضت خيلنا فى البحر خلف منهزميهم وأقدم من أحجم منا الاحجام مقدميهم فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها وأسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها وامتلأت السعير بقتلاهم وقالت هل من مزيد وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحه وملت الاجنحه وانهاضت قوادم الانهاض وانفضت الجموع من افواه القوى والانفاض وبات الناس على ضجر وضجاج ولجب ولجاج فلو عاودنا البلد بمثل ذلك اليوم أياما لملنا من فتحه مراما لكنهم أصبحوا على سأم وألموا بداء ألم وقالوا قلت كثرتنا فلو أقيلت عثرتنا لانجبرت كثرتنا وفينا الجريح والطليح وحتى متى لا نستريح وقد توالت الامطار فلا مطار وعلينا هذا الحصار صار وكانت الجراحات كثيره والاجتياحات بها مثيره ومنع البرد من

العمل وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل وما زالوا يراسلون السلطان ويشيرون بالرحيل ويقولون لا نتعب على تحصيل المستحيل ولا تذهب الايام فى ابرام السحيل ودعنا نستجد دعه ونسترد قوى عند لطف الله مودعه ونشتغل بفتح الايسر وهو أكثر ونؤخر التشاغل بما لعله يتعسر وكان السلطان فى تلك المده أنفق أموالا كثيرة على تلك الالة والعده وما أمكن نقلها ولا مكن من نقلها اثقلها ولو أبقاها القوى بها الكفر واشتغل بسببها الفكر فرأى نقضها وفل بعضها وأحرق منها ما تعذر حملها وشتت بعد التجمع شملها وحمل بعضها الى صيداء وبعضها الى عكاء وجرت أعاجيب ما تكاد تحكى وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وأبكى وتأخر السلطان وتباعد عن قرب صور الى المنزلة الاولى وبد أيده على جميع الاحوال طولى فشرع العسكر فى الانصراف وتزود للانكفاء والانكفاف وأخذ الجمع فى الافتراق وانتشر فى الآفاق وذهب من ذهب على مواعدة فى المعاوده ومسارعة فى الرجوع الى المساعده وودع الملك المظفر تقى الدين من هنالك وأوعد بوعد عوده الاشراك وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا وفارق الغزو وكان له ذلك المغزى مغذى وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر وكل طير منهم اشتاق الى وكر وما عرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعبا كثيرا وان هذا الهدو الذى مالوا اليه يصير لحثيث حركتهم مثيرا وبقى السلطان يتلهف على ما تركه ويتأسف على الفتح الذى ما أدركه والذين أشاروا بهذا الرأى يسهلون الصعب ويهونون الخطب ويقولون نمضى ونعود وتساعدنا السعود وتنجدنا الجنود وتتجدد الجدود ويورق العود وتصدق الوعود واذا أبقل الربيع أقبل الجميع وطاب الزمان ووفى الضمان وأمكن الاسعاد وساعد الامكان وما زالوا بنا حتى رحلنا وعلى الرأى الرائب منهم أحلنا ولو أقمنا لنقمنا وقمعنا العدو وقمنا لكن الله قدر وقدره محتوم وسر غيبه المكتوب فى اللوح المحفوظ مكتوم وأراد ولا مرد لمراده وقضى ولا محيد لما قضاه فى عباده ان تبقى صور فى تلك الحالة للكفر وكرا وللمكر مكرا وللشرك شركا وللنار جهنم دركا وقدمنا عن صور

الارتحال آخر شوال غرة كانون الثانى وعم البرد فى القاصى والدانى وتوحمت السماء من حوامل السحائب وتوحلت الارض من سوائل المذانب والنكب الرياح عواصف عواصف قواصم قواصف والسحب الدلاح هوامل هوامى رواعد رواعف والبرد قارص فارس والماء جامد جامس والشتاء شبمات بتات ومامع مقامه وثباته مقام وثبات وسرنا عبابيد فى ابابيد وبين جليد وجلاميد على الناقورة وطريقها والاثقال قد ازدحمت فى مضيقها والاحمال تتواقع والاجمال تتقاطع والسبل تنسد والسابلة ترتد وسلكت الخيل الجبل وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصل وتأخر الثقل الى أن تخلص وتقدم من سبق وتملص ووصلنا الى عكاء فى ثلاث مراحل وقد غطى بحر عسكرنا الساحل وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل سامى المحل نامى الفضل دائم الفكر فى تدبير الامر وتدمير الكفر واثقا من الله بانجاز عدة النصر

(ذكر الحادثة التى تمت على محمود أخى جاولى حتى استشهد هو وأصحابه)

ويوم رحيلنا من صور نعى محمود أخو جاولى وكان من جملة الامراء أعف ولى وولى وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد وقضى صابرا مصابرا وهو سعيد شهيد وسبب ذلك ان السلطان لعلمه بديانته وأمانته وبأسه وبسالته ويقظته ونهضته وحزامته وكله بحصن كوكب الذى على الغور وكانت فيها جمرة الاسبتاريه القريبة الجور البعيدة الغور وقد تمنعوا بشدتهم واشتدوا بمنعتهم وهو حصن لا يرام وركن لا يضام ومعقل لا يسامى ولا يسام وذروة لا تقرع ومروة لا تقرع وعقيلة لا تفترع وبكر لا تخطب وقلعة لا تطلب ولما ملك الساحل وهلك الباطل ونظمت الحصون فى سلك الحصول وظفر الاسلام بالفتح المأمون المأمول وافتتحت طبرية وأعمالها وتملكت أغوار تلك البلاد وجبالها تمنعت قلعتا صفد بالداويه وكوكب بالاسبتاريه وتعذر فتحهما وتعسر منحهما ووقف أمرهما وأعدى البلاد ضرهما فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصريه من أهل الابية والنخوة والحميه ومقدمهم مسعود الصلتى أصلتت سعادته منه سيفا اصليتا لا يلفت عن لقاء العدو ليتا ورتب على كوكب هذا

محمودا وكان بهما أمر الحفظ محمودا وذلك بعد الكسره وصحة النصره فاحاطه بالحصنين واحتاطا وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى وكان الحفظ مستمرا والاحتياط مستقرا حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن وظن انهم فى غاية الوهن وسكن الى سكونهم وأغمضت عينه لتوهم اغماض عيونهم واسترسل فيما حزب واستسهل ما صعب وأخل بالحزم وخلا من العزم واحتقر عدوه وحسب من العجز هدوه وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفربلا قد أقام به جاما جامعا فيه ما أمر وحلا وكان ذا دين متين ومكان من النسك مكين وهو يسهر أكثر ليله متهجدا وقد جعل منزله مسجدا وأصحابه من حوله يحفظونه بقوة الله وحوله فلما كان آخر ليلة من شوال وهى ليلة ذات أهوال مظلمة مدلهمة كافرة مكفهره ليلاء قتماء باردة مقشعره أنوارها بائده وأنواؤها جائده وهزيع جنحها دجوجى وهزيم ودقها طى وسحبها سحم وأقطارها هادهم وصبيرها صيب وصنبرها شيب لا يفرق فيها السماء من الارض ظلمات بعضها فوق بعض خرج أهل كوكب وقت السحر ومضوا اليه وقد رقد بعد طول السهر والناس رقود والحراس هجود والجنود جمود والانفاس خمود والهمم ركود والسيوف أسرار أضمرتها الغمود والعدم قد دنا منه الوجود فما أحس محمود المحمود وأصحابه الهمود الا بالفرنج وقد سلكوا اليهم وبركوا عليهم فقصروا عن الامتناع ولم يقدروا على الدفاع فجاءتهم السعاده وفجأتهم الشهاده وبقى الامير حتى استشهد محصورا وكان أمر الله قدرا مقدورا ونقلوا الى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع وخيل وكراع فلما عرف السلطان ما أصابهم احتسب عند الله مصابهم وأحمد الى الجنة مآبهم فندب الى كوكب صارم الدين قايماز النجمى الصارم المخذم والحازم المقدم والعضب البتار والندب المغوار والاسد الاسد والاحمى الاحمد فى خمسمائة فارس من ذوى النجده والبأس والشده فسد الطريق بمضايقتها عنها ومنع من الدخول اليها والخروج منها ولم يزل عليها مقيما ولحصرها مستديما الى أن يسر الله فتحها وسهل للآمال فيها نجحها وسنذكر ذلك فى موضعه وكيف

أشرق صبح النصر من مطلعه

(ذكر ماجرى بعد نزول السلطان على عكاء بعد عوده من صور)

استأذن الملك الظاهر والده فى العود الى حلب فأذن له وودعه بعد ما أمره بكل مايجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبعه وودع الملك العادل وأوجه الى مصر مستقبل الظفر والنصر وأقام الملك الافضل بعكاء مستقلا بالآراء مستهلا بالآلاء مستبدا بتدبير أسباب الهدى مستعد التدمير أحزاب العدى وأقمنا بالمخيم لخدمة السلطان ملازمين ولاقامة شرائطها مداومين وكل يطلب اذنا فى الانصراف ويستقيم على نهج الانحراف حتى خف من عندنا من الجند وثقل علينا عب البرد وتناوحت الهوج وتراوحت الثلوج ورجت الدروج ونجت النوج وارتجز عجاج الودق وارتجس ثجاج البرق وجفت الحرجف وطفح الاوطف وتقطعت الخيام وتقلعت الاوتاد وتجللت بأبراد الجليد من البرد الآكام والوهاد ومال بل وقع عمود السرادق ودام تواصل البوارح والبوارق ودخل السلطان الى المدينه وسكن بها فى كنف السكينه مستقيما على المحجة المستبينه مقيما للعصبة المتينه وشرع فى اعداد العتاد واستمداد المدد وابرام معاقد الحل والعقد واحكام قواعد الدين والمجد واحياء سنة السماح والفضل واعلاء سناء الاحسان والعدل وافادة الكرام واكرام الوفود واعادة ما بدأ به من افاضة الجود واجازة الراجين واجارة اللاجين واسعاف العافين وايعاد العادين وادناء أهل العلم واغناء ذوى العدم وانجاح المقاصد وانجاز المواعد

(ذكر رسل وردوا فى هذا التاريخ)

وكانت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق عاكفين على بابه قاطفين جنى جنابه واقفين لرفع حجابه مستسعفين لنعمائه مستعطفين لابائه متعرضين لثوابه متضرعين فى خطابه وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته وخصه بنجح وسيلته وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك وهداه الى سبيله وقد تعذر بهم اليه السلوك وهو فتح القدس الذى درج على حسرته القرون الاولى وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى فما منهم الا من يعترف

بيمنه ويغترف من يمه ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه ويخطب الصداقة ويخاطب فى الصدق ويحقق المظاهرة لاظهار الحق ويتقرب بالوفاء والوفاق ويتباعد عن الشقاء والشقاق ومن جملتهم رسول صاحب الرى قتلغ أينانج بن بهلوان ورسول قزل أرسلان المستولى على ممالك همذان وأذربيجان واران وهو عز الدين الطالبى الطالب للعز الراغب فى الفوز فما من يوم يمضى وشهر ينقضى الا ويصل منهم رسول ويتصل به رسول وتنجلى غممه وتجلى نعمه وتتجه بشرى وتستبشر وجوه ويكشف مكروه ويكفى مكروه ونظر فى أحوال عكاء فرتبها وفى أمورها فهذبها وفى مضارها فاذهبها وفى منافعها فقربها وولى عز الدين جرديك بها واليا وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الافضل حاليا ووقف بها وقوفا وأجنى المستحقين منها قطوفا وأسدى معروفا وأعطى ألوفا وأرغم من الاعداء أنوفا وكانت فتوحه لهم حتوفا ووقف نصف دار الاسبتار رباطا للمتصوفه وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفه ونصفها مدرسة للمتفقهه وللطلبة المتعففة المتنزهه تجمع بين العلم والعمل والنجح والامل وكتب الرزق لهم الى كتاب الاجل واتخذ لطلب مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضى وأتى بكل ما يحبه الله ويرضى فلم يبق سنة الا خلدها ولا منة الا قلدها ولا أجرا الا أجراه ولا هدى الا أهداه ولا أمرا الا أمره ولا درا الا أدره ولا فريضة الا أداها ولا فضيلة الا أتاها ولا فرصة صواب الا انتهزها ولا حصة ثواب الا أحرزها ولا رمم فواصل الا أنشرها ونشرها ولا أمم فضائل الا حشدها وحشرها وما ترك قارئا الا أقرأه ولا راويا الا أشبعه وأرواه ولا حافظ حديث الا حفظه من الحدثان ولا محسن صنعة الا اصطنعه بالاحسان ولا ناظم مدائح الا نظم له المنائح ولا موافيا بقريض الا وفى قروضه وأعجز عن القيام بحمل حده نهوضه وتقدم الى الوالى بالتردد فى الاعمال وتفقد الاحوال وسد الخلة وتسديد الاختلال وتعليل السقيم وتسقيم المعتل وتحليل العقد وتعقيد المنحل فاستقرت بولايته الولايه واستمرت لرعيته الرعايه ودرت أفاويق الآفاق ودارت أسواق الارزاق

﴿ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حامد من دار الخلافة للرسالة في العتب على احداث ثقات وأحاديث نقلت ووشايات أثرت وأرثت وسعايات في السلطان عثت في الاحوال وشعثت وذلك في شوال ونحن على حصار صور ونزاع ونزال﴾

﴿ذكر السبب في ذلك﴾

لما تم الفتح الاكبر وخص وعم النجح الاظهر وقطع دابر المشركين وحط اقبال المسلمين أوزار ادبار الكفر بحطين أمرني السلطان بانشاء كتب البشائر الى الآفاق وتقديم البشرى به الى العراق فقلت هذا فتح كريم ومنح من الله عظيم وملك عقيم وسعود وسيم فلا يجب ان يكون مبشر دار الخلافه بما أنزله الله لنا الرحمه والرآفه الا من هو عندنا أجل وأجلى وأعلم وأعلى وأجمع لفنون الفضائل وأعرف بأداء الرسائل فلا توجه بهذه الكرامة الا الكريم لوجيه ولا تنبه لهذه المقامة الا القويم النبيه ولا ترتفع العظيم الا بالعظيم الرفيع فان الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع فقال هذه نصرة مبتكرة بكرت وموهبة ميسرة بدرت وندرت فنحن نعجل بها بشيرا ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيرا وكان في الخدمة شاب بغدادي من الاجناد قد هاجر للاسترفاد وتوجه بعد وصوله ونبه بعد خموله فسأل في البشارة الى بغداد وزعم انه يداوم اليها الاغذاذ وشفع له جماعة من الاكابر حتى خص بأشرف البشائر فقلت هذا لا يحصل له وقع ولا يصل اليه نفع والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير وفي هذه النصرة الكبرى كبير فان الرسول من يندب للتفهيم والتفخيم ويرتب في الامر العظيم للتعظيم ثم سار المندوب وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب ونفذ بها كتاب ووصل البشير الجندي فلم تجل به على كفوا الجلالة من الهدى الهدى وحقروه وما وقروه فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به من الرقة والعين ونقم على السلطان ارسال مثله وانه لم يعصب المنصب في تلك الرسالة بأهله وتسمح المندوب بكلام أخذ عليه وبدرت منه أحاديث نسبت اليه وقال في سكره وحالة نكره ما يعرض عن ذكره تخيل وموه وتنكر ونكره وظن ان

لكلامه أصلا ولقطعه متواصلا وأنهيت الى العرض الاشرف مقالاته وعلمت جهالاته وتجني على السلطان بارساله وطرق الى هداه ما أنكروه من مقال المذكور وضلاله ووجد الاعداء حينئذ الى السعاية طريقا وطلبوا الشمل استسعاده بالخدمة تفريقا واختلقوا أضاليل ولفقوا أباطيل وقالوا هذا يزعم انه يقلب الدوله ويغلب الصوله وانه ينعت بالملك الناصر نعت الامام الناصر ويدل بما له من القوة والعساكر فأشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه وبرز الامر المطاع بارسال أخي وانفاذه وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد يكفل لنا في كشف سر الامر بالمراد فان أخاه هنالك مطلع على الاسرار وهو منتظم في سلك الاولياء الابرار وعول عليه الديوان العزيز في السفاره وردمعه جواب البشاره وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب ومكدرات موارد القرب والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينه ونشر الاعتاب في طي العتاب وروح الارضاء في شخص الاغضاب وبرد الموهبة في برد المهابه برد ظن الخطا الى يقين الاصابه وشرف من الديوان الاخ فسار وهو يبذخ وقد أصحب خيلا وأسحب من التشريف والانعام ذيلا والحف من نور الاهبة العباسية نهارا وليلا فوصل السير بالسرى وقطع الوهاد والذرا وجاء الى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعه واشارة رادعه وشعار مهيب وشرع مصيب وهيبة روعة امامية وهيئة عصمة عصاميه وفرند نبوى لا ينبو وزند ورى لا يكبو ولسان في الصرامة جرى وجنان بالشهامة حرى وبلاغة بابلاغ ماليس ببلاغ وفية وافيه وصيغة بصياغة كل غريبة قول ورغيبة طول كافلة كافيه وسنا وروقار يستعير منه سنير وثبات خلق يتخلق به ثبير وكان قد عاد المندوب نادبا عاديا جاحدا للنعمة شاكيا ذاكرا انه عدم الحفاظ ووجد الاحفاظ وأكثر الكلام فاحرك شمام وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض وخطب مقض وغضب مغض ولفظ فظ وحض على غير حظ ومعه الملامات المؤلمات والظلامات المظلمات فقلت له اسكت واصمت

وبعالك من وسم الوصم مت ولاتدخل هذا الباب واخرج وليس هذا بعشك فادرج وقلت للسلطان سمعا وطاعة لامر الديوان فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان فقال نعم ماقلت وقد طلت بارسال أخيك وطلت وما أسعدني اذا شرفت بالعتاب وأسعفت بالخطاب والمملوك ينفعه التأديب ويزعه التهذيب على انا لم نأت الا بكل ماقوى الهدى وأضعف العدى وكف الكفر وأدنى الدين ومازلنا في طاعة أمير المؤمنين مجتهدين أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعي وفرخت أما استأنفنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد ان كانت سنين بسواها أرخت اما استخلصت اليمن وللدعي بها داع وللهدى فيها ناع وللضلال منها راع أما أرحت من رق الشرك الساحل اما أزحت عن حق الملك الباطل اما فتحت البيت المقدس والحقته بالبيت الحرام وألحفته رداء الاكرام واعدت الى الوطن منه غريب الاسلام اما رعت الغرب بغرب عزمي ووزعت الشرق بشرع حكمي وما تعبدت الا بالعبودية للدار العزيزه وهذه الفطرة متمكنة مني في الغريزه فأهلا وسهلا بالرسول وبالسول وحبا ومرحبا بالاقبال والقبول وما أتى الا بالحب والحبور ولامرار الامور ولاظهار سر السرور والبارق يشام اذا رعد والصادق يرام اذا وعد وما أسرنا بالواصل وأوصلنا بالمسره وأبرنا بالجدوا جدنا بالمبره وجمعت منه كل ماهدى سمعي وابدى لمعي وجمع شملي وشمل بالعز جمعي ولما قرب أخي أصبحت لقدومه انتحي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله وتقدم لجلالة قدومه باجلاله ثم ركب وتلقاه بنفسه وخصه من تقريبه بأنسه ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار ومصار الكفار ومواطئ أقدام ذوي الاقدام ومواطن بسالة أهل الاسلام ثم نزل وانزله بالقرب وعقد له بالحباء حبى الحب وسفر وجهه لوجاهة السفير وأحل محل التوقير والتوفير وتبلج له صبح التبجيل وتأمل منه نجح التأميل ثم حضر عنده وقد أخلى مجلسه لي وله وحده فادى الامانة في مشافهته ووجه مقاصده في مواجهته واحضر التذكره وقد جمعت المعرفة والنكره فقرأتها عليه بفصولها وفصوصها وألزمته حكمي عمومها وخصوصها ووقفته على ظواهرها ونصوصها وكانت في الكتب غلطة عدت

من الكاتب غلطه وخيلت سقطه وجلبت سخطه وقال ان الامام أجل ان يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ فقد أمكن ايداع هذه المعاني في أرق منها الفاظا وارفق وأوفى منها افضالا واوفق ومعاذ الله ان يحبط عملي ويهبط أملي وامتعض وارتمض ثم أعرض عما عرض ورجع الى الاستعطاف وانتجع ارق الاستسعاف وقال اما ماعمله الاعداء وعدا به المتمحلون وتنفق به المتقولون وتسوق المبطلون فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفه وماهززت منذ اعتززت أعطاف العز الا لما يعززني من العاطفه وان شرفني بالنعمة السالفه يوجب أنفي من هذه الآنفه وأما النعت الذي أنكر ونبه على موضع الخطا فيه وذكر فهذا من عهد الامام المستضيء رضوان الله عليه وجرى لتحققه مني على الالسنه ومتى عد سيئة ماعد من الحسنه والآن كل ماشرفني به أمير المؤمنين من السمة فانه أسمى الذي هو أسمى وأشرف وأطرأ وأطرف وأرفع وأعرف ومازاده ذلك العتب الا خلوص ولاء وخصوص اعتزاز واعتزاء ثم قال كل مااعتمدته من نصرة الدين وقهر اعداء أمير المؤمنين فانما طلبت به وجه الله ورضاه ماتعبدت به سواه فاني أفترض الطاعة الامامية للدين لا للدنيا وما أتقوى فيها الا بالتقوى وماقى عزمي الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين وقطع دابر المنافقين والمشركين واذا عادت عواطفه عطفت علي في الحسن العوائد وقطفت الفوائد وصفت الموارد ووفت المقاصد وبعد الاباعد وبعد الحاسد الحاشد وهجر الساعي وأجرى أجر الداعي وعلم جهل الواشي وعذر ذعر الخاشي وجرب غش الغاشي وخرب عش العاشي وذوت هموم ذوي الهمم واوليت كرامة أولي الكرم ومازال السلطان مدة مقام أخي عنده يوري في عظامه زنده ويأمر باكرامه جنده فكنت اشفق من تكدر ذات البين بعود الانس والوصلة الى الوحشة والبين وان جماعة من الاكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له قد نسب حقك الى البطلان ورميت بالبهتان ولمحت طاعتك بعين العصيان فكيف خفت وماعفت وألفت ومااتفت ورغت وماغرت وصبرت وماسبرت واغضيت لما اغضبت واعتبت لما عوتبت وراقبت وماروقبت فقال تذللي للديوان العزيز تعززيه

ادين وتولى الى مرضاته توصل بالله فيه استعين فتواضعى ترفع وتخشعى تورع وحبلى حبى متين ومكان قربى مكين ومما قلت له واوضحت له سبله انا كنا بطانة أمير المؤمنين نطول ونصول ونزاول بها الملوك وعنها لانزول وهذه فضيلتنا التى رجحت ووسيلتنا التى نجحت وكنا بها مسعودين وعليها محسودين وقد شملت بها بركاتها وكملت حسناتها وصفت مشارع نعمها وضفت مدارع حسنها فلا تلتفت الى من يافك ولا تتثبت لمن لا يثبتك وأعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف وانهض لمن ينهض للائتلاف فقال هذا دينى وديدنى وبه أعنى وأعتنى ولنوره اجتلى واجتنى ثم ندب مع أخى من سارقى خدمته لزيارة القدس وأمر بان يقف به على مواقف الطهر التى طهرت من أهل الرجز والرجس ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل ما فى النفس وبالغ فى ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشى والتخشع وانشأت عنه الى الديوان كتبا صعه وبعده ضمنتها كل ما حلا وجلا جدة وجده وكل ما يبطل سوق المتفقين ويعطل نفاق المتسوقين ويهجن خلق المختلقين ويزيل تلفيق الساعين ويزيح سعاية الملفقين ويتعرف الى العوارف الغزر بالشكر ويستعطف العواطف الغر بالعذر ويجتهد فى استفراغ المجهود للاستغفار وينفض عن وجه البشر ما عليه من الغبار وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا ومضى ما مضى وقضى القدر من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى

وفى هذه السنه استشهد الامير شمس الدين بن المقدم بالموقف فى عرفه لابداعه رسما ما عرفه فذهب غلطا وعطب فرطا وذلك ان أمير الحاج طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع فندب اليه من به وبأصحابه أوقع فتمت من هذه الفتنه فتره ونمت نفره ولما نمى الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الاذعان وقال لاشك ان طاشتكين طاش وقصد بعد الايناس الايحاش وعد الديوان العزيز هذا من ذنوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد سنين

(نسخة كتاب جامع للفتح القدسى الاعمين أنشأتها الى سيف الاسلام أخى السلطان باليمن)

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامى ضاعف الله علاءه وظاهر آلاءه وضافر نعماءه وأظفر بالنجح رجاءه وأضعف حساده وأعز أولياءه وأذل أعداءه ولا زالت أيامه بالايامن مسفره ولياليه بالمحاسن مقمره ومكارمه بالمحامد مثمره وعهود مواليه بشكر النعم محكمه ومعاهد معاديه بقهر النقم مقفره دالة على البشرى بالفتح الاكبر والنجح الازهر والنصر الاشهر والعصر الابهر والفضل الاكثر والافضال الاوفر واليوم الانور واليمن الانضر والفجر الاسفر والفخر الاظهر والجد الاشم الاشمخ والمجد الابلج الابلخ والعز الاسمق الاسمى والنور الاتم الانمى والظفر الاجل الاجلى والوطر الاحل الاحلى والشرف الاسنم الاسنى والعزم الاغنم الاغنى والسعد الاجد الاجدى والصيت الابدى الابدى وهو الفتح الذى تفوح بعجابه مهاب الفتوح وتبوح بسر روحه وملكه سرائر الملائكة والروح وتروح وتغدو غوادى النعم وروائحها الى روض الهدى المروح وتلوح تباشير بشراه فى لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر المشروح وتنوح ناعية الكفر فى كل ناحية ولكل نادبة للاسى على قتيلها وأسيرها ندوب فى القلب المقروح وهو فتح بيت الله المقدس الذى غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه وطال فى أسره سجنه واستحكم وهنه وقوى نكره وضعف ركنه وزاد حزنه وزال حسنه وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه وواصله خوفه وفارقه أمنه واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساءظنه وذكر فيه الواحد الاحد الذى تعالى عن الولد أن المسيح ابنه وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه وأفرد عنه التوحيد فكاد يمتنه ودرج الملوك الاقدمون على تمنى استنقاذه فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه وكان فى الغيب الالهى أن معاده فى الآخرة الى معاذه وان نفاد دليل الشرك باسفار صبح أمرنا واشراق مطالع نفاذه وذخر الله هذه الفضيلة لنا ولهذا العصر وأنزل على نصلنا نص النصر وأطلع لبل عزمنا فجر الفخر ووفقنا لوصل أسباب الاسلام وقطع دابر الكفر وذلك انا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع أهل التثليث وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث

وخرجنا من دمشق فى المحرم فى العزم المصمم والرعب المجهز الى الكفر والبأس المقدم وكنا أشفقنا على طريق الحج من قصد الفرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم وتصدينا للجهاد بردهم عن المراد وصدهم وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك وقدمنا الطلائع الى المناهل ونظمنا مسالك امدادهم فى ذلك المسالك حتى وصل الحاج سالما وذل الكفر عن قصده راغما ولما فرغ القلب من شغله وفاز كل بجمع شمله بأهله سرنا الى الكرك فى الامراء والمفردين الخواص وشرعنا للجهاد فى سبيل الله الفاتحة بالاخلاص وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات وترقبنا توافيهم للميقات وأمرنا ولدنا الملك الافضل أن يقيم برأس الماء ويكون فى خدمته جميع الامراء وسرنا الى الكرك والشوبك فاخربنا عماراتها وأحرقنا غلاتها وقطعنا ثمراتها وأزعجنا ساكنيها وأخفنا آمنيها وأجلينا عنها فلاحيها وأقمنا النوائح عليها فى نواحيها ووصل الينا ونحن بالقريتين العسكر المستدعى من الديار المصرية فقويت به قلوب الامة المحمدية واجتمع بالمخيم الافضلى برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفراتية والجزرية والموصلية والديار البكرية فانتهز ولدنا هنالك فرصة الامكان وأنهض الى الكفر سرية من أهل الايمان فساروا سارين وأغاروا غادين وأخذوا ونهبوا وسبوا وسلبوا فلم يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق وأخذت دون خروجهم الى السعة المضيق فثبتوا ثبوت الجبال للرياح العواصف وشرعوا الى عرانين الكفر أسنة الرماح القواصف وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بن زين الدين ومعه مملوكنا قايماز النجمى صارم الدين فلقيا بصدريهما صدور العوامل وحملا فى عسكرنا على الفارس والراجل وحصل الفرنج منهم فى دائرة لردى وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من الفرنج القتلى والاسرى وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى واتصلت بنا ونحن فى بلاد الكرك البشرى وشكرنا الله على نصرته الاولى وقلنا هذه مقدمة الاخرى ولما قضينا الوطر من تلك البلاد ووقينا باحراق أقوات أهل النار بالنار حق الجهاد فاجتمعنا بأصحابنا

القادمين من مصر وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت أمارات النصر عدنا الى الشام وقد تكاملت به جموع الاسلام وزخر بحر الفضاء بأمواج الاعلام وطفا على أتباع لجه حباب الخيام وقد فض الفضاء ختام القتام وعلق بالآفاق من ذلك الفيلق غرام الرغام فخيمنا بعشترا شهرا وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها جهرا وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهرا وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا ونادوا فى بلادهم فأسمعوا واجتمعوا على صفورية من صفر وحشروا فى تلك الاشهر من جمعهم فى المحشر جموع سقر وأخرجوا صليب الصلبوت وقائد أهل الجبروت فتهافت الى شعلة ناره فراشهم وتوافى الى ظلة ضلاله خشاشهم وقاموا وقيامة رعبهم قائمة وسوابح جردهم فى بحر العجاج عائمة وطلائعهم سارية وسراياهم طالعة ومقدمات رعبهم منا السائرة لجموعهم وقلوبهم مقضة خالعة فلما تكامل منا الجمع وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع عرضنا عساكرنا يومئذ كر يوم العرض وتلو مشاهدة لتنزل الملائكة ولله جنود السموات والارض فى رايات خافقة كقلوب الاعداء عالية كهمم الاولياء وسرنا فى جموع ضاق بها واسع الفضاء وسار فى كتائبها نازل القضاء وسحب ذيل الارض بغبار نقعها على السماء وقطعنا الاردن وتأييد الله مواصل وقدره باقتدارنا على الاعداء كافل فألممنا بطبرية حتى فتحناها بالسيف ودخلناها دخول المغير لا دخول الضيف وتسلمنا المدينة ونازلنا قلعتها البكر الحصينة وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يوم الخميس وأسد الوغى قد اتخذت من وشيجها العريس هذا والملك العادل عنا غائب ومعه أيضا عصر كتائب وتوفيق الله له مصاحب وكنا عزمنا قبل قصد طبريه ان نلاقى الفرنج على صفوريه فى مركزهم ومجتمعهم ونلابسهم فى مخيمهم فحين نزلنا من الثغر بالاقحوانه وتمسكنا من الله بالاستنجاد والاستعانه ركبنا قبل قصد طبرية الى الفرنج فى مجمعهم وأشرفنا عليهم فى موضعهم فما برحوا من مكانهم ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم وارتدنا فى صحرا لوبية موضعا للمصاف واسعا وفضاء

لمأزق الجمعين جامعا وبتنا هنالك باطلاب الابطال ميمنة وميسره ووجدنا
بتأييد الله أسباب الظهور ميسره وجئنا في خواصنا والجانداريه ونزلنا
في العدة المجردة على طبريه وأخذ النقابون ساعة النزول في النقب فصرع
قائم سورها للجنب ودخل الناس اليها ليلا للنهب وكانت ليلة مدلهمة
معتمه وأرجاء المدينة مظلمه فاشعلوا وأوقدوا ودخلوا الدور وتفقدوا ما لم
يفتقدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار فاحترقت تلك
المساكن والديار وتحصن أهلها بقلعتها وتمنعوا بمنعتها فأصبحنا على حصرها
وسلكنا جدد الجد في أمرها فجاءت رسل الامراء ان الفرنج قد تحركت
وانزعجت لكون عقيلتهم من طبريه تملكت وأدركهم الندم كيف تركت وما
أدركت وانها قد عبت جنودها وشبت وقودها ولبت نداء جموعها وصبت
عليها ماء دروعها وغاضت في غدران سوابغها السابريه وفاضت بحار سوابحها
الاعوجيه وان جمرهم قد استعر وان بحرهم قد زخر وانهم قد أتوا في عددهم
وعديدهم وحدهم وحديدهم وخيلهم ورجالهم وطلهم ووبلهم وفارسهم
وراجلهم وأحزاب ضلالهم وابطال باطلهم وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبريه
وسبقنا بفضيلة فتحها البريه غاروا على العقيلة السبيه وأشعلت نخواتهم نار
الحميه وساقوا الى معترك الردى وملتقى المنيه ولما عرفنا قربهم قصدنا حربهم
وزحفنا لهم وأشرفنا عليهم واللجب السارى كالجبل الراسى وقد افاض الحديد
من قلبه على الحجر القاسى ولمعت بوارق بيارقه وراعت طوارق طوارقه وبرقت
قوانس قوامصه وارتعدت فرائص فرافصته وأمكنت فرائس فوارسه وباح
الحديد على عوابسه بوساوسه وماجت بحار سلاهبه واشتعلت نيران قواضبه
وشدت الاجادل دون ضوارص صوارمه وسدت بعرض أفواجه فجاج مخارمه
وقرنت الافات بلامانه وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته فاغتنمنا الفرصة
في اللقاء وهجنا الى الهيجاء وأسرعت الاعنه وأشرعت الاسنه وثقع النقع
أوام الجو وأجاب الصدى دوى الدووجال الجاليش وطار السهم المريش وعصفت
رياح السوابق واستعبرت عيون البوارق ولقيناهم في عرمرم عارم ومجر جارم

وعوامل جوازم وصواهل صلادم وضراغم ضوار وجوارح جوار وأسود
قد اعتقلت أساود وجياد قد حملت أجاود وسوابح قد أقلت بحورا وصقور
قد ركبت صقورا وواقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك وبازاهم لا يبرك
وصفهم لا ينفض وجدارهم لا ينقض وبنيانهم مرصوص وطائرهم عن الطيران
مخصوص حتى دخل الليل وقرى الوادى ذلك السيل وبات الفريقان على
تعبيتهما واجابة داعى الموت بتلبيتهما وأصبحنا يوم السبت وأهل الاحد على حالهم
لم يرعوا موضع قتالهم ومازالت الحملات تتناوب والاسلات تتواثب وتتناوب
والسواعد بقرع الظبى سواع والرواعف فى زرع الطلى زواع والمنايا تئن والحنايا
تحن والبيض تصافح البيض صفاحها والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح
البكر عند اللقاء لقاحها والذوابل فى أشاجع الشجعان ذواب والصوارم لجوامح
النيران شواب وضمائر الغمود قد باحت بأسرارها ونواظر الجفون قد تخلت
غرارها ولما أحسوا بأسنا واصرار امراسنا والهجير يتلظى وقد وقد
عليهم بناره والاوام يتوقد ولا يتوقى احراقهم بأواره ماتوا الى طلب الماء وأخذوا
طريق البحيرية للارتواء فأخذنا قدامهم ووقفنا أمامهم وحلأناهم عن الورد
وألجأناهم الى الردى بالرد فاعتصموا بتل حطين وصرنا بهم محيطين وتحكمت
فيهم قواضى القواضب ونشبت من النشاب بهم نيوب النوائب وكان جمعهم جمرا
وقد وقد فصب عليهم السيف نهر الخمد وفضوا بالفضاء وفرشوا بالعراء وعب
دأماء الدماء وغصت الفجاج بالقتلى والاسراء وأسر الملك وأخوه والابرنس
الكركى ومواززوه ووجوه الكفر ومقدموه ومقدم الداويه واعوانه وصاحب
جبيل وأعيانه وهنفرى بن هنفرى وابن صاحب اسكندرونه وصاحب مرقيه
ولم يفلت الا ابن بارزان والقومص وتم لهما من الورطة المخلص وكان كلاهما
ملهما عند اللقاء بالقتال وعند الفرار بالاحتيال فاما القومص فانه لما مضى
بطرابلس أدركه الموت فى برجه المشيد ونقله القدر الى عذابه المؤبد
وذل ذلك اليوم أهل الجبروت وحيز صليب الصلبوت وباروبار أولياء الطاغوت
وهلك عبدة الناسوت واللاهوت وملك عليهم القدر كتاب الاجل الموقوت وقد

منا الابرنس وضرب رقبته وفاء بالنذر وعجلنا به الى النار مأوى أهل الغدر وألحقنا به الداويه والاسبتاريه وأدرنا عليهم صبرا كؤس المنيه ورويناظماء الظبى من نجيعهم وفرينا سيد الفلا من صريعهم وعدنا الى طبريه فتسلمنا قلعتها وحللنا عقدتها وفرعنا ذروتها وفترعنا عذرتها ثم سرنا الى عكاء ففتحناها بالامان وأعلنا بها شعار الايمان واستقرينا بعدها البلاد الساحليه من جبيل وحد طرابلس الى الدار وم غيرصور فانها امتنعت بسورها ولم يبق فى كاس الكفر غير سورها وانها وجدت فسحه فى أيام اشتغالنا بفتح أخواتها وكثفت من عدد المحاصرة آلاتها وكنا لما فتحنا عسقلان بدأنا بالنزول على القدس وذلك يوم الجمعه ثالث عشر رجب فرجف بها قلب الكفر ووجب وظن أهلها أنهم يعتصمون وانهم من بأسنا يسلمون فنصبنا عليهم منجنيقات هدت أحجار السور بسوره أحجارها وآذن ركوعها بسجود الابراج فى ابراجها ووفت الصخور باصراخ الصخره وعثرت تلك القلل لا اقالة مادام بها من العثره وكشف النقب ونقب الاسوار ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار وعلم الكفار لمن عقبى الدار وأيقنوا بالقتل والاسار فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان مبتهلين فى طلب الامان فأبينا كل الاباء الا سفك الدماء من الرجال وسبى الذرارى والنساء فخوفوا بقتل الاسراء واخراب العمران وهدم البناء فأمناهم على قطيعه موازيه لاثمانهم لو أسروا أو سبوا فأمنوا من أن يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا ومن وفى منهم بالقطيعه خرج بحكم العتق ومن وعجز عن أدائه دخل تحت الرق وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من التقوى الى تأسيسه وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر قياس قسيسه وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت قبة الصخرة لفضلها وباشرت الجباه بها مواضع سجودها وصافحت أيدى الاولياء آثار القدم النبويه بتجديد عهودها وشوهد مقام المعراج ومواطئ براقه وروى نور الاسراء ومطلع اشراقه ودنا المسجد الاقصى للراكع والساجد وامتلأ ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس وجليت هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار

صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح وشفى الله بسقيا هذا الفتح ما كان دهم القلوب لاجلها من تبار التباريح فالبيت الحرام مسا والبيت المقدس مفدى منا كلاهما من المهج والانفس بالانفس وانه من المساجد الثلاثه التى تشد اليها الرحال الرجال ويضيق عن وصف شرفها فى حلبة البيان المجال وهو للحرمين ثالث ولا تثليث فى حرم توحيده فتجدد جد الاسلام بتجديده ولما فرغ البال من تدبيره وقضينا حق تقديسه وتطهيره صرنا الى صور ونازلناها بعسكرنا المنصور وفى صور سؤر الكفر وبقيته وقد تحصن بسورها ومنعته شرذمته وهى مدينه حصينه متوسطه فى البحر كانها سفينه وقد نصبنا عليها المنجنيقات فنكأت فيها ورمت من أعاليها وهدمت من مبانيها ولم يبق فى جعبة الكفر سوى نشابها وان جمعت علينا فندمرة الله وعوائد تأييده لنا تؤذن بأصحابها واذا تسلمناها تسلمنا باذن الله كل بلد للفرنج باق ومالهم من عذاب الله الواقع بهم واق ثم رأينا ان حصار صور يطول وان مسئلة بيكار العسكر فيها تعول وان فتحها لا يفوت وله وقته الموعود وعدده الموقوت وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيى وكل وقد دخل الشتاء وبرد الهواء وحادت السماء وتواترت الانواء وتواصلت الانداء ولا بد من استئناف جمع العساكر فى أيام الربيع واستمداد النصر الذى يضم لاستعداد الفتح شمل الجميع ورحلنا عنها بعد أن رتبنا حولها فى الثغور المجاورة لها من يديم شن الغارات عليها ويواظب على النهوض اليها وفسحنا لاجنادنا فى الاستراحه مدة شهرين الى النيروز فان فى تلك الايام تتوفر العزائم على المبارزة والبروز وقد جرت المواعدة على المعاوده والمعاقدة للمعاضده والمعاهدة للمساعده فليس فى الفرنج من يقاتل الآن على الخيل والنهار عليهم فى اظلام الليل والعز متقلص الظل عنهم والذل ضاف الذيل وقد خرب حزبهم من حرب امشير للحرب والويل وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينه والمعاقل المبينه وهى طبريه عكاء الزيب معليا اسكندرونه تبنين هونين الناصرة الطور صفوريه الفولة جينين زرعين دبوريه عفربلا بيسان سبسطيه نابلس اللجون ريحا سنجيل البيرة يافا أرسوف قيساريه حيفا صرفند صيداء قلعة أبى الحسن جبل جليل بيروت جبيل مجدل يابا مجدل

حباب الداروم غزة عسقلان تل الصافية التل الاحمر الاطرون بيت جبريل جبل الخليل بيت لحم لد الرملة قرنيا القدس صوباهرمس السلع عفراء الشقيف ولم نذكر ما تخللها من القرى والضياع والابراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكل واحدة من البلاد التى ذكرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاس المسلمون خلالها واسترعوا ثمارها وغلالها وقد كنا عند قصدنا البلاد وعرضنا للجهاد الاجناد كاتبنا أخانا الملك العادل سيف الدين أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا والظفر الذى أضحك الاولياء وأرغم الاعداء وأبكى وتلى عليه قد أفلح المؤمنون وقد أفلح من تزكى كان وصل الى السواد فى سواده وبياضه وبحار جيشه وبراضه وورد من مورد النصر الى حياضه فجاش بجيوشه وجاز العريش بعريشه وزار دار الداروم بدمورها وأجفلت قدامه البلاد فى كل من اعتمد عليه بامورها ووصل الى يافا ففتحها عنوة ونال العسكر منها بالنهب والسباء حظوه ثم حضر مجدل يابا وحصرها وطلبت منه الامان فأنظرها وكتبنا اليه بالاقامة فى ذلك الجانب ماضى العزائم قاضى القواضب وان يستفتح من البلاد ما يتعجل فتحه ويقدم من الرجاء ما يتيسر نجحه الى أن نفتح ما فى جانبنا من البلاد ونتسلمه وننتهز فرصة الامكان فيما نحن بصدده ونغتنمه وقد كنا انهضنا الى كل بلد من الناصرة وصفورية وحيفا وقيسارية من يتولى افتتاحه ويستقبل من مهب النصر أرواحه فنصرهم الله على الناصرة وقيسارية قسرا وتسلمت البواقى سلما ورأى من كان فيها سلامته غنما ورضى بالغرم رغما وتسلمنا نحن تبنين وبيروت بالامان بعد ان قاتلنا أهلها قتالا شديدا ألجأهم الى الاذعان فأما صيداء فان صاحبها أذعن الى التسليم بعد ان بات منا بليلة السليم وأما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الاسر ورأى ربح خلاصه فيما تعجله من الخسر وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك العادل على عسقلان وهان لنا كل ما استصعب منها ودان وظهر لنا منها وجه الفتح وبان وأمكن كل ما تعذر واشتد ولان

وزاحمنا مناكب أبراجها من المنجنيقات بمناكب وأصبنا فوائدها المارمينا لها بمصائب وأصمينا مقاتل الاسوار بسهام قسيها وعاقبناها بحبالها وعصيها واقتدنا بخزائم الكره أنف الطاعة من عصيها وصافحنا ببيض الصفائح يد الرضا من أبيها وباشرت سهام المجانيق بسوا كها ثنايا الشرافات فهتمتها ونهضت أحجار الرماة الى أحجار البناء فهدتها وهدمتها وغنى فيها معول النقاب فرقصت للاضطراب لا للاطراب وعادت الحجارة الى أصلها من التراب ولما أيقن أهلها بالعطب لاذوا بالضراعة والطلب وخرجوا مسلمين مستسلمين وانقادوا مستكينين مذعنين وأسلم البلد وأسلم وجدع أنف الكفر وأرغم وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه وقر منه الاسلام القريب فى مسكنه وعند ذلك تسلمنا غزه وأعدنا اليها العزه وأتينا على الرملة ولد والنطرون وفتحنا بيت جبريل وجبل الخليل وجميع تلك المعاقل والحصون ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الارض المقدسه والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب وألطافه المنفسه وقد جملنا هذه البشارة القدسيه بما هنأه الله من الموهبة السنيه وسناه من المنحة الهنيه لمملوكنا حسام الدين سنقر الخلاطى وأمرناه أن يسير فيها من أصحابه من يقوم فيها بحق منابه والمجلس السامى يشيع مقامها ببلاد اليمن ويجلو عروسها البكر فى حسنها الحالى وحليها الحسن ويشكر نعمة الله التى خصنا بها وعمت الامه ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم النعمه لا زال المجلس مشكور الشيمه عالى الهمه منصور العزمه ان شاء الله

﴿ودخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة﴾

والسلطان مقيم بعكاء وربيب الربيع رضيع ووشى الروض وشيع وصنيع القدر نصيع وشمل الظفر جميع وفضاء الفضائل وسيع ومراد المراد مريع ونسيم الاسحار لاسرار الازهار مذيع وأريج الجو العليل فى شفاء غليل الجوى شفيع والدهر قد تمثل وافاق والزهر قد شمل الآفاق وللسحاب مهاب وفى الشعاب أعشاب وخدود الشقائق محمره وثغور الاقاحى مفتره وعيون النرجس مصفره وشفاه المنابع مخضره وأحداق الحدائق الناضرة ناظره وجنات

الجنات الزاهية زاهره وعذبات المنابت متموجه وحافات المناهل متدبجة وجباه الغدران متغضنه وجفون النوار متوسنه والافنان مورقة والورق متفننه وخد الخيرى مورد وخد العرار مجرد وعرف البهار قد تأرج ووجه الجلنار قد تضرج وعذار البنفسج قد بقل وعذر الزمان قد قبل وشارب النبات قد طر وهارب البرد قد فر وسر الصيف قد سرى وسر وطبى الطيب قد حفل ودر وتقاضى السلطان غريم حزمه بدين الدين وآن ان يصحر ليث بأسه الخادر من العرين فابرز مضاربه وجهز كتائبه وضرب سرادقه وعرض فيالقه ونشر بيارقه وحشر رواعده وبوارقه وأنفق خزائنه وأنفد دفائنه وبذل فى صون الدين ديناره وأشعل فى حفظ ماء الهدى على العدى ناره وسار على سمت حصن كوكب وعن قصده ما تنكب ونزلنا عليه فى العشر الاوسط من المحرم وما ما الامن له بقتال العدو فيه لهج المحب المغرم ولعزمه وهج اللهب المضرم ووجدنا كوكبا فى سمائها كأنها الكوكب وظن الفرنج انها لا تنكا ولا تنكب وهى من المصاعيب التى لا تبرك ولا تركب فأحطنا بالحصن وخيمنا حوله واستمددنا قوة الله وحوله وزحف اليه الرجال وتناوب عليه القتال وركب اليه السلطان ورازه واستصعب احتيازه ورأى أن مقاتلته تطول وان منازلته تعول وان محاولته فى مطاولته ومصابه فى مصابرته واضاقته فى مضايقته وان ما فى هذه الحال اقتضى تعذر اقتضاض عذرته ولا مطمع الآن فى فرع ذروته ولا قرع مروته وكان فى خواصه وأهل استخلاصه لم تتجمع عساكره ولم تتموج زواخره فأقام هنالك بالتدبير مشتغلا وللاشغال مدبرا وبالاستظهار متأيدا وبتأييد الله مستظهرا حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس من كل محرب للحرب ممارس وسلمهم الى طغرل الجاندار لمرابطتها بالليل والنهار ووكل بكوكب قايمازا النجمى فى خمسمائة مقاتل من كل ناصر للحق وللباطل خاذل وكان سعد الدين كمشبه الاسدى بقلعة الكرك موكلا وبحفظها مكفلا

(ذكر حال الكرك من أول الفتح)

وقد مضى ذكر وقوع ابرنس الكرك فى الشرك بمعسكر يومه فى المعترك وافتتاح الفتح بحتفه وبسط كف الانتقام عليه بقبضه وكفه وانه أخذ راسه وقطعت انفاسه وقلعت أساسه وكانت زوجته ابنة فليب صاحبة الكرك بالقدس مقيمة ولحفظ معاقلها مستديمه وحصل ولدها هنفرى بن هنفرى فى قبض الاسار وقيد الخسار وغمة الانكساف والانكسار فلما يسر الله فتح البيت المقدس وأصبح الاسلام على اليد والكفر راغم المعطس خرجت صاحبة الكرك متعرضة للخضوع متضرعة بالخشوع وبرزت مسكينة مستكينه مستعطفة مراحم السلطان مستلينه رافعة عقيرتها بالابتهال شافعة فى فك ولدها من الاعتقال مغفرة خدا من شأنه التصعر مسفرة عن وجه من عادته التخدر حاسرة حسرى باسرة لحزنها بأسرى والدة تنشد ولدها والهة دخل الرعب خلدها مطلقة ميسورها مستطلقة مأسورها ثانية عطف العطف لواحدها رانية بعين الذل فى خلاص ساعدها سائلة فى فلذة كبدها جائلة بجذوة كمدها باسطة يدها لقبض يدها ناثرة خرزات دموعها عاثرة بحزازات ولوعها خافضة جناح استعطافها ناهضة فى نجاح استسعافها راجزة بنوحها عاجزة عن بوحها وخرجت معها زوجة ابنها ابنة الملك كانها من بنات الفلك بادياً صبح وجهها اليقق فى ليل شعرها الحلك مشرقة من أوجها مشفقة على زوجها محترقة على فداء الحليل مقترحة به شفاء الغليل خادرة قد اسفرت من مطالعها وأصحرت حادرة عبرة فى مدامعها طعرت ناهدة متنهده واجدة متوجده معتزة متذلله مهتزة متململه باكية متلهفه شاكية متأسفه مستدعية مستعديه عاطية مستعطيه ساكبة عبراتها راكبة عثراتها خامشة وجناتها خادشة بشراتها وحضرت الملكة فى زوجها الملك خاطبه ولقرمها الندب نادبه قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها وطلبت بطلها الذى هو عامر دارعزها وبانيها فاكرم السلطان وفادتهن ووفر افادتهن وقرب ارادتهن وقرر زيادتهن ووهب لهن ولاتباعهن وأشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعه ووصلهن بصلاته الرفيعه وخصهن بالالاف بكرمه من حسن الصنيعه ووثقهن بنجح الذريعه وأما الملكة فانه مكن

محلها وجمع بالملك شملها وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتى الشوبك والكرك ودخولهما فى معاقلنا وخروج أصحابهما منهما فى الدرك فاستحضر ابنها هنفرى من دمشق اليها وأقر برؤيته عينيها وسار معهم من الامراء الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل فمضت اليهم مع ولدها حسنة الظن بأهل بلدها فلما وصلت قاطعوها ودافعوها عن حصونها ومانعوها واخلفوا ظنها وخالفوها حيثما ألفوها كما ألفوها وجحدوا وجعدوا واجترؤا عليها واجترحوا وعصوها وأقصوها وعددوا عليها الذنوب وأحصوها وأفحشوا لها فى خطل الخطاب وأوحشوها بالتنحى عن صوب الصواب وسبعوها وسبوها والى موافقة الاسلام نسبوها وكلما لاينتهم خاشنوها وكلما قاربتهم باينوها فوجدت نبوة نوابها وعدمت اصحاب أصحابها وذكرتهم بحقوقها وحذرتهم من عقوقها ولاطفتهم فغالطوا واسترضتهم فأحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا ونبهتهم لامرها فما استيقظوا وانفصلت عنهم خائبة مخففة هائبة مشفقة تخشى من رد ولدها الى السجن وعودها من الاصحاء الى الدجن ومضت الى الحصن الآخر فحصلت منه على صفقة الخاسر فانها لما ألمت بالشوبك ألمت من شوب كدرها وأملت نفعها فعادت بضررها ولقيت من نوابها نوائب وفى موارد المراد منها أقذاء وشوائب فآبت بالامل الخائب والعمل العائب والخوف الصادق والرجاء الكاذب فلما رجعت قبل السلطان عذرها وأزال ذعرها وأعلمها بان ولدها محفوظ وبالرعاية ملحوظ وبالعناية به محظوظ وهو فى حصن السلامة الى أن تتسلم الحصون واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون فسكنت الى الوعد وسكنت بعكاء فى ظل الرفه والرفد ثم انتقلت قبل خروجنا من عكاء الى صور واستودعت السلطان ابنها المأسور وأمد السلطان سعد الدين كمشبه فى حصار الكرك والشوبك بامراء يساعدونه فى الحفظ والبزك فاقام على كل قلعة من يكفى لمحاصرتها ويفى بمصابرتها ويلبث فى مقابلتها ولا يعبث بمقاتلتها فانها تبقى على قسوتها مالم تقوم من قوتها وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها فلما رتب السلطان



هذه المراتب ورتب هذه المآرب أقام حتى وثق باستمرارها وتحقق حق استقرارها

((ذكر ما دبره فى عمارة عكاء))

اختلفت الآراء فى أمر عكاء فانها كانت مدينة متخرقة وبيوتها متفرقة وسورها غير معمور ومعظمها بلا سور ورأوا ان فى ابقائها خطرا وان فى اخلائها ضررا فمن أصحابنا من أشار بخرابها وحفظ الحصون وبناء قلعة القيمون ومنهم من قال اذا صينت عكاء ملك البحر وملك الكفر وكانت على البلاد الساحلية قفلا وكانت بها بلاد الكفر غفلا فمن قائل بابقاء برج الداوية لحفظ ميناها ومن قائل نختصرها من أدناها ومن قائل نجدد سورها ونحكم أمورها ونبقيها باعمالها ونعمرها بكمالها على ان أسوار هذه البلاد سيوفها التى هى عند الفتوح مفاتيح أقفالها وأجالوا الفكر فيمن يجلى غوائلها ويحلى عواطلها ويتوحد بتدبيرها ويتفرد بتعميرها ويجتهد فى تنويرها

((ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولى عمارة عكاء))

فقال السلطان ما أرى لكفاية الامر المهم وكف الخطب الملم غير الشهم الماضى السهم المضىء الفهم الهمام المجرب النقاب المجرب المهذب اللوذعى المرجب الالمعى الراجح الرأى الناجح السعى الكافى الكافل بتذليل الجوامح وتعديل الجوانح وهو الثبت الذى لا يتزلزل والطود الذى لا يتحلحل بهاء الدين قراقوش الذى يكفل جاشه بما لا تتكفل به الجيوش وهو الذى أدار السور على مصر والقاهره وفات وفاق الفحول بآثار مساعيه الظاهره فنأمره أن يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العماره ونؤمره لهذا الامر فهو جدير بالامر والاماره وكوتب بالحضور لتولى الامور وعمارة السور فوصل متكفلا بالشغل متحملا للثقل منشرح الصدر بالعمل منفسح الصبر والامل مبتهجا بالامر ملتهجا بالشكر وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه من أسباب العمارة وآلاتها وأدويتها وأدواتها وابقارها وابقارها ورجالها وعمارها ومهندسيها ومؤسسيها وحجاريها ومعماريها والاسارى والصناع والنحات والقطاع



والمال الكثير للنفقه والذهب الابريز والرقه ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب وحضر الموكب وشرف بأسنى الخلع وأعلى الملبس والمركب وفوض اليه وقلده وأسعفه من عنده وأسعده وقوى جانبه وأعذب مشاربه وأوضح مذاهبه وأنجح ماربه وأيديه وأجد جدده وكثر مدده ووفر عدده وعدده وخصه بعطاياه واختصه لوصاياه فتوجه الى عكاء وشغله متوجه وعزمه متنبه وسره مترفه وفكره فى رياض الهدى متنزه وأمره ماض وحكمه قاض والله عنه راض وقام بما أقيم له ونهض بالعبء وحمله ومشى بكفايته عمله وشرع فى التعمير والتسوير وتسوية الامور بحسن التدبير وسيأتى شرح ماجرى بعد ذلك فى مكانه وماظهر من حسن اياته واحسانه

﴿ذكر وصول سلطان الروم قليج أرسلان وغيره من الرسل﴾

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد واستعلائه فى الجهاد وتأرجت الارجاء بعرف عرفه وأرخت السير بمحاسن وصفه عنت الامصار لمصره وأذعنت الاملاك لملكه وانقادت الامراء القادة لامره وعادت مهاب المحاب تفوح بماله من الفتوح وشروح ايراده واصداره تحل فى صدر الزمان المشروح فتهيبه بالضراعة كل عظيم وتأهب له بالطاعة كل اقليم ورهبه ملوك الاطراف وتعلق باستزادة الشرف منه أمل الاشراف فكاتبوه مستعفين وخاطبوه متعطفين وراسلوه بالتحايا وواصلوه بالهدايا ورغبوا فى امتراء خلف الامتزاج والانشاح والالتحاف بجلف الاتشاح وخطبوا لوصله وطلبوا الصله وكل يطلب لبلده منه أمانا وليده وقدمه من تمكينه وتأييده امكانا ومكانا ويتوصل ويتوسل ويتلطف ويتطفل ويرسل ويسترسل ويترجى مواهبه ويخشى عواقبه ويديم التردد للتودد والقصد لبلوغ المقصد فما يعود رسوله الا بسوله ولا يقبل عليه منه الا بقبوله ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد المتسببين الى حصول الاتحاد سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود ابن قليج ارسلان فانه بذل الاذعان وسأل الاحسان وأدى فى المودة الامانه وأبدى للرغبة الاستكانه وانتهض فى سفارته السفير الاب وندب الندب

وأنفذ أكبر أمرائه وأعظم سفرائه وهو اختيار الدين حسن بن غفراس وكان فى دولته مقدما وفى مملكته محكما وعند أهل ولايته معظما وقد استعلى عليه واستولى واستبد بالتدبير عليه كانه بملكه أولى ولا تصرف له فى ملك ولا مال الا بتصريفه ولا تعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد وتشييد المقاصد وتجديد العهود وتأكيد العقود وقدم مكرما وأكرم قادما وخدم حاضرا وحضر خادما وقبل البساط وبسط وجه القبول وتمثل له الشرف فتشرف بالمثول وحيا تحية المماليك للملوك وحفظ الادب ولم يتنكب فيه عن النهج المسلوك فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب والبر والتقريب وأعزه بنزوله فى ذراه وأوعز بنزله وقراه ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله وواصله من الجميل بما راقت تفاصيله وجمله وشفع رسالته بالاصغاء ورفع مقالته عن الالغاء وسمع ماجاء به وأجابه وأبعد باد ناء ما آربه مارابه وشافهه بشفائه وأرواه برواته وأولاه لولائه وعرفه بالتعرف الى آلائه ونصبت له خيمة مسردقه شهادات الاقبال الناصرى لها مصدقه ووجوه الكرامات بها محدقه وسحب المبرات لها مغدقه فأقام أياما بأيام مقيمه ومحاسن من احسان الشيم السلطانية مشيمه فلما استقام أمره استقل واستدر له بارق البر من سماء السماح واستهل ومارام حتى نال مارام ووثق لاحكام المواثيق الاحكام ووصل فى تلك المدة أيضا الصلاح فبلغ أبه وهو آتابك قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا ارسلان واقيا ما وافيا باحسان الخطبة وخطبة الاحسان راغبا فى تتميم الوصله وتعميم الصله آخذا لصاحبه ملك ديار بكر عهدا محكما وعقدا من الميثاق مبرما وقد أحضر قضاة بلاده شهودا واقتضى لصاحبهم بحضورهم عهودا وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل ومت بكثرة الشوافع والوسائل وكان خائفا على آمد فانها من فتوح السلطان ووهبها لابيه نور الدين ابن قرا ارسلان فأشفق من استرجاعها بالحق بعد وفاة والده ورأى الامن عليها وعلى جميع بلاده من أكبر مقاصده ورغب فى المصاهرة للمظاهره وان يفتح بها باب المزاورة للموازره فآواه الملك العادل

الى ظل هذه المواشجه وثبت بعقد المزاوجه حكم الممازجه فتم أمنه وعم يمنه وزاد قربه وزال رعبه وجلس السلطان وحضر عنده الاماثل والاعيان وكان وكيل أخيه الغائب فى انشاء العقد مع وكيل الزوج الراغب فلما تم العقد باركانه اعتضد ملك ديار بكر بمكانه وسار صاحبه بالمسار محبوا وعاد ذيله بالفخار مسحوبا وقال له قد وجدت الحزن فلا تحزن واشتد ركنك فالى سواه لا تركن ومامن كبير أو أمير الاوفد وصل منه أكبر أمرائه لينتظم بعهد السلطان فى زمرة أوليائه

((ذكر رحيل السلطان صوب دمشق))

وأقمنا على كوكب الى آخر صفر ننتظر منها ابن كفر الظفر ثم رأينا انه يطول حصرها ولا يفوت أمرها وان الفتح يبطى وان كان السهم لا يخطى فأمر الامراء الموكلين بها وبغيرها من الحصون بالمقام عليها وابتذال سرها المصون ووصل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمه ظاهر العزيمه سامى اللواء هامى الانواء نامى الانوار فى مطالع المضاء ودخل اليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الاول بالصدر الارحب والباع الاطول وتلقاه أهل البلد بوجوه لاقباله متهلله وألسنة بالدعاء له مبتهله وعيون لانواره مجتليه وقلوب بولائه ممتليه وأسماع لامره مستمعه وأيد الى الله فى نصره مرتفعه وصدور بايامه منشرحه وآمال فى انعامه منفسحه ونفوس على طاعة الله فى طاعته مجبوله وأعمال فى رضا الله لمراضيه مبروره مقبوله ودخل المدينه وأدخل اليها السكينه فوجدت الروح بسلطانها وعادت الروح الى جثمانها وقرت به عيون أعيانها وأقرت له بحسنها واحسانها وابتدأ بالجلوس فى دار العدل وبحضرة القضاة والعلماء من أهل الفضل واسترفع قصص المتظلمين واستمع غصص المتألمين وكشف الظلامات المظلمه وفصل الحكومات المستحكمه وقرأ كل قصه وقراها بكل حصه وحقق الحقوق ورتق الفتوق وأقام للشرع السوق وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق وحل بانصافه كل مشكله وطب باسعافه كل معضله وأصحت سماء السماح وأصحب جماح النجاح وأعدى المستعدى وأروى

الصدى وحيا الحيى وأردى الردى ومجد المجدى ومهد الحق حتى قيل هو المهدى فما انقضى ذلك اليوم وانفض أولئك القوم الا عن مظلوم أجير بالحق ومعلوم أجرى من الرزق وعالم أعين وظالم أهين وهاذرين وناشين ومختل سدد ومنحل عقد ومعتل شفى ومعتر كفى وماحل جيد وآمل زيد وركن حق شد وشيد وخدن باطل أبير وأبيد وراج أدنى فوزه ولاج أسنى عزه وجلس يوما آخر للاكابر والاماثل والاكارم والافاضل فأضاء النادى وفاضت الايادى وغدق الندى وصدق الهدى وكرا الكرم وفر العدم وحفل الدرود در الحفل وشمل النظام وانتظم الشمل وصان العلماء بالبذل وأعان بافضاله أعيان أهل الفضل وفاز بالحمد وحاز الثناء وأجاز الشعراء وأكرم الكرماء وروج الرجاء وأولى النعماء ونعم الاولياء وتقاضاه عزمه بالحركه لاستماضة البركه واستضافة المملكه الى المملكه فلم تستقر به دار ولم يدر به قرار ولم يبت فى جفنيه غرار ولم يبت الا وبين جنبيه لحب لقاء العدى أهل النار نار وكان الصفى ابن القابض قد استجد للسلطان على بعض ابراج القلعه دارا وأذهب فى تضاعيفها ذهبا ونضارا وهى متطاولة بين البروج مطلة على المروج مشرفة على موازاة الشرقين كاشفة غطاء النظر عن الغوطتين صحيحة البناء فسيحة الفناء بهيجة البهجه شهية الزهو مجددة لاهل الجذل كرى اللهو فرشها بماء الورد وفرشها بالورد وبسط بسطها وعلق ستورها وأعلى نورها وحبر حبورها وسرى سرورها وسنى أنواع نمارقها وأسمى أنوار مشارقها وتوصل الى حضور السلطان بها وجلوسه وذهبت تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه وأحضره كل مقرظ بقريض وكل مؤمل بتصريح وتعريض وكل ناشد ضالة رجائه بنشيد وكل قاصد جلالة ارجائه بقصيد وكل مغرد مغرب وكل مطرم طرب وظن ان السلطان تروقه تلك الحليه والحاله وتلك الجلوة والجلاله وتلك البقعة المؤسسه وتلك الرقعة المقدسه وذلك المشرف العالى وذلك المشرف الحالى وانتظر نظر استحسانه لاحسانه وتوقع تمكينه لموقع مكانه فما أعاره لحظا ولا ازاره حظا ولا لمحه بطرف استطراف ولا منحه حرف استعطاف بل أعرض بنظره عن تلك

النضاره وأغضى عن تلك الغضاره وغض عن تلك الغضاضه واشتغل عن تلك الرياض بالرياضه فالعاقل من لا يتخذ فى دار الدوائر معقلا ولا يجد فى منازل النوازل منزلا ولا يركن الى فناء الفناء لبيب ولا يسكن فى غار الغرور أريب وكيف يبنى العمران والعمر الى الهدم والغنم فى الدنيا الدنية عين الغرم وقال السعيد من يبنى دار الآخره وينجو من أمواج الدنيا الزاخره ثم صرف فى تلك الايام الصفى عن ديوانه وأبقاه فى شغل الخزانة على مكانه وسمعته يقول فى بعض محافله وقد أجرى له حديث من يفرح بمنازله كان من ذنوب الصفى عندى انه يبنى لى تلك البنيه فدل على انه لا يوافق منه الامنيه وقال ما يعمل بالدار من يتوقع المنيه وما خلقنا الا للعباده والسعى للسعاده وما يخطر لنا فى هذه الدار خلود بالخلد وما لنا وللمقام فى البلاء والبلد وما جئنا للتقيم وما نروم (الا) ان لا نريم وما تحركنا الا للسكون وما أسهلنا الا للعود الى الحزون فما يجنى ثمر الراحه الا من مغرس التعب وما يجبى نصيب المغنم الا من مغرم النصب فأين الاين الذى تقر به العين وما يحصل السكون فى المسكن ولا يكمل الوطر فى الوطن لا سيما والدين يطالبنا بدينه والكفر يستقرب منا حين حينه والبلاد صائبه وللبلاء دائبه فلا تفوح الفتوح الا بهبوبنا ولا ينزل النصر الا بركوبنا وغد للعزم متمما وللعزم مصمما ووصل الخبر بوصول عسكر الشرق بالغرب الماضى والحد القاضى والجمع الوافر الوافد والجمر اللافح الواقد وان عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى قد أقبل بقبيله ووصل برعيله وقدم بجده وأقدم بجده وانه حل بحلب ثم سار عنها مسارعا وجاء معه الجيش للنجدة والجدة جامعا فأردف العزم السلطانى خبر وصوله وحل بالشد للرحيل عقد حلوله وكان القاضى الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل والنباهة والنبل متأخرا فى بيته بدمشق لشكاة أقام فى غبرها واستقام مزاجه الكريم منها وهو فى ترقب زوال أثرها والسلطان بنجح سعيه متبرك وبنصح رأيه متمسك وبطوله عالم وبقوله عامل وبعبارته قائل ولاشارته قابل فاراد السلطان أن يقدم بلقائه الاجتماع وبرأيه الانتفاع ويستنير بنوره ويستشيره فى أموره ويفاوضه

فى تفويضاته ويقلده فى تقليداته ويتبرك بميامنه ويتيمن ببركاته فانه طالما اجتلى سنى السعادة من مطالعه واجتنى جنى الارادة من صنائعه وافتتح الاقاليم بمفاتح أقلامه وأحكم المملكة بثبوت احكامه ووافاه بامداد السودد الوافى سواد مداده وجاءه بالوجاهة فى دينه ودنياه باسعافه واسعاده وكان قد خرج الى جوسق بالشرف الغربى الاعلى ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى فاصبح السلطان بكرة يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الاول على الرحيل فقصده لابرام ما وجده فى ممكنه من الامر السحيل وأقام عنده فى الجوسق الى الظهر مستظهرا به على الدهر حتى كشف مبهمات مهماته ورشف شفاه مشافهاته وانتجى معه فى الآراء والآراب وانجلى له من رأيه صوب الصواب وارتجع وديعة سر الغيب ممن عنده علم من الكتاب ثم استودعه الله وودعه وودعه الاجل الفاضل وشيعه وبات تلك الليلة مخيما بالعراده مختما بالسعادة راجح السياده ناجح الاراده ثم سلك فى جبل بيوس الى عين الجر الى الداهميه على البقاع وهو مطيع أمر الخالق ومتبعه والخلق تابع أمره المطاع وأتى بعلبك المحروسه وخيم بمرج عدوسه وأقام حتى أمر أمرها وأدر درها وقسم لها من عدله وعدل بها من قسمه وحكم فيها بفضله وأفضل عليها بحكمه وكشف الظلم والمظالم وصرف المكاره وصرف المكارم ورفع من المعالى المعالم وأجرى رسوم الاجر والمراسم وأمر الرعاة برعاية أمر الرعيه وحكم على القضاة بالحكم فى كل قضية بالجهة الشرعيه المرعيه ثم رحل على سمت اللبوه معصوم النوبه من النبوه مصون الكتيبه من الكبة والكبوه ثم أوجه لى الزراعة وزرع الظفر قد توجه وشمع النصر الصافى الشرعة من الكدر قد تنزه وقد كحل عثير العسكر طرف الجو الاحمر وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة أن تعاود الهبة وتتنبه وزرع بالزراعة من السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط وقنا الخرط وضاق ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط

«ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع به»

ووصل الخبر بأن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وصل جامعا من الادانى

والاقاصى ونزل طائعا على العاصى وخيم على قدس وخيمه قد تقدس والدين بدنوه تأنس والكفر بقدومه نعكس وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه على قهر الشرك ونصر الايمان فركبنا وابن: كا فى اسفاره والصبح قد زحف على الليل برايات أنواره والفجر قد فجر انهار نهاره وسرنا بصدق النزاع وقصد الاجتماع فلقيناه قد ركب مستقبلا وقرب مقبلا ولما رآه السلطان حياه ولقيه بالكرامة وأكرم ملقاه ونزلا فتعانقا ثم ركبا وتواقفا وتناوفا وخيمنا بقرب مخيمه وجثمنا عند مجثمه وحططنا هنالك رحالنا وخالطنا برجاله رجالنا وتساعد الجندان وسعد الجدان وجد السعدان وانتظم الجمان واجتمع النظمان واتحدت الكلم واتأدت الهمم وسأل السلطان أن يوازره ويزوره ويحضره بحضوره حبوره فساق معه الى مضربه وضافه فى موكبه وانقلب الى قربه وتقرب الى قلبه وارتفع فى صدره ورفع من قدره وصار العسكران مختلطين وجلسا منبسطين ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسمطين وقرأ القراء وأورد الشعراء وتجاذب بينهم أطراف الطرف والاداب الفضلاء والعلماء وكان مع عماد الدين شاعره السنجارى ابن الهائم ومن عادته ايراد المدائح فى مثل تلك المواسم فأنشد مدحا ونشد منحا ثم بسط السماط وسمط البساط ومدت الموائد وعادت العوائد ونضد الخوان وكونت الالوان ولونت الاكوان وصفت الجفان وأحضر الطهاة من كل حاجة وباجه وخروف ودجاجه وحلو وحامض وحامز وحامض وتمنه وقابض ومطبوخ ومشوى ومصنوع ومقلى ما طاب مذاق مذقه ومحضه وطالت الايدى فى بسطه وقبضه فلما رفع من ناديه القرى وترع بأياديه الذرى قدم ما أعده للهدايا والتحف السنايا من الجياد المقربه والثياب المذهبه والعدد المجبه والاسلحة المذربه وكل ما يروق ويروع ويضىء ويضوع ثم انفض النادى عن ندى منفض وسدى لبكر الشكر مفتض وعين السلطان يوما لحضور عماد الدين عنده وانه يستضيف فيه خواصه وأمراءه وجنده فوسع سرادقه ووشع نمارقه وضرب بيت الخشب له لحسب بيته وأسميت الحسنى بحسن سمته وسمته

واحتفل بحفله وأجل لاجله وأرجت أرجاء النادى بالند وراق مد النواظر النواضر فى ذلك الرواق الممتد وبسط على البسط ما حضر من الياسمين والورد وفاح النشر ولاح البشر وفرش الثرى وشرف البرى ورفع الحجاب وأشرعت القباب وتوجهت الاسباب وتنزهت الالباب وتضوعت نوافح النوافج ووضحت مناهج المباهج ووضعت المطارح والمساند والاسرة والوسائد وجاء عماد الدين فى خواصه وأمرائه وصحبه فتلقاه السلطان برحبه وقرب له السرير وسر بقربه وأجلسه الى جنبه وحباه بحبه وأقبل عليه بوجهه وقلبه وجلس من جرى بالجلوس رسمه وسما فى الرؤس اسمه ووقف الامراء والحجاب والعظماء والاصحاب على مراتبهم فى مواقفهم ودب الاعتزاز الاهتزاز فى معاطفهم وكان النادى مهيبا والندى مجيبا والذرى رحيبة والقرى قريبا والظل ممدودا والفضل مورودا والحفل حافلا والشمل شاملا والبساط مقبلا والنشاط مقبلا والمرئى حاليا والمروى عاليا والمسموع مطربا والمجموع مغربا والمنظر والمخبر جليلا جميلا والمطلع والمطلب منيرا منيلا والمكان عليا والزمان جليا والربيع فى انتهائه والصنيع فى اشتهائه والمصيف فى ابتدائه والمضيف فى انتدائه والنعيم فى نضرته والكريم فى نصرته ولا ريب فى أربه والطروب فى طربه والضريب من الخلق الحسن فى ضربه وكانت أيام المشمش وقد وصلت من دمشق أحمالها وحلت فى تلك الحالة حالها وأقدم الجزل قدومها وطلعت فى أبراج الاطباق نجومها كأنها كرات من التبر مصوغه أو بالورس مصبوغه صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية حلا ذوقا وأحل شدوقا ولو نظم جوهره لكان طوقا وهو أحلى من السكر وأعبق من العبهر وأحسن هيئة من النارنج الاحمر والليمون المركب المدور وقد زفت عروسه فى الثوب المعصفر والخمار المزعفر كأنما خرط من الصندل وخلط بالمندل وجمد من الثلج والعسل فهو الذى يضرب يضرب به مثل الشمل ويقضب من قضبه لقب القبل ونظر منه ما نضر وما خطر ما حضر ورؤى هنالك لقطوفه قطاف ولطوافيره طواف ولعقوده مصارف ولنقوده صيارف

فكأنها وجوه العشاق اكتست اصفرارا أو جمرات تشتعل نارا وتبدى شرارا وقد أعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا بل هى احداق الحدائق وقلوب البوارق ووجنات الجنات صبغها بلونه البرق وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق لا بل اصفرت من مهابة الجنات الجناه وانتظمت من جواهر الحيا اللعياه واضطرمت لها احشاء شوقا الى فض اللهاه ثم صرفت الاطباق ونظفت الآفاق وبسط المكان وسمط الخوان ونبهت أجفان الجفان للقدور الرقود وشبهت المراجل لغليانها بصدور ذوى الحقود وتزيد مقال المقالى النشاشه وتزينت مقار المقارى بالبشاشه ومادت أعطاف الموائد بالالطاف وتهادت أكناف السرادق بوشى الافواف وهناك المسموط والمسلوخ والمخطوب المطبوخ والمقلو المقلوب والمحبو المحبوب والاغذيه واللعمان والاشويه والحملان والالبان والالوان والجوابى والروابى والصوانى والاوانى وقد صفت البوارد وصفت الموارد وتنوقت الطهاه وتنوعت المشتهاه وحلت الاطعمه وعلت الاسنمه وجاش جاش الجاشنكير الرابط وعاش اخوان الخوان للارالغابط وتداولوا وتناولوا النوالات والحوالات والحلاوات والحالات وكان يوما مشهودا وحوضا موردا وروضا معهودا ورواقا ممدودا ورواء مودودا وجعاما مسعودا وصنعا محمودا ولما فرغت الموائد وبلغت المقاصد أحضر السلطان لعماد الدين هداياه وحباه بأحسن من تحاياه من خيل صفون وحصن كغصون وعراب جياد من طرائف الطريفيات وسوابق سوابح من العتاق الاعوجيات والمذاكى المنسوبات من كل مطهم مطهر الخيم وكريم من نسل الكريم وصافن صافى الاديم ومقرب مقرب ومجنب مكرب وسكب مشذب وفيض سلهب وبحر جموم وطرف لهموم وسرحوب شيظم ويعبوب صلدم وأجرد قوّد وضامر قيدود واقب نهد وجواد ورد ومسح رفل طمر وأشق أمق غمر ومفرع طموح وعتيق غير جموح وهيكل عال وعنجوج ذيال فاختار منها كل طرف قد حط من قدره اذ قوم بألف من كل أشهب قرطاسى وأشعل سوسى وأغر صنابى

وأدهم غيهبى وأحم أحوى وأشقر مدمى وابرش مدنر وكميت مضمر وأخضر وادبس وسمند أغبس ثم أحضر له ما يناسبها من التحف اللائقه والطرف الرائقه والعدد الرائعه والاسلحة المانعه والسابريات السابغات والدروع والزرديات والرؤس والرانات والخوذ والترائك والبواتر البواتك والدلاص الموضونه والنصال المسنونه ومن المستعملات المصريه الذهبيه والحريريه والملحم والدبيقى والمصمت والمغربى والعراقى ومن نسج تونه وتنيس كل ثمين ونفيس وما شاكله من أنواع الطيب على النمط والترتيب ثم انصرف وعرف جده متضوع وعرف جده متنوع وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنح وأمره متحير مترجح ووده مترجم متزج ودعاؤه صالح وثناؤه صادح ولسانه داع وجنانه واع وعهده راع وسعده ساع وتصاحب هو والسلطان فى الركوب والجلوس والتناجى بما فى النفوس والتدبر فيما يقدم ويؤخر ويقرب ويقرر ويورد ويصدر وتكررت المشاورة فى الموضع الذى يبتدأ بقصده ويوثق العزم فيها الجهاد حق جهده واتفقوا على عرقا وعرقها وعقرها والنزول بعقرها وانها اذا املكت ملكت طرابلس وأسفر عن صبح فتحها الغلس وأقام العسكر أياما على قدس وبقبس النصر قد تأنس ولسناء الظفر قد توجس وأتى العرب ووافى الارب واجتمعت الجيوش وجاشت الجموع وآن لليل العزم المدلج من صبح النجح الطلوع ونبعت الفيوض من النعم وفاض الينبوع وأينعت ثمار المبار وطابت الينبوع ثم رحلنا أول شهر ربيع الآخر الى البقيعه تحت حصن الاكراد وخيمنا على الربا والوهاد وصوبنا الى الجهاد هوادى الجياد وأدنينا قطاف ألطاف الله لاجناء الاجناد وكانت الاعشاب بالشعاب واصيه والشوائب من المشارب قاصيه والقضب للقرب فى طاعة الله عاصيه وطار الرعب وثار العجم والعرب وخاف الكفر وطاف الذعر وقال نفر الشرك نفر ولا مستقر وتشوروا وتشاوروا وحاروا وتحاوروا كأنهم فى قبور حصونهم أموات لا ترتفع لهم من الوجل والوله أصوات وأجمعنا على دخول بلد الساحل على التجريد للتجريب وجوس خلال البعيد والقريب ثم تجرد العسكر عن الاثقال وتجرأ

على أخذ أهبة القتال وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكي وسيفه بصقاله يصدأ وبدم الكفر يبكي ومظفر الدين كوكبوري وهو الذي حين يواري صارمه المشهور في تجميع العدى لزند الظفر يوري وصحبه من فرسان العرب كل فارس معرب ومن شجعان الاكراد كل قاتل محرب ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر ومن صيد الصناديد كل كسروي كاسر وكل كمي كميش واكديش على اكديش وقارح على قارح وخضم على سابح وجرى جار جارح وبهمة وبطل وجبل على جبل وفحل على فحل وذمر نكل وورد على ورد ومرد على جرد وحلس وحلبس وباشر بالموت معبس وأهيس أليس وأحمى أحمس وغشمشم همام وأيهم مقدام وباسل ذي باس وعاسل عاس ورئبال على رئبال ومشتمل على شمال وبحر على بحر وصقر على صقر وركبوا سلاهبهم وجنبوا جنائبهم وجروا على الساحل سيولا وجروا بالذوابل ذيولا وطار بابليس طرابلس بخوافي الخوف ودام الجوى في رعب أهلها بدم الجوف وما سار الامن خفافي نهضته ونهض بخفته وأحس حصن الاكراد بالاكدار وصفت على صافيثا بوارق البوار وقطع عرق عرقا وعفرت وتعرمت العريمة وتعرقت وضرعت تلك الاعمال ومزقت وأرهقت وأزهقت ونفرت أنفارها وبقرت أبقارها وملئت بالدوائر ديارها وسيقت مواشيها وحشيت بالنيران أوساطها وحواشيها ونزل السلطان على حصن يحمور فاقدر وايحمونه وابتذل مصونه واستخرج مكنونه وفتحه ومنحه ومساه بالدمار وصبحه وأقام في تلك الديار عشرة أيام يجوسها ويدوسها وقد حيزت له نفائسها ونفوسها ثم رحل بغنمه وقفل الى مخيمه وعاد العسكر مسرورا منصورا محبورا موفورا قد اطلع من تلك البلاد على العورات واضطلع بالغنائم من تلك الغارات ونكا منها في الاعمار والعمارات وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرج يموج بالعسا كرموج البحر الزاخر وقد وصل قاضي جبلة يحث على قصدها ويحض على انجاز وعدها ويحرض على اعذاب وردها ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدئ من عندها ويقول ان الاشتغال بطرابلس مع احترازها

واحتراسها وكثرة ناسها وتدرعها بلباس باسها واستعدادها للحصار وتجنبها عن الاصحار يذهب الزمان ويفوت الامكان وهذه جبلة وما وراءها من المعاقل قنيصة للحابل وفرصة للمتناول ولهنة للآكل ورغبة للناهل وأمنية للعاقل فما دونها مانع ولا عنها مدافع وهي على غرتها وغرورها وغفلتها وفتورها لم يفترع عذرة أمنها ذعر ولم يفثأ سورة نفعها ضر ولم يقرع باب يسرها عسر فان سلكنا سبيلها ملكنا سلسبيلها وان جزنا ساحتها حزنا راحتها وان استقدنا املاكها ملكنا قيادها وان اعتدنا حواءها حوينا عتادها وان افتتحنا بها فتحنا ها والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منكم بالنعيم فعرفناه بصحة نصحه وعرفناه بجه نجحه واصغى السلطان الى قوله واصغى له ورد طوله واقبل عليه وقبله واجزل له العطاء وأكمله وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا فوفر لهم رواتبهم وأجرى وخلع عليهم وشرفهم وأسعدهم بالمواهب وأسعفهم فندبوا الى أتباعهم وكتبوا الى أشياعهم وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل ورحل يوم الجمعة رابع جمادى الاولى حافل الجحفل سامي القسطل ماضي المنصل فمررنا في آجام مؤتشبه وآكام معشبه وحزون وسهول وشعاب وتلول ومعالم ومجاهل وروابي وهو آجل ومغايض وغياض وارتفاع وانخفاض حتى خرجنا الى ساحة الساحل ونزلنا بها ومبارك مبار نامواحي رسوم تلك النواحي المواحل ومعنا احمال واوساق وأثقال وأسواق وأزواد وأمداد وعدد وأعداد والخيل عرمرم والسيل عرم والمجر لجب والغيل أشب والاسد في عريس من الاسل العراص والفوارس الصلاد في غدران من السوابغ الدلاص وقد نشأ العجاج كعجاج النشاص وانحلت بحلولنا معاقد المعاقل واعتلت باستيلاء خيولنا عقائد العقائل وحلت لخطبة سيوفنا كرائم الحوالي والعواطل ونحن في استباحة واستباء واصطلام واصطلاء وارتياد وارتياء وفتك باعداء وسفك لدماء وبتك لرقاب ذوي الفجور وهتك لحجاب ذوات الخدور ننال من العدو كل نيل وندير عليه في داره دائرة كل ويل فما نقطع الاواديا بغيظ الكفار ولا نحضر الا نادبا نزيدهم

به الدمار وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل حتى وصلنا الى أنطرطوس يوم الاحد سادس الشهر فاحدقنا بها من البحر الى البحر وزحف اليها الناس وحفز عليها الباس وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الياس وقاتلناها ساعه فلم يجد أهلها للدفاع استطاعه ودخلت من جوانبها وتخللت من مذاهبها واصابتها نوائبها ونابتها مصائبها وفل غربها وجب غاربها وقتل من لحق من رجالها ونهب ما وجد من أموالها ونقل ما صودف من غلالها وسبي من أخذ من نسائها وأطفالها واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع وهما هناك من أحكم القلاع وفي أحدهما الداوية جمرة الكفر ومعهم مقدمهم الذي أطلق من الاسر وفي البرج الآخر المنهزمون الناجون والفارون اليه اللاجون فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين وحركهم الى الخروج بالتسكين ووثقوا بأمانه وأمنوا بميثاقه ومكن كل منهم لسلامته من تسلم مكانه فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهده وحل من احكامه ما اركه وشده وركب النقب على ركنه العالي ونكبه في ذلك اليوم بما تنكبت عنه نوائب الليالي وخرب الى اساسه سوره ورمى الى البحر صخوره وامتنع برج الداوية بدائها الدوى واتبع مردتهم في التمرد هوى طاغوتهم الغوى وأقام العسكر حتى نقض أسوار انطرطوس وقوضها وربضنا بها الى ان عفينا ربضها ولما امتنع البرج تركناه وما كانت فيه فرصة لو أدركناه وكيف كنا نشتغل بفتح برج عن فتح البلاد وللفرص أوقات هي لها بالمرصاد ومن يسلك الجدد اللاحب لا يعرج على بنيات الطرق ولا يستغني مدلج الليل بالدراري عن الفلق ورحلنا عنها رابع عشر الشهر شاهرين على الاعداء سيوف القهر ونزلنا على مرقيه وقد خلت من أهلها وتخلت وتشعثت عمارتها واختلت وكان جوازنا الى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب وهو معقل للاسبتارية عالي المنكب سامي المرقى والمرقب ضيق المذهب عسر المطلب فلم يكن بد من عبور ذلك المضيق وسلوك تلك الطريق وقد صفت الفرنج في البحر المراكب وسدوا المذاهب وردوا الراجل والراكب وفوقوا الجرخ للجرح وسددوا

الزنبورك للقرح والطرح فعسر العبور وكثر العثور وامتنع الجواز ووجب الاحتراز وأعوز الظهور وظهر الاعواز وذلك ان صاحب صقليه رام ان يكشف عن الفرنج البليه فجهز أسطولا بجهازه مستطيلا وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبأ ثقيلا وانفق وصوله في تلك الايام في ستين قطعه تحسب كل واحدة منها قلعه أو تلعه من كل شيني من شأنه شن الغاره ومن عادته العادية تشعيث العماره مع طاغية يقال له المرغريط قد عرف منه التوريط من أرجس الطواغيت وأنجس العفاريت فوصل الى طرابلس بطوله وأسطوله وصولة وصوله فما أحلى ولا أمر ولا نفع ولا ضر ولا استقل ولا استقر ولا نقض ولا أمر بل صار على الفرنج وبالا وأحدث لهم بما يسومهم من مؤنته امحالا وما خفف عنهم بل زادهم على الثقل أثقالا ووجد الكفر في أوان توانيه فلم ينتفع ولم يرتفع شأن شوانيه وصار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد في البحر وتاددوأبلس وتفرقت جماعته وتجبنت شجاعته واضطرب في البحر أشهرا لا يظهر له رأي ولا يرى له مظهرا فتقطعت أقطاعه وتتابعت في الفرار أتباعه حتى عاد في عدة يسيره وشلة عسيره وكان هذا الطاغية قد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه مصفوفة في البحر من جوانبه قد ضيق الطريق ولم يطرق المضيق فأمر السلطان بحمل الجفاني الى هناك وتصفيفها والستائر وتأليفها والتراس وترصيفها واقعد من ورائها على مقابلة سفن الروم وازائها الكماة الخيره والرماة الجرخيه حتى تباعدت تلك السفن ودب اليها الوهن وتمت عليها المحن وأنحت الاحن ورحل العسكر فعبر آمنا وأمن عابرا وسار ظاهرا وظهر سائرا وجزنا على مدينة يقال لها بلنياس وقد أجفل عنها الناس ونزلنا في أرضها وخيمنا في طولها وعرضها وأنسنا بنهرها وزهرها في الارواء والرواء وجبنا على نواضر رباعها نواظر الارتضاء وبتنا ونفحات الندى مريضه وجنبات الوادي مريضه والنسيم العليل بليل والعزم الصحيح دليل ورسم العذر محيل ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل وأصبحنا على الرحيل مبكرين فما اصباح المنذرين وسرنا وسرنا في سرور وسفرنا في

سفور وجمعنا في اجتماع ووجدنا في ارتفاع ونهجنا في اتساع وركننا في امتناع وعارضنا نهر عريض عميق ما فيه طريق وهو مطرد من الجبل الى البحر فازدحم العسكر عند ذلك النهر وتواقعت الاحمال والاثقال عند العبر وليس عليه الا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر واستتبع من عسكره بعد الزمر الزمر ونزل عشية الخميس على بلده وعانت الاثقال في تخلصها من الشدة الشده وتكامل نزولها حين انتصف الليل ووصل الى القرار السيل وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطئ هذا النهر وساحل البحر حصينة البناء مصونة الفناء قد حصنها الاستتار وحسنها الاستظهار وقطعوا عنها سلوك الطرق بتعميق ذلك النهر المخترق وألفينا بلدة ايضا خاوية على العروش حاوية للوحوش خالية من الانس والانس كأن لم تغن بالامس وقد انزعج أهلها وتشتت شملها وتخوف آمنوها وعدم السكون ساكنوها

(ذكر فتح جبلة)

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر وقد اشتهر وسم النصر واشتد على الكفر رهق القهر وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمه واقدم على قصدها بالعزيمة المصممه فلما ابصر مسلموا البلد بما وضح في الجد من الجد وسنح من الظفر المتضافر المدد خرجوا مستسلمين مسلمين مستمسكين بعز الاسلام معتصمين وعلت على السور الرايات الناصرية المنصوره والتهجت بحمد الله الالسن الشاكرة وابتهجت القلوب المجبوره وتحصن الكفرة من الحين ولجأوا في التحين الى الحصنين فمن لاذ بالحصن الذي على الميناء قال انه بحصانته ومنعته يحمينا وعاد معظمهم الاكثر بحصن البلد وهو المعقل الاكبر وتوسط لهم قاضي جبلة في أخذ الامان بعد قبض الرهائن على ان يعيدوا من استرهنوه في انطاكية من أهله ويجمعوا شعاعهم بشمله ويسلموا الينا كل مالهم من سلاح وعده وخيل وذخيرة وغله وتسلمنا الحصنين يوم الخميس وعادا مأهولين من الاسلام بالانيس وكرمت بالكرام جبلة جبله ونفت عنها بالفئة المقبلة الفئة الشقية المختبله وسعد أهلها بعد الشقاء وتعوضوا من الشدة بالرخاء وافضى اليأس بهم الى الرجاء وفاؤا الى الوفاء وانتقل أهل الجبل الى جبلة طائعين بعد العصيان مصافقين بالمصافاة بالايمان أيمان أهل الايمان وكان حصن بكسرائيل قد تسلم من قبل واتصل بفتحه الجبل فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله وكانوا لقاضي جبلة مذعنين باعانته مؤمنين ولدعائه ملبين ولبقائه محبين ونجوا من العار والتبار وضيم الكفار وتناجوا بالاستبصار والاستنصار والاستغفار والاستنفار وأضحت تلك الولاية لاحسانها واليه وتلك الناحية على سكانها حانيه وتلك المدينة لاهل الدين دانية دانيه وتلك الجنة العذبة الجنى لو ردد م الجناة من شوك القنا جانيه وتلك البنية لمعالم المعالي في هدم أساس الاساءة بانيه وتلك الهضبة راسيه والتربة كاسيه والرتبة ساميه والربوة رابيه والذروة عاليه والحالة حاليه وأقام السلطان بها أياما حتى أزال شعثها وأزاح خبثها ورأب صدعها وربربعها وشاد ركنها وشد حصنها وجب كفرها وجبر كسرها وجدد بها جدها وخص بها خصبها وبالعدل عمرها وبالفضل غمرها وبالرعاية ملأها وللرعية كلأها وبجل قاضي جبلة وشرفه وحبس عليه ما كان نفيسا ووقفه وصرفه في أملاك آبائه وحكمه في ولايته حكمه وقضائه

(ذكر فتح اللاذقية)

ورحل ثالث عشرى الشهر يوم الاربعاء منشور اللواء منصور الاولياء مشكور المضاء عالي القدر قادر العلاء ناجح الآراب راجح الآراء وسار برعب الى العدو يقدمه وعزم على الغزو يصممه وأمر لامرار الاحكام يحكمه وجد على تدبير الدين يقفه وحد في تدمير المارقين يرهفه وسعادة تؤيده وتأييد من الله يسعده وسطوة على الكفار يرسلها وجذوة في أهل النار يشعلها وجيش للوثبات ينشطه وجأش بالثبات يربطه وهيبة تروع الخواطر وهيئة تروق النواظر وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين وبات الكفرة مبلسين قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم وعروة كل قلب لهم من الرعب

في يد قاصم والخوف عليهم مستول والذعر فيهم مستعل والافئدة منهم خافقه والاندية بهم متضايقه والمهج في سوق الردى نافقه ونحن طول الليل من السوابغ في جر الذيل ومن السوابق في اجراء الخيل ومن نشاط العزم في اهتزاز ومن احتياط الحزم في احتراز ومن انتخاب الاجواد والجيد في انتخاء ومن انتقاد العتاق والرقاق في انتقاء ومن انتهاض الرياح بالهواضب في انتهاء ومن اقتضاب الارواح بالقواضب في اقتضاء والمقربات تسرج والسمر يحباب تقرب والمقانب تكتب والكتائب تقنب والصوارم تنتضى والصرائم تقتضى والقوارح تضمر والقرائح تخمر والضوامر تجرى والبواتر تعرى والصلاد تلجم والدلاص تستلأم والحنايا توتر والمنايا تؤثر والجاليشيه تعبى والجاوشيه تلبى حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح والمتجر مربح والمفخر متوضح وللعاش فرح وللجيش مرح وقرح العدو مقترح وزند الفتح مقتدح وباب السماء لنزول ملائكة النصر مفتتح وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الاحداق وخطنا بابر السهام من موقها الآماق وأخرجنا منهم بالارهاق الارماق وأنهضنا اليها الحجار والنقاب ولزاق وأطرنا النشاب الى أوكار المقل وأزرناهم رسل النصال بكتاب الاجل وسمعنا من ضوضائهم زجل الوجل ورأينا (هم) تغلي من صدورهم بنار الحقود مراجل الغلل وأشرفوا من الشراريف قلقين متقاقلين ما بين تلك القلل وجدوا في القتال وشدوا على الرجال ومدوا ظلال الضلال واحتدوا بالنصال في النضال وردوا النبال بالنبال وسدوا مذاهب الاهواء بالاهوال وهناك في الزنبورك بورك فانه بالجرح دورك وقلنا للكفر اخرج لتدخل الى دورك وأى دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك وطالما سكنت دارنا فاخرج ودرجت اليها فادرج ومازلنا نقاتلهم بسوادنا بياض النهار ونغطى سنا يومنا بليل الغبار ونرفع من السور حجابه بالحجار حتى فزنا بتمكن النقاب والحجار وأخذت عليهم النقوب ووقذت منهم القلوب وبلغ النقب من الشمال في الطول ستين ذراعا وأربع أذرع في العرض اتساعا وهي ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل متناسقات

كأنهن على رأس راس راسخ وذروة أشم شامخ فسهل الله لنا فرعها وشرع لنا نستأصل أصلها وفرعها وناوبنا عليه القتال وجاوبنا بالنصال النصال وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضغائن وأثارت من مكامن الاحقاد كوامن الدفائن ودام الرماء وجريت الدماء وانجع النجيع ووقع ذلك الرفيع فاستبطى السريع وتخطى الصريع وأبصروا مالا عهد لهم بمثله وعاينوا ما عانوه من غريم الموت المطل في مطله وفتح الحتف بابه وحفر الزحف أصحابه وكشر الشرك نابه وصادف الكفر لدمه المطلول مصبه ومصابه ونفر الناس اليهم واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم والاجل يظهرهم والوجل يخفيهم وهم من وراء أسوارهم بواء في بوارهم ووبل النبل هام وأهل الجهد في ضراب وضرام وجر الجمع في التهاب والتهام ووقع منهم لزمع ومنافيهم الطمع حتى ازدحم على التل الصغار والكبار واستشعروا منا وزال منا الاستشعار وكان لي مملوك صغير قد زحف وأرهق وأرهف فقبل خده سهم فرجع واذا وجهه طلق لاجهم وهو بقرحه فرح وللفرح بالشهادة مقترح وقد عدله الجرح وحسنه القبح فلما عرفوا انهم مدركون وانهم يؤخذون ولا يتركون صاحوا بالامان واستماحوا الايمان وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الاولى عشيه وكان فتح ذلك المعقل من الله مشيه فانه موضع ما فيه مطمع ولم يكن للكفر غيره مفزع وصعد اليهم قاضى جبلة يوم السبت غدوه وكان ذلك الفتح صلحا أشبه عنوه وطلع السنجق المنصور وانجلت الظلمة وتجلى النور وأشرق الفلق وزهق الديجور وبدا الفجر وباد الفجور وسرت القلوب وأقبل السرور وسلموا القلاع بما فيها من عدة وذخيره وأسلحة وخيل ودواب كثيره وأمنوا على أنفسهم وأموالهم وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم وخفوا من أثقالهم ودخل جماعة منهم في عقد الذمه وتمسكوا بحبل العصمه وانتقل الباقون الى أنطاكيه وأيقنوا انهم وجدوا بعد رسوم السلامة العافية العافيه ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد مصونا من الاشراك وتشريكه ثم ولى

بهاسنقر الخلاطى مملوكه وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه فتولى الرعية
كافة بالرعاية والكفاية وانتهى الى الغاية فى نهى أولى الغوايه وأقام حاليا
للغيابه حالى الرأى والرايه وركب السلطان الى البلد وطافه وهز الى احسانه
أعطافه وأدنى الى عدله قطافه ووفر ألطافه وأصفى نطافه وأمنه بعد
ما أخافه ورأيتها بلدة واسعة الافنيه جامعة الابنيه متناسبة المعانى
متناسقة المغانى قريبة المجانى رحيبة الموانى فى كل دار بستان وفى كل قطر
بنيان وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان أمكنتها مخرمه وأروقتها
مرخمه وعقودها محكمه ومعالمها معلمه ودعائمها منظمه ومساكنها
مهندسة ومهندمه وأما كنها ممكنه ومحاسنها مبينه ومراتبها معينه
وسقوفها عاليه وقطوفها دانيه وأسواقها فضيه وآفاقها مضيه ومطالعها
مشرقه ومرابعها مونقه وارجاؤها فسيحه واهواؤها صحيحه لكن لعسكر
شعث عمارتها وأذهب نضارتها وأزعج ساكنيها وأخرج قاطنيها وملك
دور المشركين للموحدين وطهرها من رجس الكفر وأظهر الدين ووقع من
عدة من الامراء الزحام على الرخام ونقلوا منه احمالا الى منازلهم بالشام فشوهوا
وجوه الاماكن ومحوا سنا المحاسن وبظاهر اللاذقيه كنيسه عظيمه نفيسه
قديمه بأجزاء الاجزاع مرصعه وبألوان الرخام مجزعه وأجناس تصاويرها
متنوعه وأصول تماثيلها متفرعه وهى متوازية الزوايا متوازنة البنايا
قد تخيرت بها أشباح الاشباه وصورت فيها أمواج الامواه وزينت لاخوان
الشيطان وعينت لعبدة الصلبان ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها وشوهوا
اعلامها وحسروا لثامها وكسروا أجرامها وأهدوا الاسى لهد أساسها
وأفاضوا عليها لباس ابلاسها وحكموا بعد الغنى بافلاسها وافتقرت وأقفرت
وخربت وتربت ثم لما طابت النفوس وتجلى عن البلد بفتحه البوس عاد الى
هذه الكنيسة بالامان القسوس وهى متشوهة متشعثه مستمسكة باركانها
وقواعدها متشبثه ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت وعلى تلك
الحالات الحاليات كيف حالت ولكنما زاد سرورى بأنها عادت للاسلام

مرابع ولسروحه مراتع ولجموعه مجامع ولشموسه مطالع فلو بقيت بحليتها
وحالتها بعدما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت وكما أفاقت فاقت
وشأت البلاد اذا شاءت لكنها ساءت لما أساءت ثم أعادها الاسلام الى أحسن حاله
وجلالها فى السناء أسنى جلاله ورغب فى اعطاء الجزية سكان البلد من النصارى
والارمن حبا للوطن وسكونا الى السكن فآض مأمول الجنى مأهول الجناب وعاد
بتجار البحار مملوء الرحاب وتبدل بالابدال الاخيار والارباب الابرار من بعد الكفار
الفجار والاشرار أهل النار وكانت شوانى صقليه قد قابلت فى البحر اللاذقيه
طمعا فى امتناعها وطلبا لذيادها عنها ودفاعها فلما خابت خبت نارها وباخ أوارها
وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صونها
ببذلها فامتنعوا عن الانتقال وأمنوا بعقد الذمة على النفس والمال وكان
السلطان يوم الرحيل من اللاذقيه راكبا عند ميناها وقد حصل من ترتيب العمارة
مناها فطلب مقدم تلك الشوانى أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه فأمنه حتى صعد
ولو أسلم ذلك الشقى لقابلت سعد ولما حضر الكافر عفر وكفر وتروى ساعة وتفكر
وأحضرنا الترجمان وأدى عنه البيان وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم
وملك رحيم وقد شاع عدلك وذاع فضلك وقهر سلطانك وظهر احسانك
فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت عليهم او أحسنت لملكت
قيادها اذا أعدت بلادها وصاروا لك عبيدا وأطاعوك قريبا وبعيدا
وان أبيت غير الغيرة والاباء ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من
وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق وأفاق للتناصر على دفع هذا
الخطب نصارى الآفاق وثار الروم لروم الثار وخرج الفرنج أفرارا للاستنفار
وسار ملوك ذوى الاقانيم من سائر الممالك والاقاليم وأتى الاتى ولا يقاوم القدر
المأتى وهؤلاء أهون منهم فاتركهم واصفح عنهم فقال السلطان قد أمرنا الله
بتمهيد الارض ونحن قائمون فى طاعته بالفرض وعلينا الاجتهاد فى الجهاد
وامتثال أمره فيه بالانقياد وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد ولا تكثرت الاسناد
بكثرة النقاد ولو اجتمع أهل الارض ذات الطول والعرض لتوكلنا على الله فى

اللقاء ولم نبال باعداد الاعداء فلما سمع ما فهمه من نجهه ذهب بعد أن صلب على وجهه وركب بكر به وكربر كبه ولم يغن خطابه عن خطبه

((ذكر فتح حصن صهيون))

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى والهدى فى نصره بين أنصاره يتهادى وقد تيقنا أن الفتح لا يتمادى وان العزم عن الفداء بالمهج فى سبيل الله لا يتفادى وأخذنا على سمت صهيون وهو حصن يفوق الحصون ويفوت العيون وطلبناه كما يطلب الدائن المديون ونحن للكفر مميتون وللاسلام محيون وكان الطريق اليه فى أودية وشعاب ومنافذ صعاب ومضايق غير رحاب وأوعاث وأوعار وأنجاد وأغوار وقطعنا تلك الطرق فى يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين ورزقنا الله التأييد والتمكين وهى قلعة على ذروة جبل فى مجتمع واديين بها محيطين من جانبين والجانب الجبلى قد قطع بخندق عميق وسور وثيق والقلعة ذات أسوار خمسة كانها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء من نواحيها الاربع وهى ممتنعة علينا بالركن الامنع والسمو الامتع ونقل السلطان خيمته الى جانب الجبل بكرة اليوم وشرع فى محاصرة القوم وقامت أسواق الاقواس للمنون فى مغالاة السوم وتوفرت سهام السهام من المقل وتبدت بنات الكنائن من الدم القانى حمر الحلل وأسقطت حوامل المنجنيقات أجنة الصخور وكشفت صدور الكنائن أكنة الصدور وظهر سر السراء وكثر مراء الرماء وذخرد أماء الدماء وطارت الحجارات وجرت الطيارات ودارت حميا لحم على أولئك واستنجدت ملوكنا الملائك وأدامت اليهم المجانيق والجروخ والقسى الرمى المتدارك وأقام الملك الظاهر غازى صاحب حلب منجنيقين ونهج بهما من جانب الوادى الى ردى الاعادى طريقين وكان له فى فتح هذه القلعة الجد العالى والجد الوالى والعزم الماضى والحزم القاضى والسعى الناجح والرأى الراجح والبأس البالغ والسطو الدامغ فانه اتصل بنا قبل الوصول الى جبلة من طريق حماه وقد استصحب

النكاة الحماه ومعه الرجال الحلبيه والمنجنيقيه والجرخيه والجانداريه والخراسانيه فاظهر على صهيون اليد البيضاء وكسب الذكر والثناء وأنار فى فضاء الفضائل وأضاء ودام القتال على المكان من جانبه ومن جانب السلطان والملك الظاهر فى تظاهر ملكه وتضافر سلكه وريعان اقباله وعنفوان جلاله وشباب رهان مجاراته وشبا برهان مباراته وابراق عوده واشراق سعوده وغرة عزته وميعة منعته وصدر تصدره وشرخ أمره وتشمره وقد وصل فى أول نشاطه ونشوء اغتباطه وفتاء فتوته ورواء رويته وارتقاء ارتفاعه وايفاع يفاعه وترعرع سنه وتعرعر آنه وتسامى سيادته وتراقى سعادته وأجد لعز العزم الجد وأعد لرى الرأى العد واستلذ فى سبيل الله نصبه ورفع المنجنيق ونصبه وجعل لرجاله نوبا ولاحواله رتبا وألقم أفواه كفاته حجرا وأجرى فى الحق من الحجارات الجاريات من منابعه نهرا ورجم الحصن الزانى رجم المحصن وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر فلله در المسىء المحسن وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمى والحنايا بسهام المنايا تصمى حتى قتلت مقاتلة الحصن وهان بما دب فيه من الوهن وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثانى جمادى الآخره وطما بحر العسكر بأمواجه الزاخره وازدحم الناس فى الزحف كانهم فى الحشر بالساهره وهاج الشباب وماج العباب وتسابق ذوو الجرأة والقوه وتلاحق ذوو الحمية والنخوه وكان فى قرنة الخندق عند خرقه الى الوادى موضع لم يكمل تعميقه ولم يتم توثيقه فتطرقوا من تلك القرنة الى القنه وتسوروا السور وتسلقوا وتقلعوا الى القلعة وتعلقوا وتملكوا الذروه وأمسكوا العروه واستولى على أهلها الرعب واستشرى بهم الكرب فتعادوا الى القله وتفادوا من الخوف لا من القله وملكت عليهم ثلاثة أسوار بما فيها من متاع وشوار ونعم وأبقار وصاحوا الامان وبذلوا الاذعان ونادوا مكنونا من السلامة وتسلموا المكان فأمنوا على المال والنفس حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس وأغلقت دونهم الابواب وسير اليهم النواب وما استقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار وجبى الدرهم والدينار وعم الكبار والصغار

الصغار وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ما حواه من ذخائره وأمواله الى الامير ناصر الدين منكورس ابن خمارتكين أسد العرين وأمير المجاهدين المقدام الهمام والمطعان المطعام فألقى الثغر سداده بسداده وأسرع به مراد مراده

﴿ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل﴾

وتسلم يوم السبت قلعة العيذو ويوم الاحد قلعة الجماهريين ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه وسلكه فى سلك الفتوح ونظمه

﴿ذكر فتح حصنى بكاس والشغر﴾

وسار السلطان ثانى يوم فتح صهيون على سمت القرشيه ومشيئة الله جارية على موافقة ماله من المشيه ونزل على العاصى فى طاعة الله والنصر قد نزل والكفر قد انخذل يوم الثلاثاء سادس الشهر وبحور السوابح فى غدران السوابغ مانجة على ذلك النهر وحكم السلطان فى القهر ماض باذن الله على الدهر وتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور وشكا الشرك نكاية حد بأسنا المشكور وحول خيمة خفيفة الى الجبل لحصار قلعة الشغر وهى قلة شامخة من أعلى القلل على هضبة منقطعة عالية مرتفعة ومن نواحيها واد خاف من العمق غير باد فى أعماق ووهاد وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادى خندقها وأخذ من العوادى موثقها فما اليها طريق ولا عليها طروق ولا فيها للطمع علوق ولا للسهم اليها مروق ولا للزحف فيها مطمع ولا للذر نحوها مطلع ولا للطير فى مراحها وكر ولا للمكر فى افتتاحها مكر ولا للوهم فى توقلها مجال ولا للفهم من تصورها منال ولا لها بمن يحتفل بها احتفال وما عليها للنازلين عليها اقبال ولا نزال ولا يتغير لها مع تغير الاحوال حال وصعب شغل الشغر واشتغل فكر الكفر ولم ير السلطان طريقا غير الرمى من المنجنيق لعله ينال جمعها بالتفريق وداومها بالحجارات أياما ولكم سدد بها مرمى ومراما فلم تعبأ بأعبائها فانها ترامت عن رمائها وأبت الاثباتها وثبتت على ابائها واعيا اعضال دائها واستفحال بلائها وخام الرجاء بالارجاء عن أرجائها ولو لم يضجر حاميها الضجر

راميها وسئم سائمها لتساميها لكنه وهى جلده وهوى خلده وخار قلبه وحار لبه وخاف من الاقامه وخاب من السلامه وارتاح الى الراحه وسما الى السماحه وعاج الى الانزعاج وعاد لداء خوفه فى الاستئمان بطلب العلاج ودعا الى الدعه والخروج من الضيق الى السعه فبينا نحن فى تروية فكر وتخير للرأى وتدبر ونقول هذا حصر يشتد وأمر يمتد وعمل يصعب وأمل يتعب ومعقل لا يحتل ومعقد لا يحل ومقصد لا يدرك ومورد لا يملك ومكان لا امكان لفتحه ورجاء بطول الزمان فى تطلب نجحه اذ خرج من الحصن من يضرع فى الامان ويمترى ضرع الامن فشكرنا الله على تسهيل المتوعر وتيسير المتعسر وتحصيل المتعذر وتلقيح الرجاء من الياس وتنقيح مناط حكم الصحة عند اضطراب علة القياس وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم الثلاثاء وسألوا فى مهلة ثلاثة أيام والارجاء ليخبروا صاحب انطاكية ويستأذنوه ويبلوا عنده العذر ويخرجوا من الحصن ويسلموه فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك مقفر والشغر شاغر والكفر صاغر وفم القهر منالهم فاغر والاسلام قد ثلم ثغر من هوله مثاغر والحصن البكر مفترع والدين المتأصل بشعب النصر متفرع وطلع العلم الى ذلك العلم الطالع وانتقم الهدى الضليع من الضلال الظالع وكأنما عذبات تلك الراية مقاول الداعين وكأنما أبراج تلك القلعة مسامع الواعين وعاد الحصن آهلا بأهل الاحصان وصافح بأيدى الايمان ذوى الايمان وابتسم عن النصر ثغر الثغر وفرغ القلب من شغل الشغر وسلم هو وحصن بكاس الى غرس الدين قليج الساقى عدوه الموت بكاس الباس وانتقل السلطان يوم السبت الى مخيمه والاقبال جاثم فى مجثمه وسرى ولده الملك الظاهر الى قلعة سرمانيه وأرهق فيها الفجرة الجانيه واستطلق منها البررة العانيه وقطف مجانيها الدانيه واخلى مغانيها الغانيه وما قطع قرارها حتى قرر عليها قطيعه وكلفها ما كانت له من المال مستطيعه ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعه ثم خربها حتى خربها عاليها وعطل حاليها وانجلى ثاويها وانتأى جاليها وبقيت دمنة داثره ودمية عاثره ورسما عافيا ورقما

خافيا وربعا باليا وصقعا خاليا وعادت دارا دارسه مستوحشه بعد أن كانت آنسه وكان فتحها فى يوم الجمعة الثالث والعشرين فأخلى الله من السباع الضوارى ذلك العرين ومن نوادر الطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتاليه فى أيام الجمع الخمس المتواليه بان فيها النصر أهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الاحد وأصبح التوحيد على التثليث قاهر الايد ظاهر اليد

((ذكر فتح حصن برزيه))

وسرنا الى قلعة برزيه وسرنا سار ودر الظفر لنا دار وهى أحصن القلاع وافرعها وأحسن التلاع وأرفعها وأعمق الرواسى وأسماها واسنم الرواسخ وأسناها وكان السلطان سبق اليها وأشرف عليها ثم استدعى الثقل واستحضر وجمع بالفضاء تحتها العسكر وذلك رابع عشرى الشهر يوم السبت وقد تهيأت فى العدو أسباب الكبوة والكبت ثم تجرد يوم الاحد فى المدد والعدد ورقى الى الجبل مع ابطاله النبل فرأيناها قلعة شماء فى الذرى لا تكاد من سموها ترى وهى على سن من الجبل عال مترامية فى السماء ارتفاعا وقيل قدر علو قلته فكان خمسمائه ونيفا وسبعين ذراعا فاحدقنا بها وبالجبل وقطعنا عنها متصلات السبل ونصبنا عليها المجانيق فى ذلك السفح فلم تصافحها صفائحها وأبدت لنا صفحة الصفح فقد بعد مرام مرماها وحارت الاوهام فيها وقلنا ما أعلاها وما أسماها وتجاوزت عنها الحجاره فلها من اجازتها بها الاجاره فما بلغت الى القلعة قلاعها ولا اطلعت الى القلعة طلائعها هذا والنجم يلامع بلامعها وتقارن طوالعه طوالعها فكان لصخور سلم نحورها فان سورتها تنكسر دون الوصول الى سورها ولما رأى السلطان انه لا وصول الى نيقها بالمنجنيق وان الاشتغال به يطيل زمان التعويق مال الى الزحف ولاحف جموعه فى ذلك اللحف وذلك فى السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء فقسم الناس ثلاثة أقسام على السواء وجعل النوبة الاولى لعماد الدين صاحب سنجار الليث الهصار والغيث المدرار والبحر الزخار والسيد الجلاحل والملك العادل فى صحابه الصباح كفاة الكفاح وعفاة الصفاح ونفاة الهام بثبات الاقدام فى الاقدام وشفاة

الاوام بعلة الانتقام من الاقوام واساة ذوى الاساءة باحسان الحسام وكساة عرى العراء أرديه القتام ورقاة أراقم اللهاذم وسقاة حوائم الصوارم والمراق فى حومة الردى رداء المآزق والسباق فى حلبة الهدى بهوادى السوابق من كل شارب ماء الوريد بشفاء الشفار وضارب هام المريد ببتار التبار ولاسع بحمة الحمام فى الاسل العاسل عاسل ولابس لباس الباس كالاسد الباسر باسل ومعتقد للدين للرديني معتقل ومعتمد على العدو بعادى معتدل ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز ومجتب لحب المنون لرهون نفائس النفوس محتاز فانقضوا على الهضب ومضوا على العضب ودام الصفا يدهده والصدى يقهقه والزاحف يتقدم ويتقهقر والحافز يختفى ويظهر والرجال تتعالى والحجار تتوالى والمصاعد ترقى والمصاعب تلتقى والمضايق تولج والبوائق تخرج والاكام تفرع والرجام تقرع وللصخور ترديد والجلاميد تميد ومازالت هذه النوبه تنازل وتقاتل وتناضل وتطاول وترمى وترمى وتدمى وتدمى وتصمى وتصمى وترد وترد وتصد وتصد وتصدم وتصدم وتقدم وتحجم وتصدع وتصدع وتحمل وترجع وتذكو وتنطفى وتبدو وتختفى حتى كلت وملت وانحلت وتخلت وكانت غلبت لولا أنها لغبت وسمت لولا انها سئمت وأفنيت هذه النوبه خاصه لاهل الحصن حاصه فانهم تولوا باجمعهم القتال ولم يقصدوا التناوب الاستبدال ولما ظهرت فى النوبة النبوه وكاد جوادها تناله الكبوه تقدم السلطان بنفسه فى النوبة الثانيه والسطوة الدانيه والعزمة الثانيه غير الوانيه وخف الثقال من الرجال وزحف الى الجبل بالجبال وتضافروا وتظافروا فى الاوعار كالاوعال وجروا كالسيول فى تلك المسايل وجروا ذيول السوابغ على تلك الهواجل وترقوا فى ذراها وقروا على قراها وتلبسوا بجوانبها وتوجسوا من متاعبها وندرجوا فى مدارجها وعرجوا فى معارجها وخرجوا فى مداخلها ودخلوا فى مخارجها وصارت الجروح تجوزهم والجروح لا تحوزهم والسهام تعبرهم والاكام تسترهم والنخوة تحميهم والحميه تحيهم وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم

والتحذير من تورطهم وتفريطهم فمن انقبض بسطه ومن أعرض ضبطه ومن أقبل أغبطه ومن أدبر أسخطه ومن تقدم قرظه ومن تقاعس أحفظه ومن تناعس أيقظه وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تساطوا وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا فمنهم من تمكن من الطلوع ومنهم من تمكن للولوع وتقلبوا فى تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع وعرا أهل الحصن العناء والعياء وعمهم البلاء وأدركهم الشقاء فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعا فمنهم من صد صديعا ومنهم من صار صريعا وظهر فيهم الفتور وبدا منهم القصور وجاءت النوبة الثالثة تاليه وأقدمت أمدادها متواليه متعاليه وعادت النوبة الاولى لنشاطها وزادت فى انبساطها فبلغوا وغلبوا والتهموا والتهبوا وتعلقوا بالسور وتسلقوا كالنسور وطلعت القلعه وقلعت الطلعه واقتضت المعذره واقتضيت النصره وأعان القدر فقدر الاعوان ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان وان أهل القلعة لما أيقنوا انهم ملكوا طلبوا الامان حتى لا يهلكوا فلما سمع أصحابنا بالامان صياحهم وعرفوا للضراعة التياعهم والتياحهم كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان واشفاقا من سبى من يشمله الامان وكان جماعة من دهاة الخواص عارفين بطرق الاقتناص فاظهروا ان السلطان آمن أهل القلعه وانه يدافع عنهم فى هذه الدفعه وجمعوهم فى مواضع وكنائس وأحرزوا النفوس والنفائس وعاد عنهم من حضرهم على ظن ان السلطان آمنهم وحظرهم وبقى أولئك الافراد بهم متفردين ولتجريدهم للسبى متجردين وصار ما بالقلعة ومن فيها لهم كسبا وسيبا وما رأوا الحق من شاركهم فى السبى رعيا وحرموا ما ارتفقوا به وحرموا الرفقاء وحازوا دون الغانمين النهب والسباء وملك واحد مائه وحاز الرى وملأ عنه رفقه ظمئه ولما تسنى ذلك الفتح وتهنأ وتسهل ذلك الصعب وتهيأ عاد السلطان الى خيامه وعاذت الايام بايامه وكانت صاحبة حصن برزيه أخت زوجة الابرنس صاحب انطاكيه وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها وكانوا بعد هتك سترها ستروها فمن عليها بالاعتاق من

الارقاق وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم فى الاطلاق وجمع شملهم بعد الشتات ووصل حبلهم بعد البتات وشعبهم وقد تصدعوا وأشبعهم وقد تجوعوا وحظرهم وقد استحلوا وكثرهم وقد استقلوا وحرمهم وقد استبيحوا ومنعهم وقد استميحوا وأحياهم بعدما هلكوا وعصمهم بعدما هتكوا وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا وجبرهم ونعشهم وقد انكسروا وعثروا وسيرمعهم الى انطاكية من أوفدهم على ستها فسرت باختها وأعلنت بعتقها من سر مقتها واذاعت من مضمر بغضها بمظهر حبها وجاءها الفرح فى غمها والفرج فى كربها وتشكت لاخذ بلدها وتشكرت لترك أختها وولدها وأنعم السلطان بهذا الحصن على عزالدين ابن المقدم الكريم المكرم والمقدام المقدم والعظيم المعظم والماجد الممجد ابراهيم بن محمد فان هذه القلعة لثغر فامية الجارية فى اقطاعه متاخمه وهى لها فى السلم مقاسمة وفى الحرب مزاحمه وسرت هذه البشرى وسارت ودرت هذه النعمى ودارت وطارت كتب البشائر وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبت ان هذه البشرى بما أجده الله من الفتح العزيز والنصر الوجيز بفتح حصن برزيه الذى برزت له الارض فى قشب أثوابها وتفتحت له السماء لتنزل الملائكة من أبوابها بل سفرت به عرائس الايام فى حلى أيامنها وأشرقت منه أقمار الليالى فى أنوار محاسنها وهذا الحصن لا يمكن وصف ما (هو) عليه من الحصانه وكان بحره فى حجر حضن للحضانه وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون وسلبنا أهل الكفر بها من السلامة والسكون وفتحنا كل مرتج لم يكن فتحه مرتجى ولم يجد من حصل فى أسر الدهر به مخرجا حتى أتت أيامنا ودانى فيه مرامنا فجاء عصرنا وفجأه أمرنا ووصل الينا ما هو فى الازل ذخرنا وكمل بهذه الفتوحات فخرنا وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكيه وسقينا بماء الحديد الجارى فى أنهار دم أهل النار مغارس الهدى الزاكيه وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكه وعيون العدو الباكيه وهذه الحصون التى فتحناها والمعاقل التى استبحناها لو وكلنا الله الى اجتهادنا فى فتح

أحدها لتعذر ولو أنجدت عساكر الدنيا بعددها لكن الله سهل ويسر وفتح ونصر وانزل الظفر وان حصن برزيه لم يكن عليه قتال ولا للوهم فيه مجال ولا منصب عليه لمنجنيق ولا مسلك اليه لسالك طريق وحضرنا لحصره متوكلين على الله فى أمره غير طامعين فى فتحه ولا راجين لنجحه فانقاد جماحه وانخفض جناحه وساء صباحه وكل سلاحه وتوقل الرجال فى ذروته توقل النجوم فى الافلاك ونصر الله أهل التوحيد على أهل الاشراك وفتحناه بالسيف عنوه ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضحوه فانا المانو كلنا على الله فى منازلته واستعنا به فى مقاتلته نظر الله الى النيات وأعان ذوى العزائم والثبات فتعلقوا فى الجبل وتسلقوا الى القلل وسعوا الى الاجل فى طلب تسنى الامل فكان كما قال الله تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر حتى من الله بالظفر وأصفى الورد والصدر من الكدر وقد بقيت انطاكية ومالها بقاء ولا لها فى الاعتصام رجاء وقد نقصنا أطرافها واستبحنا كنافها وشفهنا نطافها وعضدنا من رؤس آهلها بحدود الصوارم قطافها ولم يبق من معاقلها الا القصير ودربساك وبغراس وقد تقدم اليها الفاتحان الرعب والباس

((ذكر فتح حصن دربساك))

ورحل السلطان وقد نجحت آماله ورجحت أعماله وجل اقباله واقبل جلاله وعبر عند شقيف دركوش الى شرقى العاصى وقد دانت ودنت له المقاصد العواصى القواصى وأقام أياما على جسر الحديد حديد الجساره شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح وللمشركين من الخساره ثم قصد نادربساك وجددنا بتأييد الله فى حصره الاستمساك ووجدناه حصنا مرتفع الذرى ممتنع الذرا قد جاوز الجوزاء وناجت أرضه السماء وكان عش الداويه بل عرينهم وطالما أطال فى التعدى أيديهم وعرانينهم وكانوا قد نزلوا منذ أنزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون وركنوا بسكنى هذا المعقل الى السكون فلما أشرفنا عليهم أشرفوا على المنون ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب وقلب الكفر قد وجب ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها وصوبت اليهم مسددات مرامها

ومرامها ورامييناهم بها ليلا ونهارا وأرسلنا اليهم أمثال قلوبهم ووجوههم أحجارا وكدنا الاذنوفى أرضها التى هى فى السماء من الكافر بن ديارا وتركنا ناسه بالحجارة صرعى وأسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال فى حمر المرعى وأصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج لشجا والشجب ووجه نجاتهم قد احتجب وقد وقع بالنقب برج من السور الخارج وظهر فيه عروج للدارج ودروج للعارج فطلبوا على مراجعة انطاكية الامان وان ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه المكان فأجيبوا الى ذلك على قطيعه وردوا ما كان للاسلام معهم من وديعه وتسلم الحصن بعافيه ثانى عشرى الشهر يوم الجمعه وأصحب بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعه

((ذكر فتح حصن بغراس))

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغراس وقد ضايقنا الاعداء وضيقنا منهم وعليهم النفوس والانفاس وهى قلعة من انطاكية قريبه وانها فى الشدائد لدعائها مجيبه ورأيناها راسخة على رأس راس شامخة على عاص عاص أرضها فى السماء وجوازها على الجوزاء متوغلة فى الشعاب متوقلة على الهضاب منسحبة فى السحاب مضببة بالضباب مربية على الرباب متعلقة بالنيرين متسلقة الى الفرقدين محلقة الى النسرين ولا مطمع نحوها لطالع ولا مطلع فيها لطامع ولا مطمح للامح ولا مطمع لطامح وهى الداوية وجار ضباعها وغاب سباعها ودار دوائرها وغار مغاورها وغيل غوائلها ومنزل نوازلها وجعبة نبالها وهضبة رئالها ومذب ذئابها ومدب ذبابها وكوارة زنابيرها ومغارة خنازيرها ومرقب صقورها ومرقد نسورها ومكنس وحوشها ومعرس جيوشها فخيمنا بقربها فى المرج وقد أنارت من مشرعات أسنتنا فى ظلماء نقع خيلنا مشعلات السرج وتقدم من العسكر جمع كثير وجم غفير وخيم بين انطاكية وبينها ووكل بها ناظر يقظته وأرقد عينها فأقام على سبيل اليزك ودخل فى حفظ جانبها فى الدرك وصار يركب كل يوم ويقف تجاه انطاكية صفا ويسومها من الغارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ومقابل رجسها مهه

الظهر وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل ووقف بازاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق آمريه بالاذعان على خلاف نهاته وقلنا للمقيم به خذ الامان وهاته ومازالت الحجارات تناوبه وصدى الصفا بالنكاية يجاوبه والصخور فيه تتواقع والبلايا اليه تتتابع فما شعرنا الا بانفتاح بابه وألجأ جماح أصحابنا عليه جماحه الى أصحابه وخرج مقدم الداوية يستأذن في الحضور ويسأل الامن من المحذور والحل من المحظور ويقول انما قنينا بغراس القنا وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنا والمعاقل لايحميها الا معتقلوها والبلاد لايحفظها الا أهلوها ومافي هذا الحصن الا مقدمان ومالنا بمقاومتكم يدان وعاد الى أصحابه من السلطان بالامان وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دربساك بالامس وسلمها الداوية طائعين فعجبنا من انقياد أولئك الشمس وأباحوها لنا وكانوا يغارون عليها من طلوع الشمس وأنار في مطلعها سنا السنجق المنصور وآذن المتطاول فيهما من تطاولنا بالقصور وذلك في ثاني شعبان وسر النصر فيه شاع وبان وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى علم الدين سليمان وكان صاحب حصن عزاز وقد حاز الغنى به وفاز وما كان في الامراء الاكابر من لايدعي سواه الاعواز فالزمه بهما ليعتني بحفظهما وحضه من عصمتهما على حظهما فتسلمهما بذخائرهما واطلع من النفائس على مستودعات ضمائرهما وكانت حينئذ انطاكية قد أسعر غلتها غلاء سعر الغله وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القله والغرارة تساوي اثنى عشر دينارا والقوم قد شارفوا فيها تبارا وبوارا وحزرنا ما في بغراس خاصة من الغله سوى ما فيها من تفصيل الاقوات والجمله فكان تقدير اثنى عشر ألف غراره فحصل سليمان من منبع هذا الملك على غزارة عن غراره فقلت كأني به وقد نقل هذه الغلة الى انطاكية وباعها وأعرض عن متاعب الآخرة وحوى من الدنيا متاعها وأذهب الغلة بذهب يغله ويستحلي مر هذا السحت ويستحله ثم يستعفي من حفظ الثغر ويشير بتخريبه ويقضي فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجريبه

((ذكر عقد الهدنة مع انطاكية))

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفر من فتوحها بالسر المصون عول على قصد انطاكية فانها كانت مريضة على شفا ورسم قوتها قد عفا وخلق ثيابها قد انتفى والدهر قد انتقم منها واشتفى ووجه الفلاح عن أهلها قد اختفى فلو صدقها وقصدها حاص دعائمها وحصدها وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال أخي زوجته يسأل في سلم تعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته وعقد الهدنة على بلده وأمن على ما في يده وذلك لثمانية أشهر من تشرين الى آخر أيار ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة وأوان حصادها فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعدادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح لكن العسكر الغريب مل الاقامه وأبدى السآمه وأراد السلم والسلامه وقيل بهذه المدة من الهدنة لاتزداد انطاكية قوة ولا تستجد جده ولا ترجو الهاعدة نجده ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عده وأما حصونها فقد حصلنا على عملها وقتلنا نحلها وأما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى وان جنحوا للسلم فاجنح لها وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين وسار رسولنا معه شمس الدولة بن منقذ للاسارى منقذا وللاوامر منفذا وعلى المقاصد مستحوذا وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب والاسلام قد غلب وفاز من الفتوح بما طلب واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمه وسلب وخلب

((ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وعساكر البلاد
وعود السلطان الى دمشق بنجح المراد))

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه وشيعه بكرامة كرام أشياعه وخصه بعد ما سيرله من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه وأناله منه حسن اصطفائه وحسنى اصطناعه ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة وخلعه

مجمله وحرمة مكمله ووعد جميل يرغب فى العود وجود جزيل منسكب الجود
وذلك سوى ما غنموه من كسب وكسبوه من غنم واستطلقوه من رسم واستجزلوه
من قسم وملكوه من رق سبى وأدركوه من حق سعى وأجدوه من غرض
وأدوه من مفترض وأحيوه من حسنة النصر وأماتوه من سيئة الكفر
واستضافوه من فتح واستفاضوا به من نجح وسار السلطان فى عسكره حامدا الله
فى مورده ومصدره وارتاح الى العبور على ارتاح وامتار لها اليمن بافتقادها
وامتاح ووصل الى حلب وحلب احتفالها بوصوله حافل والملك بها للاهتزاز
بقدومه فى ملابس البهاء رافل ودخلناها وقد خرج كل من بها للتلقى مستبشرين
بالاقبال المتضاعف المترقى وشاهدنا من النظارة عيونا للمحاسن ناظره ووجوها
ناضره وقلوبا حاضره والسنا شاكره وأيديا فى بسطها الى الله للابتهال بالدعاء
متظاهره واقتضت حركتنا الى الشهباء لما كنيها اسكون الدهماء وأقام بقلعتها
أياما يسيره وألفى ولده الملك الظاهر أسر احسانا وأحسن سيره وقام به وبالعسكر
مدة المقام واتسقت الامور بأوامره على النظام ولم يرحل الا وقد خص عوامنا
وخواصنا بالانعام الخاص والعام وأبان عن كل منقبه وأعان بكل موهبه فدا
وآه والده مدخل بحلب الافى أجل حليه وأكمل حاله وأجلى بهجة وأبهى جلاله
وقد أجد لعينه ولنفسه قرة وقرارا وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا
ثم انفصلنا عن حلب منقطعين الى مواصلته بالدعاء قاطعين طرقنا المتصلة بدليلى
الشكر والثناء وتنكبنا طريق المعره بسلوك طريق المعره وأوفيناها بالمبرة
الموفية المبره وتيمن السلطان بزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقى أبى زكريا
المغربى وهو مقيم فى مسجده عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده وقصده
السلطان على فراسخ ولقى منه فى الحلم والوقار الطود الراسخ واهتدى بسجاياه
واقتدى بوصاياه ووصلنا الى حماة وبتنا بها ليلة واحده ولم نر عينها لما شملها
من الرعاية جاحده فان الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قد
كشف عنها بالته المكروب وملك القبول من أهلها والقلوب وأعاد لها بالعمارة
العمرية عمرا جديدا ومد عليها من مهابته ومحبته ظلا مديدا وكانت قلعة حماة

لا تعد فى القلاع المعدودة المحميه ولا تذكر مع المعاقل المرعية المرضيه وهى
ذات تل متبطح غير مترفع ولا متسفح فلما تولاها تقى الدين قطع من التل ما كان
متواطيا وأتلع من القلعة جيدا عاطيا وعمق خندقها فى الصخر وحصنها على
الدهر وبنى فيها الدور المرخمه والاروقة المهندسة المهندمه وحصنها وأعلاها
وحسنها وحلاها وزينها بكل زينه وأعاد حماة ذات قلعة حصينه فاضلة فى
الشام كل مدينة فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعه وسر بما رأى لها من
الحصانة والرفعه ووقف الملك المظفر لعمه وجرى فى الخدمة على رسمه وحضرنا
وأمير المدينة النبوية معنا والسلطان قد أجلسنا بحضرته ورفعنا والنادى
قد جمعنا والشادى قد أسمعنا والاغاريد تطرب والاناشيد تعرب فما
انفصلنا تلك الليلة الا عن علم نشر وعرف أنشر وفضل سنى وعدل أحيى
ورسم نائل للسماح أجرى وزند سائل بالنجاح أورى وسنى جدا أعلى وجنى
جودا أحلى وقر الذوى الحاجات القصص وأزال من الظلامات الغصص
وأنال لذوى الخصاصات الحصص وأصبحنا على الرحيل ووصلنا العنق بالذميل
وعبرنا مغذين على حمص وزدنا فى الوصول الى دمشق على طريق بعلبك الحرص
وجئناها قبل شهر رمضان بأيام وركنا به الى ما أنسنا به من مقام وتجمع بنا
شملها وتهلل باستهلالنا أهلها وقلنا نصوم مع القوم ونقيم مدة الصوم فما
لبث السلطان ولا مكث ولا نقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكث وقال
لا نبطل الغزوه ولا نعطل هذه الشتوه وقد بقيت صفد وكوكب وأخواتها
وبطول مضايقتها افنيت أقواتها وقواتها فنتنهز فرصة فتحها التى لا يؤمن فواتها
وخرج من دمشق فى أوائل شهر رمضان وحد عزمه رميض ولبارق سعده
وميض وفضله مستفيض ووجوه الايام لايادية البيض بيض ولسان الدهر
فى ذكر سيره وتسيير ذكره مفيض وجناح الكفر بجناح رجائه ورواج مناجحه
مهيض وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض

(ذكر فتح الكرك وحصونه)

ووردت البشرى بنجح الدرك فى تسلم حصن الكرك وذلك ان مدة غيبتنا فى

بلاوانطاكيه لم تعدم من محاصرتها المضايقة النكايه وكان الملك العادل اخو
السلطان مقيما بتبنين فى العساكر محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر
مقويا للاعمال المرتبين على الحصون حافظا على الدهماء بحركته فى الامور عادة
السكون وكان صهره سعد الدين كمشبه الاسدى بالكرك موكلا وبأهله منكلا
وقد غلق رهنه وبقى داؤه معضلا وأمره مشكلا حتى فنيت أزوادهم ونفدت
موادهم ويئسوا من نجدة تأتيهم وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم فتوسلوا
بالملك العادل وأبدوا له ضراعة السائل وتذرعوا بوسائل الرسائل فمازالت
الرسالات تتردد والاقتراحات تتجدد والقوم يلينون والعادل يتشدد حتى
دخلوا فى الحكم وخرجوا على السلم وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامه وخلصوا
باقامة عذرهم عند قومهم من الملامه وكتبت عن السلطان فى بعض البشائر
ما الهى بحلاوته عن أرى الشائر وهو انا لما عدنا الى دمشق رأينا أن لا نستريح
ولا ننثنى عن كسر العدو وعزمنا الصحيح فقلنا نغتنم هذه الشتوه ونستكمل
الحظوه ونواصل بالغزوة الغزوه ونستخلص هذه القلاع التى شغلت منا
فى هذا الجانب قلوبا وعساكر وأبقت لاهل البلاد فى طريقها ندوبا ومعاثر
ويبين صدق هذه العزيمه والاستمرار فى الجهاد على الشيمه وردت البشرى
بأن حصن الكرك عاد اليه بعد الجماح الاصحاب وخرج منه الفرنج ودخله
الاصحاب وهو الحصن الذى كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز وقد نصب
أشراك اشراكه منه على طرق الاجتياز فأذقناه عام أول كاس الحمام وملكنا
حصنه الذى كان يعتصم به فى هذا العام واضطر الكفر فى اسلامه الى الاسلام
وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام وقد كان هذا الحصن ذنب الدهر فى ذلك
الفج وعذر أهله فى ترك الحج وابتسم الاسلام حيث زيد ثغرا وساق الى
عقائله الرجال مهرا فالحمد لله على ما قدر من الحسنى ويسر من النعمى حمدا
يكون لما قدر ازاء ولما يسر جزاء والحمد لله الذى أنجز صادق عداته فى كاذب
عداته

﴿ذكر محاصرة صفد وفتحه وادراك السعى فيه ونجحه﴾

وقطعنا مخاضة الاحزان خائضين فى بحار المسرات المتواصله راكضين الى مضمار
المبرات الحافله والسلطان سائر والجنة تحت راياته مفتوحة أبوابها والنصرة
فوق ألويته ممدودة أسبابها فى أطلاب أبطال اذا أوعاها الفجر لم يسعها الى عشائه
واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط من عجاجها على عشائه ونزلنا على صفد
والصبر قد نفد والنصر قد وفد والقدر قد رقد والعزم قد وقد وجاء الملك
العادل وظاهر أخاه وضافره فيما توخاه وشد بالرأى والحزم ما الزمان أرخاه وبعث
كل ذى عزيمة على التصميم ونخاه وشرعنا فى مراومة القلعه ومساومة
السلعه وحنت المجانيق لاجتنائها وحدثتها بالسنة أحداثها ورمتها عن قسيها
بالقاسيات وسمت الى هضاب تلك الابراج الراسيات وأمطرت عليها حجاره ولم
تعطها من العذاب الواقع بها اجاره فما رفع بها الحصن الراسى راسا ولا الحجاره
مست منه ركنا ولا النقوب باشرت أساسا ودامت المجانيق منصوبة قد تمم
دست شطرنجها والنقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها ودمنا عليها
الى ثامن شوال ونوعنا فى افتتاحها الاحتيال حتى أذن الله فى الفتح فسهل
ما صعب وحضر ما تغيب وظهر ما تحجب وتيسر ما تعسر وأمكن ما تعذر
وتأتى ما تأبى وأجاب نداء الاسلام ولبى وعلموا ان صفد ان لم تخرج من أيديهم
دخلت أرجلهم فى الاصفاد وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالاساد ونزلوا من
سماء العز الى أرض الهوان فاذعنوا للضراعة وتضرعوا بالاذعان. وأخرجوا
أسارى المسلمين ليشفعوا لهم فى طلب الامان وصارت صفد للمسلمين صدفا وكانت
بالمشركين هدفا وعادت للاسلام سدا بعد ان كانت للكفر ردأ ومردا وطالما
مكث فيها المشركون وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات
يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ولقد كانت مأربا للكفر جلع
ومرفقا للشر قطع وناظر للعدو غض وقد شخص وجار حاله هيض وقد قنص
ويد للباطل شلت وقد امتدت وعقدة للضلالة حلت وقد اشتدت وتخلصت
الداوية بادوائها وتملصت باسوائها وصاروا فى صور وابتدأ بعد استطالتهم

القصور

((ذكر ما دبره الفرنج فى تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير))

لما عرف من بصور من الفرنج ان صفد لما صفت وانها على الفتح الذى يشفى أشفت قالوا لم يبق لنا الا كوكب وان صلاح الدين عن قصدها لا ينكب وقد اقوت من القوه وهى تهى ان لم نعاجلها ونعالجها بالنجده المدعوه وقد ضعف وجاؤها الضعف رجالها وقل ظهورها لظهور اقلالها وهذا أوان انجائها وانجادها وهى مشرفة على العدم فدبر وافى ايجادها فاذا قويناها وحميناها بقيت عدة فى العواقب وعصمة من النوائب فقال مقدم الاسبتار هى كوكبنا المتلالى ومنكبنا العالى ومعقلنا المحكم ومعقدنا المبرم وحصننا الحصين ومكاننا المكين ولنا منه المربع المريع والمنبع المنيع والمحل المحلى والمعلم المعلى وهى قفل من البلاء على البلاد وموئل من الخطوب الشداد ولعلها تثبت الى ان يوافينا من البحر ملوكنا وتعود الى عادة الانتظام سلوكنا فما يبطئ جدادنا وما تخطئ نجداتنا وأجمعوا على تسيير مائتى رجل من النخب المعدين لدفاع النوب من كل جرئ نخى وكمى أكمى وجهم جهنمى وسقر سقرى وعلج جبلى وبطل باطلى وكلب كلب وذئب سغب وعاسل معاسر وباسل باسر ومغوار مغو ومتلوم متلو وذمر متذمر ونمر متنمر وسبع ضار وشواظ من نار وجمر من الجحيم وحام من الحميم من شياطين يجنون الجنون ويمنون المنون ويشينون الشؤن ويهدون الهدون ويحزون الحزون ويفوتون الفتون ويظنون بالله الظنون وقالوا لهم كيف تضوز وطريق السلامة مخيف وطارق الاسلام مطيف والشبا منيف والشعب مضيف فقالوا نحن نسير وتصير فى ضمائر الكهوف أسرارا وعلى أجياد الاطواد أزرارا وفى أوكار المغارات أطيارا وفى أعماق السيول أكدارا وعلى ظهور الريود أوزارا قسرى ليلا ونختفى نهارا والليل للعاشقين ستر ولكم أدلج من له وتر والنهج وان بعد فهو فى قرب عزمنا فتر ومن رام النفيس الخطير رمى نفسه فى الخطر وطار الى الوطر وغرب الى الغرر ثم عزموا على ما زعموا وعملوا بما عنه عموا وخطروا

الى الخطر وحاولوا بما الهم من القدر مزاولة القدر وتوقلوا فى الاكم وتوغلوا فى الاجم وتبطنوا فى الاوديه وتكمنوا فى الافنيه واحترسوا بالكمون واحترزوا من العيون وتحركوا على السكون وكادوا يصلون الى الموضع ويحصلون على المطمع ويدركون الطلاب ويهتكون الحجاب ويعيدون الى الحصن روحه ويأسون بعد اليأس جروحه فعثر بواحد عثر منهم بعض المتصيدين فتصيده وقاده وقيده وأتى به الى صاحبه صارم الدين قايماز واستعرب من الافرنجى هنالك الجواز فأخبره بالحال وان بالوادى مكمن الرجال فركب اليهم فى أصحابه والتقطهم من سر الوادى وشعابه وركب شجاع مسعود فى طلب أولئك الاشقياء وانتشر الناس فى تلك الاكناف والارجاء فما نجا منهم ناج ولا نجح راج ولا عاش عاش ولا حصل عاثر بانتعاش فاشعرنا ونحن على صفد للحصار والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله من الانصار حتى وصل صاحب قايماز بالاسارى مقرنين فى الاصفاد مقودين فى الاقياد وكان فيهم مقدمان من الاسبتار وقد أشفيا على التبار فان السلطان ما كان يبقى على أحد من الاسبتاريه والداويه فاحضروا عند السلطان للمنيه فانطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما وقالا عند دخولهما وامام مثولهما ما نظن اننا بعد ما شاهدناك يلحقنا سوء فعرفت ان بقاءهما مرجو وانتظرت أمر السلطان فيهما وأيقنت انه يبقيهما فمال الى مقالهما وأمر باعتقالهما فان تلك الكلمة حركت منه الكرم وحقنت منهما الدم واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكفر من التدبير وانعاس من جرده بالتدمير وفتح الله علينا صفد ثامن شوال فشكرناه على ان مدد النصر متوال وسلمت لدملعة الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال

((ذكر حصار كوكب وفتحها))

وجئنا الى كوكب ووجدناها فى مناط الكوكب كانها وكر العنقاء ومنزل العواء قد نزلتها كلاب عاويه ونزعت بها ذئاب غاويه وربت فيها سباع ضاريه وحمتها بحميتهما وابت النزول على أمنيتنا ولو بنزل منيتها واختارت العطب

على العطاء وامترت خلف الحلف والشقاق للشقاء وأبت غير الاباء وبصرت بالاضر فصبرت على الضر وأصرت على تحمل الاصر وترامت على التعامى بالمصائب وتعامت عن المرامى العواقب وقالوا لو بقى منا واحد لحفظ بيت الاستبار وخلاصه الى الابد من العار ولابد من عود الفرنج الى هذه الديار فتجلد للاصطبار وتشدد للانتظار فقاتلوا أشد قتال ونازلوا أحد نزال وفوقوا الجروح المصميه وصوبوا الصخور المرديه ورفعوا المنجنيقات الموجيه وتواترت زيارات الزيارات الموتره وتناوبت نوائب الزنبوركات المطيره واجترؤا على الاجتراح وجرى سيل الجراح ودمنانى الدم وردالوجود الى العدم وتجرئة الرجال والتجريد للقتال وايثار الحنايا وايثار المنايا والرمى فى المنجنيق والجمع والتفريق والرقع والتحريق والنقب والتعليق والحفر والتعميق والحصر والتضييق والهد والهدم والرد والردم والصد والصدم وكان الوقت صعبا والغيث سكبا وتكاثرت السيول وتكاثفت الوحول ودامت الديم لدموعها مريقه وبقيت الخيم فى الطين غريقه فلا لمركب مبرك ولا لمربط ولا لسالك مسلك ولا مسقط وكنا فى شغل شاغل من تقلع الاوتاد وتوتد الاقدام ووهى الاطناب ووقوع الخيام وكان الخيم مناخل الانداء وعدمت الانوار لوجود الانواء وفقد دماء الشرب مع سيل الماء والروايا ما نهضت ولا نزعت ولا غمضت والرواحل فى الطين باركه وللحياة تاركه وللعلف تاركه والمطية مطينه وسبل السيل مستبينه وقد كشر البرد بالبرد عن اسنان عضاضة بالدرد والطرق زلقة لزقه وهى مع سعتها ضيقه وللنق ثقل وللعاق عقل وما ثم الاما نيط بالطين وصعب علينا بصعوبة هذا الامر أمر أولئك الشياطين فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان لتقريب وجوه الامكان وبنى له من الحجاره ما صار له كالستاره فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تذعرنا والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا والنقاب قد قلع وعلق والجرخى قد هتك الحجب وخرق وتجرد الجند وأنجد الجد ونزلت الاثقال والخيم الى أسفل التل فخف الثقل بنقل الثقل وطاب المقام بالغور وسهل بالسهل وتحولت الشدة الى اللين

وتحللت الى الطيب عقد الطين ومازال السلطان ملازما للحصن وهنالك ظاهرة له منه أسباب الوهن حتى علق بعض جدرانه وطرق الهدم الى بنيانه فتسلمه بامانه واذهب سكون سكانه فأخرجهم راغمين واحرجهم غارمين وتركوا الحصن بكل ما فيه وأصبحوا بعدم مقاتلته للعفو والمعافاة معتفيه وذلك فى منتصف ذى القعده وانتصفت الايام بحل تلك العقده ورجعت الليالى السكون الى طيب الرقده وعرضت القلعة على جماعة فلم يقبلوها وخلوها وأبوا ان يلوها وتخلوا عنها بهممو اهيه فوليها قايماز النجمى على كراهيه بعزيمة عن مهامها لاهيه وانتقل السلطان الى المخيم بالفضاء وحمد الله على قضاء التوفيق وموافقة القضاء وودعه الاجل الفاضل على عزم مصر بعدما استكمل لتامدة مقامه بصدق اهتمامه وجد اعتزامه الفتح والنصر ثم تحول السلطان الى أرض بيسان وازال البؤس وزاد الاحسان وأقام بقية الشهر فى تمهيد مجد يقيم باقى الدهر وأظهر من الفضل مالم يكن مستورا وأعطى الامراء والاجناد فى انفصالهم دستورا وسار ومعه اخوه الملك العادل مستهل ذى الحجه واضح المحجة لائح البهجه وأوجها الى القدس فى طريق الغور وزاراه للبركة وتبركا بالزور ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى فى قبة الصخره وخص ذوى الخصاصة بعميم المبره وعيدبها يوم الاحد الاضحى وأضحى بعدما ضحى وقد أصحب مراده وأضحى وسار يوم الاثنين الى عسقلان للنظر فى مهامها ونظم اسباب أحكامها وتدبير أحوالها وترتيب رجالها وأقام أياما يوضح الجدد ويصلح ما فسد ويشد من النفع ما فقد ويخمد من الشر ما وقد فاذا وجد شعثا لمه وان ألفى نشرا ضمه وان صادف فتقا رتقه وان لقى حقا حققه وان عثر على باطل عفى أثره وان بصر بآمل خصه بعرفه وأثره ثم ودعه أخوه الملك العادل واستقل الى مصر بعسكره ورحل السلطان على صوب عكاء موفقا فى مورده ومصدره فاعتبر بلد الاقوى عدده وكثر عدده وواصل بالرجال مدده وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبنى الامكان والحمد لله الذى وفر حصة الصحه وحول المحنة الى المنحه وكمل الشفاء بعد الاشفاء

واهدى عند اليأس أرج الرجاء

(ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة)

والسلطان فى عكاء مقيم والامر مستقيم والنهج قويم وهو يبوب أسباب حفظها ويسبب أبواب حظها ويهذب مراتب مصالحها ويرتب مذاهب مناجحها ويعدل جوانح أمورها ويذلل جوامح جمهورها ويقوى ماوهى ويسوى ماهوى ويحلى من الشان ماعطل ويعلى من المكان ماسفل ويعيد نظم ما انتكث ولم ما انشعث ويجيد كل ما دعا الى بعث ما مات منه وبعث ومكث بها لا يريم القصر الى ان وصل جماعة من مصر فأمرهم فيها بالاقامه محافظة على الحمايه المستدامه فأمر بهاء الدين قراقوش باتمام بناء السور واحكام احكام الامور وولى الامير حسام الدين بشارة بعكاء واليا ولم يزل لآثار الدولة فى ايثار العدل تاليا ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر وقد استكمل الظفر ووجه الدين به قد سفر وعز من آمن وذل من كفر وحزب الهدى قد أنس ونفر الضلال قد نفر وجلس على سرير السرور ولبس حبير الحبور وبدا بحضور دار العدل فدر عدله للبادى والحاضر وأقام سفور بشره للمقيم والمسافر وأفاض الفضل ومحا المحل وأعلى أعلام العلماء وأحلى أحلام الحلماء وأمضى أحكام الحكماء وقضى باكرام الكرماء وأسدى المعروف وأعدى الملهوف وأنكر المناهى ونهى عن المنكر وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر وأقام مدة الشهر وأولياؤه جناة النصر واعداؤه عناة القهر وأيامه مسفره ولياليه مقمره ومغارس أياديه بثمار المحامد مثمره ومجالس أعاديه فى ديار الشدائد مقفره والملك بزهوه زاه زاهر والدين ببهائه مباه باهر والآفاق منيرة والانوار مفيقه وللدولة حق مدل وحقيقه وللجد وافى جده وللجود وفى عده وللسماح سماء تهمع وللمراد مراد مرع وللوجوه بالبشر بهجه وللالسنة فى الشكر لهجه وللهمم علو وللشيم سمو وللكرم نمو وللفضل قيمه وللافضال ديمه وللشريعة شرعة واضحه وللحق سنة لستر الباطل فاضحه والصنائع راجحه والذرائع ناجحه

(ذكر وصول رسول دار الخلافه والخطبة لولى العهد عدة الدين أبى نصر)
(محمد بن الامام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد أمير المؤمنين)

بتاريخ أوائل صفر وصل رسول منزل الرساله ومقر الجلاله ومربع الامامه وموضع الكرامه ومطلع الهدى ومنبع الندى ومشرق نور الايمان ومشرع فيض الاحسان ومرجع المرجين ومفزع الملتجين ومنجى الناجين ومنجى المناجين ومهبط الوحى ومصعد الامر والنهى ومقصد نجاح السعى ومخفض جناح الرحمه ومقطف جنى النعمه ومجر ذيول المناقب ومجرى سيول المواهب ومزار أملاك السماء ومدار أفلاك العلاء ومحج ملوك الارض ومحجة سلوك الفرض وموطن التنزيل وموطئ جبريل ومقام الخلافه ومرام الرآفه ومحمل الامانه ومحل الديانه ومطاف الطائفين ومطار العاكفين ومعرفة الواقفين وموقف العارفين وقبلة المقبلين وموئل المؤملين وكعبة القاصدين ومثابة الوافدين ومعفر وجوه العظماء ومكفر ذنوب الكرماء ومعصب السيادة القرشيه ومنصب الوراثة النبويه والسدة الشريفة الناصريه ودار السلام وقبة الاسلام فابتهج السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السول وسر بسره وأبره وصدر بنشر الانشراح صدره وقدر على الانسام بالتسامى قدره واحتفل باسباب التلقى والتحف بأثواب الترقى وسأل عن الرسول المندوب للسؤل المخطوب فقيل هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه وصل بالضياء والسكينه والاحوال الحالية المزينه وكان وزير الخلافة يومئذ معز الدين بن حديده فعين لهذه الرسالة ابن سكينة حين عرف آراءه السديده فتلقاه يوم دخوله الى دمشق السلطان وأولاده وكان يومه مشهودا حضره اعيان البلد وأماثل العسكر وأشهاده وأنزله فى دار الكرامه ورتب له وظائف الاقامه ثم جلس له فى يوم سعد صباحه وبدت فى جبهة الدهر البهيم غرره وأوضاحه وملأت ظرفى الزمان والمكان أفراحه وجاء على وفق الآمال اقتراحه وختم باليمن والاقبال رواحه وورد بكل ما أبهج الاولياء وأزعج الاعداء وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه وثنى عطف تباهيه وهزه ووساله

طود ابا لوقار فى ايراد الرساله وجلاله فى مهب المهابة أنوار الجلاله وتلفظ له
بالتفضل وتطوق منه بالتطول وبشر بان أمير المؤمنين فوض ولاية عهده الى
ولده عدة الدين أبى نصر محمد من بعده وأخذ بذلك العهد على من حضره من
اعيان الامه وحفظ عليهم بتوليته ما أولاهم الله به من النعمه وأمر بأن يخطب
له بمصر والشام وجميع بلاد الاسلام فاستبشر بهذه الموهبه واستظهر بما
خص به من هذه المرتبه وأمر بذكر اسمه ونقشه فى الخطبة وعلى السكه وعاد
الاسلام به ظاهر الشوكة والشكه وخطبنا لولى العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر
صفر ولم يبق من الامراء والاماثل والافاضل الا من حضر وأحضر معه الدنانير
ونثر وتولى ذلك الملك الافضل فاظهر أبهة ملكه وبهاء فضله وحصل الاسلام
من رى رأيه على نهله وعله وندب للرسالة الى الديوان العزيز ضياء الدين
الشهرزورى القاسم بن يحيى لينشر به ما كاد يعفو من سنن الموافاة ويحيا وسيرت
معه الهدايا والتحف والطرف السنايا وأسارى الفرنج الفوارس وعددها
الكواصل النفائس وتاج ملكهم السليب والصليب والملبوس والطيب
وأضفيت على رسول الامام ملابس الاكرام وقفل ناج المرام واصطحب
الضيا ن لاضاءة مطالع الايمان بسفارة سافرة عن سنا الاحسان وبشارة
شائرة جنى النحل من نحل الجنان واهتزت الاعطاف واعتزت الاطراف
وابتسمت ثغور الثغور لسدادها وانتظمت أمور الجمهور لسدادها وسرت
القلوب وسريت الكروب وخزى الحاسد الحاشد وقوى الساعد المساعد
وواصل فى طريقه الاغذاذ حتى وصل الى بغداذ فتلقى الرسول بالسول
وقوبل بالقبول وخرج اليه الموكب الشريف واضيف له الى تالد جده القديم
جده الجديد الطريف ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيئة يوم قراعها راكبة
حصنها فى طوارقها وبيارقها وأدراعها وقد نكست بنودها وانتكست أنوفها
وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها
ثم عطف به الى دار الكرامة فنزلها والفى الوزير ابن حديدة قد عزل وأقام فى بيته
واعتزل وتصدر فى الدست للنيابه وسماع الخطاب والاجابه من له المجد الاثير

الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الانشاء وقد خص بتولى الحل والعقد
والاخذ والاعطاء فتولى سماع الرسالة وجوابها واولى صوبها ووالى صوابها
وسيأتى فى موضعه ذكر ما انتهت اليه الحال وجرى به الفال وكيف شغلت
العوائق وعاقت الاشغال

«فصل مما كتبته فى المعنى عن السلطان الى الديوان العزيز مع الرسول»

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امتثال المثال واداه من فرض الاعظام
والاجلال وقام به من الامر الذى قام به أمر الدين والدنيا وبادر اليه من استثمار
طاعته التى دامت لها من نعمة الدار العزيزة فى ازكا مغارسها السقيا وحل
حبا الحب لما حل من حبائها وعقد خنصر النصر لعزائمه على ما اعتقده من
ولائها وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من اسعادها واستجد عهد
الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات عهادها ونهض من الملك بتقديم مقدمه
على الملوك الناهضين وابرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول
الناقصين الناقضين ووفق لما وافق المراضى الشريفه ففاز بما حاز من شرف
الرضا واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفاء فى استيفائه بما اقتضى وسبق
الى ما سبق به جواد صدقه فى جواد قصده وافتتح فريضة طاعته فى حلاوة
عبوديته بتلاوة فاتحة حمده وانتهى الى نهاية النهى واطاع ما اطاق فيما أمر
الله به ونهى وما وضع الكتاب من يده حتى رفع بالدعاء يده وسأل الله لمولانا وسيدنا
أمير المؤمنين وافد النصر ومدده وان يعضده بولده ولى عهده المطاع بامر الله
عدة الدنيا والدين ويقر به عيون المسلمين فقد فاضت البركات وآضت الحسنات
وأضاءت الكرامات وراضت جماح الامانى المبرات المبرات وهاضت جناح
الكفر الفتكات المرديات وعمت الميامن وتمت المحاسن ونمت ونمت النعم
الظواهر والبواطن وضمت بسكون الدهماء أهلها المعاهد والمواطن وصدحت
المنابر وصدقت المفاخر وصدعت الاوامر وصدقت الفواقر وصدمت قلوب أهل
النفاق من بواعث الرعب البواعث البوادر ونقشت صفحات الدرهم والدينار
ونعشت عثرات الاخيار الاحرار وفرشت مفوفات الانواء والانوار وعرشت

أسرة المبار والمسار ورفعت رغبات الابرار وسمعت دعوات الاسحار ونزل النصر وفضل العصر ووجب الشكر وشجب الكفر ورحب الصدر وأصحب الدهر وسحت سماء السماح وصح ارواء الارواح وتضوع نشر الانشراح وتوضح صباح الصلاح وطال جناح النجاح وطاب جنى الافراح وعظم القدر ونظم الامر وحسن الذكر وأمن الذعر واهتزت اعطاف الاسلام واعتزت اطراف الشام وتبلجت أيامن الايام وتروجت امانى الانام وارجت ارجاء الرجال وثبتت باسناء الاسناد رواية امالى رى الآمال وقرت الاعين وابتهجت بالسعد الطالع وأقرت الالسن والتهجت بالحمد الجامع وقرت الانفس وانتهجت بوسعها سنن العز الواسع ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشارع فى نقع الاوام ونفع الانام مناب المنابع وأرخت السير وسيرت التواريخ وخلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيمها وتضخيمها التضميخ واشرق المغرب من بشر البشرى وأنارت مصر من حسن هذه الحسنى وسمت بسمة الشرف منابر الاقاصى والادانى موافقة لمنبر المسجد الاقصى وتطرزت الفتوحات الفاضل عصرها الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب وفاحت فى مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الاطهر الاطيب وعاد الزمان الى اعتداله وعاد العدل بزمانه وتاب الدهر من عدوانه وآب الى احسانه ورجع الدين الى سناء سلطانه وبخع الكفر بعبدة صلبانه وبطش الايمان بايمانه واستخلص من الشرك بلدانه بلدانه وتقاضى الربيع لقروضه وضافت ضيوف فيوضه وعتب العزم على ربوضه وخص الحظ على نهوضه وحث الحب على اقامة سنن الجهاد وفروضه فقد درت أفاريق الآفاق وذرت أشعة الاشراق وافترت نضرة الحدائق لنظرة الاحداق وراقت أوراق الالوية كالتواء الاوراق وازهرت البيض والسمر كازهار الرياض وانفض غرار الجفون فى الاغماد من الاغماض وتيقظت الاقدار للاقدار على ايقاظ عيون البيض لاجراء دم الشرك المطلول وتنزل البركات فى انتجاع المراق من تجميع المارقين لانزال نص النصر على النصل المسلول وقد آن أن ترعى الحشاشات منهم على رعى الحشيش ويطير الى أوكار المقل طير السهم المريش وترتع

ثعالب العوامل فى عشب الكلى ويطن ذباب المناصل فى لوح الطلى وترن رقاق المرهفات فى الرقاب رنين الخطب على الاعواد وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على رؤس الاطواد وتحمل اشجار القنا بثمر الهام ويجيش الفضاء المعشب بزهر الجيش اللهام ويقطف ورد الموت الاحمر من ورق الحديد الاخضر ويوقف حد الهندى الابيض على قصر بنى الاصفر ويجرى فى وردالو ريد جدد اول البواتر وترمى من الحصن العاديات الى حصون العدا جنادل الحوافر ونكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضافر ضوامن الضوامر وتلى عقبان رايات الفتح والكسر من عقبان الجو بالفتخ الكواسر ويعبق ثوب الدارع من ردع الثواب بسهك الماذى وتعلق فى ملتقى التقى الفاته السمهرى بلامات السابرى ويظهر الحق بخذلان الباطل ويحل بأيدى الايد مابقى مع الفرنج من معاقد المعاقل ويغرق بحر المجر الجرار ماتخلف من ساحات الساحل فلم يبق به من المدن المنيعة الاصور وطرابلس ومعالم الكفر بهما فى هذه السنة المحسنة بعون الله تدرس واما انطاكية فانها بالعراء منبوذه وعند الاتجاه اليها مأخوذه على انها بوقم قومها عام أول موقوذه وحدود العزائم اليها عند انقضاء هدنتها مشحوذه فانها قد نقصت من اطرافها ودخل عليها من اكنافها وجدعت بفتح حصونها عرانينها وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المحشورة فيها عرينها فهى نهزة لمفترص وطعمة لمقتنص وسلعة لمسترخص وبلغة لمستفحص وقد خرج الخادم ليدخل البلاد ويستأنف بجهده الجهاد ويستقبل الربيع بربيع الاقبال ويستنزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لاوقات النزال وهو يرجو ببركة هذه الايام الزاهرة من الله أن يجد جند ارضه بجند سمائه ويوفق الخادم لتصديق أمله فى تطهير الارض من انجاس اجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه فالجافل جافله واسراب الكفر بين يديها جافله ومعاطف الاسلام فى لباس الباس رافله ونصرة الله بانجاز عداته فى قمع عداته كافله والحمد لله الذى وفق عبده مولانا أمير المؤمنين فى طاعته لنة رأمره واخلاص الولاء له فى سره وجهره واقتناء كل منقبة حقق بها

فضل عصره وابتكار كل فضيلة سار بها احسن ذكره فما يفتح مرتجالا بتقليدها ولا ينجح مرتجي الا بتأييدها

«ذكر خروج السلطان من دمشق لاجل شقيف أرنون وماجرى له مع صاحبه»

وأقام السلطان شهر صفر فى دمشق وقد أطاب لمناشق الآمال من نشره النشق ثم خرج منها فى ثالث شهر ربيع الاول يوم الجمعه بالمحبة المجتمعة والمهابة الممتنعه متوجها الى شقيف أرنون ليفر بفضه العيون ويصدق فى استخلاصه الظنون وأتى مرج برغوث وأقام به الى يوم السبت حادى عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث ثم رحل على سمت بانياس وقد أوقع رعبه بين أهل الكفر الياس وأتى مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف وجمع على من به من آلات الحصار أسباب التخويف وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الاول فى أواسط فصل الربيع وأقام فى ذلك المرج الوسيع والروض الوشيع وأسمنا الخيل فى اعشاب واصيه ورتعنا فى الطاف من الله دانيه غير قاصيه وكان الشقيف فى يد صاحب صيداء أرناط وقد أكمل فى حفظه الاحتياط فنزل الى خدمة السلطان لحكمه طائعا ولامره سامعا ولرضاه تابعا وفى موضعه شافعا وعلى حصنه خاشيا ولاجله خاشعا وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر انه محترز من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع بما فيه ويدخل فى طاعة السلطان ومراضيه ويخدمه على اقطاع يغنيه وعن حب أهل دينه يسليه فأكرمه وقربه وقضى اربه وأجابه الى ما سأله وقبل منه عزبزا ما بذله بذله وأمهى غرب رغبه وأمهله وأخذ له وما خذله وخلع عليه وشرفه ورفعه فى ناديه بنداه وعرفه واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه ووجد اليه سكونا وعنده سكينه فشرع ارناط فى اذالة حصنه وزالة وهنه وترميم مستهدمه وتتميم مستحكمه وتوفير غلاله وتوفية رجاله وتدبير احواله وتكثير أمواله ونحن فى غرة من تحفظه وفى سنة من تيقظه وفى غفلة من حزمه وفى غفوة من عزمه وكان يبتاع من سوق عسكرنا الميره ويكثر فيه الذخيره وقد

صدقنا كذبه وحققنا اربه وأنهى الى السلطان ماهو مشتغل به من عمارة يجددها وذخيرة يعدها وثلمة يسدها وقوة يشدها وميرة يستمدها وكان بالمذكور سديد الظن شديد الضن لا يقبل ما فيه يقال ولا يظن به عثورا يقال فلما كثر فيه القول وتمكن من مسئلته العول لم يرد أن يبدى له ما قيل ولم يتصدى بالتغير عليه وجه جاهه الصقيل فأمر بالانتقال من المرج الى سطح الجبل وتحويل الخيم اليه والثقل وذلك ليلة الجمعة ثانى عشر جمادى الآخرة وأظهر ان المرج وخيم والمقيم به سقيم وأم الدهر فيه بالصحة عقيم وكان المقصود أن الشقيف من عيانه يقرب واخباره عنه لا تعزب فلما علم صاحب الشقيف بقربه شرع فى ازالة ما فى قلبه وجاء الى الخدمه واستمسك بالعصمه وذكر انه متعزز ببذل الطاعه وبذل الاستطاعه وتضرع خاضعا وتعرض خاشعا وذكر انه تخلف له أهل بصور وانه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور وانه يترقب وصولهم ويأمل عنده حصولهم وشرع فى تقرير هذا الحديث وتمهيد عذره فيما توهم من عهد الانكير النكيث وأقام يوما وعاد الى حصنه وقد وجد من السلطان دلائل أمنه وكانت المدة قد دنا انتهاؤها وقرب انقضاؤها فانها الى آخر هذا الشهر ولم يجد بدا من التسليم أو الغدر فعاد بعد أيام باكتئاب واغتمام وحضر عند السلطان فقال ما أظهر به الابتهال واسترد الامهال وذكر انه رقيق الامتنان وعتيق الاحسان وانه العبد القن وقد دخل عليه الوهن وغلق به الرهن وانه يبقى أهله معتقلين بصور ان خرج منه الحصن ومن أنشأ غرسا سقاه فأبقاه وأشكاه فأزكاه وأسماه فأنماه وقد اصطنعتنى ورفعتنى فلا تضع الرفيع ولا تضع الصنيع وسأل أن تكون المدة سنه وأن يتبع الحسنة فى حقه حسنه وأن يرخى بطوله طوله وأن يشفى بشفاء ألمه أمله فراقه قوله فرق له طوله ثم أفكر فى أمره واستمر فى فكره فغادره على عزيمة غدره وجاهره بسر شره بعد أن ماطله وطاوله وزاوله على ما حاوله وأقام أياما يردده ويخصه من الكرامة بما يجدده ثم كشف له

الغطاء بعد أن أجزل له العطاء وقال له قد قيل عنك ما لا نظنه فيك ولا نعلمه منك نجحد ما عنده رقى وانه كيف يلتقى بالكفران ما من الانعام لقى وانه ان لم يسعد بامهاله فى الشقيف شقى ثم سأل فى ندب من يوثق بامانته ويؤمن الى وثاقته ليدخل الموضع ويلمحه ويحضر بوصف ما شاهده ويشرحه فرجع المندوبون يخبر ما أبصروه وذكر ان الحصن قد غيروه وانه قد استجد فى سوره باب واستمدت له من أحكام احكامه أسباب فاستحكم به الارتياب وعرف ان السرح قد حوته الذئاب فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم وقيل لعله يحسن فلا يحوج الى مقابحته ويسلم ثم قيل له قد بقى يومان من المدة المضروبه والمهلة الموهوبه فنقيم عندنا حتى تنتهى المدة وتنقضى وتسلم الحصن وتسلم وتمضى فابدى ضرورة وضراعه وقال سمعا وطاعه وكان له ملق وملق وفى لسانه ذلق وما عنده من كل ما يفرق منه فرق وقال أنا أنفذ الى نوابى فى التسليم وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم فاظهروا عصيانه وقالوا يبقى مكانه فقال قد بقى من المهلة يومان فما ذا العجلة التى يفوت بها الغرض ويطول منها المرض فصبر عليه الى يوم الاحد ثامن عشرى جمادى الآخرة وهو آخر مدته وأول شدته وأوان انقضاء عدة عدته وقد رتب على الشقيف يزك يمنع الخروج والدخول والصعود والنزول ويضايق غريمه المطول قبل أن يمتد حصاره ويطول وحمله جماعة من الامراء ووقفوا به ازاء حصنه فناداهم فى دراك أمره وفكاك رهنه فخرج اليه قس قاس باسر عن باس فحادثه فى حادثه بلغته ونافثه فى كارثه بغلته وتحاور روافى السر وتشاور روافى الشر وكانما أمره بالتجلد وصبره على التشدد وعاد القس الشقى الى الشقيف وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف فقيد وحمل الى قلعة بانياس وبطل الرجاء فيه وبان الياس ثم استحضره فى سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ فى تخويفه على أن يبلغ المراد فى شقيفه فلما لم يفد خطابه ولم يجد عذابه سيره الى دمشق وسجنه وألزمه شجاه وشجنه وتحول السلطان من مخيمه الى أعلى الجبل يوم الاربعاء ثامن رجب لمحاصرة الحصن ورتب لها عدة من الامراء وأمرهم بملازمته فى الصيف والشتاء الى أن

تسلمه بعد سنة بحكم السلم وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم

(ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الاحوال وما كان من غزواته ونهضاته ووقعاته فى حرب الفرنج والقتال)

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذى خلص من الاسر وقالوا نحن فى جمع جم خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا أمداد البحر فثر بنا للثار وأعرنا من هذا العار وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور وفارقوا بالاستطالة القصور وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات وحالت بين اتفاقهما حالات فلم يمكنه من دخول البلد ولج معه فى اللدد واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر وانه منتظر لما يبرمونه من الامر ويصله من الامر ثم اتفقوا على أن يقيم بصور المركيس ويدوم منه لملكهم التأسيس ولملكهم التأنيس وانهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم ويتساعدون على رم ما تشعث من أحوالهم ويتعاقدون على حل أشكالهم ويتعاضدون فى تسديد اختلالهم ويقصدون بلاد الاسلام بما من الساحل ويقيمون عليه بالنوازل اقامة المنازل والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد ويجمع ما يحتاجون اليه من الميرة والاسلحة والعدد فأجمعوا على هذا الراى وبلغوا فى الغى الى هذه الغاى وشرعوا فيما شرعوه وفرعوا ذروة الاصل الذى فرعوه ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاولى من اليزك ان جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر الى المعترك وانهم على قصد صيداء للحصر وقد جسروا على عبور الجسر فركب السلطان فى الحال فيمن خف من ثقال الرجال وأقتال القتال وأطلاب الابطال وأنجاد الاجناد وأجلاد الجلاد والباذلين المهج للجهد فى الجهاد ووصل الى الملتقى والشغل قد فرغ والسيل قد بلغ والصدمة قد وقعت والوقعة قد صدمت والثورة قد ثارت والسورة قد أسارت فان اليزكية لما شاهدت جاهدت وتعاقدت على لقائهم وتعاضدت وخالطتهم وباسطتهم وواقعتهم وجالدتهم وجاولتهم وجاردتهم وحاولتهم وردتهم مفلولين مخذولين وصدتهم منهزمين مثلومين وقسرتهم وكسرتهم وأسرت

سراتهم و بزت بزاتهم وقنصت عقبانهم وقصمت شجعانهم وصادت صيدهم وفرست فرسانهم و وقع فى الاسر من سباعهم سبعه وغودرت للنسور من اشلاء المارقين بالمازق شبعه واستشهد من المماليك الخواص أيبك الاخرش وقد كان شبهها بالوقائع يتحرش وثبتا بالروائع لا يتشوش وأنيسا بالحوادث لا يتوحش وكبشا كميشا بالكوارث لا يتكمش وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان وكانت الدائرة على أهل الشرك والطغيان وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب البرك وقال لعلهم يعودون الى ذلك المعترك فنستدرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم وقد ندم الفرنج على ما ندر من اجترائهم وانبعاثهم وأقام الى يوم الاربعاء تاسع عشر الشهر والاسلام بقوة ظهوره على الكفر قوى الظهر وركب فى ذلك اليوم ليطلع من الجبل على القوم ولم يكن له نية القتال فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير علمه وظنوا ان السلطان انما ركب للقتال وعلى عزمه وكان الفرنج قد بصروا بالراجل فطمعوا فيه ثم ظنوا ان وراءه عسكرا فى الكمين يحميه ونفذ السلطان بعض الامراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا وحمل عليهم العدو فأسروا وقتلوا وختمت بشهادة أولئك السعداء تلك العشيه ونفذت من الله فى استشهادهم المشيه وحمل الحاضرون من الامراء والعسكرية على الفرنج حملة أردتهم وردتهم وصدفتهم عن الجرأة وصدتهم وتزاحموا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين فى النهر وكان يوما علينا وانا جنى المنا وأجنى آملنا وللحرب رجال والحرب سجال ولم يكن لاولئك الغرباء بقتال الفرنج دربه واقدامهم على العدو لله قربه فخاضوا من الدم فى اللجج واعتاضوا الجنة من المهج وممن اتى الله بالشهاده وختم له بالسعاده الامير غازى بن سعد الدولة مسعود بن البصارو وكان شابا للنار الحرب شابا ولدين الرب رابا ولما شاهد ما تم من الغزاه انقض فى أصحابه على الفرنج انقضاض البزاه فدعته جنته الى طعنة لبتها البته فاحتسبه عند الله والده وكدرت عليه موارده وأوجد جمعنا الاسى على فقد ذلك الواحد وساء عدم الساعد وبتنا نشكر مساعى ذلك المساعد وضاقت

القلوب وفاضت الكروب وألم البوس وألمت النفوس وهذه وقعة ندرت وواقعة بدرت ونذير حدث وحادثة أنذرت فلم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكره وأذاقونا بعد ان حلا لنا جنى الفتوحات مرارة هذه المره فأيقظتنا من رقدة الغره وأخذ الناس حذرهم ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم ثم رجعوا الى الله وقالوا هذا وعد الله حيث قال فيقتلون ويقتلون وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون ثم قويت عزمة السلطان على قصدهم فى مخيمهم وكبسهم فى مجثمهم وعبور الجسر اليهم والاحداق بهم من حواليهم وشاع صيت هذا العزم وصوته وأسرع الناس الى موسمه وخشى فوته وتسامع أهل البلاد بتصميم عزيمة الجهاد فتباشروا وتبادروا وتسابقوا وتسارعوا وأتوا من كل فج وجاؤا من كل نهج وسالوا فى كل واد وجالوا فى كل يفاع ووهاد ووافت مطوعة دمشق وحوران يجرون الى مر الموت ويجرون المران وتوافدوا من بالمرج والغوطه على الحالة المغبوطه وقالوا هذا أوان احضار الضوامر المربوطه واجتمعت بمرج عيون جموع مرجت العيون فخافت الفرنج من هذا الجمع وأنافت على القمع وتنكست الى سور صور وعاين أولئك البور الثبور وتحرزوا وتحرسوا وتوجلوا وتوجسوا فاقتضت الحال تأخير قصدهم ليتمكن على غرتهم حشدنا من حصدهم وعاد العسكر الى المخيم وسار السلطان الى تبنين صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين لتنقد أحوالها وتأمل أعمالها وعرض رجالها ثم سار منها الى عكا جريده ورتب فى عمارتها وولايتها أحوالا سديده ووصى رجالها بالاحتياط والتحفظ والاستظهار والتيقظ وأسرع عودته الى المعسكر عظيم المفخر كريم المعشر موفق المورد والمصدر مقرط المنظر والمخبر وأقام الى يوم السبت سادس جمادى الآخره وبحر مخيمه يموج بامواج العساكر الزاخره

((ذكر ما تم من استشهاد عدة من أمراء العرب))

وانتهى الينا أن الفرنج ينتشرون فى الارض وينبسطون فى موضع القبض ولا يتحفظون فى الرفع والخفض ويحتطبون ولا يحتاطون ويحتشون ولا يختشون

و يجنون ثمار الجبل ويجنون على من يصادفونه بانواع الغيل وهم فى غرة من غاره وفى جسارة تعود عليهم بخساره وفى غفلة تجر عقله وفى ضلة ترفع عليهم من العذاب ظله وانهم اذا خرجوا للاحتشاش والاحتطاب وانتشروا لضم الاعشاب من الشعاب خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد وتحفظهم من متعهد ونفذ السلطان الى خيل تبنين وأمرهم بان يصبحوا أوائل الملاعين فاذا خرجت الخيل اليهم تطاردوا قدامها ووصلت بها الكمين وذلك يكون فى صباح الاثنين ثامن الشهر المذكور وواعدهم على هذا السر المستور ونفذ الى عسكر عكاء ليكمن فى موضع عينه ولا يظهر مكمنه حتى يكون من وراء القوم مستعد المباينا اهم من الوقم وسار السلطان ليلة الاثنين على الموعد مصدقا للمقصد وصادف خيل تبنين قد أغارت وأثارت وأبرت وأبارت فعبر تبنين وكمن بين صور وبينها وعين اليزكية وأوقد عينها ورتب ثمانية أطلاب من الابطال وكمن بتلك الارجاء كماة الرجال وانتخب من كل طلب عشرين فارسا أجوادا على الجياد وأجلادا فى الجلد على الجلاد فامرهم بان يتراءوا للفرنج حتى تصل اليهم وتحمل عليهم وهم يفرون قدامها ولا يفرون أمامها ويجذبونها الى قرب الكمين ويوقعونها عليه ويواقعونها اذا حصلت بين يديه ففعلوا مابه أمروا ولما حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا وأنفوا من أن يقال عنهم فروا بل جالوا فيهم وكروا واتصل القتال واشتد واحتدم المصال واحتد وطال زمان الحرب وامتد وطارت جمرات الصفاح وفارت غمرات الكفاح وثارت غبرات البرى ودارت عثرات البرى ونحلت عرى اللمم وانحطت ذرى القمم وعدم كل قرن قراره وكل جفن غراره ودام نهارنا يجرى بانهار الدم أنهاره وعرف من بالكمين ان الحرب قد اشتبكت وان الاسد قد اعتركت وان البزل قد ارتبكت وابتركت فتواصل انجاد للانجاد وتراسل أمدادا بعد الامداد فلما رأى العدو أن المدد يكثر والعدد يكثف وان عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف صمم العزيمه على الهزيمه وعلم ان النجاة عين الغنيمه فثنى أعطافه وضم أطرافه وردأحلافه وجرت بين الفريقين مقتله عادت أرض المعركة بها

وهى مثقله وكان قد حمل العرب على وعد العود الى الكمين والرجوع الى أسد ذلك العرين ولم يكن لهم بالطريق خبره ولا عبرت من الطوارق بهم عبره فتطاردوا بين يدى الفرنج فى واد ماله نفاذ ولا لسالكه الى منهج ملاذ ورآهم العدو فعدوا وراءهم وسار بجمعه ازاءهم فلما انتهوا الى الجبل أدركوا ولم يقدروا أن يسلكوا فقاتلوا حتى قتلوا وأقبلوا على الله فقبلوا وهم الامير زامل ابن نبيل بن مر بن ربيعة أمير النقره وسرى الاسره والامير يحيى بن منصور ابن غدفل بن ربيعة والامير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مر بن ربيعة وآخر معهم فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت لهم فى جنة الخلد ربوع وقدر لهم فى رياض النعيم رتوع وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز وانتقلوا من العز الفانى الى الباقى من العز وكان معهم من المماليك الخواص من ذوى الجد والاخلاص تركى عربى النخوه غضنفرى السطوه فلما حصل فى المضيق وأيس من الطريق نزل عن فرسه على صخرة بنجوه ونثل بين يديه كنانته فارع الذروه وقد أوتر قوسه وسدد اليهم سهمه وقبل قضاء الله وحكمه وحن الى منيته من حنيته وأصاب منيته من اصماء العدو فى المصاب بامنيته فوقفوا عنه بعيدا حين خافوا قربه ومازالوا يطعنونه ويرمونه حتى ظنوا أنه قضى نحبه فاصبح وقد نزف دمه وترجح على وجوده عدمه ولما قيل انه استشهد وطلب ليلحد رمق وبه رمق وهو فى دمه غرق فحمل على أنه من الاموات ولم يرج له فوات الوفاة فاحياه الله بعد أن أماته وجمع أعضاءه عليه وقد شارف منها شتاته وأنشأه خلقا جديدا وأوجده فى أجله مزيدا وهو أيبك الساقى زاده ماجرى اجتراء على الاقدام واجراء الى مضمار الحمام فاسمع بعد ذلك هيعة الا طار اليها ولا أبصر للكفر ضيعة الا أغار عليها

«ذكر مسير الفرنج الى عكاء والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم اليها»

وصل الخبر يوم الاربعاء ثامن رجب ان العدو قد ركب وأجلب بخيله ورجله وطار بجراد جرده ودب دباه فى رجله وسرحت ذئابه ونبحت كلابه وجاش

عرام جيشه العرمرم وطاش الى أهل الجنة بأهل جهنم ونوى القرب من
النواقير وأضرم بنار السعير مساعي المساعير وهو على قصد عكاء يجري الى
المدى برأي جمعه المدابير وان نفر منهم نفر وسيق الى النواقير وعبر ونزل
باسكندرونه واستباح طرقها المصونه وهنالك من المؤمنين رجال يحمون طرف
الثغر ويضمون نشر الامر ويصمون نحر الكفر ويحيون غارب الشر ويجوبون
جانب البحر ويطوفون للحراسه ويطولون بالحماسه فلما رأوا مقدمة الفرنج
واقعوها ودافعوها وعاقروها وقارعوها وأهلكوا عدة وملكوا عدده ولما
تكاثرت أعداد الاعداء استظهروا بالانكفاء عن الاكفاء وتدافعوا بعد
ما دافعوا وتراجعوا بعدما راجعوا واطلع السلطان على خبرهم وعرف نفور
نفرهم فكتب الى العساكر الدانية بالدنو للعدو على العدو فتوافدوا للميعاد
وتوافوا للاعتضاد وتوافروا للجهاد وتوافقوا في ادناء المراد بابعاد المراد ورحل
الفرنج ثاني عشر رجب يوم الاحد وافية المدد وافرة العدد ونزلت على عين
بصه ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصه ووصل أوائلهم الى
الزيب وأجابوا داعية الصليب فاصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل
ووصل العنق بالذميل وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة في
الاوديه مجرى السيل وسرنا على جب يوسف الى المنيه آخذين بالحزم تاركين
للونيه وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفركنا وبتنا بها تلك
الليلة وسكنا ثم أدلج يوم الاربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الخروبه
واطلع منها على الاسرار المحجوبه وأشرف على العدو والمنازل ودنا حزب الحق
من حزب الباطل وكان عدة من الامراء ساروا على طريق هونين للفرنج
مقابلين مقاتلين فوصلوا في هذا اليوم وقد نالوا في طريقهم من القوم ونزلنا في
أرض صفوريه بالاثقال وتجرد الرجال منها الى المخيم السلطاني للقتال وكان من
رأى السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ولم يزل رأيه بنور فطنته وطيب
فطرته أذكى وأزكى ان يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم
عن الوصول ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب نزالهم وأتعب قتالهم

واذا انبثوا تعذر حصدهم واذا ثبتوا تعسر قصدهم واذا الصقوا ببطن الارض
صاروا كالقراد واذا حلقوا في جو الدو طاروا كالجراد فعند الانتشار يمكن
التقاطهم وعند الانحصار يتمكن احتياطهم فقالوا الله بل نستقيم على السنن
القويم ونطلبهم طلب الغريم وما أهون قطعهم اذا وصلنا واعجل ادبارهم اذا
أقبلنا والطريق قبالتهم وعر وللمقصر عن التطاول فيه عذر فنمضي على
أسهل الطرق ونسد فلقهم بالفيلق وتبين لنا بالعاقبة ان الرأي السلطاني كان
أصوب فان نزالهم عند نزولهم صار أصعب ونزل الفرنج على عكاء من البحر الى
البحر محتاطين بالانحصار محيطين بها للحصر وضرب الملك العتيق كي خيمته على
تل المصلبه وربطت مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالآجام المؤتشبه وبعث
السلطان ليلة وصوله الى مدينة عكاء بعثا دخلها على غرة من العدو وتواصلت
البعوث اليها التي هي على التزايد والنمو حتى استظهرت بقوتها وقويت
باستظهارها فلما اجتمعت العساكر واتصلت بالاوائل الاواخر عبي جيشه طلبا
طلبا وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا وسار بهيئته وهيبته وأنزل العسكر على تعبيته
ونزل ببرج عكاء على تل كيسان في ذوي اختصاصه وقد نصب من خيامه عليه اشراك
اقتناصه وامتدت الميمنة الى تل العياضية والميسرة الى نهر الماء العذب فدارت
رحى الحرب ودام كر الكرب وطاب طعم الطعن والضرب وطافت كأس
البأس بمدام الدم على الشرب ووافى للانجاد عسكر الشرق ماضي الغرب وصرنا
محاصرين للمحاصرين مكاثرين للمكاثرين قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط
واستشطنا منه وهو مستشيط وأحدقنا باولئك الكفرة احاطة النار باهلها ومنعنا
الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ورتبنا بالزيب والنواقير رجالا يصدونهم
عن سبلها ودمنا نصابحهم بالقتال ونماسيهم ونراوحهم ونغاديهم ونعاودهم
ونباديهم ونقدم بعوادينا على عواديهم ونصدهم ونصدمهم ويوجدهم البحر
ونعدمهم ومازالت مراكبهم تتواصل ومناكبهم تتطاول وأهل الجزائر من
أهل الجزائر متوافرون متوافدون مترادفون مترافدون قد لفعوا وجه البحر
بنقب السفن وجذبوا بالقلوس على ثبجه عنان الرعن وألقوا على تياره بسط

البطس وحملوا على البحر أوزار النجس وتبا لهم وتعسا فانهم زادوا على رجسهم
رجسا وبقي القتال بينهم وبين اليزكيه كل بكرة الى العشيه الى ان وصل
الملك المظفر تقي الدين عمر ومظفر الدين كوكبوري الاسد الغضنفر فاستظهرنا
بهما وبعسكرهما الدهم ووصل مقدمو الرجال في الجمع الجم واستدارت
الفرنج بعكاء كالدائرة بالمركز وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز ومنعوا
من الدخول والخروج ولج وانثك العلوج في ضبط طريق الولوج وذلك في يومي
الاربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه والاسلام ينادينا باستصراخه وأصبح
السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهلت راياته واستقلت آياته وعز عزمه
وعلا حكمه وما منا الا من أسرج الجرد وجرد السريجيات وهاج بالاعوجيات
وأشرف بالمشرفيات وبرز باعتقال الردينيات ورديان العقيليات وأذكى
المذاكي وقرب المقربات وقد سن سنان لدنه وجن جنان قرنه وساف سيفه
ردع الدم وضاق وجوده مضيف العدم وأقبلنا والنصر مقبل والظفر متهلل
والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان والقلب له من التأييد والتمكين جناحان
واتفقت الآراء وأجمع الامراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعه عند
قبول الدعوات المرتفعه ومناب منابر الاسلام عن أهله في جميع بلاده واجماع
الالسنة والقلوب في الضراعة الى الله في نصرة المجاهدين من عباده وأحاط العسكر
الاسلامي بجوانبهم وكدر عليهم صفو مشاربهم وفلل مضاء مضاربهم وهم في
مواضعهم واقفون وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون وعلى
مواطئهم نابتون كالبنيان المرصوص ما فيه خلل وكالحلقة المفرغة ما اليها مدخل
وكالسور المحيط ما عليه متسلق وكالجبل الاشم ما فيه متعلق فزحفنا اليهم فلم
يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها وأنخنا
لهم مطايا المنايا فهان عليهم أن يمتطوها ودامت الحرب قائمه ودعة الدم دائمه
وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه وخلف نظامه حتى دخل الليل وحجز وعد
النصر ما نجز وحزب الحق ما عجز فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما أمسوا وزادوا
على ما جرى أمس وألهوا عنه وأنسوا فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس

الظهور وأصحبت شمس الجمهور واستضاف نورها مستفيض النور وحمل
الناس من جانب البحر شمالي عكاء حملة شديده كانت لمن قدامهم من الفرنج
مبيده وفرشوهم على تلك التلول وردوا مضاربهم من فلهم بها بادية الفلول
وانهزم الفرنج الى تل المصلبه نحو القبه وثبتوا عند الوثبه وأخلوا ذلك الجانب
وخلوا تلك المذاهب وقلعت خيامهم منها وقطعت أطماعهم عنها وانفتح لنا
طريق عكاء ودخلها الرجال وحملت اليها الغلال ونقلت اليها الاحمال ودخل
العسكر اليها وخرج وانكشف ضيق حصرها وانفرج وذلك من باب القلعة
الوسطى الى باب قراقوش واستطرقت اليها العساكر والجيوش واطلع السلطان
على الفرنج من سورها وشرع في تدبير أمورها وخرج عسكر البلد للموازرة
على قتال العدو العادي وترك الهوادة في قصر النصر والهوادي والفرنج قد
رهبوا ولو قدروا هربوا ولكن أصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمه وانهم

أي وقت أرادوا كانت منهم عزيمه ومن العدو هزيمه وتوقفوا عن الاتمام
وتقدموا عن مقام الاقدام ولو أنهم استمروا في الحرب على هيئتهم وهيبتهم لباء
الاعداء لنجعنا بخيبتهم فان الصدمة الاولى أخافت وحافت ونافت بقاء القوم وعلى
هلكها أنافت لكنا تركناهم حتى عادت اليهم الارماق وعاود فرقهم الافراق
وأبصروا ما بين أيديهم وما خلفهم وأزالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم وأثبتوا في
مستنقع الموت أرجلهم ورأوا ان الوقت قد أمهلهم وقال امراؤنا هؤلاء قد
سهل أمرهم وخمد جمرهم وقد حص رياشهم حصرهم وهم في قبضتنا أي وقت
أردنا واقصدهم تجردنا وقالوا نصبر الى الظهر ونغضي ونسقي الخيل ونعود
وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود فانصرفوا على وعد العود
وتفرقوا في مراتعهم تفرق الذود وبلغ العدو ريقه ووجد الى الجلد طريقه
وجمع بعد التفرق فريقه وضم عن الانتشار راجله وزم رامحه ونابله ووقفوا
كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات وقد صوبوا الجروخ
وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها كأنهم في الدروع أراقم وفي
المجان علاجم وفي النهوض قشاعم وفي الضراوة ضراغم واختلفت الاراء مع

العلم باحتراسهم وتسترهم بتراسهم فمنا من يقول نصبحهم بالزحف ونزورهم بالحتف ويترجل الامراء فيتبعهم الاصحاب وتنشب من آسادنا فى تلك الخنازير من النشاب الاظفار والانياب ويتصل الطعان والضراب فننسفهم ولو أنهم جبال ونطفئ نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال ومنا من يقول يدخل راجلنا الى البلد مستعدا بالاهب متأهبا بالعدد فاذا زحفنا اليهم وأوجفنا عليهم خرج من فى البلد من العسكرية والراجل ونازلناهم من امامهم ومن ورائهم بالنوازل فلا تطرف لهم بعدها عين ولا يبقى للدين بعد درك الثار منهم دين ومنا من يقول لا بل نفرج عنهم ونبعد منهم فدمنا على هذه المضايقة والمصابره والمحاققة والمحاصره والمكابدة والمكابره فانهم يتيقظون ويتنبهون ويتحفظون ولا ينتهون ويتحرزون ويتحربون ويتوجلون ويتوجون فاذا أرخينا طولهم وأوسعنا أملهم استرسلوا بعدما استبسلوا واستقبلوا الدعة بعدما استقتلوا واطمأنوا فطمعوا واذا أبطأنا تسرعوا واغتروا واباناء على غرة فاغاروا وظهرت لهم آثار ركودنا عنهم فظهروا وثاروا فحينئذ حينهم يحين وشينهم يشين واذا ظهروا ظهرنا عليهم ومتى أصحروا أصحرنا اليهم وان بارزوا بارزناهم وأنجزنا عدة أمانينا فيهم وناجزناهم ومنا من يقول هؤلاء عدد النمل وكثرة الرمل وظلام الليل وعرام السيل فما يقمهم الا العدد الكثير ولا يقمعهم الا الجم الغفير والمصلحة ان نستنفر العساكر ونستحضر لابادتهم البادى والحاضر ونستجيش الجافل ونستثير الفارس والراجل ونلقاهم بامثالهم ونقدم عليهم مستظهرين فى قتالهم ومنا من يقول هؤلاء عالم لا يحصى قد حضروا من الادنى والاقصى وأزوادهم عن قريب تفرغ وآمادهم فى الصبر تبلغ وأمدادهم تنقطع وأنجادهم تمتنع وموادهم تقل وجوادهم تضل ولمراكبهم فى الشتاء شتات ولجبالهم وحبالهم انبتات فاما أن يضطروا الى الانفصال واما أن يؤذن فناء أرزاقهم بحلول الآجال ويهون علينا حربهم فى تلك الحال وكفى الله المؤمنين القتال فهذا عسكر الاسلام وجند مصر والشام وفى الاقدام به خطر وفى المباشرة بحربه غرر والمصلحة العامة تلحظ ورأس المال

يحفظ ومنا من يقول نستدعى من مصر الاساطيل ونستدفع بحفها الاباطيل ونستكثر من مراكبها ونستعدى على هذه الافاعى بعقاربها ونستطيل على الشناة المستطيلة بشوانيها ونعدو على عوادى الاعادى بعواديها واذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحر وصلت لنا أسباب النصر وحينئذ نقاتلهم برا وبحرا ونوسعهم بمضايقتهم فيهما قتلا وأسرا ومازالت هذه الاراء بيننا متداوله وخواطرنا فى تدبيرها متجاوله والحرب بيننا وبين الفرنج جاريه وزناد الهيجاء لاشعال نارها واريه وفى كل يوم نتصافح بالصفاح ونتكافأ فى الكفاح وننطق فيهم بكلام الكلوم ونلحق منهم الموجود بالمعدوم وللطلائع وقائع وللوقائع طلائع وللسهام أفواق فائقه وللحمام أسواق نافقه وسرايانا فى كل يوم وليلة تسرى وتأسر وتبرى وتأبر وتكبس وتكسب وتسبى وتسلب والسلطان يباشر ذلك كله بنفسه وهو يدأب فى يومه لغده مجتهدا فى الزيادة على أمسه تابعا عن أعوان المسلمين وأنصارهم ساهرا لهم فى لياليهم قائما بأمرهم فى نهارهم والعين الساهرة فى سبيل الله قريره وتعب يوم واحد لله فى اليوم الآخر ذخيره

﴿ذكر وقعة تمت يوم الاربعاء سادس شعبان﴾

وركب الفرنج آخر يوم الاربعاء سادس شعبان باجمعهم وتقدموا من موضعهم واشتاقوا الى مصرعهم وفارقوا الحزم فى تسرعهم وخرجوا عن رجالتهم وتجردوا بخيالتهم وحملوا على الواقفين من أصحابنا حملة الرجل الواحد فتحرك الصف الثابت الساكن أمامهم كالبنيان اذا تحلل من القواعد وتراجع عنهم المسلمون استدراجا وملأت الارض السماء عجاجا وعجاجا وزخر بحر الحرب على أمواج أمواجا فاقربوا من خيام السلطان الا وقد اعتكر جو المعترك وعساكرنا قد أوجفت عليهم وزحفت اليهم وأردتهم بعقابهم وردتهم على أعقابهم ووصلت الى رؤسائهم فقطعت رؤساءهم وألحقت بأسها ذلك الجمع بؤسا وثنت وجه الكفر عبوسا وولوا مدبرين وأدبروا مولين والجريح بالقتيل عاثر عاثر والذمر الباسل باسم بالموت باشر فلما جن الليل رجعت بما جنته الخيل وبات كل حزب على حرب واعداد عدد طعن وضرب وبات الناس من

الجانبين على غاية من التيقظ وهمة متنبهة للتحفظ وحراسة وحماية وسياسة ورعاية فلما أصبحوا عادوا الى عادتهم فى اللقاء وهاجوا بعاديتهم الى الهيجاء هذا وأبواب البلد مفتوحه والصدور بطروق الظهر اليها مشروحه والفرنج قد ندموا على ما قدموا وعدموا بصيرتهم عما صدموا وعادوا لا يفرطون ولا يتورطون وينقبضون ولا ينبسطون

(ذكر وفاة حسام الدين طمان)

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادى عشر الشهر الى تل العياضيه ليكون منه فى الجهة المرضيه فان هذا التل بازاء تل المصلبه منزلة العدو وهو مشرف عليهم للعلو وضربت خيام الميمنة ممتدة الى البحر وخيام الميسرة الى النهر واتسع مجالنا وضاقت الدائرة على الكفر وكان الامير طمان صاحب الرقة مريضا ولم تزل وجوه الايام الغبر فى سبيل الله باحمراره بيضه بيضا وهو الحسام الفاضل والهمام الباسل والقرم البازل والندب الحلاحل والمحترق لحمية الدين والمقترح لحماية المسلمين ولما وافت وفاته وفاته رجاؤه ولم يرج افواته أسف على عمره وأمى على أمره وحزن كيف لم يقتل شهيدا ولم يستشهد فى الجهاد سعيدا وقال قدموا حصانى حتى أشهد الحرب وأستشهد وأجاهد الى أن أقتل وأجهد فانى أرى موتى على الفراش غبنا وقد عرفتم منى شجاعة لا جبنا وتوفى عصر الاربعاء ثالث عشر شعبان وبوأه الله الجنان وبشره رضوان وكان قد توفى بالقرب الامير الندب فارس الحرب ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب حسام الدين سنقر الخلاطى النجيب المنتجب فنبت مضارب الدين باغمادا الحسامين وجلت الهموم لاجل أجل الهمامين فوجمت النفوس وألمت القلوب وفاضت لغروب فيضهما الغروب

(ذكر واقعة للعرب أربت لنا بالارب)

انتهى الينا ان الفرنج يتطرقون وينطرفون ويأمنون ولا يتخوفون ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الاعشاب من الاعشاش ويصلون الى طرفى النهر وهم لمن يحاق عليهم من فوقهم تحت القهر فانتدب جماعة من العربان وضراغم

فارسة من الفرسان فاغاروا وهم غارون وساروا الى جمعهم وهم بجمعهم سارون وحالوا بينهم وبين خيامهم وحشروهم الى حمى حمامهم وحملوا اليهم حين حملوا عليهم بوسا وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤسا وأحضروها عند السلطان فاجتابوا بها خلع الاحتباء وبعثهم على الحمية والاباء وذلك يوم السبت سادس عشر الشهر وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر هذا والقتال بينهم وبين أصحابنا فى عكا متصل وشرار الشر مشتعل والموت منهم منتق وفيهم منتقل وفى كل يوم تقوم الحرب على ساق والارواح فى مساق والمصاع على اتساق وكم قتل من حزب العدو وأسر وكم حمل ليكسر فكسر وربما مل الحزبان وكل الغربان فتوافقا على الامان وتواقفا يتكلمان وربما أقدموا ثم نكصوا وغنوا ورقصوا واذا لغبوا لعبوا واستراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومن نوادر ما جرى وغرائبه وملح ما تم وعجائبه ان الطائفتين فى بعض الايام ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام فقال واحد من الفرنج الى متى هذا القتال وقد فنى الرجال فأخرجوا صبيانكم الى صبياننا وليكونوا فى أمانكم وأماننا فبرز منهم صبيان ومن البلد آخران فقاتلوا مليا وألقوا نار الحرب صليا ثم وثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين وضرب به الارض وقفز عليه وانقض وقبضه كسيرا وجذبه أسيرا فافتداه بعضهم بدينارين وعاد المسلم من ظهوره وسروره الى جنتين والعدو من كفره وفكره الى نارين ومن الاتفاقات النادره وأمارات السعادة الظاهره انه أفلت من بعض مراكب الفرنج حصان له عندهم صيت وشان فلم يقدروا على ضبطه كما عجزوا عن ربطه وما زال يعوم فى البحر وهم حواليه حتى دخل مينا البلد وتسارع أصحابنا اليه وأهدوه الى السلطان وعده العدو من أمارات الخذلان ورأيناه لنا من دلائل النصر والاحسان

(ذكر الوقعة الكبرى)

وأصبح الفرنج يوم الاربعاء العشرين من شعبان وقد رفعوا الصلبان وزحفت أسودهم فى غاب المران وطارت بهم خيولهم عقبانا على عقبان وجرت بالجبال

منهم رياح وجالوا دون التل كأنهم له وشاح وخرجوا على التعبيه وشفعوا نداء الكفر بالتلبيه وشغفوا بالتجربة للتربيه وتقدموا معتزمين وعزموا مصممين وثاروا ثورة الشيطان وفاروا فورة الطوفان وقدموا الراجل امام الفرسان وزحفوا أطلابا وحفزوا طلابا ودبوا دبيب الليل الى النهار وهبوا هبوب الخيل الى المضمار وأجروا سيول السوابق الى القرار وجروا ذيول السوابغ الى الغوار وتحركوا وهم هضاب وتدركوا وهم غضاب وما زالت ميسرتهم تكثر وتكثف وتعطوا وتعطف وتفور وتثور وترود وتدور وتهم وتهمهم وتدمدم وتدوم وقد عبى السلطان ميمنته وميسرته وطلب من الله نصرته وثبت قلبه وقلبه ثابت وحزبه في صف الحرب نابت ورعبه لكبة العدو كابت وهو يمر بالصفوف ويأمر بالوقوف ويحض على حظ الابد ويحث على الجلاد والجلد ويثوب للوثوب ويندب الى المندوب ولما شاهد شروق بروقهم وخروق مزوقهم وكثافة ميسرتهم وحشو حشود كثرتهم أنهض رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب وكان الملك المظفر تقي الدين من الميمنة على الجناح في جمع بعثر بعثيره وارد الصباح وكلما تقدموا تأخر ليستجرهم ويحذر مكرهم ومكرهم فعرفوا انه لا قبل لهم بمقابلته وان هذا ليس ميقات مقاتلته فتركوه واستقبلوا القلب وزخر بحرهم وعب وحملوا حملة دوى منها الدو واسود منها وجه الجو ووصلوا الى جموع ديار بكر والجزيره وغاصوا في لجتها بغدران السوابح والسوابغ الغزيره وكانت من القلب على الجناح للطيران وجبالها على الرياح للجريان فعرفوها بالغره واستضعفوها لدى الكره وألموا بها فما ألمت وهموا بها فما همت واندفعت وما دفعت وتراجعت وما رجعت وتعكست وما عكست وأدبرت وما تدبرت ولكونها غير عارفة بقتال الفرنج هابت وما هيبت ولابت وما لبت ورابت وما ربت وجاؤا الى القلب وقلبوه وحاربوه وحربوه وخربوا حزبه وخرقوا حجبه وهنالك استشهد كرام باعوا أنفسهم بالجنه وأسنوا نحورهم نحو الاسنه منهم الامير مجلي بن مروان وكان مجليا في المروه والظهير أخو الفقيه عيسى وكان ظاهر الفتوه وآخرون

اعترفوا بذنوبهم فرحضوا بماء الشهادة درن حوبهم وصعدوا الى مخيم السلطان طامعين في استطالة حزب الصلبان وكنت في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا في ذلك اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة وننتظر ما يكون من القوم وما ظننا ان القوة تهي وان الواقعة الينا تنتهي فلما خالطونا في المخيم وباسطونا في المجثم وكنا على بغال بغير أهبة قتال استدركنا أمرنا وأخذنا منهم حذرنا ورأينا العسكر موليا والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا فوافقنا في الاندفاع وألفينا الاستضرار في المال عين الانتفاع فوصلنا الى طبرية فيمن وصل ووجدنا ناسا كنها قد أجفل فسقنا الى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه وكل منا ذاهل عن شبعه وريه مفكر فيما يكون من أمره منكسر القلب لما تم على الاسلام من كسره لا يألف مبيتا ولا يلفي بيتا ممسك بلجام فرسه قد آذن ضيق نفسه بضيق نفسه ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق وهو غير مفيق ومنهم من وصل الى دمشق غير معرج على طريق وأقمنا بموضعنا على الخوى والخيل واقفة بلجمها واطوى والغمض غير طارق والفرق غير مفارق والقلوب مرتاعة مرتابه والادعية الى الله مرفوعة مستجابه وتحدث الناس فيما بينهم بأن الاسلام عاد جده وعدا جنده وان الكفر حان فله وفل حده وان الميسرة ثبتت فثاب اليسر والاسدية انتصروا فاشتد النصر وكان هذا الصدى يقوى والصدأ يروى والبشرى تسري والبرد بها تجري والناس بين مصدق ومكذب وذاهب في مذهب من الظن مذهب مهذب حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه صافي وقد ورد موردا لظفر الصافي فنادى أبن العماد فقد جاء من النصر المراد فأسرعنا اليه واجتمعنا عليه وقلنا ما الخبر وكيف صفا الظفر وصفا الكدر وقدر السلطان وتسلط القدر والى أين أنت سار بالنبأ السار وفي أية دار تنزل بمنزل انتصار الدار فقال انا بشير دمشق بالنبأ العظيم والخبر الكريم فقلنا أهلا ببشائر البشائر وطائر الاوطار ولسائر بالمسار والاخ البار بالاخبار والصديق الصادق والموفق الموافق ومرحبا

بالحصى الخاص لماص حبا فل بالخبر الفعل فلا وكم أم للنجح أملا وجلا وجلا فابنا محبورين مجبورين وتبنا مثابين مأجورين وندمنا على ما ندمنا في الهزيمه وعز علينا ترك الاخذ بالعزيمه ولقينا السلطان وقد قتل وقتل وجد وجدل وانتقم من القوم ومن مقامه ما انتقل وقد شل الجموع وجمع الاشلاء وأدام الاجراء حتى أجرى الدماء

﴿ذكر حصة النصره بعد صحة الكسره﴾

﴿وكيف أدال الله الاسلام وأذال الكفر بتلك الكره﴾

لما تمت الكسره وعمت الفتره وكرت الكره وأمرت تلك المره وصل جماعة من الفرنج الى خيمة السلطان وشيم من عارض اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان وجالوا جوله وخالوا دوله وصالوا صوله ثم رأوا عنهم انقطاع أشياعهم ، وعدموا اتباع أتباعهم فشرعوا فى اندفاعهم وهابوا الوقوف على اجتماعهم فانحدروا عن التل وقد جاؤا بقوة العز فآبوا بضعف الذل واستقبلهم أصحابنا فركبوا أكتافهم وحكموا فى رقابهم أسيافهم وردوهم وأردوهم وعدوا على شركائهم فى الشرك فأعدوهم وكان فى ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا وما زلوا بل وصلوا وصالوا وصلوا وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بالجبال الرياح وخالطوها فودعت أجسامها الارواح وعاد من كان من الميمنة الاسلامية بالبعد حاد المضاء ماضى الحد مثل تقى الدين وقايماز النجمى والحسام ابن لاجين ومن ثبت من أبطال المجاهدين فكروا على ميسرة الفرنج فشلوها واستحلوا من دمائها وأعلوها ولقوها وفلوها ولقوها واقتلوها ووضعوا فيها السيوف وأوضعوا اليها الحتوف وأوسعوها قتلا ذريعا وما أبطأ الوقت حتى صار مقدامها صريعا عاسر يعا فلم يفلت من الاعداء الا أعداد ولم ينج من آلافها الا آحاد وأمست لنار الحرب فراشا ولارض المعركة فراشا وتبعها أصحابنا حتى كلت سيوفهم وكلوا وملت لتوتهم ولتوتهم وملوا وفرس زهاء خمسة آلاف فارس من كل ممار ممارس ومستوحش بالموت آنس وممن أودى فى الاقدام مقدم الداويه ولم تحمه من الحمام ناره الحامية لنار الحميه وحكى عنه انه قال عرضنا

فى مائة ألف وعشرة آلاف أحلاف الحاف والاف ألاف بالاتلاف فلما عجزوا وبالخندق احتجزوا وقف عنهم أجنادنا وبلغ المدى فيهم جهادنا واجتهادنا ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لم يبلغوا ألفا فردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة بعد ضعف وكان الواحد منا يقول قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين وتركتهم بالعراء عراة مصرعين ولا شك أن الله أنزل ملائكته المسومين وكل يتحدث بعد ذلك مما شهده ويعهد الينا ما عهده وحكى بعضهم قال كنت على فرس قطوف ماله منه سير ولا وقوف وأنا منهزم من فارس مدجج فى بحر الحرب ملجج وهو على جبل يجرى به جرى الريح وينادى بشعار المسيح وقد لز بقربى حصانه وهز اصابى سنانه فاستيقنت انه يشكى بلهذمه ويكنى بعذمه وأيست من البقاء وأنست للشهادة واللقاء واستعذت بالله واستغثته وتشاهدت مما شاهدت ثم أبطأت على صدمته وأخطأتنى حدمته فالتفت فاذا هو وحصانه ملقى كلاهما وما وجدت بالقرب أحدا أقول انه أرداهما فعرفت انه نصر الهى وصنع ربانى فى مذاق الايمان شهى وفى آفاق الاحسان بهى فايقنت ان النصرة ما ملكت الا الملائكة نصرت وان الظهور ما سر الا لاسرار الله ظهرت

﴿ذكر مكاتبة أنشأتها الى بعض الاطراف﴾

﴿بشرح ما يسره الله فى هذه الوقعة من الالطاف﴾

قد سبقت المكاتبة بشرح الاحوال وذكرها وشكر الطاف الله الخفية وابدائها وسرها ونشر مطاوى النعم باذاعة طيها واشاعة نشرها وذكر فيها ما الفرنج عليه من اجتماع راجلها وفارسها والاحتماء بخنادقها ومتارسها وان لنا كل يوم فيهم نكاية بالغه وسطوة دامغه وثعالب عوامل فى دمائهم والغه ومضاربه مناصل لرؤسهم فادغه ونيوب عواسل لمضغهم ماضغه وذيول نقم عليهم فى تقليص ظلال ضلالهم سابغه وأيدى أيد لصفحات البيض بحيعهم القانى صابغه وضمائر وضوامر عن كل شغل سوى شغل الجهاد فارغه وهمما وعزائم لا ترى عن وقم القوم أهل الزيغ زائغه وما برح الفرنج فى برح شديد وأمر غير سديد

وظل للذل مديد وضيق حصر فى كل يوم جديد جديد حتى ضاقت أنفسهم وأنفاسهم وأخفق رجاؤهم وظهر يأسهم ووقع بينهم بطول المقام بأسهم فاجمعوا أمرهم على انهم يجدون فى اللقاء ويهيجون الى الهيجاء ويلقون الالوف بالالوف ويصدمون الصفوف بالصفوف ويعرضون نحورهم ووجوههم على الاسنة والسيوف ويجمعون فى كلام الكلوم من الصواهل والصوارم بين الاصوات والحروف ويكسفون بشبه التثليث أدلة التوحيد ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد والحد الحديد وبرز ذلك الخميس يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان ورفعوا الصلبان وأشرعوا الخرصان واتبعوا الشيطان وزنبوا الرجال وطلبوا الفرسان وحملت لهم أطلاب تضم أبطالا وتضمن بباطلها للحق ابطالا وتأمل اشملها المتفرق اجتماعا وترجوا للصليب السليب ارتجاعا وعصفت رياحها الهوج وأقبلت بحارسوابحها وسوابغها تموج وكاد أن يثبت للشيطان قدم ويراق للايمان دم فانها خرقت حجاب الصف وفرقت شمل الجمع الملتف وراع جنان الجبان وهمه وهمه وأدبر موليا وعزمه زعمه فظن من لا يقين له ان الاسلام قد أسلم وان نصر الله الموجود قد عدم وان الكفر المتأخر قد تقدم وان الصبح المتبلج قد أظلم وهنالك عرف أهل الاثبات وثبت أهل العرفان ورقصت المران على أشاجع الشجعان والتف العنان بالعنان والتقى السنان بالسنان وخطبت الصوارم على منابر الطلى ورتعت اللهاذم فى كلا الكلى وفتحت البغالق مغالق الحتف وزحفت الفوارس الى فوارس الزحف وعطفت العساكر المنصورة طلابا لتلك الاطلاب ووصلت ضرب الاعناق بقطع الرقاب ومازالت تشل الفرنج وتفلهم وتحل بعقدهم لوهن وتحلهم وتروى ظمأ الظبا من ورد وريدهم وتخضب شيب البيض بدم طريدهم حتى فرشت بعد أن سلبت أشلاؤهم بالعراء عريا وجرحت خيولهم وخيالاتهم فلم تستطع اجراء ولم تطق جريا حتى تثلمت وتلثمت بنجيعهم صفحات الصفاح ووقفت أشباحهم وقفة الوداع لفراق الارواح وأعرب حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح وقتل من مقدميهم ومقدميهم زهاء خمسة آلاف زهى الاسلام بما اتسع من عطن عطبهم

وحسن منقلبه بسوء منقلبهم وعاش بما شاع من قتلهم واشتغل العسكر المنصور بشغلهم وطاب القلب المهموم بما تم من مأتم الكفر وعرس الدين وفصم الهدى متن الضلال المتين وهمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحاملين وانجلى الغبار عن كل قتيل مالعاثره من مقيل ولا لقاتله من مقيل وعادت أعلام الاسلام ظاهره وايمان الايمان باطشة قاهره وهدى الهدى على النصر من فوقه وعيون العدا عن النظر بالعمى مكفوفه ولم ينج ممن حمل من حمل راسه ولم يقدم من أولئك الرجال الامن فقد رجاءه ووجد ياسه وعاد الفرنج الى خيامهم وقد فجعوا بتلك الالوف وأصيبوا عن صفا فى تلك الصفوف وتراءت وجوه الفتوح لنا من خلال تلك الحتوف ودخل الليل عليهم ووقفت العساكر حواليهم وهم وان وهنوا لما أصابهم من الكسره وأخطأهم من النصره وحل فيهم من الرزء وسخر بهم الشيطان فى موقف الهزء وفجع كلهم بالجزء ونقص منهم العدد الكثير وركد من ريحهم ذلك العاصف المبير فانهم فى حشد كالدبى وجمع أغص الوهاد والربا وقد أخلدوا الى الارض وشدوا على حب الموت الحبا وودوا لو وجدوا مهربا وتفرقوا أيدى سبا وقد عادوا وتحصنوا وتصبروا وتخيروا المقام على الحين حين تحيروا وأوسعوا الخنادق وعمقوها وأحكموا المتارس ووثقوها وندموا على الحركه فانها أفضت بهم الى الهلكه وانهم ماداموا رابضين وعلى يد الصبر قابضين يتعذر الوصول اليهم والدخول عليهم وتطول أيام الاحاطة بهم من حواليهم وفى تلك الحركة التى حلا بها للشجعان طعم الطعن وغلب فيها للجبناء وهم الوهن وتجافى عن الثبات من محبى الدنيا جنب الجبن ارتاع عسكر الشرق من ذلك الغرب واختار المتسللون المتغفلون منهم البعد على القرب وماثبت الا عسكر سنجار فكله محربه مجرب للامور سديد سداد للثغور ومجاهد الدين برنقش قد صدق نيته بالمجاهدة للدين وجلا ظلمة الوهم بنور اليقين وقرت عين طمان بالجنة باقدام الولد وماذا يقال فى شبل ذلك الاسد وانما الغرباء غابوا وكانوا قد ضجروا من الحضور فغابوا والفرنج الآن فى ذل وخسر وفى عسر بغير يسر وفى حصر بغير حصر والمرجو من الله سبحانه أن يقدر على قطع دابرهم واهلاك سائرهم عن آخرهم

وتحريك هممهم المؤمنين فى تسكين سائرهم وتخريب عامرهم وعامرهم وانزال دوائر السوء بمنازل دوائرهم ومادام البحر بمدهم والبر لا يصدهم فبلاء البلاد بهم دائم ومرض القلوب بادوائهم وأسوائهم ملازم وتدبيرنا الآن فى التدمير على هذه الجموع وسوقهم الى مصارعهم فى ورطة الوقوع فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين وغيرة أهل اليقين ومايقضى عجبنا من تضافر المشرك على شركه وتظاهره فى اتساع مسلكه واتساق سلكه وقعود المسلمين عن المسلمين وتقاعدهم وتعاضاهم فى تعاضدهم وانحلال عقود تعاقدهم فلا ملبى فيهم لمناد ولا مثقف لمناد ولا موري منهم فى اجابة داع لزناد فانظروا الى الفرنج أى مورد وردوا وأى حشد حشدوا وأية ضالة نشدوا وأية نجدة أنجدوا وأية أموال غرموها وأنفقوها وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها ولم يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم الا جارى جاره فى مضمار الانجاد وبارى نظيره فى الجد والاجتهاد واستقلوا فى صون ملتهم بذل المهج والارواح وأمدوا أجناسهم الانجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا الا لمجرد الحمية لمتعبدهم والنخوة لمعتقدهم وليس أحد من الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك يخرج بلد من يده أو تمتد يد الى بلده والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ولزموا الحيره وعدموا الغيره ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان أو خبا سنا ونبا سنان لما وجد فى شرق البلاد وغربها وبعد الآفاق وقربها من لدين الله يغار ومن لنصرة الحق على الباطل يختار وهذا أوان رفض التوانى واستدناء أولى الحمية من الاقاصى والادانى على انا بحمد الله لنصره راجون وله باخلاص السر والاخلاص مناجون والمشركون باذن الله هالكون والمؤمنون آمنون ناجون

((ذكر ماعرض للعسكر بعد ذلك من العذر))

((فصد عن قصد المباكرة لمناجزة أهل الكفر))

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء وزادت مشاربه

من مادة الصفاء وأمر بمواراة الشهداء ومن جملتهم الفقيه أبو على بن رواحه وكان غزير الفضل قد أكمل الرجاحة والسجاحه وهو شاعر مفلق وفقيه محقق من ولد عبد الله بن رواحة الصحابى الانصارى فى الشهادة والشعر معرق فطرفه الاعلى يوم موتة مع جعفر الطيار وطرفه الاقرب يوم عكاء فى لقاء الكفار ومنهم اسمعيل الصوفى الارموى المكبس وكان سديدا عفيفا عاريا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس ومنهم شيخ من الحاشية فى بيت الطشت وغلام فى الخزانة أمين على البيت وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعاده وفجأتهم الشهاده وهؤلاء سوى من وقع فى الوقعه وذهب قبل الرجعه وأجمع السلطان وذوو الآراء انه يصبح القوم ويباكر فى طلب أرواحهم السوم وقال هؤلاء قد أضعفنا قوتهم وأعجزنا قدرتهم وفثأنا سورتهم واخمدنا فورتهم وقتلنا مقاتلتهم وأدوينا دادا وبتهم فان تركناهم لمعوا الريق وبتغوا فى الاحتراز والاحتراس الطريق فنحن نوافيهم غدا ونوفيهم ردى ونكيلهم بصاع المصاع ونذرعهم بباع السباع ونقيسهم بذراع اليراع ونوسعهم قرى القراع ونذيقهم حر الحرب ونسيغهم فى طعم الطعن ضرب الضرب ونعين من عيونهم للسهام سهاما ونتخذ لارواح النصال من أجسامهم أجساما ونغرقهم بماء فرند الهندوانيات ونحرقهم بنار زند اليمانيات ونوجد من عدمهم النصر ونطيب من نتنهم النشر ونقطع دابرهم ونلحق بأولاهم آخرهم فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم واجراء هذا الحكم تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب لما ناب من الامر وراب وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها وأوباش الجمع وأوشابها ظنوا تلك الفورة هزيمه فنهبوا الاثقال والاحمال وعدوها غنيمه وانهزم من انهزم من الجند وثبت من ثبت من أهل الجد فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا وكان ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوبا فضوا وراء الغلمان وبلوا بسوء دين السودان وأصبحنا واذا العسكر غائب والعازم عازب والقاصم قاص والطائع عاص والجمع متفرق والثابت قلق والآمن فرق والغنى معدم والجرىء متندم فهذا خلف ماذهب من ماله ذاهب وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب فتفتر

ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم وانتعش الفرنج في تلك المده وانتشلوا من تلك الشده واستطالوا بعد الاقصار وفرغوا لشغل الحصار وجاءتهم في البحر مراكب أخلفت من عدم وبنت ما هدم فكمل بالمدد ما نقص من العدد ولولا أن الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاودناه صباح تلك الليلة لقاءهم فان الفرصة أمكنت والحصة تعينت والجو خال والضوء عال والحال جلية والجمال حال فقضى الله بما قضى وعرانا المضض بما مضى وبقيت هنالك تلك الجيف منتنة منتنة مبثثه وتلك الجثث محينة مخبثة مجتثه تعرفنا ان نشورها من حواصل النسور وان قبورها بطون الضباع والنمور فشكونا نتن رائحتها وشكرنا عن جائعتها فجعل السلطان جلها على العجل الى النهر ليشرب من صديدها أهل الكفر فحمل الى الماء أكثر من خمسة آلاف جثه بعثت الى النار قبل يوم البعثه فاعتبر بالامر من اعتبر واستشفى من أقبل بمن أدبر وسلم الله من أسلم وكف ورد بالردى من كفر

﴿ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من الثقل﴾
﴿واستدراك ما حرب من الخلل﴾

تقدم الامر الى المقدمين والامراء بعد النداء واعلام الجهلاء باحصاء كل ما نهب واحضار كل ما سلب وانه من لم يرد ما أخذه أخذ بالردى واعتدى عليه بمثل ما اعتدى فاحضر كل ما عنده وبذل في الكشف جهده وجمعوا ما تفرق منه في الخيام في خيمة السلطان وضاقت عن كثرته سعة ذلك المكان وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان فكل من عرف من ماله شيأ أخذه بعد احلافه وحلا في مذاق الشكر قطاف ألطافه وسعى في معاناة ذوي الاخلاق الصعبة على سهولة أخلاقه وشفى الغلل والغلل بالنهل والعلل من اشفاقه وقمش ذلك القماش وحصل من ذلك الوبل الرشاش وصح بعد العرى والعثار الارتياش والانتعاش وكتب الى الولاة بالامصار والنواحي والاقطار والضواحي بحث البحث وجد الكشف واستخلاص كل ما يوجد ويؤخذ بالرفق والعنف وتراجع الناس وتتابع الايناس وعادت مضارب العزائم الى

مضائها وقضاة القواضب الى اقتضابها واقتضائها وغار الآنف وأنف الغيران وتسلط العزم وعزم السلطان وثار الحنق وحنق الثائر وطار العلاق وعلق الطائر وطلبت الطلى نكاح بنات الخلل الذكور واشرأبت للشرب نبات الاسل الى ماء النحور وحمى ذوو الحمية للتقاضي وقالوا حتى متى التراضي بالتغاضي

﴿ذكر مجلس عقد ورأي عليه اعتمد وصواب افتقد وقد فقد﴾

وحضر أكابر الامراء عند السلطان يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقال اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله وأناخ بكلكل كله وقد برز بالكفر كله الى الاسلام كله وجمع حشده وحشد جمعه واستنفد وسعه وان لم نعاجل الآن فريقه والبحر قد منع طريقه أعضل داؤه وتعذر غدا لقاؤه فانه اذا اسكن البحر واستسهل ركوبه السفر تضاعفت أعداد الاعداء فظهر الاعدام من الاعداء وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها ولا قوة نستحضرها وما بلي بهذا المعشر الا معشرنا وما بازاء عسكر الكفر الا عسكرنا وما في المسلمين من ينجدنا وما في بلاد الاسلام من يسعدنا وعساكرنا حاضره وعزائمنا للتواني حاظره وعيون أسنتنا الى القتل بالعدا ناظره وما يعوزنا الا حضور أخينا الملك العادل سيف الدين ولا بقاء للنفاذ أصحر منه ليث العرين فالرأي كل الرأي في المناجزه قبل وقوفهم على محاج المحاجزه ثم قال ليشر كل منكم برأيه ولا يقدم على قول ورأيه من ورائه فتجاذبوا حبل الاضطراب واختلفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراب وركب كل منهم هواه وأعلن بما نواه ومنهم من قال هذا ثالث عشر تشرين الثاني لا الاول وقد دفعنا الى الخطب الاعضل والتعب الاطول والنأي الاقصى والناب الاعصل وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوما وما طعمنا في هذه الليالي نوما ولا سمنا الطارق طيف غمضا ولا شمنا الا بارق سيف ومضا ولكم قذفتنا المنايا وقد دخلنا لهواتها وكان أبا الطيب عنانا بقوله * وكأنما خلقوا على صهواتها * وقد كلت الصوارم وفلت البواتر وملت العساكر وهذا الشتاء

قد أقبل والعدو قد استقل والشر قد استفحل وما يتأتى قلعه الا لمن يتأنى وبالصبر يدرك الاريب ما يتمنى وهم بالمصابرة مصابون ونحن على المثابرة مثابون وهؤلاء لا يتمكن منهم الا بالجمع الجم والسيل لا يغلبه غير الخضم والصواب أن نصابرهم هذه الشتوه ونتجدد لنا ولخيلنا القوه ونتأخر عن هذه المنزله لتحصيل هذه المصلحة المؤمله ونوكل بهم مناوبة من يمنعهم من الخروج واذا انقضى البرد نرجع الى معالجة هؤلاء العلوج ونعيد السريجيات الى سلها والسلاهب الى السروج والصواب الاخذ بالاحتياط وتقديم الكتب والرسل الى الاطراف والاوساط ومكاتبة دار السلام واعلام الامام عليه أفضل السلام بما دفع ليه الاسلام بالشام فان المسلمين لا شك ينجدون ويقومون بالنصرة ولا يقعدون ولا يترك استنفار التركمان وترغيبهم بالبر والاحسان واستدعاؤهم بالعطايا والتشريفات السنايا وينفذ الى بلاد الشام القاصية والدانيه فى تحريك الهمم والعزائم الوانيه الى أن تمتلئ بالجموع ساح الساحل وتغلى بنار الحميات بهم مراجل الراجل فحينئذ ينتهى أمد المصابره ونصمم على المكابرة مع المكاثره ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر وننسفهم ولوانهم جبال وننزفهم ولوانهم ربحا ونعدمهم حتى لا يطرق جفن بلد منهم خيال ولا يلم بجفن طارق لهم غرار ومازلنا فى مشاورة ومحاوره ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساوره حتى تنخل الرأى وتمخض وخالوا انه تبين الصواب وتمحض ومالوا الى الدعه والخروج من الضيق الى السعه ومن نزال الحرب الى المنزل الرحب ومن المعترك المعتكر الى المبرك المبتكر فلم تعجبنى هذه الحاله ولم توافقنى هذه المقاله وقلت لعمرى أنها مصلحه ولكنها غير مترجحه فان الفرنج الى الآن لم يتمكنوا من الحصار ولم يحدقوا بجميع الاسوار فاذا رحلنا وتنحينا عنهم أرخينا خناقهم وأطلنا الى مرادهم أعناقهم وباب عكاء من جانب البحر مفتوح والمقيم بها منا بكأس تفقدنا اياه مغبوق مصبوح والطريق اليها سابله والذخائر اليها فى كل يوم داخله والفرنج عن قطع الطريق عاجزه وعزائمنا عن مصابحتها

ومماساتها دون قصدها محاجزه فان تأخرنا تقدموا وان هونا أحكموا وان نقضنا أبرموا وان قعدنا قاموا وان بعدنا حاموا ومتى رمناهم تحفظوا ومتى غمنا عنهم تيقظوا ومادمنا نشغلهم فانهم لحصر البلد لا يتفرغون والى أمد الامل لا يبلغون فقالوا هذا أمر هين وماذكرناه صواب متعين ووجه الصلاح فيه بين ومامقصودنا الآن ينتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا فاذا أنسوا بالرجاء ولم ييأسوا من الارجاء أرخينا لهم حبل الانظار حتى استمروا على الانتشار وحينئذ نصبحهم على غره ونعاجلهم كرة بعد كره وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث ونصدهم بالباعث الباغت لهم عن الانبعاث وكان السلطان منكرها لما أبدوه من الرأى الملتاث لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث

((ذكر الرحيل الى الخروبه عند خيم الاثقال المضروبه))

كان السلطان مع ما ألم به من الالم غير مبد وجه الملل والسأم وهو فى كل يوم يركب وعلى العسكر يطوف ويقف مستطيلا على العدو ويطول منه الوقوف ويعود وقت الظهر وعليه أثر الضرر من الصبر فليم على فعله وخصه الطبيب بعذله فانتقل الى الثقل ليلة الثلاثاء رابع شهر رمضان وخلى المنزل الاول وأخلى العسكر ذلك المكان وتقدم الى من بعكاء باغلاق الباب وسلوك نهج الاحتراس والاجتناب وجرى الامر على ما كنت قلته وتحقق من الخلل ما خلته فان المركيس رحل وشغل الباب الذى كان خاليا ورخص عنده ما كان من سوم خوفه غاليا وشرع الفرنج فى حفر خندق على معسكرهم حوالى عكاء من البحر الى البحر وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحصر وفى كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم وبما ظهر من أثرهم والجد فى تعميق الخندق وتتميم محتفرهم والعسكر هاجم كانه واجم والظن فيه راجم وشر الكفر ناجم ومافينا العود الامر عاجم وقلت يوما للسلطان يركب العسكر اليهم ويركض عليهم فلعله ينال ظفرا ويقضى من كسر العدو وطرا فقال ما يعمل العسكر شيأ الا اذا كنت معه راكبا ولعمله مشاهدا مراقبا ولقد صدق فى مقاله فانه كان أعرف

برجاله فانهم كانوا يبذلون معه المهج ويخوضون من بحر الحرب اللجج ويوسعون لهزم العدو المأزق اللحج وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم وأمهلناهم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور ونقوا من ترابها السور وملؤه بالستائر ومنعوه من الطير الطائر وبنوه وأسسوه وستروه وترسوه ورتبوا عليه رجالا ولم يتركوا اليه لواغل مجالا وتركوا فيه أبوابا وفروجا ليظهروا منها اذا أرادوا خروجا ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر ونحن نقول لا مبالاة بهم ولا كثرات وما أسهل اذا عزمنا عليهم لاصولهم الاجتثاث وباسيول سيوفنا نغسل تلك الاخباث وأى وقت قصدناهم وجئناهم وجأناهم ونكأنا قرحهم ونكبناهم وما فوارسهم لنا الافرائس وما خنادقهم لهم الارموس دوارس وما حفروا الاقبورهم وما دبروا الاثبورهم ومتى قصدناهم كذبت ظنونهم وصدقتهم منونهم وامتلأت باشلائهم خنادقهم وأظلمت عليهم بغربنا مشارقهم وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم

((ذكر رأى رائب عن النظر فى الغاى غائب أسفر عن داء دائب
وأبان عن غرارة بغرائب))

وقع لبعض الاكابر فثنى عليه خنصره ووكل باتمامه سمعه وبصره لما تمت على الفرنج تلك المقتله وعمت فيهم الهلكه وضمت أشلاءهم المعركه وشوهدت على الرباجب نحورهم المهتكه وخمدوا وخملوا وأهلكهم الله بما عملوا ووقع لبعض الاكابر انه لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعاثر وانهم قد عدموا القرار وعزموا الفرار ولو قدروا على النجاة لخلصوا ولو فتحنا طريقهم ما نصبروا ولا تربصوا وقال للسلطان ارحلوا عنهم حتى تروا ما يكون منهم فانهم يرهبون ويهربون ويبعدون الى صور ومن بعدها من عكاء لا يقربون فمال قوم الى مقاله وتخيلوا مثل خياله واشار بقطع طريق البلد والصدر عن ورد الرصد والجد فى تعمية الجدد وان يفتح لهم ما سد من الطريق ولا يعوقهم فانهم كالذب تعوى من التعويق ولما بلونا رايه وتلونا آيه أخلف ظنه وبدا وهنه وما زاد الفرنج الاثباتا ولم نعرف لشملهم على ما وهمه شتاتا وكنا نتحدث بذلك الرأى

القائل ونقول ما أعجب قبولنا القول هذا القائل

((ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث وتجدد للعزائم من البواعث))

أقام السلطان بالمخيم لاصلاح مزاجه وايضاح منهاجه ومداراة ألمه ومداواة سقمه فوهب الله العافيه وكل له عصمته الكافيه ومنته الشافيه ونعمته الوافيه وأبدى له ألطافه الخافيه وقوى قلبه على القيام بنية الانتقام وصرف الاجناد الغرباء ليرجعوا فى اربيعهم ويستريحوا فى مرابعهم لوقت الرجوع وأقام فى مماليكه وخواصه ورجال حلقته المنصورة من ذوى استخلاصه ورتب بالنوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا وأدار بهلاك القوم منه فلكا وكان فى مماليكه كل مقدم مقدام وكل همام همام وكل ليث ذى لوثه وكل حدث محسن له حسن أحدوثه وكل ضيغم ضاغم وكل أسد عرين ليس الاعزبين قرنه براغم وكل رئبال ذى بال وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطال وكل مغير للنصر مريغ وكل مسىء الى العدو الكأس الحمام مسيغ وكل تركى للرماء غير تارك وللاصماء غير فارك قوسه فى ظفر الهدى موتر على الوتر وسهمه من مقل العدا طائر الى الوكر وسيفه فى رداء الردى حال بدم الكفر وكل جندى فى الروع جيد وبالحرب عميد وكل هكارى على القرن عكار وفى الوغى كرار وللقنا جرار وكل زرزارى بالاسد زار وللبسالة كاس ومن العار عار وكل مهرانى فى القتال ماهر وللرجال قاهر وعلى الابطال ظاهر وكل كمى كميش واكديش على الكديش فما خلا يوم من وقعه وما صار من بارزهم الا الى صرعه وما نجا من نجا من زنابير سهامهم الا بلسعه وما حصلت شفاه شفارهم من طلاء من طاولهم الا على لطعه وما بقى على لتوتهم لبث ولصوتهم فى النزال كل صباح ومساء صيت وبلى الفرنج منهم بالمبير المبيد واعتاق بهم مراد العدو المريد وما زال هذا دأبهم فى الركوب ومباكرتهم ومراوحتهم الى مواقف الكروب فكم أقروا منا أعينا بايديهم وثبتوا عدل النصر بتعديهم وصدوا اشر الشرك بتصديهم وحركوا ما سكن وهدأ من عزائم الهداة بتهديهم وفى يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكاء مركبا للفرنج الى صور مقلعا واجتلبناه من سنا النصر مطلعا وكان المركب محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة

واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوه وغنيمة صفوه ونشوة أعقبت صحوه وصحيحة استصحبت ضحوه وقوة من وهن العدو ومحبة فكت رهن السلو فقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم وانخفض اغتباطهم وفترت عزمتهم وقصرت همتهم وخمدت فورتهم وركدت ثورتهم فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتقشوا وتنغموا وتنغشوا ودب الروح وشب المروح وتحرك الساكن وتدرك الضامن وصاروا يخرجون ويحرجون ويقتلون ويجرحون ويعسون على القتال ويصبحون ويكافحون ويدافعون ويقارعون ويواقعون والعسكر في المنزلة هاجم وجم جمه واجم واليزكية زكيه والعيون ذكيه والنوب راتبه والعدة المعينة المعينة في كل يوم راكبه

((ذكر وصول ملك الالمان))

ونمى الخبر بوصول ملك الالمان الى قسطنطينيه في عدد دهم نثر ونظم من خيله ورجله ونثر وهو على قصد العبور الى بلاد الاسلام وقطع بلد الروم والارمن الى الشام وانه في ثلثمائة ألف مقاتل من كل سالب باسل وطالب باطل وجهم جهنمي وأشقر سقري وأغش أفعواني وصل صليبي صلائي وأرقش حنشي ومستعر سعيري ومحرب لظوي ومغوار ناري وضار بالقرن ضار وجار للدرع جار وكل ذئب عاسل ذاب بعاسل وأزرق لابيض مشتمل وأصهب لاسمر معتقل وكل جحيمي جاحم وجري فاحم وحربي بحري وباربري وقاطع في طريق الوصول وراحل بقصد الحلول وناز الى النزال وصال بنار الصيال ومشمر على الموت متمرن ومضين الى المنون متحنن وفيهم ستون الف فارس مدرع مقنع ماله سوى السوء من مقنع وانه مع الالماني ملوك وكنود وكل شيطان لربه كنود وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الارمن وهو في قلعته على الفرات ومن أهل الذمة في المأمن يبدى نصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا ويقطع بان الواصلين في كثره وان الناهضين الى طريقهم في عثره وأبرق في كتابه وأرعد وأبدع بخطابه وأبعد ولاشك انه الى جنسه النجس مائل وبملاءة أهل ملته قائل ولما وصل هذا النبأ وقيل انه عظيم وورد هذا الخبر وخيل انه أليم كاد

الناس يضطربون على انهم يصدقون ويكذبون ومن طرف كل حبل من الرأى يجذبون وقلنا ان وضح هذا الخطر وصح هذا الخبر فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون ويغضبون لله ولا يرضون انهم لا يعضدون على ان الله ناصرنا وموازرنا ومظاهرنا وحققنا باظهار القوة لمن استوحش التأنيس وبثثنا بالارسال الى بلاد الروم عيوناو جواسيس وندبنا رسل الاستنصار وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار وقلنا ماعده المرة الامره ولا يسيغها الا كل مرىء أبي وماهذه الكرة مثل كل كره ولا يحضرها الا كل كميش كمى

((ذكر رسالة دار الخلافه))

وعول السلطان على القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافع بن تميم ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم وقال له ما احتاج أوصى وأنت تستوفي القول وتستقصي وجعل له الى كل ذي طرف في طريقه رساله وأودعه اليه مقاله فسار من عندنا في شهر رمضان مغذا يبذخيل العزم بذا ويجد حبل السير جذا ووصل الى حلب والقاضي ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد وذكر انه قد بلغ المراد وانه استجدى واستجاد واستفاد واستزاد وانه استكمل للعدة الاستنجاز وللعدة الاستجاد فما هذا الرسول الرائح وربما تعرضت لتلك الحوائج الجوائح واذا اختلف الحديث حدث الاختلاف ومتى ألفي غير ما ألقي ألغى الائتلاف فما هذا العجل وهم الوجل فصدقه الملك الظاهر غازي صاحب حلب عن كل ما أبان عنه وأعرب وكتب الى والده بذكر مقاصده وقال أنا لا أقدر على صد من للخدمة تصدى ولا رد من بثوب الرسالة تردى وأنت تمضى الى السلطان بما أوضحته من البرهان وهو يحكم ويحكم ويعقد ويبرم ويقول فيسمع ويأمر فيتبع ولعلك تعود سريعا وتجد شمل ما ألفته جميعا فوصل ضياء الدين الشهرزوري وهو مغتاظ وسجاياه السجاح غلاظ وتغير على ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين الى فانه كان مخالي ومخالطي ومجالسي ومباسطي فأزلت عنه كل ظن واعتذرت اليه بكل فن فابسط عذر ولاقبض ذعر فاني على أسبابي

ببغداد خائف ودون رضا كل سائر اليها واقف واسترضيته فارضى ومضيت اليه مرارا قبل ان يمضى ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه وأعلمه بما علمه وقال له الشغل قد فرغ والمقصود قد بلغ والسؤال قد أجيب والسول قد أصيب والمخطوب بزمامه مخطوم وكل مالك سؤالك لاجلك من رضاع رضاهم مفطوم فكن للامام يكن لك وأقبل أمره ليقبلك واجتمع بالسلطان دونى واتفق بجماعة شاركوه وأفردونى وقرروا معه سرا أمرا وحذروه أن يصير جهرا ولو كنت معهم لعرفتهم ان الامر الذى أبرموه غير مبرم وان الرأى الذى أحكموه غير محكم ومازلت أؤكد الامر حتى يؤمن انتقاضه وأتعرض دون الرأى حتى لا يمكن اعتراضه وأتيقن أن الامر ما فيه خلاف وان الوعد ماله اخلاف فما فعل الرسول بتلبث ولا أمهل بتمكث بل جعل على المجاز لا الحقيقة مجازه وزعم فيما دبره نجاحه ونجازه وسلك فيما تقرر نهج العجب وأسرع العودة على النجب فلما انفصل عن السلطان بما وصله من الاحسان جمع السلطان الامراء على المشوره ووقفهم على المعنى والصوره وقال لهم قد وعدت الخليفة على لسان الشهرزورى بشهرزور واستدعيت عسكره المنصور وربما قدم الينا الحضور فيكمل لنا النصر والحبور فقالوا هذا رأى رائب وشأو شائب وأمر عنه الصواب ناء وكيف تعدى الامام بما لا يقرن بوفاء وكيف ينجز هذا الوعد وينجح هذا القصد ودونه ايحاش من هو فى طاعتك فكنت تبذل ما يدخل فى استطاعتك أما صاحب الموصل طلبها فمنع وصاحب اربل عنها دفع ومملوكك بها لمن يجاوره خائف وكل اوانى لحدها وحقها حائف وما من هؤلاء الا من بذل عنها أموالا وأحوالا والتزم من الجنود والنقود انجادا خفافا وحمولا ثقالا فاذا عرف انك أخرجتها لمن له الامر ودخل عليهم الضر وملك مالك الامر أمرهم وأبدوا فى انقطاعهم عنك عذرهم وانقطع الواصل وارتفع الحاصل وما جاءنا من المذكورين فارس واحد ولا ساعد على ما نحن فيه بعدها مساعد أما هذا بكتمر فى خلاط قد جمع الاخلاط وجهر بالعداوه وأقام على الغباية والغباوه فقال السلطان الخليفة مالك

الخليقة وهو مالك الحق والحقيقه فان وصل الينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهرزور وسيحدث الله بعد الامور الامور ولما وصل ضياء الدين الشهرزورى الى بغداد صادف بها القاضى بهاء الدين ابن شداد فلم يسفر أمر سفارته عن سداد وقيل له جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ونندبه فيما نخيره وشرف بهاء الدين وأعيد وزين ضياء الدين وزيد وذكر ما جرى فتم الاعتداد وتم الاحماد وسيأتى ذكر ما آلت اليه نوبته حين كانت أوبته

«ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخى السلطان والاستظهار بجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة الايمان»

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال فى جيش وال وجمع حال وشوكة رائعه وشكة رادعه وشارة ساره وديمة من البأس داره وعدة منتخبة منتخبه وعدة منتقاة مهذبه من كل أجدل على مرقب وأجود على جواد مقرب وصاف عتيق على صافن عتيق وطود على طود ونيق على نيق وصقر على سوذنيق وبحر على سابح وجذع على قارح ومن كل رئبال على نتفل وأغر محجب على أغر محجل ومن كل أبيض ضرب البيض ضراب وكل أسمر باسل السمر سلاب وكل أروع يحمل يراعا وكل شجاع يعتقل شجاعا وكل أحمى أحمس وكل أفرى أفرس ومن كل أسد خادر وقسور قاسر وضيغم ضاغم وقمقام واقم وليث بهلونه وحدث له فى الشهامة أحدوثه واحضر معه من سودان مصر كل ذمر كانه العبسى عابس وكل مغامر للموت مغامس وكل غربيب حلكوك وكل سرحان صعلوك وكل ضرغام غرنيق ومقدام زنيق وكل خارج لثار وكل مارج من نار وكل اسود سالخ وكل راس فى الشر راسخ وجاؤا بالغبسة القبطيه والترسة اللمطيه والصلال القفطيه والالال النوبيه والحراب الحربيه والصعاد الصعيديه والصوارم المذروبه والصرائم المشبوبه والاسنة المسنونه والصوابغ الموضونه والسراحين السارحه والثعابين الجارحه والتماسيح المزدرده والشياطين المتوقده والزانات واليزنيات

والهنديات واليمانيات وكان يوم وصول العادل مشهودا لم يترك فى كل ما رادمن القوة مجهودا وأقبل فى روع ظاهر وضوع باهر وبشر ذائع ونشر ضائع وحبور تام وسرور عام وهزة وطرب وعزة وأرب وقلنا سيف الدين المنتضى وناصر الاسلام المرتضى وغياث الانام المرتجى وسلطان جيوش المسلمين المجتبى لقد نص النصر وكف الكفر وسلم الاسلام ونام الانام وأمن الايمان وتسلط السلطان وحليت الاحوال وفرغ البال وبلغت الآمال ونيل رجاء الرجال وأزيل ابطاء الابطال ووريت زناد الاجناد ورويت ظماء الصعاد فما بعد اليوم الابعد القوم وادراك ما استقام من النهج وهلاك من أقام من الفرنج ونزل الملك العادل فى مخيمه وقدم اليمن بمقدمه وتقدم السلطان الى راجل دمشق والبلاد فخضر وضايق الفرنج به وحصر ولم يخل العدو فى كل حين من حين وفى كل وقت من مقت وفى كل شأن من شين وفى كل بقعة من وقعه وفى كل صقع من صقعه وفى كل ليلة من بليه وفى كل سحرة من كبسة بالنكاية فيهم مليه والملك العادل يركب فى كل يوم ويبلى ومن جهده فى القتال لا يخلى والفرنج على البلاء صابرون وللعناء والعناد مكابرون لا يبرزون ولا يبارزون ولا يجاوزون خنادقهم وهم فيها متحاجزون

((ذكر فصل الى الديوان العزيز اشتمل على مجارى الاحوال))

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل ومحاولة أهل الغواية بالغوائل ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة فى البحر بعدد أمواجه الى الساحل وقد نزلوا على عكاء المحروسه براياتهم المنكوسة وآرائهم المعكوسه وحشودهم المجموعة وجموعهم المحشوده وظلال الضلال الممدوده واقدام الاقدام المصدودة المسدوده وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه وبسط الكفر جناحه وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه وقتل من الفرنج وعدم فى الوقعات التى روعت والروعات التى وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح ونابل فما أثر ذلك فى نقصهم ولا أرث الانار حرصهم وما فلل حد حديثهم الحادث ولا قلل عدد كثيرهم الكارث ولا غضوا

عيون أطماعهم ولا فضوا ختوم اجتماعهم ولا ردوا وجوههم عن مواجهة الردى ولا قطعوا آمالهم عن الوصول الى المدى ولو قطعوا بالمدى وهم لمواضعهم ملازمون وفى مصارعهم جاثمون وعلى الموت صابرون والى الحمام صائرون وبالخنادق من البوائق محتمون وبالطوارق من الطوارق معتصمون وعندهم انهم للبلد محاصرون وهم على الحقيقة وان كانوا الكثرتهم غير محصورين محصورون وان جندنا الهم المنصورون وللعساكر الاسلامية فيهم كل يوم نكاية شديده وفتكة مبيده ووقعة ناكيه وجرة ذاكيه وصدمة صادعه وحدمة رادعه ولما امتنع الدخول عليهم وتعذر الوصول اليهم جمع راجل البلاد وحشد الى حشودهم ذووا الاستعداد حتى نقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس ونفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس وقد وصل الاخ العادل وفقه الله للمراضى الشريفه بالجموع الكثيرة الكثيفه والمأمول من الله أن يجعل حتف هؤلاء الفرنج فتحا لابواب الفتح ويجلى لليالى آمال المسلمين بطلوع صبح النجح وايس هذا العدو بواحد فيتجمع فيه التدبير ويأتى عليه التدمير وانما هو كل من وراء البحر وجميع من فى ديار الكفر فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيره ولا خطه صغيرة ولا كبيره الا جهزت مراكبها وانهضت كتائبها وتحركت ساكنها وبرز كامنها ونفضت خزائنها وأنفضت معادنها وحملت ذخائرها وبذلت أخايرها وثار ثائرها وسار سائرها وطار طائرها وثلثت كنائس كنائسها واستخرجت دفائن نفائسها وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها وغصت بالافواج فجاجها ومسالكها وتصلبت للصليب السليب وتغضبت للمصاب المصيب ونادوا فى نواديهم بان البلاد بلادهم وان اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم وانه من خرج من بيته مهاجرا وبحرب الاسلام مجاهرا ولمتعبده مستردا وبالجده فى النخوة لدينه مستنجدا فقد وهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر وبذل البدر لمن بدر فجاؤا الابسين للحديد بعد ان كانوا الابسين للحداد وتواصلت منهم الامداد بالامداد وتوالت أنجاد الانجاد فهم على النقص يزيدون وعلى

الابد يبيدون وبالمهج يجودون وعن اللجاج في خوض اللجج لا يعودون وهؤلاء الواصلون في البحر القاطعون أثباجه المكاثرون أمواجه فأما لو كم الواصلون في البر فقد تواترت أخبارهم بأن خلت منهم ديارهم ورمتهم الى أغراضهم البعيدة أوتارهم وبهم يستفحل الشر ويعضل الامر ويصول الكفر ويحول ويتطاول الشرك ولكنه لا يطول فان لدين الله من خليفته ناصرا لا يسلمه ورازقا لا يحرمه ومتمسك بحبل طاعته الامين فاز قدحه وحاز السناء قدحه وأسفر صبحه ووفر نجحه وبدا علوه وباد عدوه والخادم بقوة رجائه في العوارف الامامية والعواطف النبوية وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصر به آن أن يفرق الجمعين ويجمع للفريقين القمعين ويعيد البر بحرا من دماء وافدي البر والبحر ويقطع بقطع دابرهم دابر الكفر

(ذكر وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة في المراكب المستعدة المستبدة بالبأس والشدة وكانت عدته خمسين شينيا)

كان السلطان منذ وصل الفرنج الى عكاء قد كتب الى مصر بتجهيز الاسطول وتجزية حباله وترجيه أمور رجاله وتكثير عدده وتوفير عدده واصلاح شؤن شوانيه واسناء رواسي سواريه فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره وشرح لايراده واصداره صدره وأنفق من ماله ما جمع به شمل رجاله وهذا لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته وشكرت في العدو نكاياته وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيها أحد ولم يكن فيها على الاسلام لغيره يد ما سلك نهجا الا ملك ولا طلب غاية الا أدرك وهو ميمون النقيبة مشكور الضريبة وهو الذي رد الفرنج عن بحر الحجاز ووقف لهم على طرق المجاز ولم يترك منهم عينا تطرف ولم يبق لهم دليلا يعرف وغزواته مشهوره وفتكاته مذكوره وأمواله مبذوله وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلوله فتولى الاسطول وجمع به الطول والطول ووصل به للفرنج من شوانيها على وجه البحر عقارب تدب ولواسب سوالب ما تغيب وما تغب وسفن حمالة ومقاتله وبطس للازواد والميرة ناقله فصدمتها

مراكبنا بعنا كبها وملأت معاطبها بمعاطبها واستطال الاسطول المنصور على أساطيلها وجاء حقه بإزهاق أباطيلها وطلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما وقذفت لشياطين الكفر رجوما وأقبلت سواريها بالرواسي مبرمة الامراس محكمة المراسي وقطعت اللجة بأشباه أمواجها وسدت فجاجها بأفواجها ونكست أعلام الاعلاج عن أثباجها ووافت أساودها السود بالاسود وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبنود وطارت بقوادم المجاذيف وخوافيها وزارت بجوارح المقاذيف وعوافيها فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال تمر مر السحاب وتطوى اللجة كطى السجل للكتاب فصدتها وصدعتها ووردتها وردعتها فكأنما نعبت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها وأناخت ظعائن الضغائن على شوانى شوانيها وعادت قوامص الفرنج فيها قناقص بجوارح جواريها فأول ما ظفر الاسطول المنصور بشيني للفرنج عظيم الشان عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتليه ونهب ما يليه فوقعت بطشته الكبرى ببطسة كبيره تشتمل على ميرة لهم وذخيره وأمتعة كثيره وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبا وأصلد زندهم وكبا وعاد المحصور بن محصور بن قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم وأيقنوا انهم تورطوا في مهالكهم وسيرت بوصول الاسطول كتب الى الاقطار وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار

(ذكر فصول أنشأتها فيها)

منها فصل

ولما رأينا أمدادهم في البحر متضاعفه وجموعهم متكاثفه استدعينا الاسطول المصري المنصور فجاء ها فجاءه وامتد أسطرا على طرس البحر أعيت متأملها قراءه وأقبلت جواريه جوارح من قنا نصها القوامص وصدمت شوانيه شواني الشناة فعادت مراكبهم وهي نواكص وطارت غربانا ببين أحبة الكفر أعداء الاسلام ناعبه واطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لا لاغبه وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمره وألهبت في الماء على أهل النار كل نار للنكال مسعره وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت

وجاءت وعملت ماشاءت وتبعتهم مراراً وبالغنائم فاءت وأعشت أعين الرائين كلما تراءت فضاقت بها العداة ذرعا ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى

«فصل من كتاب»

صدر الكتاب بورود الاسطول المصرى بالسطو الشديد والبأس القوى فارتاع الكفر من وصوله وصوله الرائع وذل جمع الكفر لعزه الجامع وجاء بكل شيني شانئ لشانئ الدين واجيء مفاجيء للعدو بالهلاك مفاجئ مفرق لمراكب الشرك المجتمعه مضيق لمناهج مضارها المتسعه فطحن مناكب مراكبها ووسع معاطن معاطبها واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعده ولامد داعانتها من وراءها مستمده وقتل من فيها من الرجال وغنم ما وجد فيها من العدد والاموال

«فصل من مكاتبه أخرى»

وصل الاسطول المنصور فى كل شينى شانئ الشرك شائن زائد لبهجة الاسلام زائن زائر بكل أسد زائر سائر بكل مقدام الى مقام الاقدام سائر وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها وأرهفت غروبها وسنمت غواربها وملأتها برجال أيديها على قوائم القواضب قوابض وأرجلها على الثبات فى روابى متون سفنها روابض وهم على انتظار الاسطول ليطاولوه ويلقوه بالمداهنه يحاولوه فلما وصل وصال وراع أمره وهال وجلا عليهم الاوجال والا جال بتوا المراسى والحبال وانهزموا بسفنهم وآذنت قوتهم بوهنهم واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والاحمال مملوه وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوه والفصول كثيرة واعاذ كرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها وأعرب عن حقها وحقيقتها

«ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد
ونقل الرجال والذخائر والعدد»

ولما اشتد البرد وتوالت الغيوث وتبحرت السهول والوعوث وحالت الاوحال ولاحت على خلاف المراد الاحوال وتعذر الخروج الى تلك المروج وامتنع على

السالك قصد أولئك العلوج وزال حكم النزال واستقال من استقل بالقتال شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدى وأنجع وأنجى وأرجح بالاحتياط والحزم وأرجى وهو تقويه عكاء بالميرة والذخيره والاسلحة الكثيره والرجال الحماه والابطال الكماه فنقل اليها فى المراكب جماعة من الامراء الاملئاء بأجنادهم فدخلوا اليها بعددهم وأزوادهم واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول ورؤسائه وقواده فادخل أحد فيه الا بزيادة فى زاده وكانوا زهاء عشرة آلاف بحرى حربى على الجرى الى الموت جرى فامتلأ البلد بكل منتخب منتخ مرخص مهجته الغالية للاسلام مصرخ وانتفع بهم فى جذب المنجنيقات والرمى فى العرادات والحذف بالنفاطات والاحراق بالزراقات والزرق بالمحرقات والقاء القوارير واذكاء المساعير وتطريح النار وتطويح الاحجار ومواصلة القطاعات والزيارة بالزيارات وتوتير الجروخ والزنبوركات وتطيير الناوكات النواكى من مقاتل العدو الى الوكنات ومناشبة الفرنج فى كل وقت بالاخذ والوقذ والجد فى الجد والجذ وطروقهم ليلا على سبيل التلصص وسوقهم من سوقهم على وجه التصيد والتقنص وكبسوا ليلة سوق الجمارات والعواهر وسبواعدة من المستحسنات الفواجر واستنصروا بذلك واستبشروا واجترؤا منه على ما أجروا وكذلك من عندنا يدخل اليهم الرجال متسرقين ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه ومن تعذر عليه اخراجه عقره وبجه ومنهم من يهجم على الرجل فى خيمته ويرهبه بمديته ويسلبه سكونه بسكينه ويحمله ان لم ينجذب معه من حينه على يقينه فيقوده بخطام القهر ويجذبه بخدام الاسر ووقع القوم من هذا فى بلاء مبل وعناء عن حب الحياة مسل فقد كثر اليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز وشق عليهم الاحتراس والاحتراز وتحيل الناس فى اغتيالهم بكل طريق وازداد فرقهم من كل فريق وأعدت الحال من الليل الى النهار والمكابرة والجهار حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش فى أجراف الانهار فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجؤه بالقتل أو الاسار

((ذكر حال نساء الفرنج))

وصلت فى مركب ثلثمائة امرأة افرنجية مستحسنة متحلية بشبابها وحسنها متزينة قد اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجرائر واغتربن لاسعاف الغرباء وتأهبن لاسعاد الاشقياء وترافدن على الارفاق والارفاد وتلهبن على السفاح والسفاد من كل زانية نازية زاهية هازية عاطية متعاطية خاطية متغنية متغنجة متبرزة متبرجة نارية متلهبة متنقشة متخضبة تائقة شائقة فائقة رائقة فاتقة راقعة خارقة مارقة رامقة فاسرة سارقة فارجة فاجرة فاتنة فاترة مشتهاة متشهية ملهاة متلهية متفننة متفتنة ناشبة منتشية متشوقة متسوقة مقترحة محترقة متحببة متعشقة حمراء مرحاء نجلاء كحلاء عجزاء هيفاء غناء لفاء زرقاء ورقاء متخرقة خرقاء تسحب غفارتها وتسحر بنضارتها نظارتها وتتثنى كأنها اغصن وتتجلى كأنها حصن وتميس كأنها قضيب وتزيف وعلى لبتها صليب وهى بائعة شكرها بشكرها باغية كسرها فى سكرها فوصلن وقد سبلن أنفسهن وقدمن للتبذل أصونهن وأنفسهن وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن وأنهن لا يمتنعن من العزبان ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وتفردن بمناصب نصبنه من الخيم والقباب وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب وفتحن أبواب الملاذ وسبلن ما بين الافخاذ وبحن بالاباحه ورحن الى الراحه وأزحن علة السماحه ونفقن سوق الفسوق ولفقن رتوق الفتوق وتفجرن بينابيع الفجور وتحجرن بنزو الفحول منهن على الجور وعرضن الامتاع بالمتاع ودعون الوقاح الى الوقاع وركبن الصدور على الاعجاز وسمحن بالسلعة لذوى الاعواز ودمن على تقريب خلاخلهن من الاقراط ورمن فرشهن على بساط النشاط وتهدفن للسهام وتحللن للحرام وتعرضن للطعان وتضرعن للاخدان ومددن الرواق وحللن حين عقدن النطاق وصرن مضارب للاوتاد واستدعين النصول منهن الى الاغماد وسوين أراضيهن للغراس واستنهضن الحراب الى التراس واستنفرت المحاريث الى الحرث ومكن

المناقير من البحث وأذن للرؤس فى دخول الدهاليز وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز وقربن الاشطان من الركايا وفوقن النبال فى أعجاس الحنايا وقطعن التكك وطبعن السكك وضممن الاطيار فى أوكار الاوراك وجعلن قرون كباش النطاح فى الشباك ورفعن الحجر عن المصون وترفعن عن ستر المكنون ولففن الساق بالساق وشفين غليل العشاق وكثرن الضباب فى الوجار وأطلعن الاشبار على الاسرار وطرقن الاقلام الى الادويه والسيول الى الاوديه والجداول الى الغدران والمناصل الى الاجفان والسبائك الى البواتق والزنانير الى المناطق والاحطاب الى التنانير وذوى الاجرام الى المطامير والصيارف الى الدنانير والاعناق الى البطون والاقذاء الى العيون وتشاجرن على الاشجار وتساقطن على الثمار وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة لاسيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة وسقين الخمر وطلبن بعين الوزر الاجر وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضيه وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوه والحميه وأبق من المماليك الاغبياء والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى واتبعوا من غوى فمنهم من رضى للذلة بالذله ومنهم من ندم على الزلة فتحيل فى النقله فان يد من لا يرتد لا تمتد وأمر الهارب اليهم لانتهامه يشتد وباب الهوى عليه يستد وما عند الفرنج على العزباء اذ أمكنت منها الاعزب حرج وما أزكاها عند القسوس اذ كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج ووصلت أيضا فى البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر وهى فى بلدها مالكة الامر وفى جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم وأشياعهم وهى كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤنه زائدة بما تنفقه فيهم على المعونه وهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها وتثبت ثباتها لثباتها وفى الفرنج نساء فوارس لهن دروع وقوانس وكن فى زى الرجال ويبرزن فى حومة القتال ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال وكل هذا يعتقدنه عباده ويخلن أنهن يعقدن به سعاده ويجعلنه لهن عاده فسبحان الذى أضلهن وعن نهج الهدى أزلهن وفى يوم الوقعة قلعت منهن نسوه لهن بالفرسان أسوه وفيهن مع

لبنهم قسوه وليست لهن سوى السوابغ كسوه فما عرفن حتى سلبن وعرين ومنهن عدة استبين واشترين وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز وهن يشددن تارة ويرخين ويحرضن وينخين ويقلن ان الصليب لا يرضى الا بالاباء وانه لا بقاء له الا بالفناء وان قبر معبودهم تحت استيلاء الاعداء فانظر الى الاتفاق فى الضلال بين الرجال منهم والنساء فهن للغيرة على الملة ملان الغيره وللنجاة من الحيرة ناجين الخيره ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلدن ولما ضامهن من الامر تباهن وتبلدن

《ذكر ما أهداه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل من النفط الابيض والرماح والتراس》

ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العده وتقوية النجده بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشده سير من أحمال النفط الابيض مع عزة وجوده ما وجده ومن التراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده وشاع الاعتداد وذاع الاحماد ودل ذلك على انتاج الوداد والامتزاج والاتحاد

《وكتبنا فى شكره》

وصل السلاح وتم للاسلام من قروح الكفر الاقتراح واستجيدت التراس والرماح وفارقت للقائها أجسام الاعداء الارواح واتصل بالنفط الواصل الى أهل النار الاحتراق وطعنت وضربت منهم النحور والاعناق وقد هداها أهداء النصر الى الهدى والردى الى العدا وأجود الاكارم وأكرم الاجاود من جاد بما أجدى وأهدى ما هدى وعاد من المكرمة بما بدى لا أخلى الله المجلس من يد يتخذها وأياد يسيرها وينفذها ومحمدة يستخلصها لنفسه ويستنقذها وحمية للدين يقيم بها حماة الشرك ويقذها ونخوة للاسلام تهى حدود الهمم النابيه وتشحذها وما طلب من العدة ما طلب الا للحاجة الحاقه والضرورة الشاقه فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد فالسمر متحطمه والبيض متثلمه ووجوه الصفاح بلثام النجيع متلثمه وعيون النصال عن حواجب القسى الى مقل الاقران رامقه مارقه وحمام الحمام فى

مريشات السهام بكتب الكبت من حنايا المنايا السائقة سابقه وقد أفنى المصال النصال والنضال النبال والرماء الافواق واللقاء العتاق والمصاع المناصل والقراع الذوابل والصيال الصواهل وعمل الجهاد الدائم العوامل فلا ضامر الا وهو وان كان غالبا لاغب ولا صارم الا وهو فى دم العدو الفائض ناضب ولا جارح الا وهو مجروح ولا قارح الا وهو مقروح ولا جامح الا وهو مصحب ولا باشر الا وهو مقطب فبأية عدة من هذه العدد أنجد غار الحمد وأنجد وتأسس الشكر لانعامه وتمهد ومن العجب ان العدة تفنى ولا تفنى العداة وتنمو على الحصاد وكانما النبات ويتسارع الى امدادها الموت والهلاك ويخلفها فى ابدالها الحياة فان البحر يمدهم والكفر الى الردى يردهم وكلما أخلقتهم الايام فان الليالى تجددهم وما جمعهم القدر الا ليفرقهم وما حمل أهل النار فى الماء الا ليغرقهم فى دمائهم وبنار البواتر يحرقهم

《ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده》

وورد الخبر بان عماد الدين قد جهز عسكره وقدم عليه قطب الدين ولده وسيره فقال السلطان هذه أيام الشتاء ولا ينتصف فيها من الاعداء ونحن محتاجون الى العسكر فى الربيع واستنهاض الجموع الى شمل النصر الجميع فكتب بتأخيره والتمهل فى تسييره فتأثر قلب عماد الدين برد ولده ورجوعه بعد المسير من بلده

《فكتب اليه السلطان من مكاتبة》

كان لما انتهى اليه صدق اهتمام المجلس بأمره والتقدم بتجهيز العسكر الى نجدته بكل ما يعود بسره وبره وانشراح صدره وعرف مسير قطب الدين أدام الله له مضاعفة العلاء وأقر بانواره عيون الاولياء وظن انه لم يقدم حركته المقرونة بالحسنات ولم يقرب من عبر الفرات اشفق عليه من التعب ليكون عسكره مستريحا عند الطلب فان الحاجة اليه فى الربيع أدعى ومصلحة الاسلام فى ذلك الاوان أولى أن ترعى ولو عرف ان الركاب القطبى قد دنا لبشرنا السعادة بنجح المنى ولاستقبله بالنفوس والارواح ولقته القلوب بالقبول العبق بنشر

الانشراح وان اشتغل القلب بما فاته من حظ الاستسعاد بوفوده فقد بشر أمله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده

وفى آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل الى الاقطار والامصار للاستنفار والاستنصار وبث الكتب وكتب بالبث وحث الرسل وراسل بالحث وبعث المسرعين لاستبطاء البعث وأنهض للتبليغ كل بليغ وجرع كاس التدبير فى حسن السفارة كل مشيع مسيغ وسرح عدنان النجاب الى سيف الاسلام باليمن وشرح فى الكتاب اليه ماجرى من حوادث الزمن ووصفت له جلية الحال وما نحن عليه من دوام القتال وطلبت منه الاعانة بالمال واستعين واستنجد واستمد واسترفد وحض على حظه من انجاد الاسلام وان يكشف بسنا طلوعه ماغشيه من الاظلام وأرشد الى نهج السماح وتسيير كل مايقدر عليه من العدد والسلاح وتجريد الجرد العتاق وتوفير الحمول التى تخرجها فى سبيل الله يد الانفاق وكوتب قزل أرسلان بهمذان بما دنا منه عزمه ودان وحكم على كل ملك بحجة الايمان وهدى الى محجة الاحسان

ذكر وصول رسول سلطان العجم

ركن الدنيا والدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه

بالالتجاء الى ظل السلطان وارتجاء ماله من فضل الاحسان

وردمن عند طغرل سلطان العجم أمير من خواصه هو أيلدكز أمير العلم فضرب له من الخيم الخاصة سرادق ووفرت فى الضيافة له المنافع والمرافق ومضمون رسالته انه خانته من أمرائه ومماليكه العامة والخاصه وخصته فى سفراته ونكباته الخصاصه وان عمه أخا أبيه من أمه قد استولى على ممالكه وضيق عليه سعة مسالكه وألجأه الى هذا الالتجاء وهو بقوته من هذا الجانب قوى الرجاء وقد وصل الى حد مملكته بقرب اربل وأراد الوصول الى الموصل لكنه نزل فى بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق وعز الدين حسن من خدم دولتكم والمستمسكين بعصمتكم والمستوثقين بذمتكم وأنا عنده مقيم وعلى سنن الامل مستقيم فان استقدمتنى اليك

قدمت وان أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتى وجدت من النصر ماعدمت وأنا الآن هزيل عاملك ونزيل انعامك ووصل معه كتاب بخطه قد بث حزنه فيه بشرحه وبسطه وأبدى الاستكانه واستدعى الاعانه وأردف رسولا برسول وكرر سؤاله فيما التمسه من سول فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل وانه لامطمع مادام العدو ملازما لنا فى مفارقة الساحل فكتب الى زين الدين يوسف صاحب اربل والى حسن بن قفجاق والى نائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته والارتياد لمصلحته واشاعة معونته ثم ندب كبيرا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل أرسلان وهو جمال الدين أبو الفتح اسمعيل بن محمد بن عبد كويه نسيبى ليكون القيام بهذا الامر من نصيبى وسعى فى المصلحة والمصالحه والمصافاة على صفقة المودة والمصافحه وحفظ حرمة تضرعه وتذرعه وسيأتى ذكر ما آل اليه الامر فى موضعه

وتوفى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى بمنزل الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة ولقد كان من الاعيان ومن مقربى السلطان ومن أهل الجد فى نصرة الايمان فنقله الله الى الجنان وحمل من يومه الى القدس فدفن به وكانت فى هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبى سعد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رمضان وهو شيخ المذهب الذى لم يخلفه مثله ودفن معه فضله وكان مولده فى أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وكانت وفاة الامير عز الدين موسك بن جكو بكرة يوم الجمعة النصف من شعبان منها وكان من الابرار الاخيار والعظماء الكبار

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبه وكل من الملك العادل والملك الافضل والملك المظفر فى خيمته المضروبه وعكا محصوره وجموع الفرنج الى حصارها محشوره وعلى تعذرها عليهم محسوره وخرجت هذه السنة والحصر مستمر والسلطان فى ملازمة القتال مستقر وحيا النصر فى الاحيان مستدر وقد سنت للاسلام مباهج ووضحت للسعادة مناهج وبانت للقتال مداخل ومخارج وانقطعت بين الوشيج وأرحام الارواح وشائج واشتدت لتباريح

الاشواق الى لقاء الاعداء لواعج وتألفت فى الاقدام مقدمات ونتائج وللمناجح المنى منافى مدى الرجاء مدارج ولخطباء الطباق منابر الطلى معارج وللجهاد جهات وللعزمات أزمات واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات وكانت لنا مسرات هى لاعدائنا مساآت ووقعت عجائب وأعجبت وقائع وأبدعت غرائب وأغربت بدائع واجتمعت كتائب ونابت نوائب وصفت تارة وكدرت مشارب وساعدت الاقدار وتباعدت الاكدار وهلك من الفرنج المحاصرين فى الوقائع عدد لا يقع عليه الحصر ولكم أسفر صبح أصحب فيه جناح الظفر وسفر النصر وسيرد حديث كل حادث بمفرده ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده

﴿ذكر وقعة الرمل﴾

كان السلطان يركب احيانا للصيد بعد ان يحذر على ما ظهر للعدو من الكيد وهو لا يبعد من الخيم ولا يقرب من مسائل الديم وركب يوما فى صفر على عادته فتصيد وطاب له قرب القنص فأبعد والبزكبه على الرمل وساحل البحر من الميسره على الحالة المحتاطة المستظهره فخرج الفرنج وقت العصر فى عدد لا يدخل فى الحصر وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم وحملوا عليهم وطردوهم الى خيامهم وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم ومازالت بينهم حملة وحمله وشلة وشله وسلة وسله وركضة وركضه ونفضة ونفضه ومشقة ومشقه ورشقة ورشقه وجذبة وجذبه وضربة وضربه وشدة وشده وردة ورده وضمة وضمه ولمة ولمه وأصحابنا ظاهرون وبالمراد ظافرون ولهم فى كل دفعة من العدو قلائع وللفرنج فى كل كرة على الرمل مصارع حتى فنى النشاب وبقى الانتشاب وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب والفرنج لا يعجزهم الا الرماء ولا يهتكهم الا الاصماء ولا ينفرهم الا رنة الاوتار ولا ينذرهم الا أنة القسى بالدمار والبوار فلما أنسوا بخلو الجعاب تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا الى النهر وكادت تعبث بهم يد القهر فثبت من العادلية فى وجوه القوم صف من صوص البنيان وأشرعوا الى نحور تلك الذئاب ثعالب الخرصان واستشهد جماعة من الشجعان استحلوا طعام الطعان وشاقهم جنى الجنان وذلك

أنهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا وصرعوا أقرانا فنزلوا بعد فرسهم لسلب لبسهم فمرت بهم الحملة فى الاوبه وأعجلتهم عن الركبة والوثبه وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان واجتمع فى مراكزها الفريقان وكثر التأسف على من فقد وكان الحاجب أيدغمش المجدى ممن استشهد وزاد التلهف على فوات الفرصه وكيف أغفل ذلك القنص عن تلك القنصه فات العدو وصار عرضة للصرعه فى تلك العرضه ومن نوادر هذه الوقعه وطرائف هذه الدفعه ان مملوكا للسلطان يقال له سراسنقر وهو يتطاول فى كل معترك ولا يقصر عثر به جواده وثبت على الجرأة فؤاده ورجله عثاره وأسلمه أنصاره فقبض من أسره شعره ليجذبه وسل آخر سيفه ليضربه فضرب يد قابض شعره فبتبه واشتد سراسنقر يعدو ناجيا وللخلاص راجيا وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه وفاتهم بعون الله فلم يدركوه وهذا قد فته المنون من لهاتها بعد ازدراده وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد اغماده

﴿ذكر فتح شقيف أرنون﴾

وفى يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم بالامان شقيف أرنون واستمر الحصار عليه منذ نزولنا فى السنة الماضيه بمرج عيون وصاحبه ارناط صاحب صيداء فى دمشق لاجله معتقل وباب خلاصه دون فتح شقيفه مقفل وذلك ان الشق فى الشقيف فنى زاده وعز اجتهاده ومرد عليه فى الحفظ مراده وخانه فى الصبر ارتياؤه وارتياده ونخب من الرعب فؤاده وأصلد بالياس زناده وامتنع عليه اصداره وايراده فسلمه على أن يسلم صاحبه وتخلص فى النجاة مذاهبه وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه وتركه للاسلام بما يحويه وأفرج عن صاحب صيداء وصار الى صور ولبس من التشريف والتسريح حبيرا لحبور

﴿ذكر حال عكاء ودخول العوامين اليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها﴾

كان السلطان اغتنم هيجان البحر وحضور مراكب الاسطول من مصر فا

زال يقوى عكاء بتسيير الغلات والاقوات والقوات اليها فى المراكب وقد ملأها بالذخائر والاسلحة والكماة المساعير والحماة المحارب فلما سكن البحر وأمن غائلته الكفر عادت مراكب الفرنج الى مراسيها ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مراكبنا فى موانيها وانقطع عنا خبر البلد وامتنع عليه دخول المدد والعدد فانتدب العوام للسباحه وجادتهم السماحة لهم بالرغائب على وضع المهج فى ميزان السماحه وعلموا أنهم اذا سبحوا ربحوا واذا سلموا افراحوا فرحوا حتى صاروا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور ونكتب اليهم ويكتبون الينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفى المستور وكان فى العسكر من اتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل فى منزلته وعمل لها برجا من خشب وهرادى من قصب ويدرجها على الطيران من البعد ويورده الشبعها وريها أحب الحب وأعذب الورد وكنا نقول ما هذا الولع بما لا ينفع والوله بما لا ينجع حتى جاءت نوبة عكاء فنفعت وشفت الغلل ونقعت وأتت بالكتب شارحة سارحه ووفت بفاتح الغيب بالبشرى مفاتحه فصرنا نحبو صاحب الطيور بالاطراء ونخصه بالمدح والثناء ونأمره بالاستكثار ونطلبها منه مع الليل والنهار حتى قل وجودها عنده لكثرة الارسال وكنا نعرف بها جليلة الاحوال ونعلم أن الله علمه ذلك البر وألهمه ذلك السر فانه اطلع على ما يدفع اليه أهل الاسلام فحمى حمى هداهم بهداية الحمام فانها أمينة على الاسرار ضمينة بالاخبار ضنينة بالاسفار قمينة بكرامة الاحرار مصونة من بين الاطيار جريئة على الاخطار بريئة من الاعذار معدودة من الاذخار مودودة مع الاخيار وجاء البلد الينا مع العوام محموله وعقود الاكياس عليهم محلوله فلا ينكر على الحجاج ان عام بالانعام ومعوله التحرز من الضلال والتخفى بستر الظلام والضرورة تحمل على تحمل الضرر والغرارة تبعث على الانبعاث الى الغرر والفقر يدعو الى ركوب الخطر وفيهم من سلم مرارا من القوم فاجترأت نفسه وأنس بالعوم ولقد عطب عوامون

بالامانة قوامون فما ارتدع الباقون وما قالوا أنهم لما لقى رفقاؤهم لاقون

((ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار البرد فى الانتهاء))

ولما انحسر الشتاء وانكسر وانشى الربيع وانتشر أمر السلطان عساكره بالعود فتوافت أمداد أجوادهم توافى أمداد الجود فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبه وهو بأكمل العده وأحسن الاهبه وسابق الدين عثمان صاحب شيزر وهو الذى بسالته يقصر الليث القسور وعز الدين ابراهيم بن المقدم المقدام الهمام ابن الهمام والكريم ابن الكرام والاسد الضرغام والسيد القمقام ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان وحشود من العرب والتركمان ففاض بهم الفضاء واكتسى برياشهم العراء وكثرت الجنود وانتشرت البنود وحلقت عقبان الالويه وتلاحقت ذؤبان الاوديه ولمعت بوارق البيارق وارتفعت عوائق البوائق وحلت بواسق السوابق وثبتت وثائق العلائق ونبتت شقائق العقائق ونظرت أحداق الحدائق وتبسمت طرائق الطوارق وأعجبت أزهار الرايات وانمت غايات الغيايات وزانت بحسن الصنيع نصوص النصول ودارت بيد الربيع فصوص الفصول وعلت الاعلام وحلت الاحلام ووضحت المواضى ومضت واقتضت القواضب القواضى وقضت وعريت البيض من الحلى وغريت السمر بالكلى واشتاقت لدات اللدان الى العناق وتاقت شفاه الشفار الى لثم الاعناق وتحدث الاحداث فى الجراءة باجراء العتاق وطالت رقاب لرقاق الى غلاظ الرقاب وأعجم عن جمجمة الجماجم اعراب العراب وحمى عزم البطل ومحى رسم الملل وعاد الجد الى جدته والحد الى حدته وخرج البرد من عدته وفاز النصر بعدته وجليت بنت الغمد فى زى الهندوى الفرند وقطف ورد الورد للشد الى الورد وقال الناس الام ننتظر وعلام نصبر ولم لا نشتغل وكيف لا نشتعل وحتام القعود وحم الركود ولماذا الوقوف وقد نظرت السعود

ونصر العود وصدقت من أصحابنا الوعود فرحل السلطان وتقدم وعزم على
طلب العدو وصمم ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول
في الفصل الاعدل والفضل الاكمل وتدانى العسكران وتعالى العثيران
وتقارب القرنان وتحارب المازبان وترتب العسكر الاسلامي في نزوله ميمنة
وميسرة وقلبا وفي ركوبه على ترتيب منازلهم طلبا طلبا فكان الملك المظفر تقي
الدين في آخر الميمنة الميمونه والملك العادل في آخر الميسرة الميسرة المنصورة
المصونه والملك الافضل في أول ميمنة القلب وأخوه الملك الظافر في أول ميسرته
على الجنب والكتائب مكتبه والمقانب مقنبه والسماء بالنقع الثائر منقبه
والارض بوقع الحافر مثقبه والعساكر مترادفة مترافده متوافرة متوافده
متتابعة متوارده متسابقة متلاحقه متناسبة متناسقه متوالية متوافيه
متجاريه متباريه منقضة كالبزاه منقضة الى العداه داعية الى الانتصار
عادية على الكفار

﴿ذكر وصول رسول دار الخلافة مع ضياء الدين
الشهرزوري في جواب رسالته﴾

وصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الاول رسول دار الخلافه بالنجدة
والعارفه والرحمة والرآفه وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن بمدينة
السلام فتلقاه السلطان بالاحترام والاكرام واحتفل لوصوله واستقبله
لقبوله وتلقاه الامراء على الترتيب فمنهم من تقدم نحوه الى البعيد ومنهم من
وقف له بالقريب ثم اخوة السلطان وأولاده وأحدا بعد واحد وماجدا بعد
ماجد وبادئا بعد عائد ثم ركب السلطان اليه عند القرب من سرادقه وأدناه
اليه بتعانقه ثم سار معه قليلا وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلا حتى نزلوا به
في باركاه له مضروب وخصه بصنوف من الالطاف وضروب ووصل معه
حملان من النفط الطيار وحملان من القنا الخطي الخطار وتوقيع بعشرين
ألف دينار تقترض على الديوان العزيز من التجار وخمسة من الزراقين النفاطين
المتقنين صناعة الاحراق بالنار فاعتذر السلطان بكل ما أحضره وأخلص الدعاء

للديوان العزيز وشكره غير أنه أبدى رد التوقيع مع ود الصنيع وقال كل
ما معي من نعمة أمير المؤمنين وعارفته ولقد غشيني ما شملني من عاطفته ولعل
الله يوفقني للقيام بالفرض ويغنيني عن الالتزام بالقرض وأركب الرسول مرارا
معه وأراه مبارك النزال ومعارك القتال ومصارع الرجال ومجامع الابطال
ومطالع اللقاء ومواضع الهيجاء ومصالت الاقدام ومنابت الاقدام ومواقف
الصفوف ومصاف الوقوف وأماكن البعوث ومكامن الليوث وتل الفضول
وبقية التلول حتى يشهد بما يشاهد ويبين له المجتهد والمجاهد وأراه ما يريه
ليأثر أثره ويخبر بجملته ويحمل خبره وأقام الرسول طويلا وأقام له السلطان
من طوله دليلا ووفر له عطاء جزيلا وعرفا جميلا حتى استأذن في العود فعاد
واستصحب الشكر والاحماد

﴿ذكر مقاتلة الفرنج عكاء بالابراج والاعجاز بها والازعاج﴾

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار شرعوا في عمل الابراج الكبار وركبوها من
الاخشاب الطوال والعمد الثقال وبنوها وقدموها ونصبوها وأحكموها
وسقفوها طباقا وسمروها بالحديد وجعلوا لها منه أطواقا ووثقوها شدا
وشدوها وثاقا ولبسوها بالسلوخ وملؤها بالجروح وزحفوا بها الى السور
وكشفوا بالرمي منها بعض سقوف الدور وتساعدوا على طم الخنادق وتفتيح
الطرائق ووصل من المدينة عوام يخبر بان التلف بها حوام وان البلد قد
أشرف والخطر قد أسرف والابراج علت والاسوار خلت والبلاء دعم
والخندق قد طم وأنتم ان تم هذا عراكم العار وأظلم على الدنيا والدين بليله النهار
فاحتمى السلطان واحتد وشد واشتد وكرب وركب وكان يحسب هذا
نجاء كما حسب وزحف الى الفرنج ليشغلهم عن الزحف ويصرفهم عن الفتح
بالحتف وذلك في العشرين من ربيع الاول يوم الجمعه بالجحافل المجتمعه
والغماغم المرتفعه والصوارم الملتمعه والصلادم الممتنعه والاسنة المشرعه
والاعنة المسرعه والحوائم المنتجعة من النجيع والبيارق المختفقة كأزهار
الربيع واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين صاحب دارا محمود بن بهرام

الارتق بالجمع لو فراتو في العسكر انخى النتى وسار الى القتال على حاله بخيله
ورجاله وضايقهم السلطان مضايقة عظيمه ولم تزل جادة الجد في مقاومتهم
مستقيمه حتى دخل الليل واغبت الخيل فقوى تلك الليلة اليزك وألزمهم في
الحفظ الدرك ورجع الى مخيمه ساهدا ساهرا مجاهدا بالبكور نحوهم مجاهرا
فلما أصبح يوم السبت صبحهم بالحرب وسجهم على بحر البكر والكرب ورجل
الرجال اليهم وأنزل النوازل عليهم وامتزج بياض النهار بسواد النقع واتسع
خرق الواقعة على الرقع وانقضى اليوم وقد انقرض القوم وتفرق الجمعان وقت
العشاء عن قتيل غريق في الدماء أو جريح على بقية الذماء وبات الناس في
الصلاح شاكين وبنار المذاكي ذاكين ولما تم منهم وعليهم حاكين ورجع
السلطان الى خيمة ضربت له على تل العياضيه وقد ألزمته البسالة الطبيعيه
بالرتوع في رياض الاخلاق الرياضيه وأصبح يوم الاحد راجعا الى قتال أهل الاحد
واستن من الجد على أنهج الجدد وأمر بانتقال السوق الى قربه ليقرب من العسكر
وأيده الله بالنصر الاظهر والظهور الانضر وأقام كذلك وهو في كل يوم يغدو
ويتنازل ويعدو ويقاتل ثم نقل يوم الاربعاء الخامس والعشرين الانتقال الى
الخيم لئلا يغيب حاضر ولا يصاب عن الورد صادر وليكون غلمان العسكر للحرب
مباشرين ولمعشر الكفر بادارة كؤس الردى عليهم معاشرين فانتدب منهم
الى الحرب كل مجتري للوقائع مجترح وكل محترق على نار الهيجاء للهياج مقترح وكل
وقح بالطراب وقاع وكل ضرار بارداء الكفرة نفاع وكل غلام له من هيجان
الحميه اغتلام وكل أسد غدا الى الشدة في حومة المأزق زئير وبغام وكل متلاف
للغيرة غير متلاف وكل جاف عن سوى السوء متجاف وأخذوا من بيت السلاح
السيوف والترس وطلبوا بقصد العدو الاقتناص والافتراس وأبلوا بلاء
حسنا وأوضحوا بالكناية في العدو سننا ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس
والعشرين عوام من البلد يخبر بقوة المشركين المحاصرين وان البلد قد
ضويق وأن العدو المخذول يحيق به كيده ان حوقق فتقدم السلطان ليشغل
العدو عن قتال البلد بقتاله ويكفه بنزاله عن نزاله وجدد الكتب الى الامصار

بالاستنفار والاستنصار فأول من وصل ولده الملك الظاهر صاحب حلب وقد جمع
وجلب وتقدم عسكره يوم الجمعة وانفرد بوصوله وحظى من نظر والده بسوله
وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين ثم عاد الى معسكره وجاء يوم السبت في حسن
منظره واحسان أثره في منظر ناضر ورونق حاضر وجمع كثيف وحشد
لفيف وبهجة رائعة وروعة مبهجه وهيئة معجزة وهيبة للعدو مزعجه
وصولة دائله ودولة صائله وميامن رائقه ومحاسن شائقه وبحر من الحديد
مائج ومجر من العديد هائج ورفاق وذوابل وعتاق وصواهل وعوابس
وعواسل وشعوب وقبائل وقدم في هذا اليوم مظفر الدين بن على كوجك وهو
صاحب حران جريده وقد استأنف للجهاد عزمة جديده ثم عاد الى عسكره ليقدم
به ويحضر بجنده وتركمانه وعربه

(ذكر وقوع النار في ابراج الفرنج الثلاثة واحتراقها
وتلف كل ما كان ومن كان في طباقها)

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثامن والعشرون تتابعت
بظهور دلائل النصر وتناصر أسباب الظهور المبشرون فنظرنا والنار من أحد
الابراج في السماء بشعلها متساميه وفي الجو بشرارها متراميه وما ندري ما سبب
هذا الحريق وكيف تيسر هذا التوفيق وأحدقت النار بالبرج فاذا هو كشجرة
من نار وقلوب المشركين لاستعارها في استعار ووجوه المؤمنين لانوارها في
استبشار ثم رأينا البرج الثاني وهو يحترق والنار في أثنائه تخترق ثم نظرنا الى
البرج الثالث فاذا هو يشتعل وبألسنة النيران يبتهل فما برحنا حتى سقطت
ثلاثتها وبلغت الينا من صدماتها وحدماتها استغاثتها وركب السلطان ونحن معه
وترانا نكتب بشائر النار ونسير بطاقاتها على على أجنحة الاطيار والعجب ان
الابراج كانت متباعدة غير متدانيه وقد أبعدها الفرنج لمسافات متنائيه فكل
واحد منها على جانب من البلد قد كشفه وخسف اسواره وكسفه فاحترقت على
تباينها في وقت واحد وقدر من الله وارد فلم يكن ذلك الا امرا الهيا والطفا باديا
وفرجا بعد الشده وثلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقده وكان سبب حرقها انه

رجلا يعرف بعلى بن عريف النحاسين بدمشق كان استأذن السلطان فى دخول عكاء للجهاد وأقام فيها باذلا للاجتهاد وغرى بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره وتقدير معاييره والناس يضحكون منه ويغضون عنه ويقولون هذا يضيع ماله فيما لا يعنيه وما هذا الهوس الذى وقع فيه وهو يعد لذلك العمل الآلات ويجد فى تلك الادوات ويكثر القدور ويرتب الامور فلما قدمت الى البلد تلك الابراج وحصل من الامتزاج لامتزاج قوتلت بكل فن وأدنى اليها من النفط كل قدر ودن ورميت بكل قارورة محرقة وكل نفاطة مرهقة وبالغ فى صنعته الزراق فلم يتم فى شئ منها الاحتراق ووقع الياس واستسلم الناس فمضى ابن العريف بل ابن العريف الى بهاء الدين قراقوش الامير وقال قد رأينا ما اعترض من التدبير وما عرض من التقدير فافسح لى فى رمى هذه القدور فلعل الله يأتى منها بشفاء الصدور فاذن له على كره وقال ما أرى لاحراق هذه البروج على يده من وجه فان الصناع قد أبلسوا والزراقين العارفين بالصناعة يئسوا فلما وجد الاذن وزن القدور وعيرها ورمى بواحدة منها الى أحد الابراج فى المنجنيق وعبرها واعتبرها ثم لما استوت رمايته وصحت فى الاصابة درايته رمى بقدور نفط لا نار فيها وهو يصبها على أعلى البرج ويسقيها والفرنج يعجبون من البال ولا يدرون بما وراءه من الشعل ثم قذف بقدر نارية متشعبة بكل بلية فوقعت فى الطبقة الوسطى ورمى أخرى فوقعت فى السفلى فاشتعل البرج من طرفيه الادنى والاعلى وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين (فاحترقوا أجمعين) ودخل اليه أيضا جماعة لاستنقاذ ما فيه فاحترقوا بذروتهم وسيوفهم وتقلبت الجحيم عليهم غيظا لاستبطاء حتوفهم وتحول ابن العريف الى مقابلة البرج الثانى ولم يلحقه فى احراقه التوانى وانتقل الى الثالث فاحرقه وماكان ذلك بصنعة منه بل لان الله وفقه ومازالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقادا حتى عاد جمرها رمادا وبياض نارها واحمرارها فى السماء على الارض سوادا واحترقت المجانيق والستائر التى كانت بقربها وبهت الذى كفر وأسف على نصبه فى نصبها وخمد الكفار بذلك

الضرام وسلوا عما كانوا فيه من غرام الرام وحبطت أعمالهم وخابت آمالهم وركدوا بعد جريهم وركنوا الى خزيهم وضلوا فى سعيهم وتورطوا فى بغيهم وسقط فى أيديهم سقوط أيدهم وحيق مكرهم بهم وكيدوا بكيدهم وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق وسدوا الثغر وأظهروا بظهور القدر وجاؤا الى مواضع الابراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها ونبشوا الرماد عن الزرديات التى انسبكت وكشفوا عن الستائر التى تهتكت فأخذوا ماوجدوا وحصلوا على ما نشدوا واترب من ترب من تراث ذلك الاتراب وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب وبردت من حر تلك النار وشفى أوامها بذلك الاوار والحمد لله الذى جعل تلك النار لاوليائه بالبرد والسلام ابراهيميه وعلى أعدائه بالحر والضرام جحيميه

((ذكر فصول انشأتها من كتب البشائر بالنار))

صدرت مبشرة بما أجده الله من الجد وأنجزه من الوعد وأجزله من الرفد وأعذبه حال الظما البرح من الورد وذلك ما ظهر يوم السبت ثامن عشرى شهر ربيع الاول من الاتفاق الحسن والنصر الذى يقصر عن وصفه ذو اللسن وهو ان أصحابنا بعكاء رموا بقدور النفط عدد العدو المدحور وأحرقوا جميع مالهم من المذخور واحترقت ثلاثة ابراج كانوا قدموها ودبابات قربوها ومنجنيقات نصبوها ولهم منذ تسعة أشهر يجمعون هذه الآلات ويستسهلون عليها الغرامات حتى أقاموا ابراجا أعلى من أبراج السور بضعف سمكها وقربوها نكية فى الثغر المحروس بفكها وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها وأطالوا على مناكب البلد أعناقها فاشفق الاسلام من نكاياتها وأظلمت الآفاق من غياياتها وكشفت من البلد جانبا وجبت من سوره غاربا فاقدر الله على احراق ما عمل فى تلك المدة المديدة فى ساعه وأمنى العدو بقلوب وأفئدة مرتابة مرتاعه وما أفصح ألسن النيران على تلك الاعواد خاطبه وما أبسط أيديها على من كان فيها من الرجال للارواح ناهبة سالبه



((فصل))

هذه المكاتبة مبشرة بالظفر الذى ورث زناده والنصر الذى قرب بعاده وذلك ان أصحابنا بثغر عكاء استظهروا وظهروا وصبروا فانتصروا ورموا من البلد أبراج الفرنج المنصوبة عليه بقدور النفط وأنزلوها من سماء لرفعة الى أرض الحط وأطالوا بها ألسن النار المضرمه ودبت من الابراج المقربة الى الدبابات المقدمه وعلم العدو ان كرته خاسره وان يده عن نيل المنى قاصره

(فصل)

هذه مبشرة بالظفر الهنى والفتح السنى والنور اللامع من النار والنصر الوارى الزناد الطائر الشرار وهو ظهور أصحابنا بعكا يوم السبت ثامن عشرى ربيع الاوّل وقد خصهم الله بالفتح الافضل الاكمل وقد كان العدو قدم أبراجه وسلك فى المضايقة منهاجه ولزم فى الزحف الدائم لجاجه فاستظهر الاصحاب عليهم وقت الظهر ورموهم بقدور النفط المحرقة من الثغر فطالت ألسنة النيران تدعو على أهلها بالبوار وتبدى فى تضرمها تضرعها الينا للاعتذار وشاهد أهل النار ما أعد لهم فى سقر وتلونا قول الله سبحانه فيهم كذلك نجزى من كفر

(فصل الى الديوان العزيز)

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر أثر الجمعة على أهل الاحد ورمى الاصحاب المحصورون المنصورون عدد العدو وأبراجه بقدور النفط من البلد فحلت ألسنة النيران على تلك الاعواد بل على تلك الاطواد وألحفتها رداء الردى وألحقتها بالوهاد وفرشت رمادها المأتم أولئك المراد فكانت تلك النار على الكفر ضراما وعلى الاسلام بردا وسلاما واحترقت الابراج الثلاثة على معتقدى التثليث ودبت النار الى الدبابات والمنجنيقات بصدمة التأثير وحدمة التأريث وما أطول ألسن النار وأفصحها بالدعاء على أهلها بالتبار وقد أبدت الى الاسلام بتضرمها وتضرعها وجه الاستبشار وما أحسنها وهى ترمى بشرر كالقصر ويكسو سنى لهبها وجوه المؤمنين بشر النصر وما أقطعها لدابر المشركين وقد خصت باحراق تلك الآلات عن البلد أجنحة الحصر وبهم بعد عبوس لبوس باسم الله ثغر الثغر وقد بغتت هذه الفجيعة فجأة من حرقة تلك البروج

ودخل الى طبقاتها قوم لاطفاء النار فتعذر عليهم الخروج وهلك فيها أكثر من ثلثمائة دارع وخرج من أهل البلد لما حق الفرج كل مسابق الى الغنيمة مسارع وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف كل ما وجدوه خلل رماد تلك الحتوف وكان القوم قد اعتصموا بالابراج ووثقوا بوثاقتها واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقتها ووصلوا بها جنتهم وذخروا فيها أسلحتهم فأخفقت ظنونهم وسخنت عيونهم وخسر هنالك المبطلون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون

(فصل من كتاب الى اليمن فى وصف الابراج واحراقها)

استنفد الفرنج أموالهم فى عدد أعدوها وآلات أجدوها وأحكموا ابراجا شامخات ومجانيق شادخات وزاد غرامهم بالغرامات واستقلوا على عمل الابراج كثرة الخسارات ومكثوا مدة على لجاجهم يطرقون بين يدى أبراجهم ويمهدون الارض لتسوية منهاجهم فلما قدموها بعد لأى وأحكموا باحكامها كل تدبير ورأى وأشرفوا منها على سور البلد بأسوار ذات أسواء وجاؤا بآلات علاة وأداوات أدواء وأشفى البلد من بلائها واشفق ووجل كل قلب وفرق واحتجنا المزاولة هذا الخطب الجليل ومداواة الامر العليل الى أن نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر وتضرعنا الى الله فى انزال ملائكة النصر فكان من لطف الله ما لم يكن فى الحساب وأتى الله المجرمين بالعذاب وألهم أصحابنا ما داووا به المرض وأدركوا به الغرض وأظهرهم ظهر يوم السبت الذى خصهم فيه بالظهور وأقدرهم على رمى تلك الابراج بالنفط فى القدور وظهر من سر صنع الله ما كان فى المقدور فتسلطت النار على عمل أهل النار وتصاعدت زفرات غيظها بأنفاس الشرار ولمع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان وكان كما قال الله تبارك وتعالى يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران وعادت تلك الاكم وهادا وذلك الجمر رمادا وتحللت تلك الجبال وتحلل تركيبها والصق بالتراب ترتيبها وتنكس منها صليبها وكانت ثلاثة أبراج شاهقه فلعبت فى ملاعبها النيران فاذا هى زاهقه وتنقلت نجوم الشعل

فى تلك البروج وعجز شياطينها برجمات جمرات شهبها عن الخروج وتسلط الحضيض على يفاعها وباد الدارعون فيها بأدراعها وأضحك الله ثغر الثغر بما أطابه من أرج الفرج وأخمد باشتعال ذلك الوهج ما أكرب قلوب المؤمنين من الوهج وصان مهج أهل التوحيد بما أرداه لاهل التثليث من المهج

《 فصل 》

تقدم المشركون بالابراج الى البلد فقربوا الاسوار من أسراره وألصقوا منها جدرانا بجداره وأشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره فأظهر الله ما كان خفيا من سر اقداره وأحرق عمل أهل النار بناره وكان أصحابنا لما عاينوا ما دهمهم وهمهم وخصهم من الخطب وعمهم نصبوا المجانيق بازاء الابراج وصدعوها بها صدع الزجاج ورموها منها بقدور النفط فاشتعلت رؤسها وشابت وشبت ومشت النار فى أطرافها وأعطافها ودبت وأرسل الله فى تلك الساعة بعذابها ويحابها هبت فأمست أجنحتها قد حصت وأسنمتها قد جبت وسقط فى أيديها ووجبت جنوبها وكبت على وجوهها فى النار وكبت فما أفصح ألسنة النيران وقد نادت بنصرنا ولبت وألفت منها قلوبنا عما ألفت من نقع غليانها واحبت والحمد لله على الطافه التى ما غابت ولا أغبت وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الاحوال التى جرت بحقها وحقيقتها وحليتها وجليتها فانه يشتمل كل فصل على تمام ما أغفل فى غيره ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره

《ذكر تاريخ وصول الاكابر فى هذه السنة》

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرى ربيع الآخر قدم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بمن استنهضه من العساكر وكان أول من استقبله حين ظهرت راياته من العسكر كتابه وقضاته ثم لقيه الملك المظفر تقى الدين بتل كيسان ولقيه بعده الملك الظافر خضر والمعز اسحق ولدا السلطان فنزل لهما ونزلا له وتعمدا اعظامه واجلاله ثم تلقاه الملك الافضل أدنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما اعفاء له من النزول وتلاقيا بالاقبال والقبول ثم وصل اليه السلطان بالوجه الضاحك واللطف المتدارك واعتنقا على ظهر واتفقا على بشر ونشر وكان الملك العادل

قد أخر فلحق وأظهر من أرج سجاياه ما بنشره عبق وبحبه علق وسار مع السلطان باطلابه وأبطاله وحماته ورجاله حتى وقف قبالة العدو بصفوفه ووقف عليهم طول الرعب بطول وقوفه ثم رده السلطان الى خيمته على رسم الضيافه وترفرفت ألطافه عليه بالاطافه ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا أطلس وأكرمه السلطان باجلاسه الى جنبه على الطراحه وآنسه ببشر السماحة والسجاحه ووقف الامراء والخواص والاولياء صفين وأنشد الشعراء من المدح والنسيب صنفين ثم أحضرت المائدة فادخروها الحضور وعقد الحبا لهم الحبور ثم رفع الخوان وارتفع الاخوان وحسن الخبر والعيان وخلا المكان وحلا الامكان فامر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العراب وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض ولوجه العذر عارض ونزل فى خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادليه وملأت تلك المروج بعساكره المليه ثم وصل من بعده ابن أخيه معز الدين سنجرشاه بن غازى بن مودود صاحب الجزيره بعساكره الكثيفة الكثيره وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الاولى بالايد الاطول واليد الطولى فالتقاه السلطان وأخوه وأولاده على قاعدة عمه وأجراه فى الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حكمه لكنه يقصر فى القاعدة عن رسمه ونزل بخيمته فى فناء السرادق العمادى وقد استكثر من العسكر الجهادى فكان ذلك المرج بحرا أمواجه الخيم والمضارب أوسماء كواكبها أسرعته من صعادها الكتائب أوغيل آساده فى آجام القنا الفوارس أوغدير من السوابغ حبابه السرائك والقوانس أوسحاب بروقه الصوارم لرقاق أووهاد آكامها الصواهل العتاق ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرمشاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود وهو كوالده مسعود مودود وفى شهامته وصرامته شكور محمود وذلك تاسع جمادى الاولى يوم الجمعه بالمحاسن المتنوعه والمفاخر الاصلية المتفرعه والصنائع المبدعه والبدائع المصنعه وجيشه للقوة ضابط وجاشه على الجمه رابط

وبأسه لبد الايد باسط وجنانه على الكفر ساخط وهو شاب أول ما بقل خطه وابتهج بكماله رهطه وكان أبوه قد عزم على الوصول بنفسه واذهاب وحشة الخطب الملم بانسه ثم رأى المصلحة فى الاقامه وتقديم ولده المشكور المشهور الشهامه فانهض العسكر المجرمعه ثم أتبعه بمن حشده وجمعه فورد ورود السحاب المكنهور ونوء المطالع بسنا السنور وأطلع بطلوعه على معنى البأس المصور واحتفل السلطان بقدومه احتفاله بقدوم عمه وحافظ من الكرامة على توفير سهمه وأنزله فى سرادقه وأضافه وأهدى له خيله وألطافه وأمر بانزاله فى الميمنة بين ولديه الملكين الافضل والظاهر وضاق ذلك البر الواسع بحر العساكر ولم يبق فى أهل السلطان الا من اقتدى به فى الاحتفال بقدوم هؤلاء واعتماد ما قام به البرهان على المخالصة فى الولاء والمسارعة الى الضيافة والاهداء والاعادة الى المكارمة بعد الابداء

((فصل من كتاب الى صاحب الموصل فى شكره على تسييرولده))

الحمد لله الذى نصر الدين بأهله وعجل بانصاره جمع شمله ووفق أسد عز الدين الملك أن يحمى حوزة الاسلام بشبله وللمجلس فى طوله اليد الطولى والمنة الثانية التى أربت على الاولى حيث حث همته العليه وحض لحفظ دينه عزمته الماضية المضيه وشرف بولده علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منه وتجمل من وفوده أقوى منة وأوقى جنه فلقد ورد الى الساحل بحرا وطلع فى ليل القساطل بدرا وأسفر لمرتقبى صباح النصر فجرا وجلا وجوه المؤمنين ببشراه بشرا وملأ صدر الاسلام أمنا وقلب الكفر ذعرا ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب اربل يوم الاربعاء فى العشر الاخر من جمادى الاول ذو السماح المؤمل والمجد المؤثل بجيش كالسحاب المسبل فدرت أخلاف النصر بحفول ذلك الجحفل وورد بكل وردهى وجدسنى وقدم بكل مقدام وزأر خيس الجيش بكل ضرغام وزار بكل همام بالمنون همام ووصل بكل واصل لسبب النصر قاطع دابر الكفر ووفد بكل وافد باليمن الوافى والنجح الكافى والعز الصافى والعزم الشافى وطلع بكل طالع بالسنى جامع للمنى فارع بالغنى

فارك للغنى سافك دم الشر بالظبا والقنا وكان هذا أول يوم لقائه للسلطان وأحسن اليه بالاكرام وزاد فى الاحسان وكان يجمع بين الحماسة والسماحه والبشاشة والرجاحه والتودد الى الناس والتشدد بالباس والتواضع مع الكرم ودنو الود مع علو الهمم ماله مبذول ونواله مأمول وسيفه على الكفر مسلول وأمره بالطاعة فى رعيته ومن فى جملته مقبول وهو مرجو مخشى وكريم مغشى ومهيب مرجو ومحسن بسنى الحمد مجلو وكان معه خلق كثير فى سلك الاتساق ومسلك الاتساع نظيم نثير وأنزل بقرب أخيه مظفر الدين فى الميسره وتمكن الرعب بما تم من الجمع فى قلوب الكفره

((ذكر وصول الاسطول من مصر))

كان السلطان قد أمر بتعمير أسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيره والميره والعدد الكثيره فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول وتم بظهوره النصر المأمول فركب السلطان فى جحافله وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله وأحدق به حول خنادقه ليوسع عليه الهلاك فى مضايقه وليشغل الفرنج عن قتال الاسطول ويسهل عليه بنشاغلهم طريق الوصول فعمر الفرنج أسطولا وصف شوانيه على البحر عرضا وطولا وقدر أنه يلاقى الاسطول المنصور ويحاربه ويسد الطرق عليه ويصدها العبور فجاءت مراكبنا ونطحت مراكبهم وطحنتها وأوهت متنها وأوهنتها وأخذنا لهم مركبا وأخذوا لنا مركبا وكان تقصير الرؤساء فى حفظه لاخذه سببا واتصل الحرب فى البر الى حين غروب الشمس وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافيه وكانت الله لنا ولاصحابنا واقيه

((ووصفت هذه الحالة فى مكاتبة كتبتها تعرف منها الصوره
وتكشف القضية المستوره وهى

هذه المكاتبة مبشرة بما اسناه الله من النصر الهنى وهناه من النجح السنى وأجنى المسلمين من ثمر الظفر الجنى وذلك بوصول الاسطول الثانى المصرى المنصور ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور متوافرا بوفود الوفور ودخوله الى

غانما الى ثغر عكاء المحروس المعمور فاثر البلاد بعد انفاضه واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه واستجد جدة وافيه وعصمة واقيه وذخيرة كافيه وكان الفرنج عند وصول أسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها وأبرزت مناكبها وشحنت بالرجال والعدد جوانبها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها وسحبت على ثبج البحر سحائبها وأدبت الى عقبان أساطيلنا المحلقة بعقابها ثعابينها وعقاربها وظنت أنها تستطيل على رواسي أساطيلنا بسواريها وانها تواجه عرائسها المجلوة بحور جواريها فلما جاء الحق زهق الباطل وصال الواصل وحاص العدو من الحاصل وانحل تركيب تلك المراكب وحطت تلك المناكب عما أحاط بها من النواكب وخرج الاسطول الاول من الثغر مستبشرا بدخول الثانى واجتمع شمل الشوانى بالشوانى وتفرقت سفن العدو شذر مذر وعذر حين ذعر فحذر وكسبت شوانينا ست بطش لهم فكسرتها ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فاسرتها وكانت الفرنج حملت فيها تجائر وذخائر تطلب ربحها فخسرتها

((فصل آخر))

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا خيسه ثائرا بالاسد عريسه فى شوان للعدو شوائن وشلنديات لشله وقله ضوامن وحراريق لاهل النار بنارها محرقه وعقبان مراكب فى مطار العقاب على المجرمين محلقه وسوارى هواضب كرواسى هضاب وسحاب بوائق كبوارق سحاب من كل مركب للنصر مركب ومفرد من الشدة والبأس مركب وقطمة لنياط قلب العدو قاطعه وقلعة لاساس أهل الكفر قالعه وتلعة فى ذروة العزة تليعه وذروة فى مرقى الهدى راقية منيعه وجاءت فى البحر أمواجا فى الامواج ودخلت الى الثغر أفواجا بعد الافواج وكان العدو قد أبرز أباطيله وجهز أساطيله وشب عواديه ودواعيه وأدب عقاربه وأفاعيه واسمى مناكب مراكبه وجد فى امهاء غروبه وتسنيم غواربه ولما وصل الاسطول طال وصال ولاح للعدو صده بحيلة من حال فحال وامتنع مراده واستحال وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت أسبابها وقصمت

من عبدة الصليب أصلابها وخيب حسابها

((فصل))

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد وأثرى به الثغر بعد الانفاض واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض ودخل اليه ما خرج عن حد الحصر من ذخيرة وميرة توجب كثرتها قلة المبالاة بالحصر فان الرايات المنصورة علت فجلت فى الآفاق رياضا والمراكب الاسلامية انقضت فقضت للمسلمين أغراضا ووافت ووفت فاعادت جواهرها مراكب العدو أعراضا وجاءت سواريها كالرواسى وجواريها محكمة المراسى ومن شأن شوانيها شن الغارات على الشناه ومن عادة شلندياتها شل أندية العداه ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لاحراق أهل النار فى الماء ومن عمل مراكبها الحاق مناكب الكفار رداء الارداء من كل جبل يرمى السحاب وضامر بشد شد العرابه وعقاب محلق على الشرك فى مطار العقاب وغراب ناعب فى أعداء الله ببين الاحباب وهضبة موفية على الهضاب وقطمة وافية من الكافرين بقطع الرقاب وما أحسنها وقد زفت عرائس وجليت أوانس وطلعت باهل الايمان بواشر وعلى أهل الكفر عوابس وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس وخلا وجه البحر من سفن الضلال وتقلص ما لها من الظلال ولما شوهد الاسطول ساطيا وجيد النصر منه عاطيا وأخذ البحر من الاعداء بحقه وأشرق سنى النجح فى افقه ركب العسكر المنصور للقتال وأخذ أهبة النزال وزحف الرجال الى الرجال والتقى الابطال بالابطال وشفيت بدم الكفر غلة المناصل والنصال واحمرت البيض الظامئات ورويت من نجيع الزرق وبشرت جياع العواسل من اليراع العاسل بعاجل الرزق وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح وكلهم القتل والجراح وأقوى الاقوى من الثبات وبطل بطلهم بما أثخنه من الجراحات وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب الشتات وأدرك المشركين ما فاتهم من الآفات

((ذكر قصة ملك الالمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله))

صح الخبر أن ملك الالمان عبر من قسطنطينية الخليج وخطب في تلك المروج
بمروجه الخطب المريج وأنه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور
وعمهم في مخاضاتهم العثور فقيل انهم أقاموا في قفار ومواضع شهرا عدموا فيها
الطعام ولم يجدوا بها الاضرا وكان التركمان الاوجية على طريقهم يمنعون
بغربهم من تشريقهم فاضطروا الى المقام بغير زاد وهم في جهد وضمر واجتهاد
قصار وا يذبحون خيلهم ويأكلونها ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب
ويشعلونها فترجلت منهم ألوف ورغمت أنوف وكان ذلك في البرد الشديد
وزمان الثلج والجليد فجمدوا وخمدوا وتجلدوا وتبلدوا وعدموا دواب حمل
الاثقال ونقل عدد الرجال فدفنوا وأحرقوا منها وتركوها وسلوا عنها وكان
ذلك من الله لطفا وأمست قوتهم ضعفا وكانوا في خلق لا يعد وجمع لا يحد فما
أثر فيهم ذلك النصب ولا صدهم عن مقصدهم ذلك التعب ومازالوا يسيرون
والاوجية تبدي اليهم للوبال في أوجها أوجها والافرنجية لا تنتهي حتى تبلغ الى
مالها من منتهى حتى بلغوا الى بلاد قليج أرسلان ابن مسعود ومسلكها دونهم غير
مصدود ولا مسدود وقليج أرسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه
وهو يدبر أمره ويتولاه ويسومه الاكراه فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم
وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم ثم اندفع من بين أيديهم وتعدى عن جانب
تعديهم ودخلوا قونية دار ملك المسعودية واعتصم قليج أرسلان بقلعتها المحمية
وتراسل هو وملك الالمان واتفقا في الباطن على ما كان بينهما من المواثيق
والايمان وحمل ملك الالمان له وفرا وافرا وأشبه المسلم بالكف عن الكافر كافرا
ووافقه على العبور الى الاقاليم الشاميه والبلاد الاسلاميه وعلى انه يسير في
بلده الى بلد ابن لاون وأعطاه عشرين مقدما من أكابر امرائه ليكونوا معه حتى
يصل الى المأمن رهائن وأمر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه وان يعاوضهم
من الخيل والعدة بما يرومونه وأقام لهم الاسواق وعرض عليهم الامتعة
والاعلاق فساروا في رفه ورفق وتقو بلا توق فلما وصل الملعون الى بلاد
الارمن غدر بالرهائن وساقهم مجحولين مع الظعائن وتأول عليهم بان التركمان

سرقوا منهم في طريقه ونكث جميع مواثيقه ووصل ليفون بن اصطفانة بن
لاون مقدم الارمن الى خدمته ودخل في طاعته وكان بمفرده خاليا من عسكره
بمجرده وذلك في طرسوس فتمكنوا بها ليريحوا بها النفوس وقيل عن لكلب
الالمان أن يسبح في النهر ويميط عنه ما عراه من الوضر والضر وكان شيخنا
سنا قد عاد لكبر سنه شنا وحسب أنه اذا سبح سحب ذيل الاستراحه فكان
موته في تلك الراحه وهلكه في تلك السباحه فانه عام في الماء البارد وتورط منه
في أصعب الموارد وخرج وبقي مريضا الى أن خرج من ثوب البقاء وتحول الى
فناء الفناء وتلقاه مالك بالزبانيه وحملوه الى نار الله الحاميه وسمعت نصرانيا
يقول في معناه كنت معه لما سلك فهلك وأعجله مالك النار عما ملك وذلك أن النهر
ما كان فيه الا معبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد فقال ملك الالمان هل
تعرفون موضعا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد ههنا مخاضة
ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد واحد
اذا تثبت واستظهر فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضة ودخل الماء
فطغى على ذلك الناري الطاغي وأعجل ذلك الباغي عن المباغي ورماه في جريانه الى
شجرة شجت جبينه وجبنت جاشه وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتبعوا في
اخراجه وأيسوا من علاجه ومات عدو الله شر ميتة وبلي شمله بتشتيته وحبله
بتبتيته وخلفه ولده على خلف من أصحابه وأجناده لمكان الولد الذي خلفه في
بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظمه وتهرى لحمه ثم
جمعوا في كيس عظامه ورأموا بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيستهم
بالقدس قمامه ويدفنوه على ما كان أوصى به ورامه ولما عرف ابن لاون بهلاكه
وسكون حراكه وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته وانه لا تلافي لما فرط
من تلفه وفوته فارقهم الى بعض قلاعه واتصل الضرر بهم لانقطاعه ووصل
كتاب من الكاتاغيكوس صاحب قلعة الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد
ويقول ويعدد ويدهده ويهدد ويرى أنه ناصح وللقصة شارح وان الامر

واضح وان الخطب فظيع فاضح وان هذا الملعون أول ما خرج من بلده أوصى فيه الى ولده ثم جاء الى بلد الهنكر فدخله غصبا وأوسعه نهبا حتى أذعن له وانقاد وبلغ بطاعته المراد وانه أخذ من ماله ورجاله ما اختار وتزود من عنده وامتار ثم وطئ أرض ملك الروم وداسها وتوسط ديارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادها وأحوج ملك الروم الى طاعته والزمه بما دخل فى استطاعته وأخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين ومن الثياب الطلس المعدنية ما بلغ الالوف وتجاوز عن المئين وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه ومعروفى كبرائه وأخذ كل سفينة غصبا وسحب على ذلك البحر فى التعدية من مراكبه سحبا وانه لما عبر وفرغ من الخروج تلقاه بالخيل والدواب والابقار والاغنام تركمان الاوج ثم وقع بين التركمان وبينهم وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرمونهم وهم فى طريقهم سائرون وعلى مقاتلتهم صابرون حتى قربوا من قونية فاعترضه قطب الدين ولد قليج ارسلان والتقى الاقران بالاقران وهزمه ملك الالمان ولما أشرف على قونية خرج اليه جموعها وطالت اليه بالحرب بوعها ثم اندفعت حيث ضم على الروع روعها وأنه هجم على قونية عنوة ونال منها حظوة وأقام خمسة أيام حتى استقرت بينه وبين قليج ارسلان قاعدة أكيدة وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة وأخذ منه رهائن عشرين من أكابر دولته المتميزين وقدم كتابه الى ابن لاون بالجواز فى بلاده فتلقاه بما أعده لارفاده ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الانهار ونام ساعة بعد تناول الطعام ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام فنزل عليه الماء البارد مرضا وتشكى أياما قلائل مضضا ثم قضى وانقرض أربه وانقضى وخلفه ولده بعده واستمال جنده وكان ابن لاون قد سار قاصدا لقاء أبيه فلما عرف موته وجلوس ولده أضرب عن تلقيه وعرض عسكره فى اثنين وأربعين ألف مجفجف من كل سرحان أهرت وذئب أغضف وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض وغص بهم طول الارض والعرض وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب ولزموا المصاب وداوموا الاكتئاب وهم صابرون

على الشقاء والتعب لامل الظفر بالطلب ولما بلغت هذه الاخبار اضطربت الديار وارتاعت الانجاد والاغوار وقالوا هذا جانب لا يطاق وأى جانب قصده عنه لا يعاق ولاشك أنه يتوسط بلاد الشام ويلم بثغور الاسلام ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد وصدهم عن القصد ثم ثبت على رأى الثبات وتنظر الاوقات بما يتجدد من الحادثات وتقلقلت عزائم الذين بلادهم على طريق القادم وانه يعود كل منهم الى مكانه أخذا بحكم الحازم فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج ثم عز الدين بن المقدم الباسل المعلم ثم مجد الدين بهرامشاه صاحب بعلبك ليجمع ويأخذ على العدو المسالك ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر الليث الهمام القسور ثم الياروقية أسد الهياج ونجوم ليل العجاج ثم رحل الملك الافضل وقد عرض له ألم ثم بدر الدين والى دمشق وقد ألم به سقم ثم سار الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر والخوف الناس فيه أنهم على الخطر حتى غلت الاسعار واستعرت الغله وخلت الاماكن وعكنت الخله ثم رحل الملك المظفر تقى الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبله ويثبت بقدومه عليها الرعية الخائفة المجفله وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخره ورتب السلطان منازل العساكر الحاضره وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما ولحفظ النوب فى اليزك مستديما فانتقل الملك العادل اليها وجاء الى منزلة الملك المظفر ونزل عليها واستقام الترتيب وترتب المقام واعتز الصادقون وصدق الاعتزام ثم مرض أكثر العسكر وخام للوخم وألم بالبعد الالم وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافيه مستعقبا الالطاف الله الواقية الوافيه ووقع المرض فى الفرنج وكان المبيد المبير والمدنى لاصحاب السعير السعير وعم فيهم الموت والوبا وكثر عن نبواتهم النبا وتقدم السلطان بهدم سور طبريه وهدم يافا وأرسوف وقيساريه وهدم سور صيداء وجبيل ونقل أهلهما الى بيروت

﴿عاد حديث ملك الالمان﴾

وأما ولد ملك الالمان فانحبس ومرض أياما فى بلد الارمن واحتبس وهلك أصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت فى خيلهم فأذن ذلهم بقلوص ذيلهم وقدم الملك لمرضه والثبات جوهره بعرضه جوعه قدامه وساروا امامه وخرجوا لكثرتهم فى ثلاث نوب فى بيض وسمر و بيض و يلب ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير غير عارفين بطريق ولا متحفظين فى مسير والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم ويتألفون على مسالكهم ويتلقفونهم ووصلوا الى انطاكية ووصل اليها الملك بعد أن ضاق به و بجمعه اليها المسلك وضاق به الابرنس صاحب انطاكية ذرعا ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى وطلب منه القلعة فأخلاها له ونقل اليها ماله وأثقاله وسأله أن يجعل طريقه على حلب فخاف وأبدى له الخلاف وقبل وصوله الى انطاكية فلت جوعه وجنوده و بليت بحشد التركمان حشوده واجتازت الفرقة الاولى منهم تحت قلعة بغراس فلقيت البوس والباس وخرج رجالها عليهم على قلتها وصدمتهم ببسالتها وأسرت منهم زائدا على مائتين وطمعت فيمن وراءهم من الفئتين وقيل انهم حسبوا ان بغراس باقية بحالها مع الداوية فجاؤا اليها سحرا باحمالهم وأموالهم السنية فلم يشعر واليها الا بالبغال على الباب واقفه والجنى دان يرقب ان يكون له أيد قاطفه فخرج اليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب وتخلى عنها أصحابها لما عرفوا الحال ولم يعرجوا على حرب فاستغنى الوالى من ذلك اليوم من مال القوم ثم أنكر حتى لا يطالب بشئ منه وغفلت الايام عنه وذكر الامير علم الدين سليمان بن جندر فى كتابه أنه أنهض جماعة من أصحاب أمراء حلب وأصحابه ليقتفوا آثارهم ويكشفوا أخبارهم فوقعوا على خلق عظيم منهم فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم وانقضوا عليهم انقضاض البزاة على الحجل وزأروا فيهم زئير الاسد فى النقاد وزاروهم بالاجل وأسر كل واحد من أصحابنا ثلاثة وأربعة وتركوهم متمزقة متمزعه وعادوا بالاسارى الى حلب وباعوهم فى الاسواق وامتلأت بالاسلاب منهم والاعلاق وطابت قلوب الرعايا وأنست من الله بما ظهر من ألطافه الخفايا وطمع فيهم أهل القرى والتقطوهم من الوهاد والذرى وما صدقوا بالسلامة حتى آواهم

الابرنس الى انطاكية وأراح من آلامها الالمانية وذابوا فى هذه الطرقات ذوبا وصب عليهم العذاب صبا اذا أخذوا صوبا وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم العسكر وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر وحصل الابرنس بتلك الاموال المجتمعه والذخائر المودعه حتى قيل انه انما رغب فى الوصول الى بلاده ليحصل على سبده ولبده فاخلى له قلعته لينقل اليها خزانته فقفل وما رجع اليها واحتوت يد الابرنس عليها ثم ساروا على طريق الساحل بالفارس والراجل وخرجت عليهم خيل جبلة واللاذقيه وسقتهم كؤس المنيه وألقتهم على البوس والبليه فاغذوا فى السير حتى وصلوا الى طرابلس وقد نقص نصفهم وتم بعواصف البلاء نسفهم وبلغ أمدهم وانتهى مددهم وجبن الملك عن المسير عن الطريق لما لقيت جوعه فى طرقاتها من التفريق فركب البحر فى عدد يسير لا يزيد على ألف برعب قاب وقصور يد ورغم أنف واختلط مع الفرنج على عكاء فسقط اسمه وسقط حكمه وهلك بعد قليل ولم يحظ بنقع غليل وسألم بذكرها لانه فى مواضعها وذكر مصارف جماعته ومصارعها

((وكتبت الى الديوان العزيز فصلا))
((بخبر ملك الالمان عند ارعاب الارجاف به))

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء والغمة الغماء والنكبة النكباء والشدة الدهماء والليلة الليلاء وهى أن ملك الالمان ومعه ملوك الافرنجية وحشودها وقوامصها وكنودها وأحزاب الشياطين وجنودها والوية اللواء وبنودها وصل جارا على السماء ذيول قتامه مجريا فى الارض سيول لهامه ثائرا بأطلابه لطلاب ثاره سائرا بخيله ورجله كالسيل الى قراره وانه فى عصائب صلبان فى عصبيتها متصلبه وأتباع شياطين لارضائها متغضبه وأسراب سراحين على سرح الاسلام متوثبه وانه فى مئين من الآلاف الالاف للمنون وأقطاب الاعطاب الدائرة لدوائر سوء رحى الحرب الزبون وقد أوقدوا للشر شرارا وأضرموا للشرك الداعى الى النار نارا فان حسرتهم على قمامتهم دائمه وقيامتهم قائمه والموت يدعوهم الى المقبرة التى يدعونها والآجال تلبيهم لمناياهم التى

يدعونها وكان خبر وصوله متداولا على ألسنة الاراجيف وتشيعه أعداء الله من قبيل للترهيب والتخويف واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد الروم فى الربيع ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع وانتظروا ورود خبر صحيح ويقين نبأ بأمر صريح حتى اذا صح الخبر سار العسكر ثم انقطعت الاخبار وتمادى الانتظار ومضت شهور الربيع اذار ونيسان وأيار وكانت كتب سلطان الروم قليج ارسلان وأولاده ورسلهم متواصلة بما ينبئ عن التعاضد ويبنى أمر الوفاء والوفاق منه على التعاون والتعاقد وهم بانهاء ما يصح عندهم واعدون ويزعمون انهم فى رد الواردين وارادتهم مساعدون فاخلف ذلك الوعد وضيع ذلك العهد ووصلت كتبهم بغتة فى هذا الاوان بما تأخر به الخبر عن العيان وقالوا انهم قد توسطوا بلاد الاسلام وانهم على قصد الشام ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم وأخلوا لهم الطريق وادعوهم ووسعوا لهم فى المضايق وسعوا فى أمن طرقهم من الطوارق وهذا حادث كارث وباعث فاجئ فاجع لاهل الجنة فى الذين باعث وناكب لعقود العقول فى تعاظم ضرره وتفاقم خطره ناكث وقد تعين الجهاد على كل مسلم ومافى الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض والخادم منفرد فى حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه وان الذى يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه ان شاء الله

﴿فصل فيه فى جواب أمير﴾

عرفنا خبر العدو المشؤم الواصل من جانب الروم وهذه هدية أهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها حيث أقامنا فى مقابلة أعدى أعدائه وأقدرنا على مقاتلة من نازعه فى كبريائه وقد ساقهم الموت الى المقبرة التى يدعونها ولبتهم المنايا التى يدعونها ولا يدعونها ومعاقلنا بحمد الله قويه وصوارمنا من دماء أعداء الله روية فيجب أن يكون فى جميع أموره محتاطا ويظهر بما يغنمه الله من اسلابهم وأشلائهم اغتباطا

﴿فصل من كتاب الاستنفار﴾

قد عرف أن العدو الالمانى المخذول قد وصل فالقعود عن هذا المقام معنى وما لمن تأخر عن نصرة الاسلام من ثمرة السعادة مجنى وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده وأوان بذل وسعه وجده واجتهاده فانه محضر لا يغيب عنه الا من ليس له عند الله خلاق وموقف يفى بعهد الله فيه من سبق له معه فى السعادة ميثاق وانها الغنيمة أوفدها الله علينا وهدية أهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها وأسعدنا بسببها بل هى بلية جلا وجه النعمة فيها بل قضية وفى الله فى النجح بموعود توافيها بل ملمة اختارنا الله لدفعها وطاغية استدعى أولياءه لقمعها ونائرة كلفنا الله باطفاء جمرها وارداء جمعها فلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام وليخطب اهتمام العظيم علابسة الخطوب العظام وليثب وثوب الاسد على الفريسه ولينتخ للاسلام انتخاء ذوى الانفس الابية والهمم العلية النفيسه وليكن أول سابق فى مضمار الجد وأسعد طالع فى أفق الجد فان الاسلام فى انتظاره والمطالع مستشرفة الى اشراق أنواره لا زالت الاقدار جارية فى اسعاد الدين والدولة باقداره

﴿فصل من كتاب﴾

قد أحاط العلم بما عرا من الملم وعرض من الخطب المدلهم ووصل من العدو السائر ونزل من النازلة التى هى أم النوازل والدائرة التى هى أم الدوائر وقد آن للاسلام أن يسلم وللايمان أن يعدم وللتثليث أن يعلن وللتوحيد أن يكتم وللكفر أن يقدم وللهدى أن يحجم فقد قذف البحر من الفرنج زبده والبر أتى أنيه من كل بلد للكفر بسبده ولبده ووصل الالمانى المخذول بعدده وعدده وهذا خطب قد دهم وعدو قد هجم وشر قد نجم وجرد اهيه قد وقد وجمع طاغية قد وفد فى جيوش جائشه وجموع طائشه وجنود محشوره وبنود منشوره وخيول مجفجفه وسيول مجحفه وهذا أوان تحرك ذوى الحميه ونهوض أهل الهمم الابية العليه فان القوم فى كثرة ولا يقاتلون الا بالكثرة وهم مغترون بعلوهم معتزون بعتوهم مستنون فى طريق العثرة والسبل اذا وصل

الى الجبل الراسى وقف والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف والمجلس أولى من تولى تفريج هذه الغمه وكشف هذه الملمه حتى تخاف أمانى الالمانى وتبطش أيمان الايمانى وتخذل أنصار النصرانى وتجنى وتبزرز وس الجنوى والبيزانى فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين وأين المهتدون فى نهج الرشاد المتبين وأين المسلمون وحاشا أن يكونوا للاسلام مسلمين وأين المقدمون فى الدين ومعاذ الله أن لايكونوا فى نصرته على الموت مقدمين ولولا التقيد بهذا العدو الرابض لاطلقت أعنة النهضة الى العدو الناهض ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين

﴿فصل فيه﴾

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق وزحف الى الحق الثابت باطله الزاهق وجال بالوجل وجاء بالوجيب وثار لثار الصليب السليب وقد وقد جرجمه ورنق فتق الصبح رقع نقعه وما فض القضاء ختام قتامه حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه والرجاء محقق ان الالمانى محقق بالمامه والاسلام مشفق من اسلامه والدين موفق بنصرة امامه وعصمة الله الواقية الوافية من ورائه وأمامه والله الكافل باعلاء أعلامه واحكام أحكامه

﴿ذكر الوقعة العادلية﴾

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد وانه ملأ أحشاء الربا والوهاد بالاحشاد قالوا انه اذا جاء لايبقى لنا حكما والصواب أن نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما لاسيما وقد خفت عساكر الاسلام وقفل أكثرها الى الشام فنحن ننتهز الفرصه ونحرز الحصه ونهتبل الغره ونهجم عليهم هذه الكره ونذيقهم المرة المره ونفرغ من شغلهم قبل مجىء القادم ونثبت بعز العزائم ونفل حدودهم بحدود الصوارم فخرجوا ظهر يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخره فى حشر يذكر بحشر الساهره واسود بياض النهار من سوادهم وتراءت الآجام لنا متوافيه بآسادهم وامتدوا الى الخيم العادليه واشتدوا بما استصحبوه من البليه فى كل ذئب أمعط وسيد قد تورط وسرحان سرح

وأفعوان كلح وجهنمى تجهم فهجم وجحيمى أقدم وما أحجم وسعيرى نارى استعار حدمة النار وسقرى فورى عاد بعادة الاقتسار وبارونى طالب للبوار واسبتارى راغب فى التبار وداوى معضل الداء وتركبولى غير تارك للبلاء وسر جندى كرار وفريرى غير فرار وفارس بفرس الرجال وراجل برجل الفرسان الابطال وأزرق زرقه الموت الاحمر وأغبش يغشى واليوم أغبر وأشقر وهو أشقى وأبقع اذا غوى فى الوغى ماترك ولا أبقى ودخلوا الخيم العادليه وتجاوزوها وقد كانت أخليت قبل أن يجتازوها ووقف الملك العادل بطلبه وعن يمينه ويساره أمراء الميمنة الذين بقربه مثل صارم الدين قايماز النجمى وعز الدين جرديك النورى وجماعة من المعروفين بالشهامه الموصوفين بالصرامه ولبث الملك العادل لبث المخادع المخاتل حتى يطلع من العدو على المقاتل فقادتهم الاطماع الى الانتشار وأفضى بهم الاعتزاز الى الاغترار فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبر شمس الدين مودود وهو فى كل وقعة يحضرها جاد مجدود فعضده والده وولده مساعده وساعده وحمل معه العسكر الحاضر قبل أن يتصل به العساكر فكسر الفرنج كسرة فرشتهم على الارض وذكرت الوقعة العارضة بوقوعهم فى النار يوم العرض وكانوا قد بعدوا أكثر من فرسخ وأجفلوا ولم يلتفت أخ الى أخ وركبت العادليه أكتافهم وفلوا فيهم أسيافهم وعقروهم وعرقوهم وبجوهم وبعجوهم وحكموا فى لرقاب الغلاظ منهم الرقاق وضربوا ممن أعنقوا اليهم الاعناق واشبعوا اللموت من لحوم الليوث وبثوا بعوث المنيه فى تلك البعوث حتى رتعت فى كلا الكلى صوار الصوارم وأرعد وأبرق بصواعق بوائقهم غمام الغماغم وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذوابل ووصلت بهم الى النجاح منى المناصل فلم تترك اللهاذم لهاذماء وغادرها شلها بالعراء اشلاء ورأيناها كانها أعجاز نخل خاويه وما أحسن أجسام أهل الهاويه وهى هاويه فكم جثة بلا راس وبنية بلا أساس ونحر قد نحر ودم قد أنهر ويد قد بتت وكبد قد فتت وعنق قد قطع وأنف قد جدع وودج وجد مفريا وظهر قد ظهر مبريا وحلقوم قد حلق وغلصوم قد فرق وداوى قد دوى وبالدم

روى وصليبي كسر صلبه وقلب على صدره قلبه وحربي أناه الحرب وغرب في نبع عينه النبع والغرب وكان السلطان قد ركب وخشي أن جانب الميمنة نكب وسير جماعة من كماة المماليك والامراء على مقدمته وانتظر الميسرة لتنهض في خدمته فوصل الى الوقعة سنقر الحلبي في العصبة العزيزيه وفاز من الغزوة بالحظوة السنيه وجاء علاء الدين بن صاحب الموصل في أثناء المعركه فعرف بركة سرعة تلك الحركه لانه أخذ حظا وافرا ولقي من النصرة وجها سافرا وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجال الميسرة أحد ولم تمتد منها الى قتال الكفرة يد ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ما سره وعرف لطف الله وبره ونصره وعاين هنالك مصارع الاعداء ومشارع البلاء وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الارض وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل الى البحر بالعرض وكل صف يزيد على ألف قتيل وشاع القتل من الفرنج في كل قبيل ولما وصل السلطان رأى عماد الدين وابن زين الدين وأمراء الميسرة قد عزموا على الدخول اليهم والهجوم عليهم فانهم ندموا على ترك الاسراع فراموا اتباعهم ليأخذوا بنصيب القتل بهم والايقاع فصدهم السلطان وردهم وشكر عزمهم وقصدهم وأشفق من مضرة تشوب ومعرة تنوب فان الدائرة كانت على العدو وقد فاز بالنصر الحلو وصفو المرجو وكانت النوبة بلا نائبه والغزوة بلا شائبه وقتل منهم زهاء عشرة آلاف ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشره فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسره ولما عرفت بالواقعه والنصرة الجامعه صدرت ثلاثين أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره ولا يرى البشائر شائره وركبت أنا والقاضي بهاء الدين بن شداد لمشاهدة ما هنالك من اشلاء صرعى وأجساد فما أعجل ما سلبوا وعروا وفروا وفروا وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتله وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائله ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام فعدنا الى الخيام وأخذت الكتب التي نمقتها بالبشائر التي حققتها وجئت واذا السلطان قد استبطاني

وعدم اجابتي لما دعاني فما صبر ولا انتظر ولا ترقبني ان أحضر ولا أمهل أن أعطي البشارة حقها واجلو بانوار المعاني أفقها وأبلغ بالبلاغة مداها وأسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف بحدود الاقلام ماصنعته حدود السيوف وأروج نقودي عند السلطان وأغنيه عن الزيوف فابصرت عنده مشرفي المطابخ والابيات ومدوني الجرائد بالاثبات وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفه بعبارات سخيفه وقد عطلت الحسناء من حليتها وعروها من بزتها وشوهوا جمالها وأحالوا حالها فذهب بها المبشرون وسار القاصدون فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع ولا تم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع وأرادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها وفي تلك الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد وعجل بها الانفاذ فقلت على سبيل العتب أنتم ما تريدون ما أكتبه ولا ترغبون فيما أرتبه وأهذبه فقال كانك كتبت البشائر فهاتها حتى نهدي الى طرقاتها فقلت مافات فات وهيهات هيهات وأخرجت له ما بقي من بشارات البلاد التي أنشأتها بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها فسارت فسرت البعيد والقريب وخصت من جداها بالخصب الجديب وصدحت باسجاعها المنابر وصحت بسماعها المفاخر وظهرت بعباراتها العبر وبهرت بزبرها الزبر وعمرت بمعانيها المغاني وعمت مباهجها مناهج الاقاصي والاداني فما أصحها كسره وما أسمحها نصره وما أبينها محجه وما أثبتها حجه وما أفرجها مسرة وما أسرها فرجه وما أبرحها بالكفر صرعه وما أوضحها للاسلام شرعه

((فصل في ذكر حالهم))

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر ومفارقة عدة كثيرة من العساكر خرجوا متجاسرين وامتدوا متقاطرين وانتشروا متغاورين وأغاروا اللاوا اللاواء ناشرين ووصلوا في الميمنة الى الخيم العادليه فاخليت حتى دخلوها وتفرقوا فيها بجموعهم وتخللوها فركبنا اليهم وحملنا عليهم وتركناهم صرعى بالعراء فوضى بالفضاء فما بكت عليهم الارض ولا السماء ورويت السيوف

من دمائهم قبل أن تشبع الوحوش من اشلائهم وظهرت لنا نعمة الله فى بلائهم وحبى الاسلام بهلاكهم وضمتهم أشراك الردى برداء اشراكهم وانجلت المعركة عن أكثر من عشرة آلاف قتيل كافر وثبت حكم ادالة الاسلام وظهوره بأوضح دليل ظاهر ولو اتفق خروجهم من مراكزهم بأسرهم لكنا فرغنا من شغلهم وأخلينا بالنا بتأييد الله من أمرهم والآن قمع انطفاء جمرتهم وصحة أمزجة العزائم بكسرتهم وتطرق القلة الى كثرتهم نرجو من الله أن يسهل أمرهم العسير ويهون خطبهم الخطير وان ظهورنا عليهم قطع ظهورهم وعثور هذه الوقعة بهم حقق عثورهم والله تعالى يحقق تبارهم ودحورهم

((فصل فيه))

وصلوا الى الخيم العادلية فى الميمنة الميمونه واشتغلوا باستباحة أحوالها المصونه فاطلقنا عليهم الاعنه وشرعنا الى نحورهم الاسنه وبعنا النفوس لنتسلم ثمنها الجنه وفرشناهم على الارض وأدينا باردائهم بعض الفرض وانجلت المعركة عن عشرة آلاف قتيل مشرك وشملتهم المنون فكأنهم جاؤا على موعد مهلك وأروينا من دمائهم ظمأ السيوف وجعلنا اشلاءهم قرى الوحوش لا الضيوف وأمن الاسلام بحمد الله من المخوف وأدرك الله بأخذ أرواحهم رمق الدين الملهوف وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم وخمود مصابيحهم

((فصل))

حملت عساكرنا عليهم وأحاطت بهم من حواليهم ورضتهم بالدبابيس واللتوت وتركتهم صرعى بتلك المروت وساحت بتلك الساحة دأماء الدماء واكتسى عرى العراء بتلك الاشلاء وأفضى بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء وأمرهم الى الانقضاء ورتعت ثعالب الرماح من كلاكلهم فى المرعى وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة آلاف فترى القوم فيها صرعى وطابت من نتن جيوفهم ريح النصر وحسنت من سماجة مرآهم وجوه الدهر والآن الان الله شدة شكيمتهم وقط شوك شوكتهم وهبت نكباء نكبتهم ونرجوا أن يسهل من أمرهم ما تصعب ويؤلف بصدعهم من الاسلام ما تشعب

((فصل))

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوها وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر وتموج بحارها الزواخر فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء والمماليك كولدنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايماز النجمى وبشارة وجرديك وعطفوا عليهم عطفة صدتهم عن الانعطاف وصرفتهم عن الانصراف وثارت آثارهم بوائر البواتر واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الاسرار بالحوافر الحوافر وفضتهم بالفضاء وعرتهم من كسوة الحياة بالعراء وتمت نعمة الاسلام ببلائهم وشفى الدين بدائهم وكان بقاؤه فى فنائهم ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم وأتى القتل على أولهم وآخرهم وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل ملأت كل واد وسدت كل سبيل وقد ذلت عزتهم وضعفت قوتهم وعجزت قدرتهم ولما انقضت هذه الوقعه وتم للناهضين الينا الرجعه رأيت أحدهم المليكى ونصله قد خضب وعزمه قد رضى بعد ما غضب فسألته كم قتل والى أين وصل فقال أما أنا فما أبقيت وخضت البحر وما توقيت وهذا غلامى قتل تسعه وشاهم من عارض نجعهم نجعه وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف فقتلوا أضعافا مضاعفه وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفه ويحكى من نوادر هذه الوقعه ان فرنجيا عقر فخر للصرعه فعثر به راكب برذون بغير رفيق ولا عون فعرقب الفرنجى فرسه بسيف فى يده فنزل بحده مستنا فى جدده وقتل ذلك الفرنجى وروى من دمه الهندى وحل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب رابحا ماعده خسارا وامتلأت الايدى بالاسلاب والاكساب وحصل من العدد ما لم يكن فى الحساب وبيعت الزرديات ذوات الاثمان بالرخص وزادت أرباح أهل السوق بذلك النقص

وفى يوم الخميس الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ورد فى عصره نجاب من حلب بعد خمسة أيام بكتاب يتضمن نجح كل مرام ويخبر بأن عسكرا مجرا من الكفار خرج للغارة على الاطراف والاقطار فخرج اليه العسكر وأخذ عليه

الطريق وطاب ذلك الجمع فى الهزيمة المضيق فلم يصح لهم رشد فى منهاج ولم ينج منهم ناج فعضد ذلك الخبر هذا العيان وقام بهوان الكفرة البرهان وسر الخواص والعوام وخص وعم السرور وأنارت المطالع وطلع النور وشرع الفرنج فى الخداع والمراسلة فى أمر للجانبين عام الانتفاع وسألوا فى الصلح والخروج من ليل الحرب فى السلم الى الصبح وأذن لهم السلطان فى الخروج للنظر الى أولئك الصرعى بتلك المروج وهى قد تورمت وأنتنت وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت وضاقتها القشاعم والخوامع وعليها أطافت فساءهم ماسرنا ونفرهم ماأقرنا

((ذكر ماتجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهرى
بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط
اشفاقا من التفريط والافراط))

وما زال الفرنج فى وهن وضعف وتوزع بينهم وخلف حتى وصل فى البحر كند يقال له هرى وهو عندهم عظيم القدر فكمل بمن وصل معه نقصهم وأحيي بعد موت نفوسهم حرصهم وأفاض عليهم الاموال وحلى منهم بعد عطلها الاحوال ورصع بالرجال مراكز من صرع وقرع السن ندامة على من قلع وقرع وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع فقد كان العزم بل الحزم أن نبادرهم على ضعفهم قبل أن يمدهم البحر بضعفهم فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتوانى فيما تعين تتميمه ولما وصل هذا الكندو تمكن وقوى أهل الكفر بكل ما أمكن أظهر أنه يكبس عسكرنا ليلا على غره وبدت منه أمارات كل شره وشره وشاع هذا الخبر على ألسنة الجواسيس والمستأمنين فاحضر السلطان أمراءه وخواصه المؤمنين الميامين واستشارهم فيما يقدمه من الصواب ويفتحه فى المصالح الراجحة من الابواب فاشاروا باتساع الحلقه وادارتها كالمنطقه والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه حتى يأنس الى الخروج لحربه فوافقهم السلطان على هذا الرأى وحسن فى قلبه فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبه واشتغل بالتدبير فى الفوز بالنصرة المطلوبه

ونزل العسكر على تلك الهضاب وحوالى سفوحها واحتوت كل جنة خيمة ممن حل فيها على روحها ورتب اليزك فى المنزلة الاولى كل ألف فارس بالنوبة فى يومين وضويق بأهل الصدق منهم أهل المين وتدبر الترتيب وترتب التدبير وعرف فى اليزك أوقات نوبته وأوبته الصغير والكبير وأما عكاء فالكتب مترددة اليها ومنها مع السباح والحمام اليها ومنها تحمل البطاقات على الجناح والمراكب تدخل اليها وتخرج واليها وعنها تعوج وتعرج وأخبار ملك الالمان متواصله بأن أنصاره له خاذله وأنه ضعف ووهى وانه الى انطاكية انتهى وانه تعوق هنالك وتوقع من مرامه الادراك وتوقف عن المسير واعتاض التعسير من التيسير ووقع الفناء فى جمعه وتجل قمعه قبل أن يصل الى محل قمعه وانه قد اشتغل بالانفاق فى رجال الاستجناد والاستنجاد والاحتشاء والاحتشاد وأن أصحابنا يأسرونهم ويتلفونهم ويتلقطونهم من الطرقات ويتخطفونهم ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا ويجمع قطافا ونطافا وألطافا ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبه وانه مستمر على المودة راغب فى المحبه ويعتذر عن عبور الالمانى وانه قد فجع فى طريقه بالامانى وانه لاقى من الشده ونقص العده ووصل المشقه وقطع الشقه ما أضعفه وأوهاه وألهبه وألهاه وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ويكون مصرعه هنالك ولا يرجع ويمت بما به كاده وانه بلغ فى أذاه اجتهاده ويطلب رسولا يدرك به من السلطان سولا فاجيب فى ذلك الى مراده ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتداده

((ذكر حريق المنجنيقات))

وفى رجب من السنة أنفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال فى الرجال فاعطى عشرة آلاف راجل فى يوم واحد ليجدوا معه فى القتال وضايق مدينة عكاء أشد مضايقه وأخذ القومص والكندود بذلك موافقه ونصب عليها كل منجنيق من الرمى غير مفيق رجومه للشهب بالشياطين ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين فهى مجانيق مجانين وميادين ثعابين ومسارح سراحين

فاشتد على أصحابنا بالبلد وقعها واحتد على صقعهم صقعها وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص فاجمعوا على الاقدام وأقدموا على الاجتماع وأخذوا بالارتياء فى ترك الارتياع وخرجوا بالفارس والراجل وأموا بالحق أمة الباطل وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والستائر المضروبة الى خيامهم وخلفوها من ورائهم واللقاء من قدامهم فلما خلت المنجنيقات ممن يحميها خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها فاحترق جميعها وغرق فى بحر النار صريعها وقتل فى ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا فى اللقاء وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء وأسر منهم خلق كثير من جملتهم أربعة من المعروفين فيهم فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه حتى قتلوه ونبذوه فطلبه منهم الفرنج بالاموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه اليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا فباتوا يندبونه نوحا ويذيعون سر تقدمه فيهم بوحا فخمدوا بعد ذلك الضرام وركدوا بعد هبوب ريح المرام وضربت عليهم الذله وشجتهم عقودهم المنحلة وعقولهم المعتله وطمع فيهم الناس وعرا طمعهم الياس وصارت الخنادق تهجم والستائر تهتك وتضرم والحدود بالصقال تثلم والحدود بالنصال تلثم الى ليلة شعبان من السنه فآبت بالحالة الحسنه فان أصحابنا خرجوا على غره ومضوا الى القوم بانكاء مضره واحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبا بعد كل استظهار وأنفق على أحدهما كندهرى ألفا وخمسمائة دينار وكانت الليلة الاولى من شعبان مباركه ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركه

﴿ذكر وصول بطسة بيروت فى العشر الاخر من رجب﴾

قد تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فنيت وان الافكار باستدعائها عنيت وان الاجسام لفقدان قوتها ضنيت وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة من مصر بالغلات فرأى ان ذلك من تقصير الولاة وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا ويجعل له أجلا موقوتا فكتب الى والى بيروت عز الدين أسامه ان يجهز فى كل ما به عز الدين السامه ويعطى ويتزكى ويحتال فى انفاذ ميرة الى

عكا فعمر بطسة كبيرة وأعدها وأجد من عزيمته الماضية فيها جدها وتولاها بخلق سمح وملأها بأربعمائة غرارة قمح ونقل اليها أنواع الطعام وأصناف الادام وقطيعا من الاغنام وهذه بطسة من الفرنج مأخوذه وهى بساحل بيروت منبوذه فأمر السلطان بترميمها وتتميمها واخفاء البغية منها وتكتيمها وأزيحت منها العله ونقلت اليها الغله وملئت بالشحوم واللحوم وبكل ما تدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم وحمل فيها من أحمال النشاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت ورتبت فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو فى البحر وأن لا ينكشف للفرنج مالها من الستر فتصوروا رهبانا وصوروا صلبانا وسحوا لحاهم ومسخوا حلاهم وتمثلوا وتنكروا وتشبهوا بهم فى كل بزة لئلا يتخوفوا وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها فى البحر مراكب الفرنج مختلطين والى محادثتهم ومحاذاتهم منبسطين والقوم لجهلهم لا يشكون انهم من أهلهم ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث وتصور الطيب بصورة الخبيث ولما حاذوا بها عكا صوبوا نحوها وازجوا سوقها والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ما هذه طريقها وهى كالسهم النافذ قد سدد فوقها وقد عقد رفقها وهى تكاد تعوقها فدخلت الثغر وادخلت اليه كل خير وعجب الناس منها وما تم لها من حيلة فى سير واجتزأ البلد بها شهرا ووجد منها الكل كسر جبراء فيالها من لطيفة قضينا منها الارب ولم نقض منها العجب

﴿ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا ظهر

يوم الاثنين رابع عشر شعبان﴾

كان السلطان قد كتب الى النواب بالاسكندرية على وجه الاستظهار بان يشرعوا فى تجهيز البطس الكبار ويملؤها بالغلات وأصناف الاقوات ويعمروها بالكماة الحماة الرماة ويرسلوها عند موافقة الريح الى الثغر فانه خلصت اليه ولو واحدة منها أغنته بعد الفقر وعادت لايام على هذا الامر

واستبعد وصولها مع امتلاء البحر بمراكب الكفر وكاد اليأس يغلب والرجاء يضطرب وو ردت كتب أصحابنا بعكاء انه لا يبقى لنا ليلة نصف شعبان قوت ولا شك ان كتاب أجلنا الى هذا الامد موقوت فاشفقت النفوس واستشعر البوس وألمت القلوب وألمت الكروب ولجأنا الى الله الذى يجيب المضطر اذا دعاه ولا يخيب من رجاه ولا يضيع من استرعاه فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة ثلاث بطس كانهن الاعلام واستبشر بظهورها الاسلام وقد زفت عرائس جواريها الحسان وخفت رواسى سواريها الثقال وذكرت بقوله تعالى وهى تجرى بهم فى موج كالجبال والريح تطردها طرد النعام والماء يرسلها على رغم أنف أهل النار الذين هم أضل من الانعام فتراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشوانيها وأحاطت بها تقاتلها من أقاصيها وأدانيها وهى تشق عليها وتسبقها وتعوقها عنها وتعقها حتى برت منها البر الايمان الايمان وهزأت بتلك الاكمات المطيفة بها اجبالها الرعان وعبرت والكفر خزيان ينظر ونهضت بالعز والعدو فى ذيل الذل يعثر ووصلت الثلاث وهى سالمه والمثلثة راغمة والموحدة غانمه وقد فرج الله بها غمة الثغر ودفع ما ألم به من الضر وحمدنا الله على الموهبة التى أدركت الارماق وأدرت الارزاق وتلافت الارواح من التلاف وحملت عن النفوس المشفية مشاق الكلف

((فصل من كتاب الى سيف الاسلام فى هذا المعنى))

كان كتب الينا أصحابنا بعكاء اننا حسبنا والى ليلة نصف شعبان لا يبقى لنا شئ نقتاته وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فواته فبينا نحن فى هذا المهم مفكرون ومن هذا الهم متنكرون اذ ظهرت للعيون بالقره وللقلوب بالقرار والمسره ثلاث بطس على ثبج البحر مستقره يبعثها لطف الله بعثا وتحثها الريح القوية حثا كأنها جبال باقبالها تروع ونسور أجنحتها القلوع وشرع الفرنج بها فضاقت مذاهبها وبرزت مراكبها ودبت عقاربها وقربت من البطس شوانيها وقويت فى البطش أمانيها وحمى ما فيها من فيها من الرجال وهى تجرى بهم فى موج كالجبال وكان جواريها عرائس يزففن بما لهن من الجهاز وكان البحر المتموج ثوب بتلك

الاعلام المنشآت معلم الطراز بل كانها تجار تحمل الصدقات الى ذوى الاعواز فجاءت فجأة متسقة موسقه وأتى الاتى بها موافقة موفقه فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شينى شانئ وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كالئ وجارته والكفر خزيان ينظر وفازت بالعز والعدو بذيل الذل يعثر وكان وصولها أوان انفاض الازواد وانفادها فملأت المدينة بغلاتها وأزوادها وعصمت أرماقها ودمثت امرافها وقسمت أرزاقها وأشبعت جوعها وشعبت صدوعها وأنالت آرابها وأزالت اجدابها وخصتها بخصبها وسحت لها بسحبها فأفاقت من الفاقه وأفرقت من الفرق وسكنت بعد القلق وعاد اليها بعد الغسق اسفار الفلق والحمد لله المغنى بعد الاعدام المدنى السنا بعد الاظلام المفنى بأوليائه أعداء الاسلام

((ذكر عيسى العوام وما تم عليه فى العشر الاخر من رجب))

وكان رجل يعرف بعيسى العوام قد تردد بالكتب والنفقات الى عكاء ومنها فى ذلك العام وكان ناصحا أمينا بحفظ الاسرار ضمينا يسبح ليلا فى البحر ويعبر على مراكب أهل الكفر ويصل بما معه الى الثغر ولكم خاطر بنفسه فسلم واعتورته أسباب المتالف والآلام فما ألم واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بما فى طريقه من أخطار وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار ومعه من نفقات الاجناد ودائع ومحقرات بضائع فعدم ولم يسمع له خبر ولم يظهر له أثر فظنت به الظنون وما تيقنت المنون وكانت له لاشك عند الله منزله فلم يرد أن تبقى حاله وهى مجملة محتمله فوجد فى مينا عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها وأذهب حق اليقين من الظنون باطلها وبرأه الله مما قالوا وأحال الذى عليه أحالوا فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس وتعجب من حاله الناس فلم يذهب بذهابه الذهب الذى صحبه وطهره الله من الرجس وعنه أذهبه

((ذكر وصول ملك الالمان الذى قام مقام أبيه الى الفرنج بعكاء))

ذكرنا حديث الالمانى وملم حادثه وما أداه اليه من دواعى كفره وبواعثه وكان مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خامس عشرى رجب ولقى فى طريقه على

اللاذقية الشجى والشجن والشجب وآذن ضعف خيلهم بضعف ويلهم ووجدت لهم ما بين اللاذقية وجبلة ستون سبعون فرسا قد عطبت وعلى أعواد عظامها سود الغرابيب خطبت وقد استقبله المركيس وقصده التأنيس وان يهديه بضلاله الى الطريق التى تؤمن طوارقها ويتسع عليه فيها مجال الامن وان سلكت مضايقها فوصل به الى طرابلس فى العشر الاول من شعبان و وصل خبر وصولهم فى سادسه الى السلطان وحزرهم من شاهدهم فى الطريق بخمسة عشر ألفا وسمعنا فى حزرهم بالقليل والكثير خلفا ثم انتقل فى البحر الى عكا فى موضع الحصر و وصل آخر النهار سادس شهر رمضان بعد ان عاين فى البحر من اختلاف الهواء الهوان فلم يبق له وقع ولم يحصل لخرق القوم به رقع وأقام بين جنودهم كاسد كنودهم وقال الفرنج ليته لم يصل الينا ولم يقدم علينا فانه لو فى أقام موضعه وأمدنا بفيضه من منبعه لهيبت عظمته وعظمت هيبته وأرعب روعه وراع رعبه ورجى منا وخشى من المسلمين قربه وقد قطع بنا منذ وصل وحص لنا جناح نجاح حصل ووصل فى البحر وحده ولم يستصحب جنده ثم وصل اليه لاصحاب وتقطعت بهم الاسباب ثم رام أن يظهر لجيشه وقعا ويبدى له نفعا ويشير لنقع غلة ثاره نقعا فقال الامر القعود عن القوم وما بقى الا النهوض اليهم من اليوم ولا بد من ضرب المصاف معهم وانى على الخروج اليهم لادفعهم فقالوا له أنت ما أرثت وهج قتالهم ولا أثرت نهج نصالهم ولا حزبت بحزبهم ولا كربت بكربهم ولو حزبت بحزبهم لاصحب جامحك جماح صحبهم فابى ونبا وشب الشبا فلما عرفوا جهله وان صعب الامر عنده ساوى سهله قالوا له نبتدى بالخروج الى البزل فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم فى الشرك فدبوا فى راجل كرجل الدبا وخيل أغصت الوهاد والربا ومرجوا فى الموج وطووا تلك المدارج طى الدرج وأشعلوا الخرصان فى ليل النقع عوض السرج وقربوا من تل العياضيه وعليه خيم اليزكيه والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصريه والعصبة الموصليه فلما بصرت بهم ثارت اليهم ودارت عليهم وأنهضت بنات الحنايا من خدودهم الى الخدور وأوردت ظماء الظبى

منهم ماء الناموس وأنبعث بالنبع من عيونهم العيون واستخرجت بالضرب من أعناقهم الديون وطيرت باطارة السهام الى الاحداق بهم الاحداق وخاطت الآماق وما أخطأت الارماق وصار كل سهم سهم شهم وخطر فى محل خاطر أسرع من وهم وركب السلطان من خيمته وتقدم الى تل كيسان و وقف ينهض بعد الفرسان الفرسان فلم تزل وجوه البيض تحمر وثنايا السمر تفتر وذيول النقع تنجر وصفحات الجو تغبر وارجاء رجاء النصر تخضر الى أن جن الظلام وكف الكفر وسلم الاسلام وكانت الدائرة على الكفره فأعرضت بالوجوه المتنكره وأبنا بالانوار المسفره ومر الالمانى متألما ومن ظلمة حاله متظلما وبكلوم قلبه متقلبا متكلما وقد عاين ما لم يأته من العناء وشق عليه ما شق من اثره من الشقاء وبلى مما بلى به من البلاء وعلم ما جهله واستصعب ما استسهله وذاق ما ضاق به ذرعه وكاد يتم فى القتلى رصعه لو تم صرعه لكنه تجرع من الغصص ما سهل عليه الموت جرعه وتاب وما تاب وأبى الرجوع الى اللقاء لما آبه وحينئذ جدوا فى قتال البلد وحصاره واتباع ليل الجد فيه بنهاره

((ذكر برج الذبان))

وعند ميناء عكاء فى البحر برج يعرف ببرج الذبان وهو فى حراسة المينا عظيم الشان وهو منفرد عن البلد محمى بالرجال والعدد وقصد الفرنج حصاره قبل مجىء ملك الالمان فى الثانى والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام وآلات أبرزوها ومكر مكروه ودبر دبروه وبغى غى بلغوا غاياته وريب رأى رفعوا راياته وشر شرك الهبوا شراره وأيد كيد أرهفوا غراره وعنان عناد أطلقوه ولسان ضرام أذلقوه ويد بطش بسطوها وعقلة معالقة أنشطوها وأحدثت المراكب قد ركب برج على رأس صاريه لا يطاوله طود ولا يباريه وقد حشى حشاه بالنفط والحطب وضيق عطنه لسعة العطب حتى اذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته أعدى اليه بآفاته ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الستائر والاخشاب ما به التصق وتستولى النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها ولم يقربوا منها فسهل عليهم فيه الاسلاق ولم يصعب

ـبه التعلق وملؤا بطسة أخرى باحطاب يسرى فيها النفط ويسرع بالهاب حتى يوقدوها وعلى السفن التى لنا بالمينا يوردوها فيعدى عدوانها وتنير وتسدى فيهم انيرانها وهم فى مراكب من ورائها للحرب مستعدون وللشر مستمدون حتى اذا تم برجائهم فى البرج والمينا مناهم نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور وصار الصارى ملاصق السور جاء الامر بعكس ما قدروه وأخفق ظنهم للادبار فيما دبروه فان الهواء كان شرقيا فلم تجد نارهم فى مطار برج الذبان رقيا بل اشتعل برج الصارى وتراجعت ناره الى أهلها وعاملت ذوى الجهل بجهلها وأوقدت بطسة الحطب من ورائها وتطايرت اليها شعل اذ كانها وعادت على الفرنج فالتهبوا وحمى عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يفرقوا واحتمى برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه ذباب ولم يفتح للعدو فى الكيد له باب

(فصل مشبع فى المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الى سيف الاسلام باليمن)

وأفكر الافرنج فى أمرهم وأجالوا اقداح الرأى من مكر مكرهم وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان منفرد عن البلد فى وسط البحر منقطع المكان واذا أخذناه تسلطنا على مراكبهم التى فى المينا واذا لم نؤثر بحيشنا تأثيرا فلاى سبب جينا ومن حديث هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه وهو قفل مينا الثغر على مراكبه وقد رفعناه وأعليناه وبالعدد والرجال قويناه وبالجرخية والرماة والزراقين والمنجنيقية ملأناه وبكلاءة الله وعصمته اياه عصمناه وكلأناه وقد حاموا حوله حولا فلم يجدوا على نيل غرض منه قدرة ولا حولا فعمدوا الى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالا كانه سلم وهو فى مقدمها مركب مقدم وقد جعلوا بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السلم على شراريفه وصعد الرجال اليه فى تجاويفه وتعبوا فى ذلك أياما وأشبعوه توثيقا واحكاما وهو بمرأى من الاصحاب ينظرونه وينتظرونه ويبصرونه ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه

والقوم قد أصبحوا بتلك البطسة زاحفين وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين حتى اذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط وتوالت أمطار البلايا من الجروخ والجارات والمنجنيقات على اولئك الرهط ووجدت النار بسطة فى البطسة ولم يسلم السلم وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذى ألم بها وآلم وقتل منهم من باشر القتال ونزل العذاب بمن حاول النزال والحمد لله الذى آيات ظهور دينه متتابعة ودلائل نصر أوليائه متظاهرة ثم عمل الفرنج برجا عاليا فى أكبر مركب وحشوه بالحطب وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق ويتأتى له فيه الاحراق وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه جوانى النيران وقصدهم بذلك احراق ستائر البرج المنصور ورأوا ان فى ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت فيها النار تعذر على رجاله القرار وتجعل منهم للعذار الفرار وكادت الستائر تشتعل والخواطر تستغل والحال تضطرب والبال يلتهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم فأهب الله من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس وأكبت الفرنج على الوجوه والرؤس ونحس جدهم وانعكس قصدهم وانقلبت الريح التى لهم عليهم وصوبت مرامى العذاب اليهم

(فصل فى المعنى)

ولما وقم الله القوم قالوا لا طاقة لنا اليوم وعادوا وقد غرموا ورغموا وأخلف ما عزموا وزعموا واشتغلوا بعمل بطس لهم شحنوها أحطابا وأدهانا وأخشابا واشعلوا فيها النار وألهبوها وأرسلوها الى مراكبنا فى يوم ريح عاصف وصوبوها وأدنوها منها وقربوها وكادت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق فأنزل الله الفرج وقت الشدة وآمن من المخافة المحتدمة المحتدة وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقة وحالت تلك الحالة العادة خارقة فاحترقوا بنارهم وشرقوا بعارهم وجذبت بطس أولئك الكلاب بالكلاليب وتوالت الطاف الله فى تلك النوب المتناسقة مطردة الانابيب مستهلة الشآبيب

﴿ذكر الكبش وحريقه بعد تعب العدو في أحكامه وتسويته طريقه﴾

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائله وآلة للغوائل غائله في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين أقفال الاسوار المغلقة بها تفش فكم سور اذا نطحته طحنته وكم معقل حصنه الدهر حصنته وصحنته وهذه الدبابة في هيئة الحربشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها باعمدة الحديد وكملوا لها أسباب الاحكام الشديد وألبسوا رأسي الكبش بعد الحديد بالنحاس وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس الباس فلم يبق للنار اليها سبيل ولا للعطب عليها دليل وشحنوها بكماة المصاع وحماة القراع ورماة الحدق وكساة الحلق وعفاة الحتف وجفاة الزحف ومجتابي الزغف ومجتني العسف من كل مرحان لا ينظر الا من جلد أرقم وكل شيطان لا يقتحم من الحرب الا جهنم وكل شجاع لا يعتقل الا شجاعا ولا يرى لغير النجيع القاني قنعاء ولا انتجاعا فلما استتمت لهم هذه الدبابه وماجت بالحديد لجتها العبابه وأطافت بذلك الكبش تلك التيوس النبابه وأمنوا عليها الحريق وأموا بها الطريق سووا بين يديها الارض ومهدوا الطول منها والعرض وصحبوها حتى سحبوها وقربوا بها أعينا بل أنفسا وقربوها فجاءت صورة يزعج مرآها وروضة يعجز مرعاها وآلة تروق هيئتها وعدة تروع هيبتها وبلي البلد من دنوها بالبلاء الداني وتغاشت وتعاشت دونها نفس الرامي وعين الرائي وقال أصحابنا هذه ما في دفع خطرها حيله ولا للبارق الظفر بها مخيله فكيف العمل وفيم الامل ومن للكبش العظيم وقطع راسه ومن لبناء الحديد ونقض أساسه فان كانت هذه الدابة دابة الارض فما هذا أوانها وما حان زمنها ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام برهانها ونصبوا على صوبها مجانيق ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق فأبعدت رجالها من حوالها وطردت المطوقين بين يديها ثم رموها العزم بحزم الحطب حتى طموا ما بين القرنين بجرزه وقذفوها بالنار فترنم في أثنائها عجاج اللهب بزجره ودخلت من باب الدبابة فاشتعلت نارها فلوعها وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها وجاء

الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبيات يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات فأطفؤا نار الظاهر ولم يعلموا بنار الباطن ولم يحسوا بما تمكن من اضلاعها من الحرق الكوامن وحين أخمدوا الجمر أخمدوا الامر ورجعوا ولم يزل اللهب يأكل سقوفها حتى نزل على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها وحينئذ خسفها المنجنيق فانهد ذلك النيق وصوح ذلك الروض الانيق ووهن ذلك التركيب الوثيق ونفقت تلك الدابه واحترقت تلك الدبابه وخرج من بالثغر المحروس باشري الوجوه طيبي النفوس وقطعوا رأس الكبش واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش وحمل كل من الحديد ما أطاق حمله واستطاب لثلج صدره وبرد يقينه حره واستخف ثقله وقدر ما نهب من الحديد مائة قنطار فقل في آلة استبت هذا المقدار وهو أعظم مقدار وعاد أصحابنا على عدوهم ظاهرين وللحزب الكفرة قاهرين وكلهم ينشد وهو ينشئ وينشد جدا وحدا

نازلت كبشهم ولم * أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط وسخط الشيطان واستشاط الساخط وعلم الفرنج حين حبطت أعمالهم وهبطت آمالهم ان الشقاء أدركهم والشقاق أهلكهم وان مدبرهم مدابر وان تربيهم مدمر وان آلاتهم غير نافعه وان نهلاتهم غير ناقعه والحمد لله ذي الطول العميم والفضل الجسيم الذي نعش عثار الثغر بعد ان تل للجبين فتلبنا قوله تعالى وفديناه بذبح عظيم وكان ذلك في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان واحترقت البطسه يوم الاربعاء خامس عشره

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عساكر الشمال يقدمهم ذو القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب وقد استصحب معه الاجناد وجلب فجاء عشية وجدد بلقاء والده عهده ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء بقدم جنده ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر وقد استكثر معه واستظهر وعز الدين بن المقدم ذو القدر الافخم والنجر الاكرم وحسام الدين حسين باريك وجماعة من الامراء من ذوي المكانة والبسالة والغناء وقدم الملك الامجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك وقد استصحب غلمانه

الا كاديش ومماليكه الترك وكان لذلك اليوم رونق وصفاء لم يشبه رنق واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد في الخلق العظيم جحيميين يلتهبون بنار الجحيم وتركهم أصحابنا حتى قربوا من السور وأقدم العدو اقدام المتهور الجسور فلما ازدحموا وكثروا واضطرموا واستعروا غنت لهم الاوتار بين القسي فطاشت لها السهام ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا فلباها في لباتهم الحمام وزارتهم من الزيارات بالجروح وأخذت نيرانهم تبوخ ورضتهم المجانيق بالاحجار وآذنت عيون نجيعهم بالانفجار وخرج أصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام وفلوهم بحد الاقدام وأفضى الحرق بالعدو الى الخرق وأخلقت بجدة جدنا جدة أولئك الخلق

((ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت))

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب ان صاحب انطاكية أغار على غره بشره وبشره ووصل الجاسوس بخبره وعم البلاد مشرفة عليه من خطره فرتب أصحابنا له كمينا ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا فقتلوا أكثر رجاله وأفلت وباله في وباله وانهاض من تلك النهضه وضعف من تلك العضه وفي هذا التاريخ القت الريح الى ساحل الزيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتغريب وفيها امرأة محتشمه غنية محترمه فأخذتا وأخذوا وأخذت ووجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت وسرنا ما ساء العدو وآتانا الله من احسانه المرجو

وفي عشيه الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا الى منزل يعرف بشفرعم وخص بهذا الرحيل النفع وعم وكان سبب ذلك انه أتى المستأمنون الينا من الفرنج وأخبروا انهم في عزم الخروج الى المرج هائجين للثار ثائرين الى الهيجاء مائجين في دأماء الدماء لحب اللقاء وصح هذا الخبر وصدق ووضح الحق وتحقق فاحضر السلطان الامراء الاكارم ورجال الحقائق الضراغم الذين هم له اعوان صدق لساعات أيامه وذخائر نصر عند اعتزامه فاستشارهم واستثاركوامن صرائرهم واستنبط دفائن ضمائرهم واستكشف منهم الصواب وتعرف

من جانبهم الجواب فقالوا الصواب ان يفسح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداقا لعساكر وانهم الا يقدرون على القصد دفعة واحده الا اذا كانت أيديهم متساعدة وآراؤهم متعاقده فان انفردوا عن الراجل وساقوا كسرناهم وأسرناهم وان توقفوا للراجل قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم وأجمعنا على أن نرحل الى شفرعم ونخيم على هضابه ونبطل على العدو ما كان من البيات في حسابه فخيمنا هنالك على أحسن تعبيه وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه ورحبت المنازل وعذبت المناهل وعادت معالم تلك المجاهل وحللنا التلاع والآكام وركزنا بتلك الاعلام الاعلام ونزلنا المقام الشتاء مستعدين ولاسباب التوقي من الامطار مستجدين واضحينا على تلك الاطواد موطدين وعند تلك الاوتاد موتدين وتسنمت تلك الفروع وفرعت تلك الاسنمه وتمكنت تلك البنى وبنيت تلك الامكنه وتحركت تلك الجبال بسكانها وأحبت الرجال التوطن بها وسلت عن أوطانها ودارت الاسواق ودرت الارزاق وأنارت الآفاق وصهلت الصلادم على معالفها وصقلت اللهاذم لمراعفها ونوب اليزك بحالها تدور وترود وتعيد رسم الحفظ والحماية وتعود والحرب تتناوب والزحف يتعاقب والاقران تتواقع والوقائع تتقارب والاعوان تتعاضد والاعضاد تتعاون والعتاق بصهيلها طالبة الطراد تحمحم والرقاق بصليلها السوق الجماجم تجمجم والمقربات للاجراء صوافن والضوامر للشد ضوامن ومتى المناصل صلة القطع ورجاء الرجال نبع النصر في قرع النبع بالنبع والتوحيد للتثليث منازل والايمان للكفر مقابل ولا كلام الا الكلام ولا سلام الا بالسلام فلا يسمع الا أسرج والجم وتقدم وأقدم وأصم وصمم وأضر وأضرم ولا تله حتى تلهب ولا تعج حتى تجب واقطع وصل واكتل بصاع المصاع وكل ولا تنقاف واتق وقاتل ولكل داع اجابه ولكل ساع اصابه ولكل سهم في المرمى فوق ولكل شهم في المرام سوق ولكل صعدة في الطعان صدعه ولكل قعدة للرماء قدعه ولكل عقدة بالضرب حل ولكل عدة في الحرب فل

ولكل عضب عض ولكل ذى حظ حض ومن له نصيب فى الشجاعة تسبب فى التشجيع ومن له جرأة الهيجاء هاج الى الصريح بالجد السريع والايام منا على هذه الحالة مندرجه ومياه الحديد بأمواه الوريد ممتزجه والفرج منتظر والنواظر متفرجه وتباشير صباح الصفاح فى دياجير القتام متبلجه ولله نعمة فى كل بليه وسر فى كل قضيه

﴿ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل﴾

فى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى شهر رمضان وماجرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الامير ومايتحلى به من الكرم والخير وهو يوسف نيال تكين بن على كوجك ومن سعادة جده ماطلب غاية فى الكرم الا أدرك وما كان أمره يوم الحضور وأخطره بوفاته للسرور فلقد كان جارا للكتائب بارا بالاباعد والاقارب سارا باسداء المواهب دارا بأخلاف الرغائب مارا فى سبل المناقب قارا على قلق النوائب وكان فى ريعانه الرائع وشعاعه الشائع وشبابه الطرى طرير الشبا وحبه لعقد السودد معقود الحبا فمرضت الايام بمرضه أياما وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد أمست مراضا ضراما وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ولم يسكن الى طبه لما كان يعلم من منافسة أخيه مظفر الدين فى موضعه وانه يتعش بمصرعه فاكتفى بصاحب له يطبه يوافقه على مايحبه وهو جاهل بمزاجه ذاهل عن علاجه فشب الحمام فى حمى شبابه ناره وأذوى غصنه غداة قلنا ما أزهى أزهاره وما أنضر نضاره ونقله الله من جناب الحياة الى حياة الجنان وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان وحوله من بين الاتراب الى التراب ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثواء بالثواب وآذن الزمان بعد الاجداء بالاجداب ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه وماظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه وقصدناه معز بن على ظن انه جلس للعزاء فاذاهو فى مثل يوم الهناء وهو فى خيمة ضربها فى مخيم أخيه واحتاط على جميع مايحويه ووكل بالامراء أصحاب القلاع ليسلموها وخشى ان يعصوا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ونزل عن حران

والرها وسميساط والبلاد التى معه وأعادها وزاده السلطان شهرزور وأحكم عسيره الاسباب والامور فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقى الدين لينزل فى منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال فحلى بعد العطل الاحوال وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجرشاه وذهب مغاضبا وكان السلطان له فى الانفصال عاتبا فاعاده تقى الدين من الطريق وقبح له مااستحسنه فى ترك الموافقة من عدم التوفيق وكان هذا سنجرشاه دخل يوم العيد بكرة للهناء فاستأذنه فى الانكفاء فخرج على حالته وسار وتبعه أصحابه ولج جماحه وتعذر اصحابه فلما اجتمع به تقى الدين رده وبذل فى صيانة منزلته عند السلطان جهده وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام وجد فى الاستئذان فى الرحيل منه الاهتمام وصدق الاعتزام وتقرر ملاله وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان

من ضاع مثلى من يديه فليت شعرى ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ماراوح فى الخطاب ولاغادى وغلت الاسعار عند الفرنج واستعرت الغلل وأعلهم ماعراهم وعرتهم العلل وباؤا بالوباء وبلوا من البلاء وغلوا من الغلاء ونضوا من الضراء وشق عليهم استمرار الشقاء وعمت المجاعة الجماعه وعدموا الطاعة والاستطاعه وزاد جوعهم وزال هجوعهم وقصرت عن القرار بوعهم وأمحلت ربوعهم واستحال رتوعهم وبعثهم الرهب على الهرب واقعط على الشحط لكنهم أقاموا على الموت واستناموا الى الفوت وبلوا بأمور صعبه وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبه وقد بادوا من الضعف البادى وأعداهم الضر العادى فمن سألناه عن مقتضى فراره ومقتضى قراره يخبر انه طواه الطوى فنوى النوى حين التوى من حذر التوى وقد أنساه المحل الدخل وأبغض اليه حب السلامة الولد والاهل وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم فى استعار فما جاء الا كل ضعيف لايقوى على النزاع والنزال ولا مسكة لاعتلاق رمقه من الاعتلال فقبلناهم وأنفقنا فيهم وألفناهم بما يكف ضرهم ويكفيهم

فتقوتوا ونقووا وأثروا بعدما أقووا فمنهم من أسلم وخدم ومنهم من ندم وتندم
ومنهم من غدا بجريرة وعاد ومنهم من ناصح فاستفاد

(ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء)

ولما ضاق بالقوم ذرعهم وأشرقهم جرعهم وعرقهم عرقهم وأخلفهم خلف عيشهم وضرهم ضرعهم وعيل صبرهم وعال ضرهم قالوا نخرج ونبلي ونصل ونصلي ونقصد ونصدق ونلاقي ونقلق ونفل ونفلق ونعز ونعزم ونهز ونهزم ونجري ونجتري ونبري ونبتري ونزحف ونحفز ونزعج ونعجز ونجهد ونجهل ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونثور ونثير وندور وندير وننتصف وننصف ونعفر ونعف ونقرح ونحرق ونعقر ونعرق ونخرج ونحرج ونلج ونلجج ونضري ونضرب ونغلي ونغلب ونجني ونجني ونثقف وننفي ونرد ونردي ونجد ونجدي ونقد ونقدم ونعد ونعدم ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ونصر ونصرع ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبدو ونبيد ونتصدى ونصيد ونظهر ونظفر ونرهق ونقهر ونقسو ونقسر ونسكر ونكسر نفرجوا في عدد خارج عن العد واستقاموا مع الاعوجاج على جد الجد وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد أن رتبوا على البلد من لازم القتال وأخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها واستصحبوا أنجاب الكريمة وأنجادها وكان النزول على تل العياضية فركبوا وأشعلوا القوم بنيران النصال وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هنالك والجنة الحامية المنبعثة على تلك البعوث ما تركت الاتراك فباتوا حول القوم يرمون ويدمون ويشوون ويصمون ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل الى ناحية القيمون وثبت الله القلوب على الأمن والسكون وبقي الناس على خيلهم جرائد وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا وقد عب عبابه زاخرا وهب غابه زائرا وطما بحره مائجا وسما جره مارجا وعساكرنا في أحسن تعبيه ولدعاء القراع في أوحى تلبيه وقد امتزجت زجرات الجاويش بشعرات الجيوش والميمنة الى الجبل ممتده والميسرة الى النهر بقرب البحر

وصفوفها مشتدة ممتده والسلطان في القلب كالقمر في الهاله عليه اكليل من أنوار الجلاله فسار حتى وقف على تل عند الخروبه على المهابة الحاليه والحالة المحبوبه ومقدمو ميمنته عظماء دولته صاحب دمشق ولده المبجل الملك الافضل وصاحب حلب الملك الظاهر وصاحب بصرى ولده الملك الظافر وأخوه الملك العادل في آخرها والامراء بعساكرها يلي حسام الدين بن لاجين قايماز النجمي صارم الدين والامير بشارة صاحب بانياس وهو الذي لا يرجو منازلته الامن فيه بأن الياس ثم بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر وقد حط المباشر الاسلام عما باشر وعدة كثيرة من الامراء يطول ذكرها على انه يطيب نشرها وعظماء الميسرة ومقدموها وأمراؤها ومقدموها الملك عماد الدين صاحب سنجار وهو العادل للاسلام وعلى الكفر جار وابن أخيه معز الدين سنجرشاه صاحب الجزيره والملك المظفر تقي الدين ذو السطوة المبيدة المبيره وسيف الدين على المشطوب الذي تشب بناره الحروب وتصب على العدا منه الكروب والهكاريه والمهرانيه والحميديه والزرزاريه وأمراء القبائل من الاكراد أقتال القتال وأجادل الجلاد ورجال الحلقة المنصورة واقفون في القلب لابسي الحلق السرد خائضي بحر الحرب من كل فارس فراس وهرماس رماس وضيغم ضاغم وضرغام غارم وليث قضقاض ملوث بفضفاض وقسور قاسم وهزبر زابر زائر وأسد في غاب الأسل وقارع في القراع باب الأجل وقار ثعالب الخرصان وذباب الظبا من دم الأقران وقار على الثبات على قلق ثبات الشجعان وقارئ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ثقة بوعد القرآن وقارن حج النجح بعمرة عمره وبذله في الجهاد للتمتع بعمر الجنان وسابق الى حلبة الشهاده وسامق على ذروة السعاده وملابس للروع مباسل ومماسل كالذئب الى ذب العدى عن الهدى بعاسل وسار الفرنج شرقي النهر لنا مواجهين وللكريهة غير كارهين حتى وصلوا الى رأس النهر وأشفقوا من بأس القهر فانقلبوا الى غربيه ونزلوا على التل بينه وبين البحر والجالشية الرماة منه حولهم جائله وعيون أعيانهم على نصال الناس مائله وجرح في ذلك اليوم وهو

الثلاثاء خلق من أهل التثليث وما نباعن كثير منهم ناب النائب الكريث والسلطان فى خيمة لطيفة بحيث يشاهد ولله منه المجاهد المجاهد وأصبح الفرنج يوم الاربعاء راكبين وعن سبيل اللقاء ناكبين ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار والراجل مطيف محدق بهم كالاسوار وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم وأرادوا يباسطونهم والسلطان يمد الرماة بالرماه والكماة بالكماه وهم ثابتون ثابتون ساكنون ساكنون ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون فنتمكن من تفصيل جملتهم بجملتهم وتفريق جماعتهم وتفريج الغمة بنزع جمتهم وأحس العدو بالضعف وانه متورط فى الحتف فسار موليا ولعذره لذعره مبليا ومضى على مضض ومر بأشد مرض والنهر عن يمينه والبحر عن يساره وقد أيقن ان صح منه الثبات بانكساره وعسكرنا يصافحهم بالصفاح ويكفهم بالكفاح ويشعلهم بجمرات السهام ويلهبهم بجذمات الضرام ويحرقهم ويشويهم ويصميهم ويشويهم ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب ويخيض فى دأماء الدماء منهم سوابح السلاهب ويغيض فى ماء الوريد منهم ماء الفرند ويغبط بنى الكفر فى الجمع بين الاختين عليهم ابنتى الغمد والزند وأدبروا مولين وأرخصوا من مهجهم ما كانوا له مغلين وعسكرنا يتبعهم ويلحقهم ويقلعهم وهم مجتمعون فى مسيرهم محتمون فى تقدمهم وتأخيرهم يتحركون فى سكون وينظهرون فى كمون ويتطلعون فى غروب ويتقللون بغروب ويتدوبون فى جمود ويتلهبون فى خمود وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه وطمعوا مدفنه وطمروه حتى يخفى أمرهم ولا يصح لدينا كسرهم ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق وابلى المسلمون فى ذلك اليوم فى الجهاد بلاء حسنا وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا وقام اياز الطويل فى ذلك اليوم مقاما أقعد فيه من الكفرة كل قائم وأنبه به من العزائم كل نائم وكان مقداما همّاما وأسدا ضرغاما يطير وحده الى الروع اذا أبدى له ناجذيه ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه اليه

وهو فى كل يوم يصبح فى سلاحه شاكيا وبنار عزمه ذاكيا ويقف بين الصفين ويدعو الى المبارزة والحين فما يبرز اليه الا من يصرع ولا يصل اليه الا من يقطع فعرفه الفرنج وتحاموه فما راموه بعد ذلك ولا راموه وبذل هذا اليوم جهده وفل فى فل حدهم حده وأصابته جراحات وأصابتهم اجتراحات وكذلك سيف الدين يازكوج ابلى فى الجهاد ذلك اليوم ووقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح وفى قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قرح وأصبحوا بكرة الخميس وقد بكر الخميس وحمى الوطيس وسار فى أسده العريس فأشرفنا عليهم واذا هم داخلون الى مخيمهم سائرون الى مجثمهم فعاد السلطان الى سرادقه حامدا خلائق خلائقه مسفرا فى ليل العجاج فلق فيالقه واستعاد الانتقال الى معسكره واستزاد من الله الاقبال فى مورده ومصدره وفخر بتفرده عن ملوك الارض بعون ملائكة السماء وتفرد بفخره وكان مع الفرنج الخارجين للمركيس والكندهرى وأقام ملك الالمان على عكاء يبرى ويفرى

(فصل من كتاب فى المعنى)

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر وفى مرج عكاء عين غزيرة الماء يجرى منها نهر كبير الى البحر فخرجوا الى شرقى النهر وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد وقد تخلف لحفظ حصره ألوف من أهل الجلد ثم أصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم والاسد سائرة بالاسل فى عرينهم والحمية مشتعلة فى عيونهم وعرانينهم ونزلوا رأس العين وتطرق بهم اليهم من عساكرنا المنصورة طارق الحين ولما أصبحوا وجدوها بهم محدقة وبنيران النصال والمناصل لهم محرقه وكنا نقول انهم يتحركون للمصاف والامر بالخلاف وانهم لسهام المنون من الاهداف وما دارت بهم الا الخيل البشيه تجول وتصول وتصيب وتصوب وتطيل وتطول وكانت الاطلاب واقفة تنتظر رجلاتها وتستعدلو ثباتها وثباتها فلما أبصر الفرنج ما حل بهم من العذاب عدوا الغنيمة فى الاياب وشرعوا فى طريق الذهاب

فعادوا من غربي النهر راجعين وساروا صوب خيامهم مسارعين وأصحابنا وراءهم يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم وقتل منهم خلق وسرى في جيب خيامهم خرق ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين هائبين ورحلوا سحرا خاسئين خائبين وخيولهم الناجية مجرحه وقلوبهم الراجفة مقرحه واشلاؤهم من كسوة الحياة عارية وبالعراء مطرحه وعرفوا ان حركتهم المهلكه وان هلكتهم في الحركه وأقاموا على الضر والزاد معدوم والبلاء لكل منهم منفرد وعليهم مقسوم ولا طعم لهم الا من لحوم الخيل وهم يدعون بالثبور والويل ومع كثرتهم قلوا عناء وضلوا رجاء وذلوا بلاء واعتلوا جدبا وغلاء ولما عاد الفرنج الى خيامهم خائفين من مراميهم مخفقين من مرامهم وأبصر المقيمون بها أصحابنا وراءهم يطلبون ارداءهم متعطشين الى دمائهم يرومون ارواءهم وثبوا على جيادهم وثاروا المراد مرادهم ولاقوا أجمعنا بأجمعهم وفاضوا الفيضنا من منبعهم فاندفع الاصحاب حتى تبرزوا ثم ردوا عليهم الكرة فأثخنوا واجهزوا وقتل في تلك المعركة كند كبير وشيطان لنار شره من سعيره مستعير وطلبوا بعد انفصال الحرب جثته فأعطوها والتمسوا هامته فلم يجدوها وكان رجلا يعد برجال وسلبه قوم بأموال ولولا ما اتفق من الثبات غزاج السلطان ما سلم من سلم من حزب الشيطان ولله في كل قضية سر وفي كل بلية بر

﴿ذكر وقعة الكمين﴾

ومازال السلطان موفقا في آرائه مشرقا بلألاء آلائه ومن آرائه الراجحه ومساعيه الناجحه ومتاجره الرابحه انه رأى أن يرتب على العدو كمينا وعلم ان الله يكون لنجحه ضمينا فجمع يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال منتخبي رجاله ومنتجبي أبطاله وخواص أتراكه وعوام فتاكه فانتخب منهم كل من عرفت سابقته وسبقت معرفته وأحمدت في الجلاد جلادته وفي لقاء العدا عادته وعلمت في الفتك جهالته وأمرهم بأن يكمنوا على ساحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمه فمضوا وأكمنوا ليلة السبت متنبهي الهمة متيقظي

العزيمه وخرجت منهم عدة يسيرة بعد الصباح مناديه بحي على الفلاح ودنوا من خندق القوم ونادوا الا قعود بعد اليوم ومطروهم سهاما وأسعروهم ضراما فطمع الفرنج فيهم وظنت انها تلاقيهم وخالتهم صيدا قد سنح وسربا قد سرح فقطعت خنادقها وبتت علائقها وحثت سوابقها وأخاضت بحر الحرب سوابحها وقد أفاضت سوابغها وشامت صفائحها وتجردت عن رجالتها وتفردت بضلالتها وحلت بجهالتها وأقبلت بادلالها الا بدلالتها وتطارد أصحابنا امامها وانهزموا قدامها حتى وقفوها على الكمين وأوقعوها في الهلاك المبين فخرج الكمين عليها وتبادر اليها فلم يستطع فارس منها فرارا ولم يطق من غرته ان يعدي غرارا وكانت في مائتي قنطاري من كل مقدم باروني وبطل داوي واسبتاري فقتل معظمهم ووقع في الاسر خازن الملك وعدة من الافرنسيسية ومقدمهم وملكوا وسلبوا وملك سلبهم وتقطع بهم سببهم ومارصلهم أربهم وجاء الخبر الينا فركب السلطان وركبنا وساروا وقف على تل كيسان فشاهد من الله هنالك الاحسان وجاءه مماليكه يقودون أولئك الاعزة بخزائم الذل ويجودون بما استخلصوه من ذلك القل ويقدمون المقدمين من سراة الاسارى وتلونا لما شاهدناهم وترى الناس سكارى وما هم بسكارى فقد رضتهم الليوث وقضقضتهم الليوث وبعثتهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث وترك السلطان الاسلاب والخيول لآخذيها وكانت بأموال عظيمة فما أعارها نظرة ولا ردد أمره فيها وفيها حصن كانها حصون وزرد موضون وخوذ منها مذهب ومدهون وسيوف ذكور تتولد منها المنون وملابس رائقات تحار فيها العيون وابنا بالملوك مصفدينا وحمدنا الله الذي بارشاده هدينا وجلس السلطان في خيمته على دست ملكه وقد انتظم له عقد النصر في سلكه فمن كان عنده أسيرا أحضره فأنعم عليه وشكره وكنت عند السلطان جالسا والحبير الحبور لابسا وقد جمع عنده أولئك الاسراء وما أسعد الله الا في تلك الساعة أولئك الاشقياء ودامت محاورته لهم مشافهه وأطعمهم بعدما آنسهم كهه ثم بسطهم ببسط الخوان وأشبعهم وأرواهم ثم أحضر لهم كسوة وكساهم وألبس

المقدم الكبير فرونه الخاصه فقد كان الزمان قد برد وفصل الشتاء قد ورد وأذن لهم فى أن يسير واغلمانهم لاحضار ما يريدون احضاره ولاعلام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال وحفظهم بالقيود الثقال

《فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال》

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشرى شوال كانت نوبة اليزك لاخينا الملك العادل وأشار بانفاذ عدة اليه تكون فى المكمين وتقيم فى المكمن اقامة خادرات الاسود فى العرين فأنفذنا اليه من مماليكنا سرية سرت سرا واستسرت وسرت وقرت فى مكمنها الى ان طابت الانفس بصنعها وقرت ولما أصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين وللمنايا الى ناديهم منادين فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم وأظهروا أنهم قد ظهروا عليهم وهربوا ورهبوا اقدامهم وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم يقوون فيها رجاءهم حتى أبعدوهم عن المأمن وعبروا بهم عن المكمن فخرج عليهم الكمين من خلفهم وفتح عليهم أبواب حتفهم وأروهم وجوه المنايا فى مرايا غرر الجياد ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلاد وفلقوا البيض بالبيض وفلوا الحديد بالحديد وأشعلوا نار الظبا فى ماء الوريد وفضوهم بالفضاء وعروهم بالعراء ولتوهم بالتموت وبتوا أعناقهم من حبل لوتين المبتوت فلم ينج منهم ناج ولم يبق منهم للبقاء راج وأسرت عدة من مقدميهم ومعروفيهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوه وكرة بغير كبوه وغزوة أذنت بأوفر حظوه ووقعة أذنت بل أجنت كل نصرة نضرة عذبة حلوه والحمد لله الذى تزكو أنعمه بسقيا الحمد وتوضح عوارفه لشاكريها جدد الجد ولولا مرضنا فى النوبة الاولى التى خرجوا فيها بأجمعهم لما نجو بحشاشاتهم بل تعجل مصيرهم الى مصرعهم لكنا ما قدرنا فى ذلك اليوم على الركوب وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتظر ما يكون من العسكر المندوب والآن بحمد الله قد توفرت حصة الصحه ولزمت منة المنحه وكذلك مرضنا عام أول شهرين والحمد لله على المهلة فى السنتين فأقمنا مع

السقام وسقمنا فى المقام وصبرنا وصابرنا وجاهدنا وجاهرنا ومقامنا فى هذه المدة المديدة فى بلد الغور والوخم فيه يقضى على ماء الصحة بالغور ونامنا الامن الثاث فأعانه الله بغيث فضله المديمة ديمته الالثاث والحمد لله الذى أعان وأغاث

《ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة والاستعداد》

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق بشمول الشتاء العنيف وانحرف حريف الخريف كانحراف مضيف المصيف واشتعلت رؤس الجبال شيبا للثلج وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج والتحفت كل هضبة ببرد البرد واكتست الغدران من الجليد بالزرد السرد ولبست سود الذرا بيض الفرا وجر السيل الذيل وجرى وطمر المطر هوادى الوهاد وقبض أنامل الانام عن البسط للجهاد وجمد الخمر وخمد الجمر وارتعدت الفرائص وارتدعت الاخامص وقرست الايدى وأمسى الجو بالجوى المسىء يعدو ويعدى وحل الهواء بالوهاد عقود القوى وعقد المترفون على حب الاصطلاء الحبا واشتغل الملوك بملازمة المشاتى ومنادمة المواتى ومناقلة المناقل ومعاقمة العقائل ومعاقرة العقار ومسامرة لسمار ومد اناة الدنان واجتناء الجنان ومناغاة الغوانى ومناجاة المثالث والمثانى وملابسة السوالف والسلاف وملامسة اللطائف واللطاف قلت نار عزم السلطان حد الشتاء العاتى ووقف مع عزائمه الماضيه وهجر من مشى الى المشاتى وما صده البرد عن مقصده ولا رده عن مورده ولم يحتفل باحتفاله ولم يبال ببلاله ولم يكترث بكارثه ولم يحدث أمر الحادثه فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره وجرى على عادته فى مصابرة الاعداء والجرى لها فى مضماره وما الهاه عن الله ولا رفض فرضه وسما الى سماء الآلاء وأرضاه لما طهر بدم أنجاس أعدائه أرضه واستمر على بذل جهده فى الجهاد ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهاد وقال انما أربأ بهذا الارب وأرى راحتى فى هذا التعب ويقينى يقينى فى ثلج صدرى بلطف الله عنف الثلج ومايبرد قلبى

مع تقلب الحر والبرد الابرد النصر والفالج لكنه رأى ان مقام العساكر بجمعها
وصرفها عن العود الى البلاد ومنعها يؤذن باخلالها واختلال أمورها وانحلالها
والفرنج قد أمنت غائلتها وتكفى فى مداومة قتالها فى نوبها مقاتلتها فاذن
للجماعة فى الانصراف على المواعدة فى المعاودة فى الربيع والرجوع الى مراد
الروع المريع وليأخذوا أسباب الاستعداد لاوقات الاستدعاء وليستكثروا
من الرجال المحققين فى نصرة الحق للرجاء من أهل الغنى والغناء والمضارب
والمضاء فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكى خامس عشرى شوال يوم الاثنين
وتلاه صاحب الجزيرة ابن أخيه سنجرشاه ليكونا مصطحبين وسار بعدهما ابن
صاحب الموصل علاء الدين غرة ذى القعده وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع
المعده وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعه وخلعة رائقة رائعه
ومستعملات مصر ومصوغات تبر وخيل عتاق وخير واطلاق

(فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه
وينعت بالملك السعيد علاء الدين)

ما كان أسعدنا بقرب الملك السعيد وما أجددنا بانارة نوره وأوفر حبورنا
بحضوره وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده وما أبهج الاسلام بنصرة
ناصره ونجدة وليه وودوده ولقد تمت بانا من أيامه وبركات مقامه فى العدو
نكايات وظهرت لاولياء الله من ألطاف كفاياته آيات ووقعت بالمشركين
روعات وراعت وقعات وقد أردنا أن نستظهر بمرافقته ونبنى الامور على
موافقته فما أيمن سعده وما أسعد عينه وما أوقر وزنه وأغزر مزنه لكنا
عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه بمقتضى آدابه التى استكمل بها أدوات
الارتقاء فى مطالع علاه فقد فاق بسداد رأيه الكهول وما أزكى الفروع
الطيبة اذا أشبهت الاصول وما أسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين أدام الله
علاءه وسر بفضائله أولياءه وقد توجه والقلوب معه متوجهه والنفوس
لغيبته متكرهه والعيون لترقب ورود البشائر غير متنبهه والايام لظلمة
الاستيحاش بالليالى متشبهه والموارد الى أن عن الله بعود الانس بعودته تسنهه

والالسن بذكر أخلاقه الطاهرة والافاضة فى شكر محاسنه لزاهرة متفوهه
والخواطر فيما غاب عنه أيام الاستسعاد به من مبهجات آلائه متنزهه ولا شك
انه يصف بلهجته الفصيحة ما اقتناه من المتاجر الربيحه وقدمه من المساعى
النجيحه واستنجحه فى الغزاة من مغازيه الصحيحه وأبداه فى البأس من بسالته
المشيحه وأطلعه فى ليل العجاج من صبيحة بهجته الصبيحه وله فى كل نصرة وهبها
الله للاسلام أوفى نصيب فقد أصمى مقتل الكفر بكل سهم مصيب وهو
لمستصرخ الهدى أسبق مناب وأسرع مجيب وان الله له بسفور صبح سعادته
ووفور نجح ارادته أفضل مثيب

(ذكر ما تجدد بعد ذلك فى هذه السنة)

لما هاج البحر وماج وأظهر الارتجاج والانزعاج نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها
الى صور فربطوها بها وأخلوا ساحل عكا من ارعابها وارهابها وخلا للناوجه البحر
وغابت عن الساحل مراكب الكفر فاشتغل السلطان بانفاذ البدل الى البلد
من الثابتين فى الجلاد على الجلد فانتقل الملك العادل بخيمه الى جانب الرمل
ونزل قاطعا نهر حيفا فى سفح الجبل لتسهيل طريق من يسيره الى البلد من البدل
فان المقيمين فى عكا شكوا أمراضا مترضه وأعراضا ممرضه وكثرة السواد مع
قلة النفقه والزاد وكان فى البلد زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندى
وأسطولى وبحرى ومتعيش وتاجر وبطال وغلمان ونواب وعمال وقد تعذر
عليهم الخروج فسكنوا واذا عاينوا خوفا على الموضع موهنا أونوا ووهنوا فرأى
السلطان ان يفسح لهم فى الخروج رفقا بهم ورآفه وما أفكر ان فى ذلك مخافة وآفه
فقد كان فيه أمراء أمروا الامر وألفوا الصبر وما نعوا الحصر واجترؤا وتجاسروا
وصبروا وصابروا وحاربوا وحربوا وجاروا وجربوا وزاولوا وأزالوا وحاولوا
وأحالوا وعرفوا مكامن المكايد وكشفوا كوامن المقاصد وأخذ كل موضعه
فى الحرص على الحراسه وشاعوا بالسماحة والحماسه وكان فيهم من يطعم وينفق
ويجمع الرجال وقلوبهم بعطائه معه يفرق مثل حسام الدين أبى الهيجاء السمين فانه
انفق ما ادخره من الالوف والمئين مستمرا على انفاق لا تعتريه فيه خشية املاق

وهناك ستون أميرا ومقدما وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما وكانوا ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق والاعانة على ما يتفق في الحصر من التضييق فلما خرج الخواص خرج معهم العوام وتبدد بتبددهم نظام النظام وألزم السلطان جماعة من الامراء بالدخول فخدموا على أن يعفيهم بالبذول فلم يقبل منهم بذلا وألزم بنقل الازواد لبعض حشمهم كلا فلم يدخلوا الا بعد لأى وقد بلغوا في غي الرأي الى أقصى غاى وأكثرهم صرف رجاله المعروفين المستخلصين واقتنع بمن استجد استخدامه من المسترخصين وأذهبوا الايام بالمدافعه وأبطؤا عن فرض المسارعه والملك العادل هناك يحثهم ويحضهم ويحرضهم ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم حتى لم يبلغ من دخل عشرين أميرا مقدمهم الامجد سيف الدين المشطوب علي بن أحمد وأمر السلطان بالمناداة في الابطال البطالين ليحضروا لقبض النفقات وكان يحضر الجاووش في كل يوم مئين ويصبح نواب الديوان في أمرهم متبين لحرصهم على توفير الدرهم وبخلهم بالنفقة ويعدونها من المغرم ومعظمهم من نصارى مصر ومن هو مصر في نصرة النصارى وفي تعسير ما يجب تسهيله وتعقيد ما يجب تحليله لا يجارى ولا يبارى وكل واحد منهم للقبط قطب وفي الخبط خطب وللشر شرك وفي الحس حسك وللمشرك مشارك وللدين تارك فارك ولهم أخلاق أخلاق وطباع بالطبع اغلاق تأوى للبخل والتبخيل الى التأويل وتقلي لتكثير السوء في الخير سوى التقليل وهم جالبون للغي طالبون للبغي كاسبون للذم مناسبون للضم والمسلم فيهم متولي الخزانه ترى الشح بما يجود به السلطان من الامانه وأصنعهم في الكفاية عندهم أمنعهم للاطلاق وأعذقهم بالحذق أقدعهم وأعقدهم للعق أقرعهم وأجودهم أرداهم وأضلهم أهداهم وهم متفقون فيما بينهم على الخيانه مختلفون في الظاهر لابداء الصيانه وكان يحضر هؤلاء لعرض البطالين واستخدامهم ويوحشونهم بخطابهم وينفرونهم بكلامهم ويقابلونهم بالجبه ويعاملونهم بالنجه ويواجهونهم بالسوء ويسوؤنهم في الوجه ويشتطون في طلب الضمان ويشترطون ما ليس في الامكان ويطردونهم بقبيح الزجره ويكسرونهم في صحيح

الاجره والسلطان يجود جود السحاب ويأمر بالعطاء الحساب ويحدث النواب ويجد في بعث الاصحاب ويقول أنفقوا ولا تخشوا اقلالا وأنهضوا الرجال خفافا وثقالا ولا تؤخر واشغل اليوم الى غدا مهالا أو اهمالا ولا تقدموا على هذا الفرض فرضا ولا نفلا ولا تعتقدوا ان لنا أهم من هذا الشغل شغلا ونواب الديوان على عادة جهالاتهم وعادية ضلالاتهم فما قبل العطاء غير مضطر فقير وما دخل الثغر الا قليل من كثير وما صح من البدل الا بعضه وما قضى حق الواجب المتعين فرضه وكان هذا من أقوى أسباب الضعف وأوفق دلائل الخلف وسيأتي ذكر ذلك في موضعه في سنة سبع فانه عاد كل ما دبر بمصر على الثغر لا ينفع وأقام الملك العادل على البحر لازاحة علل الداخلين واراحة قلوب الواصلين حتى عاد الفرنج بمراكبهم وانقطع بوصولهم الطريق من جانبهم واقتنع البلد عن اليه تحول وعلى حفظه من الله بعصمته عول

وبتاريخ يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصلت من مصر بالغلة بطس سبع وكان لها للحاجة اليها وقع وقيل قد تم بها للجائعين شبع وانقلب أهل البلد الى البحر لمشاهدتها ومعاونة جماعتها ومساعدتها ونقل ما فيها من بضائع وحوائج وسلع ورائج ومأكول ومطعوم ومشروب ومشموم فقد طال بذلك كله عهدهم وانتهى الى الغاية جهدهم فلما تسامعوا بالبطس تسارعوا الى الملتمس فعلم الفرنج بانقلاب أهل الثغر الى جانب البحر فزحفوا زحفا شديدا وحملوا جندلا وحديدا وأتوا بسلالم لينصبوها على الاسوار وصارت عكا وهم حولها كالمعصم في السوار وترقوا في سلم واحد متزاحمين وللضيق متصادمين فاندق بهم السلم المنصوب وسطا بعصابتهم المعصوب بها النصب سوط العذاب المصبوب وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا وتعاطوا كؤوس المنايا وتساقوا ورأوا غمرات الموت فزاروها ودار واحول رحى الحرب وأداروها واستحلوا شهد الشهادة فشاروه وألفوا الاجل كامنا فأثاروه وتواثبوا عليهم تواثب السباع على الضباع ورفعوا القرى العواسل الجياع نار القراع وأطالوا بشبا العوالي للعوافي باع الاشباع وأنبعوا عيون النجيع من عيون الجميع على جداول البيض وأفاضوا فيوض الدم

القانى بالصارم المفيض وقتلوا وسفكوا وفتكوا وهتكوا وردوهم على أعقابهم ناكصين ومن حسابهم ناقصين ولاشتغال الناس بكشف ماعرا من الغمه وأظل من الظلمه والتهائهم بنقل الغله عن نقل الغله تركوا البطس بحالها مملوءة بغلالها حتى هاج البحر فضرب بها الحشف وأذهب بكسرها كل مافيها وأتلف وغرق من كان فيها وأتى الغرق على الامتعة التى تحويها حتى قيل هلك بهازهاء ستين نفسا عدموا ولم نجد لهم حسا ناموا والقدر منتبه وذهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه وفى ليلة السبت سابع ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكاء على فصيلها فهدمته وثغرت الثغر وثلمته فبان منها الضوء لاهل الظلمه فتبادروا اليها طمعا فى هجم الثلمه فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وصدوا عنها بنحورهم وبنوها بأبدانهم الى أن بنوا ذلك البدن وعمروا ما خرب وقووا ما وهن وقتلوا وجرحوا من العدو خلقا وأوسعوا بالمضايقة فى كل ذى خرق خرقا فانجلت الحرب عن طريح صريع وجريح الى الهزيمة سريع وطايح للعقير قريع وعاد الثغر أقوى مما كان وأحكم وكل ذلك بجد بهاء الدين قراقوش حيث كان المقدام المقدم وهذا الامير قراقوش لما ضجر الامراء وضجوا وطلبوا الخروج ولجوا أقام ولم يرم ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم وفى ثانى عشر ذى الحجة هلك ابن ملك الالمان بعرض الجوف ولعله من عرض الخوف وأدرك أباه فى الدرك الاسفل من النار وأبصر فى جهنم مصاير أمثاله ن الكفار وزاد بهلاكه ألم الالمانيه وانسدت بموته فرج الفرنجيه وتبعه فى السفر الى سقر كند كبير يقال له كند نيباط دافع القدر فما قدر وهلك منهم بالامراض المختلفة العدد الكثير واشتغلت بهم الجحيم واشتعلت عليهم السعير وفى يوم الاثنين ثانى عشرى ذى الحجة عاد المستأمنون من الفرنج الذين أنهضهم السلطان فى براكيس ليغزوا فى البحر ويكونوا أيضا لنا جواسيس فرجعوا وقد غنموا وغلبوا وكسروا وكسبوا وسروا وأسروا وقشروا فظفروا وذكروا انهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس وأسروا التجار وأخذوا المال وحيزت تلك المراكب وجذبت الى الساحل فاذاهى مشحونة بالكرائم الجلائل من كل

آنية مطبوعة ذهبيه وحلية مصوغة نضاريه وآلة فضيه وأباريق وأكواب وأقدح وأطباق وموائد وسبائك وصفاح وكاسات وطاسات ومرافع وشربات فوفر السلطان عليهم هذه الاكساب ولم يحرمهم حيث حرموا الكفرهم الثواب وأظهروا بهذه النهضة انهم مناصحون ولاهل الايمان مصافون فلما أكرموا بتلك المكرمه أثنوا على اليد المنعمه وأسلم منهم شطرهم وحسن بينناذ كرهم وببركات الكرم السلطانى كرموا وأنسوا وأسلموا وكانوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة عاليه ولها قيمة غاليه ومعها طبق يماثلها فى الوزن ويتعذر وجود ذلك للملوك فى الخزن ولو وزنت تلك الفضيات قاربت قنطارا فما أعارها السلطان فرفه احتقارا وقال لهم خذوها فانتم بها أولى وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى وكنت عنده جالسا وبلطفه مستأنسا فقلت له ما أظن فى الوجود ملكا يسمح بمثل هذا المال خصوصا وقد أغنمه الله من الحلال فتبسم لقولى غير معجب به وما قضيت العجب مما اقتضاه كرمه من أربه وفى الرابع والعشرين من ذى الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا فخلا لنا نصرا وعلا نجحا وحلا ظفرا وفى الخامس والعشرين منه أخذ أيضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون ورؤس وهم نيف وعشرون منهم أربعة خياله ضمتهم من الاسر حباله ومعهم ملوطه مكللة باللؤلؤ منوطه وبأزرار الجوهر مربوطه قيل انها كانت من ثياب ملك الالمان وأسر فيه رجل كبير قيل انه ابن أخته وهو كبير الشان وفى هذا الشهر كان قدوم القاضى الاجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فاشرقت المطالع وأشرقت الصنائع وبشرت المطالب بنجاحه وغزرت المواهب بسماحه وطابت بحضوره مكارمه المكاره ونزع بلبسة افضاله لباس الخمول ذو الفضل النابه وأعاد روح السلطان باعادة الروح الى سلطانه وسر بمكانه واقترن احسانه باحسانه وظهرت فى وجهه به الطلاقه وفى قلبه العلاقه وروى رايه برى رايه وتلقن آيات النصر من نص آيه وانتعش عثارى بمقدمه وانتقش خط نخارى بكرمه وحلى عطلى وحيا أملى وقوى عملى ووضح منهاج مناى وصح مزاج غناى ونبه قدرى ونوه بذكرى

وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي وسن غربي وأسنى غاربي وأقربني وقربني واستكتب الخطوط بالخطوط كما كان استكتبني فعشت ونعشت وفرشت بساط الغنى فرشت ولولا انني قويت به لاقويت ولولا انه أولاني عارفته لما عرفت ولا توليت فانا شاكر نعمه عمري وعامر كرمه بشكري

(ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة)

استشهد في عكا سبعة من الامراء كل منهم سبع ما في لقائه للقرن طمع ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص ومن ذوي الاستخلاص وكان هذا سوارا في كل حرب مساورا ولكل هول مباشرا وبكل بوس عبوس باشرا فجاءه سهم عائر فاذا هو الى الجنة سائر وكذلك عدة من أمراء الاكراد كانوا من الاساد ففازوا بحظ الاستشهاد وخرج اسطولنا في هذه السنه بشوانيه المعبئة المحسنه ليكبس شواني الفرنج في مواضع الربط واحراقها بقوارير النفط فخرجوا الى شوانينا بشوانيهم ولقوا عواديها بعواديهم وظفرت أساطيلنا وطالت ووصلت اليها وصالت ونالت من الظفر ما نالت وأحرقت للكفر شواني برجالها وغرقتها بأبطالها وكان عند العود تأخر لنا شيني مقدمه أمير مبارز كالاسد الخادر لا يصحر الا للفريسة ولا يبرز وهو يعرف بجمال الدين محمد بن أركز فشين الشيني وشانه وما أعانته أعوانه وامتلأت بالاعطاب أعطانه واضطربت للانكار أركانه واضطرمت بأهل النار نيرانه فتواقع من فيه الى الماء واحترزوا من البلاء بالبلاء ووقف الامير على قدم جلده يجالد ويجد ويجاهد وقد أثقله ملبس البسالة الحديد وخف به العزم الشديد السديد وقد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد والاجر العتيد فما ارتاع للروع ولا استطاع الانقياد بالطوع ولا مكن العدو من مكانه وأخذ مع الثاني بشنآنه ولولا ان ملاحيه جبنوا وفروا ومناصحيه خذلوه وما قروا لجنى بسيفه ثمر النجاه لكن الاجل قطع عليه طريق الحياه فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع وسدوا عليه سبل البصر والسمع وقالوا خذ منا الامان واستأسر وهون الامر عليك ولا تعسر ويسر فالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم وأنت في عين الهلاك ان لم

تعطنا اليد وتثبت على هذه القدم فقال ما أضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير ولا يخاطر الخطير الامع الخطير فجاءوا له كندا أرضاه وأراد ان يشركه فيما الله قضاه فلما دنا اليه أخذ بيده لزمه وعانقه وقوي عليه وما فارقه ووقعا الى البحر وغرقا وترافقا في الحمام واتفقا وعلى طريق الجنة والنار افترقا فاز بثوى الشهيد السعيد بماء النعيم وصلى الكند الكنود بنار الجحيم واستشهد أيضا في ذلك اليوم الامير نصير الحميدي جرح فمضى حميدا وشهد مقامه في الجنة شهيدا وسعى دهره حتى قضى سعيدا ولم تخل وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر وسعداء المعشر وكرماء المحشر وندماء الكوثر وحلفاء المفخر واستشهد يوم تاسع جمادى الاولى القاضي المرتضى ابن قريش الكاتب وكان صدرا تتجمل به المراتب جريا جاري القلم بليغا بالغ الحكم مهيبا يخشى مره وبالا يغشى وهو في أهبة من المهابه وكتيبة من الكتابه صوبه في الصواب منتجع وخطابه في الخطب مستمع ولرأيه ري وريا وتدبيره للامور بتنفيذ الاوامر السلطانية دينا ودنيا ولم يكن له في الكفاية كف ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه رف وكان رجل دمشقي بنابلس له ملك بدمشق قد تركه ورغب في ابتياعه القاضي المرتضى ليملكه فتقاضى قاضي نابلس مرارا احضاره فلما حضر رغبه في البيع على ايثاره باضعاف الثمن ونقد ديناره فانفصلا على التراضي ونجح سعي القاضي للقاضي وبكر البائع الى سلام المشتري ووثب وثوب المجتري وطعنه بمديته وهو آمن في خيمته وقتل به قتل اللعين أبي لؤلؤة بالفاروق وخرج من الخيمة كالسهم في المروق فلقي قاضي نابلس فقتله ومضى في سبيله فادركه الناس وقتلوه وكاد يفلت لو لم يعاجلوه ففجع المنصب بعصابه وناب عنه أخوه مع نوابه

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شمات شمله وعقد البرد لم يقرب محل حله وللغيث عيث ولزور الربيع ريث وللسحب سح وللضح شح ولعين الشمس غض ولوجه الغيم ومض ولايدي العارض بسط وقبض ولنواظر البرق تنبه وغمض ولنواجذ البرد كشر وعض ولفص الفصل ختم وفض وكل

صادفي بحر كانون كنون وكل ماء بالجليد كانه زرد مسنون وللاوحال أحوال
وللاهواء أهوال وللشمال شمول وما للقبول قبول وللجنوب ذنوب وللدبور في
ادبارها واقبالها هبوب وللصبا صبابات وصبابات وللندى الندى جنايات
وسرايات وللجو الجوى آيات ونكايات وللغمائم غماغم ولهام الربا من هامي
الرباب عمائم وللنكباء نكبات ولشباشباط شبات وللرواعد رواعف
والهوائن هواتف وللارواح رواح وغدو وحركة وهدو ومجيء وسلو ونزول
وعلو وعصفة وعتو وللرعايا لعرايا من الرياح الحيارى رزايا أذايا وخبايا المروج
النابتة في زوايا الثلوج النازلة خفايا والعواصف القواصف عواص غير قواص
والعارض عارض للعب في العراص عراص والقوارس قوارس والخوالس
خوالص والبحر في هيجانه والغيم في هطلانه والسلطان مقيم بخيمه على شفر
عم ولطف الله به قد خص وعم والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند
نهر حيفا لتجهيز البدل في المراكب الى عكاء والسفن تدخل اليها بالازواد وتعود
وترجع اليها بالاجناد ويحرص ويحرض ويرسل الى السلطان ويستنهض
والسلطان يفاوض النواب في ذلك واليهم يفوض وفي كل يوم يعرض الرجال
وينفق فيهم الاموال والامر مستمر والقرار مستقر والبزكية زكيه
وسنتهم في المناوبة سنيه ولوافح عزماتهم ذاكيه ونوافح مكرماتهم ذكيه
والمماليك الخواص ومن خصهم وعمهم الاستخلاص يغادون القتال ويراوحونه
ويكافئون العدو ويكافحونه ويجاورونه ويجارحونه ويبرحون به ولا يبارحونه
والعدو على عكاء حاشد ولضلاله ناشد يحتمون ويحمون ويرامون
ويرمون ويذبون ويشبون ويحبون الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون
وقد قسموا الاسوار على الاجناد والابراج على الامراء واستقبلوا النعمة في البلاء
والسعادة في المشقة التي تعدها الاشقياء من الشقاء ان وجدوا غرة اهتبلوها أو
استوعروا كرة استسهلوها أو صادفوا املة صدفوها أو لقوا غمة كشفوها أو
صرفوا أوجههم الى نائبة صرفوها

(ذكر ما تجدد من الحوادث وتكرر للعزائم من البواعث)

في يوم الاربعاء تاسع المحرم سار الملك الظاهر لقصد بلده صافيا بالعزم المصمم
والرأي المحكم وفي ثالث صفر عزم من بقي من أصحاب الاطراف السفر فان
السلطان رخص لهم في ذلك فانتهجوا في عودهم الى بلادهم المسالك وأقام
السلطان في أصحابه وخواصه وملازمي بابه وملابسي جنابه ورجال رجائه
وخلص أوليائه ومقربي أمرائه وفي هذا اليوم رحل الملك المظفر تقي الدين ليتسلم
ما في شرقي الفرات من البلاد التي كانت مع مظفر الدين مضافة الى ميافارقين
فصارت معه جبلة واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وسميساط
والموزر وميافارقين وشرط معه ان يحافظ على عهد صاحبي آمد وماردين والبلاد
المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية مع كثرة الطالبين لتلك الولاية مضنونا
بها على الخطاب غير مسموح بشيء منها للطلاب فانه ما رامها من المملوك أخي
السلطان وأولاده من يشرط الفسحة له في استفاضة ديار بكر الى بلاده ويقال
له لا سبيل الى قصد أحد ولا انتزاع بلد ولا ازالة يد فان أرباب البلاد أكثرهم انما
معاهد وعلى ودنا معاقد وفي شغلنا مساعد فأما من هو عنا متقاعد ومنا
متباعد فما هذا أوان مكافاته ولا زمان كف آفاته وهو منا في حصر مخافاته
وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزمنا في قمعه متحقق فلا نثير علينا من
المسلم الكاشح والحاسد الحاشد من يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأي الراشد
فقال تقي الدين أنا الى في ذلك الجانب ميافارقين فاذا أخذت حران وسميساط والرها
أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتهى وبلغت المنتهى وأنا أدخل
على الشرط وعنه لا أخرج وأجمع العساكر والى نصركم أعرج وآتيكم بعد
أشهر بأوفى عسكر وأكرم معشر من لابسي سنور وملابسي مورد في الروع
ومصدر ومازال يستعطف السلطان عمه ويسترهف في تخصيصه بتلك الولاية
عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل حتى أخذ دستوره واستكتب
منشوره وسار على انه يسرع ايابه ويحكم في العود أسبابه وانما يلبث ريثما يقسم
تلك البلاد على مقطعيها ويرسم ترتيب نوابه فيها ثم يطلع علينا طلوع السحاب
ويأتي بالاتي العباب ويعرض عساكر لا تدخل في الحساب ويسارع الى الرحيل

وسار بعد ما استشار ولله استخار

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد الجواد الماجد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه وهو الجري الذي اذا جارى اضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ولم يشركوه ومضمون الكتاب انه خرج في آخر المحرم على جشير العدو بطرابلس واستاقه ولم يطق الكفار لحاقه واقتطع لخاصه منه أربعمائة رأس تلف منها في الطريق أربعون غير ما كان أصحابه منها يقتطعون وانه غنم أيضا ابقارا وآب قارا وسار بالغنيمة سارا وأهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة فرنجيه وقال رسوله لما أبصرها واستحسنها قال تصلح للعماد فانه اذا ركبها زانها وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت وكان فيها من الفرنج خلق فغرق في بحر الاسر من لم يسر اليه في البحر غرق وفيهم امرأتان سبيتا وما هديتا بل أهديتا وشاهدت الاسارى قدام السلطان وقد أحضر وافردهم على الذين أسروا

وفي أول ليلة من شهر ربيع الاول خرج أصحابنا من البلد على العدو بالنائب الاعضل والناب الاعصل وكبسوه في مخيمه وخيموا عليه في مجثمه فما انتهوا لهم حتى أسروا من الفرنج وقتلوا جمعا وأوسعوهم الى أن ضويقوا قمعا وعادوا سالمين غانمين كاسرين كاسبين ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السبي وعرف الله لهم حق ذلك السعي

وفي الاحد ثالث هذا الشهر شهر سلاح الحرب أهل الكفر وخرجوا على البزك وكانت النوبة للحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك وعظمت الوقعه ونجمت الروعه وصدمت الصدعه واحتدمت على الفرنج بنارها الصرعه وهلك منهم عالم كثير وقتل منهم مقدم معروف كبير ولم يفقد منا الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه فلم ينتعش واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعش وهذا الخصي كان غلاما من الفحول ناهضا على الكفر للاسلام بحمل الذحول وانتهى الينا أن الفرنج على عزم الخروج ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج فلا مرعى لدوابهم ولا علف وان لم يتلافوها

ولا حتشاش خشوا عليها التلف فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن يذهب ويقصد الساحل ويكمن بعسكره وراء التل الذي كانت فيه قديما منزلته وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته ومضى السلطان بنفسه في خواصه وأجناده وأقاربه وأولاده فكمن وراء تل العياضيه في العصبة المنصورة الناصريه وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الاول مستظهرا بصحبة ولده الملك الافضل ومعه أيضا أولاده الصغار ليستأنسوا بالحرب ويدمنوا على مباشرة الطعن والضرب فعرف العدو الخبر فما أقدم على الخروج ولا جسر فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء فبات فيها وحوله الملوك والامراء ووصل اليه من بيروت خمسة وأربعون أسيرا من الفرنج أخذوا بالمراكب في البحر من اللج وفيهم شيخ هم هرم عمره في الكفر منصرم قد طعن في السن ووهن كالشن وانحنى كالحنيه وما أمن من المنيه وتحاماه الحمام وعامت في بحر لياليه وأيامه الاعوام وهو ممسوخ الحليه ممسوح اللحيه قد بلي مما بلي وقلي من طول ما لقي وسئم حياته وسئم وعدم لذاته ولذاذه وما عدم وكم جاوز قرنا وعبره الى قرن وبارز قرنا ونازله بعد قرن حتى لم يبق منه الا اهابه ولم يرقب منه الا ذهابه فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعه واختياره الضيق على الارجاء الواسعه فسأله كم بينه وبين وطنه ولاي سبب حركته من سكنه فقال أما بلدي فعلى مسافة شهور وانما خرجت بقصد كنيسة القيامه لاظفر بالحج المبرور فرق له ومن عليه بالاطلاق وأخرجه من ذل الرق الى عز الاعتاق ورده الى الفرنج راكبا على فرس ولم يرقه قتله ولا أسره حيث رأى نفسا مرتهنة بنفس وسأله خدام أولاده الصغار ان يأذن لهم في تجريب سيوفهم بجرح الاسارى الكفار فلم يأذن لهم في ذلك وأباه فأرضى كل منهم بامتثال الامر اباه فقيل له لاي سبب منعتهم من ثواب الجهاد المغتنم فقال لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم فانظر ما تحت هذا القول من الرأفة والكرم

﴿ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام﴾

أول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر وكان بحلب المقدم المؤمن وهو شيخ له رأى وتجربه ومنزلة كبيرة ومرتبه ومعه حصنا عزاز وبغراس وللسلطان بقربه ومجاورته الاستئناس فقدم فى شهر ربيع الاول فى عسكر وأبيضه وأسمره وبيضه ومغفره وجنى جنده وسنى سنوره وجلبه ولجبه وزمره وعصبه وببارقه ويلبه وبوارقه وسحبه وقدم فى ذلك التاريخ بقدومه الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك وقد استصحب معه مماليكه الترك وقد نوى بالمشركين الفتك ولسترهم الهتك ولدمائهم السفك فوصل بقواطعه وقواضبه وصوافنه وسلاهبه وطلائعه ومقانبه وحضر من المحاسن بكل مايعرب عن مناقبه وقد زين ليل القساطل من اسنة العوامل بكواكبه وأظمأ جواده ليرد به دماء أهل الكفر فانه يعدها من مشاربه فمن ذلك اليوم من القادمين والمستقبلين بذلك القضاء جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء وجرى ذلك الوادى من الاجناد والامراء بسيل خيل تردد أماء الدماء وخرق ذلك الخرق أدعن فى حافاته الخرق ومن عاداته بعداته الحرق ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق ومن علاقته عند الظماء ان لا ترويه الا العلق ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسواعد سيوفه الحب والعنق ومن شيمته عوض التغلف بالعبير التضمخ بالنجيع ومن ديمته وبل النبل من الاحداق والنواظر فى نواضر حدائق الربيع ومن صنعته اسماء حتين الحنية بسهمه واسماع انين المنية لخصمه وجلونا فى ذلك اليوم فوارس لا عرائس وقوانس لا عوانس وقدم بدر الدين مودود والى دمشق بعد ذلك فى سابع عشر شهر ربيع الآخر وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

﴿ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكاء واسمه فليب﴾

وفى ثانى عشر ربيع الاول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت والشت وكان وصوله فى بطس ست حملت من الفرنج كل ذى شؤم ومقت وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله ويقولون انا من تهديده ووعيده مايجرى على

قوله وانه اذا جاء حكم وأحكم ونقض وأبرم وقدم ماقدم به من المال وأقدم ونحن منه على مواعده فهو يأتينا بكل نجدة مساعده وجدة عن الفقر مباعده فقلنا لهم رب صلف تحت راعده وما هذه الاراجيف منكم بواحده فلما وصل فى العدد القليل والنظر الكليل أعجبتنا قلته وتشابهت عندنا عزته وذلته وقلنا مايكاد تصل صولته أو تدوم دولته

﴿نادرة﴾

وكان مع هذا الملك باز أشهب كانه عند ارساله نار تتلهب ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله وأفلت من يده وطار وحشا حشاه الباز الذى نار النار ووقع على سور عكا وحزن الملك يوم سروره بفراقه وأبكى واستجابه فما استجاب وأبى وما آب وثبت وما ثاب فبصر به أصحابنا فأخذوه والى السلطان أنفذوه فابدى للسرور به الاهتزاز وجعل بتشريفه بزة من بز الباز وأظهر به احتفالا وعده للظفر والمنحه فالا وبذل فيه الملك ألف دينار فما أجيب ولا وهب له ولا هيب ومابيع ولاعيب

﴿خبر نادرة فى غنيمة وافرة﴾

كان المستأمنون من الفرنج الينا تسلموا براكيس يغزون فيها ويجوون بجواريها وينهضون بسواريها ورواسيها وينهشون بعقاربها وأفاعيها ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم عيدهم وقد جمع القس فى كنيسة لا اله لها شمل قريبهم وبعيدهم فصلوا معهم فيها صلاتهم ثم أغلقوا أبواب الكنيسة عليهم ليأمنوا افلاتهم وأسروهم بأسرهم وسبوهم وبغتوهم من البلاء بما أتوهم به وبلوهم وكنسوا كل ماكان فى الكنيسه من الاعلاق النفيسه وقسوا على قسيسهم وعادوا بهم او بهم الى براكيسهم ولاذوا باللاذقيه وباعوا بها كل ما أخذوه من البيعه ومن الجملة سبع وعشرون نسوة سبايا وصبيان وصبايا فباعوها رخصا واقتسموها خرصا وزادوا بما نالوه حرصا واستغنوا بما استغنموه وأثروا بما أثاروه وأثروه وفرحوا بما راحوا به من مغنم وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم أربعمائة درهم وفى سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من

العسكرية السرية فاقتطعوا قطيعا من غنم الفرنج غنيمه وخالطوهم فى خيامهم وامطروهم من وبل النبل ديمه وركبوا بأسرهم بخيلهم ورجلهم فى اثرهم فلم يظفروا بطائل ولم يرجعوا بحاصل

《خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليعرت الى قبرس واستيلائه عليها》

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس فى السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر فى الجمع الوافر حاملا جموعا كالسيل الجارف فى البحر الزاخر وتقدمته الى الجزيره مراكب وشوان على قصد الجزيره فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم أموالها وصدم رجالها فلما وصل ارهف حد عزمه وأفضى فيض غيظه الى غيض حلمه وهو مغضب غير مغض مريض من ألم الحقد ماله سوى التشفى شاف مرض فلبث مفكرا ومكث متحيرا وتروى متخيرا فرأى أن قبرس فى يده فاستن من جده فى جدده وناشب القتال وواظب النزال وقارع بالنصال النصال وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالاعناق واعتناق الغلاظ مع الرقاق ونفذ يطلب من الفرنج على عكاء نجده ليجدشدة ويوجدشده فنفذوا اليه جفرى أخا الملك العتيق فى جموع مترافقة الرفيق وامتدت الحروب واشتدت الكروب ورأى ان فريضته تحول وان حالته تحول وان شغله يطول واتفق أيضا أنه كان رام الروم من الفرنج الفرج وخطب كل واحد من ضيق الخطب المحرج المخرج فتراسلوا فى الصلح وخرجوا من ليل الحرب المظلم فى سنا السلم الى اسفار الصبح واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير واتفقا بما تم من التقريب والتقرير وحمل له هدايا وتحفا سنايا ووسع له الازواد وبذل له الامداد فأخذه فى مأمنه وأبرز له مكره من مكمنه وغله ثم غله وشده وماحله وجازاه لما أعزه بأن أذله وغادره بغدره فى القد والقيد وما بطشت يد عادمة الايد كيد الكيد واستولى بالاستيلاء عليه على تلك الجزيره وغرق فى حجات أمواله الغزيره وسيأتى ذكر وروده وماتم به لاحزاب الشيطان وجنوده

وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة بالنجح المتجدد وهو أن أصحابنا أخذوا عند الثغر بمراكبهم الغازيه فى البحر من مراكب الانكتير خمسه وطراده ولم تكن لولا اباء ربانها للضيم معتاده وبخزام القهر مقتاده وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال وذخائر أخاير من عدة ومال وأثقال وأنفال وأخشاب وآلات وأجمال وأحوال وفى الطرادة أربعون رأسا من الخيل الجياد قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد فحيزت وحيزوا وأجيزت الى بيروت وأجيزوا فاما السبايا فقد أخرجن على البيع بالنقود والنسايا وأما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء

وفى يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد بالجد والجلد والعدد والعدد والمدى والمدد والجمع المحتشد والجمر المتقد والبيض واليلب والبيض والقضب والسمر السلب واللجب والجلب والصياح والضجيج والعجاج والعجيج والوشيج بالوشيج والامر المريج والقصد بالقصد والزغف والزرد والحديد والعديد والقريب والبعيد والاتباع والعبيد والاوباش والاوشاب والكلاب والذئاب والسباع والضباع والضوارى الجياع والاساود والاسود والزرق والحمر والسود ودبوا وذبوا وشبوا وسبوا وصابوا وصبوا ونابوا ونبوا وعبوا وعبوا وجابوا وجبوا وزحموا ورجموا واقدموا وتقدموا وقدموا سبعة مجانيق وقربوها ونصبوا فيها ونصبوها فعلت كانها قلاع وارتفعت على التلاع كانها تلاع وهى فى الجو مترامية وبالجوى راميه وفى السماء ساميه ولاهل النار الحامية حاميه مرتفعة على مرافعها مقتلعة بقالعها منقضة أحجارها لانقضاض الجدار منفضة أسوارها لانفضاض الاسوار حاصرة حاصبه عاملة ناصبه قائمة قاعده بارقة راعده صادمة صادعه صارمة صارعه حبالى من الجبال أجنتها وحنايا للحنين على سهامها من الحجارة رنتها ومراضع فى حجورها الاحجار ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار حوامل على الطلق صوائل بالفلق على الخلق مطايا للمنايا روايا لخبايا ها البلايا فى كفاتها آفاتها وفى حركاتها ادراكاتها وللتعذيب عذباتها

وللترهيب جـذباتها وما أعظم جنايات جنادلها وأظلم غوايات غوائلها وهي الروائم الروامي والحوائم الحوامي والهوادم بالهوادي والصوادم الصوادي ودواعي العوادي ونواعي النوادي والنواعب بالسوى والجوائب بالجوى والصوائب بالمصائب والنوائب بالشوائب اذا جذبت جذت واذا قذفت أقذت واذا طوحت طرحت واذا حلقت حلقت واذا أطارت أبارت واذا ألقت ألقمت فشق على أصحابنا بالبلد شقاقها وكادت تفتح اليه الطرق طوارقها وطراقها فاستصرخوا بنا واستنهضوا وحضوا على خطئنا وحظهم وحرضوا واستنفروا واستنصروا واستعدوا واستدعوا فاصبح السلطان راكبا في العساكر طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر وسير من كشف هل للعدو كمين أو كيد دفين ثم وقفت العساكر عنه ومر الى تل الفضول بالقرب وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب ونكايتها في الضر والضرب وعرف أماكن القتال ومكامن الرجال وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد أطل وأظل ذل جمعهم وكل وترك الزحف وانفل واذا عادوا عادوا وعدوا وأثاروا وافى الحرب وأسدوا

(قصة الرضيع)

كان لصوصنا في الليل استلبوا طفلا من يد أمه وفطموه رضيعا له ثلاثة أشهر في غير أوان فطمه واستحلوا بحكم الجهاد في جنح الظلام جناح ظلمه وفجعوها بواحدها وساعدها وكدروا صفو مواردها وقطعوا عنها فلذة كبدها وأسعروا عليها جذوة كمدها وحرموه در لبنها فدر دمعها وأبعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر عن كل حديث سمعها فخرجت والهة وللحياة كارهة وللخد خادشة وللوجه خامشة معولة مولولة مذهلة مشتعلة قد شدهت ودهشت وتاهت واستوحشت قد سلب عقلها مذ سلب طفلها وغاب ذهنها مذ غاب ابنها وتكرر بالحنين والانين ترجيعها وتردد للقلوب بما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعها وهي نائحة في كل ناحية نادبة في كل ناد نادية لكل فؤاد عادية في كل واد فلم يشعر السلطان الا بامرأة بالباب واقفة وبالنحيب هاتفة وللدموع حادرة بتصاعد أنفاسها ومن الخلق مستوحشة لذهاب استئناسها

قارضة صدرها بتقطيعها ضارعة لفقد رضيعها معولة على الطفل معولة على اللطف متنكرة من النكر متعرفة الى العرف فاحضرها السلطان وهي باكية ونارا كتنانها اذا كيه تحدر عبراتها وتتصعد زفراتها وتتلهب حسراتها تبكي ببكائها وتشكي من دائها وتنشد ضالتها وتطلب مهجتها وتسأل عن حشاشتها وتشتعل نار قلبها على فراشتها فلما شاهدها السلطان حريبة حزينة مسكينة مستكينة متجننة متحننة مولعة مولهة موجعة متوجعة سمع شكواها وفهمها ورثى لبلواها ورحمها ورق بلطفه للطفل الرقيق وسلك بفضله طريق التوفيق وطلب الرضيع فقيل له انه بيع وأضيع فان آخذيه باعوه بثمن بخس ولم يعرضوه في سوق بز ولا سوق نخس فما زال يبعث ويبحث عنه ويلوم باذله كيف لم يصنه حتى جيء به في قماطه وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه فلما أبصرت واحدها ضمت عليه ساعدها ودعت وعدت وشدت يدها به وشدت فاعادها وبنواله أفادها وبردحها بردروحها واساها وأساها الاسى من جروحها وقروحها وروحها بروحها وفرع دوحها وأغناها بغنائها للشكر عن نوحها وظهر سر سرورها عليها ببوحها وشيع معها من أوصلها الى موضعها وقد اجتمع شمل المرضعة بمرضعها وما رد الطفل الا بعدما اشتراه من مشتريه بثمن يرضيه وهذه نادرة من جملة أياديه

(ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية)

لما أصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم وخطبوا امتناع متاعبهم في ابتياعها بكل سوم وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم ودار واحول حمى دارها بكل حوم ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي وارعاب القوم بكل حدم هوب وجد مخشي وكانت المسافة نائية والآفة دانية انتقل السلطان الى تل العياضية بعساكره وأثقاله بالكلية بالعزائم والصرائم الماضية المضية الراضية المرضية ولم يكن انتقاله دفعة واحدة بل مهد له قاعدة فان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغه أن القوم قد عاودوا العوادي ورقوا من ضلالتهم الهوادي وضايقوا البلد أشد مضايقة وعالقوه أجد معالقة

فأمر الجاووش حتى نادى وباكر الغدو بالعساكر وغادى ووصل بالفارس والراجل الى الخروبة وقوى اليزك وألزم المقدمين والامراء بحفظ نوبهم الدرك وقدم جماعة من الخيل لعل العدو اذا عاين قلتها خرج بالكثرة وتورط فى العثره فلم يشتغل بها بالا ولم يلفت اليها جنانا بل انصرف على عناده ولم يصرف نحوها عنانا واشتد على البلد زحفه وامتد عسفه فساق السلطان بالعساكر وهجم وترك العدو الحصار وأحجم فلما جاء الظهر رجع العدو الى مخيمه والسلطان على قصد العدو الى مخيمه ولما وصل الى تل الخروبه ونزل فى خيمة لطيفة لاجله مضروبه وصل من اليزك من أخبره ان العدو لما علم انه قد انصرف عاد الى أشد ما كان فيه وزحف وانه قد أرعب وأرعف وأرهق وأرهف والهب والهب وألهف وأرهب وأرهج وأعجز وأزعج وثار وأثار وألحم الملحمة بناره وأنار فبعث السلطان هذا الخبر على ان بعث الى العساكر بالمخيم فأعادها واستنهض الى الفريسة آسادها وأجرى فى حلبة الحمية جيادها ودعاها الى طعن يبرح بالذوابل وضرب يرنح أعطاف المناصل وأمرها من الحرب بأمرها وأدارها من مرى أخلاف الدم بأدرها ثم سار آخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى الى تل العياضية قبالة العدو وضرب خيمته بأعلاه ظاهر العلو والعدو بالحصر والزحف مصر مصر وعلى عنائه وعناده مستمر والسلطان فى كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم ويراوحهم ويغاديهم ويفاتحهم ويباديهم بضرب كما اشترطته حدود الظبا وطعن كما اقترحته كعوب القنا وقتل كما تمنته المنيه ورمى كما حنت اليه الحنيه هذا ومجانيق الكفر على الغى مقيمه وللرمى مديمه وبالاحجار متقاطره وعلى الاقطار حاجره وللجلاميد بالجلاميد قارعه وللصخور بالصخور قالعه وتمكن الفرنج بها من الخندق فدنوا منه دنو المحنق وشرعوا فى هجمه وأسرعوا الى طمه وداموا يرمون فيه جثث الاموات وجيف الخنازير والدواب النافقات حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ويحملون اليه موتاهم وأصحابنا فى مقابلتهم ومقاتلتهم قد اقتسموا فريقين وافترقوا قسمين ففريق يلقى من الخندق ما ألقى فيه وفريق يقارع العدو ويلاقيه

﴿ذكر وصول ملك الانكتير﴾

وفى يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور أشاع اشياع الكفر سر السرور وعقدوا حبا الحبور ووصل ملك الانكتير وأظهروا انه فى الجمع الكثير والجم الغفير وكانت منه من الشوانى خمس وعشرون قطعه كل واحدة منها تضاهى تلعة وتوازى قلعه وأحدث فى القلوب روعه وأرث فى النفوس لوعه ولمعت لنا من خيامهم تلك الليلة نيران زائده وأنفاس للشرار متصاعده وألسنة للشعل نضناضه واشعة على الجو مفاضه فكأنما أوردت الجحيم لقدوم وارد نارها نارها وأوصلت لوصول أولئك الشرار شرارها وأورت لهم أوارها وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت على أهل الديا جير الاضواء وهتكت عنها الهتك ستر ظلام ضلالهم الظلماء فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم ولما كانوا من أهل النار قامت النار ببرهانهم وأنتهم باتيانهم واضافتهم فى مكانهم وملك الملك بأمره أمرهم وأراهم ان بيده نفعهم وضرهم وملاعين الملاعين وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين وحفر للمكايد آبارا وأثر فى المكر آثارا وأرث للشر نارا وأثار لنصرة النصرانية ثارا وتحدث الناس بحادثه وحديثه وبما تأثرت القلوب به من تأثيره وتأريثه وارتابوا وارتاعوا والتاحوا والتاعوا وغدت الالسنة ترجف والقلوب تجف وكاد الباسل يجبن والباطل يخشن والحق يلين والدين يدين والسلطان قوى الجنان روى الايمان صاف يقينه واف دينه شاف نجحه كاف نجده مسفر لعين الاسلام صبحه مسرف فى قلب الكفر جرحه ماض عزمه قاض حكمه مثبت جيشه بثبات جاشه عامل لمعاده وناصر الحق فى معاشه متأن فى تفكره متأت فى تدبره متوكل على ربه فى نصرة دينه متوسل اليه فى تأييده وتمكينه لا تروعه المخافات ولا تخيفه الرائعات ولا تزعزع الخطوب طود وقاره ولا تفض النوائب ختم ذماره ولا يلين للشدائد ولا يستكين للروائع الرواعد وكم سكن الاسلام بحركاته وأخصبت الايام ببركاته ونام الانام ليقظاته وأمنت مصر والشام بنهضاته فما راعه ماعرا وما درأ عزمه لما درى ولا رد وجهه عما قصد ولا صدف رأيه عما عليه اعتمد بل ازداد قوة بصيره وازدان

بسريرة لكشف أسرار الغيب مستثيره وعمد الى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل ودلف فى الارض فوهب تربها للقسطل وأعلم ملك الانكتير ان جمع كفره للتبتير وان نشاط سره للتفتير وان أسنة أهل التوحيد مولعة من نحور أهل الاشراك بهتك الستير وركب فى مراكب حات المنايا الحبافى كتائبها لتحتبى أعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها بخيل تأبى الضيم مثل أبائه ونفر مثار النقع ينوب عن لوائه ووجه كلمع البرق فى ضيائه وقلب كصدر العضب فى مضائه وأقام السلطان على هذه الحاله ساميا فى مطالع الجلاله لم ينض سلاحه ولم يخفض جناحه ولم يركز رماحه ولم يردع للروع مراحه

((ذكر غرق البطسة))

كان السلطان قد عمر فى بيروت بطسه وزادها من العدد والآلات بسطه وأودعها من كل نوع ميره وملأها غلة وذخيره وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا من كل من طهروتزكى وشكره الاسلام اذا كفرمنه تشكى فلما توسطت ثبج اللجه وتورطت على نهج المحجه صادفها ملك الانكتير بحكم قضاء الله والتقدير وأحدقت بها شوانيه وعدتها عواديه وقاتلتها نصف نهار وهى لاتذعن لاقتسار فاكبت من العدو مراكب وجبت لها غوارب وأحرقت وأغرقت وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت وقتل من الفرنج خلق عليها وما امتدت بعدوانهم اليها فلما يئست من سلامتها وزلت عن استقامتها وانحلت عرى وثاقها وانحطت ذرى اعتلائها واعتلاقها ومالت الى الاستسلام وجالت على الاصطلام قال مقدمها علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل والشح بالدين أحب الينا من البذل فنزل الى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى أغرقها وسعد أهلها وافترقت وسيجتمع فى دار النعيم شملها ووصل الينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الاولى فقلنا الدهر يومان نعمى وبؤسى وما يزال الان على ذلك حتى يزولا وكانت هذه الواقعة أولى حادثة للوهن محدثه وللهم مورثه ولنار الاسى مؤرثه

((ذكر حريق الدبابة))

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائله قد أظهرت لها فى الشر غائله ولها أربع طباق شدها على الارتباط باق ولها من الاحكام باس ولباس وهى خشب ورصاص وحديد ونحاس وقربوها الى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس وفى طباقها سباع ضوار وذئاب طلس وبلى البلد منها بكل بليه ورزى بكل رزيه وكانت هذه الدبابة على العجل ليقربوا بتقريبها أسباب الاجل فبانت القلوب منها على الوجل وكاد أصحابنا يطلبون الامان وخضع كل أبى واستكان فقارعوا عندها أشد قراع وما صعوا أجد مصاع وتوالت عليها من مساعير الرهط قوارير النفط وهى تضرب فى حديد بارد وتضرب عن كل شيطان مارد وتنبو عن الاحراق وتنبى عن الاخفاق حتى بدرت قارورة انقضت على شيطانها كالشهاب فاخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسومهم فى الالتهاب فعوذناها بسورة والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب ومن حر أنفاسها برد النفوس وكشف شعاعها ظلم الكروب ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس وأنارت نارها النا بكل نور ولهم ببوار قوم بور ودبت شعلها فى أضلاع الدبابة وجنوبها فاحرقها الله احراق أهلها بذنوبها وكما أضاءت الآفاق بنيرانها أظلمت بدخانها فجلت لنا بياض النصر فى السواد فكأنه سواد الناظر أو سويداء الفؤاد بل سواد المداد يأتى من أنواره بالامداد فجلا حريق هذه الدبابة صدأ قلوبنا المغتمة بالبطسة الغريقه وأحمت نارها فى حماية الحق حمية حماة الحقيقه فانما احترقت الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسه فكان تشميتا للك العطسه

((ذكر وقعات فى هذا الشهر))

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا فى عكا عند زحف العدو دق الكوس حتى اذا سمعناه جددنا فى الزحف الى العدو بالنفائس والنفوس ولما أصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته ونظرنا من جانب العدو مثار غبراته فعلمنا بزحفه وعملنا فى حتفه وضرب الكوس السلطانى اصراخا لصراخ ذلك الكوس فتمايلت أعطاف ذوى الحمية من حميا العزائم لا من حميا الكؤس

وركب السلطان فى كل مشمر للبرد مضمر للجرد فضفاض السرد قضقاض كالاسد الورد مشتاق الى الطرد ملتاح من ماء الوريد الى الورد من الترك والاكاديش والعرب والكرد يهوى الى الاقران هوى المصلتات الى الرقاب ويظمأ الى ارواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العراب وكل عمل كأنه نزيف الحميا بعيد السماء من الارض بركضه شاحبة المحيا وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره وكل طلاع مع النوب لاينام ثاره ولايثبت فى الجفن غراره وكل منصلت ينير فى ظلام العجاج بنجوم الاسنه وكل مطرد يعيم السوابح السوابق فى بحور الاعنه وكل رام فروج المآزق حتى تفرى بأيدى المذاكى وكل شاك فى السلاح مشكور فى اشكاء الحق الشاكى وكل مصمم مصمم دروعه غير محقبه وسهامه غير مجعبه وسيوفه غير مقروبه وقبابه لمداومة اجراء قبه غير مضروبه وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب جحفله وابيضت بلمع الترائك مذاهب قسطله واشتبهت فى النقع الوان خيله وامتدت الى قرار اللقاء أعناق سيله فكأنما غارت الشمس من شموس شمسه فتوارت بالحجاب وعدا النقع فى وبل النبل من حساب السحاب وولجت العساكر عليهم فى خيامهم وحلت ليالى القتام الى أيامهم وغلت الصدور عافيها حتى وصلوا الى القدور على أثافيها وهتكوا وفتكوا وأدركوا وسفكوا فتراجع الفرنج وأصطفوا على خنادقهم ووقفوا بقنطاريا تهم وطوارقهم واجتمع عسكرنا لعلمهم يحتمون ويحملون ويعلون من دمائهم وينهلون ودخل الظهر وحمى الحر فافترق الفريقان وتراجع الى خيامهم الجمعان

《وقعه أخرى》

وفى يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر ضايق أهل الكفر البلد على الحصر وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهه وكانت من أشدها واجدها كريهه غير انه فى هذه النوبة عرضت نبوه وكادت تتم كبوه فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من عسكرنا داخل خنادقهم فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبى سوابقهم فانتشب الحرب واشتجر الطعن والضرب وكثرت الجراحات وكرثت

الاجتراحات واستشهد ممن عرف من المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان وقتل من المشركين جماعة أسرع بهم مالك الى النيران

ومن عجائب هذه الوقعه أن رجلا من مازندران من أهل الرفعه وصل فى تلك الساعة وافدا واستأذن وقت السلام على السلطان ان يقدم مجاهدا فحين شهد الوقعة استشهد فلقى الله بعهده كما عهد

《وقعة أخرى》

وفى يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارسا وراجلا ورامحا ونابلا وامتدوا من جانب البحر اطلابا وتحزبوا فى ذلك الفضاء أحزابا وركب السلطان من مجالس عادته الى مجال سعادته موقنا ان اداء عبادته فى ابارة العدو وابادته وتقدمت المقدمة وأقدمت وحمت نار اقدامها وما احجمت ومازالت نجوم النصول تنقض وختوم النحور تنفض وعيون العيون ترفض وديون الذحول وحقوق الحقود تقتضى وابكار الدروع بحدود الذكور تفتض فى شعواء حضرها التباب الغائب ونكباء لها من الذوابل ذوائب وبحر تسبح فيه السوابح وشرب بكأس المنية منها المهج غوابق صوابح وغبراء أساود نبالها تتواثب عن عقارب القسى وثعالب لهاذم صعادها تتلاعب فى أراقم السمهرى وذباب ظباها تطن فى مسامع الذئاب وعقبان راياتها تحلق الى مطالع السحاب وغدران سوابغها تفيض عليها جداول القواضب وغربان سوابقها تغيض فى غطامط الغياهب وأرواح اغمادها البارية عن الاجسام بريه وقلوب آسادها الضارية على الردى جريه حتى دخل على ليل النقع الليل وجرى من ديمة الدم السيل والتفت لما التفت بالخيل الخيل وأفرج المأزق عن قتلى جر عليها من السوافى الذيل واستشهد من المسلمين بدوى وكردى ولكم وقع من المشركين ردردى له فى الهاوية هوى وعليه من زفير جهنم دوى وأسر من العدو فارس بفرسه ولامته وقوته وتفرق الفريقان عن المعترك عند معتكر الدجى وقد عم من الشجب ما شجا

《وقعة أخرى》

وأصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين وقد أخرج من جانب النهر راجلا في عدد رمل يبرين بقواطع يبرين وقواضب يفرين وطوالع غروب في الطلى يغربن و بالردى يغرين وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين فلقيهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء و يوافقه القضاء في المضاء وكل معتقل للرديني أخف الى الوغى من سنانه وكل مشتمل للمشرفي خضيب الغرار ريانه وكل ملتثم بعثير حصانه معتنق لعطف مرانه وكل صبح كالصباح نضارة وجهه في شحوبه مدفونه وكل قارح على قارح شرارة عزمه في سكونه مكنونه وامتد راجلنا امامهم وأثبتوا اقدامهم اقدامهم وطال القتال وطارت النبال وحاضت الذكور وفاض التامور وأعمى العثير وعم العثور وأسروا منا واحدا فاحرقوه فصحب نوره بين يديه الى دار القرار وأسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبثت به تلك النار الى النار وشاهدنا النارين في حالة واحدة تشتعلان والصفان واقفان يقتتلان

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان ذكرا أنهما لاخت ملك الانكتير وانهما كانا يكتمان ايمانهما في سر الضمير وأخبرا انها زوجة صاحب صقلية فلما هلك صادقت في الاجتياز بها أخاها هذا الملك فألزمها بأن تتبعه واستصحبها معه وقد راما النجاة من تلك الفاجره لنجاة الآخره فأكرم السلطان وفادتهما وأجزل بالاحسان افادتهما

《ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك》

وفي الاثنين انسلاخ الشهر ذكر عن المرقيس انه هرب الى صور وانه كشف للجماعة المستور ونزلوا وراءه قسوسا وألقوا عليه من الضلالة في الاستمالة دروسا فنبا قبوله وانقطع وصوله وكان سبب نفاره وموجب استشعاره ان هنفري كانت زوجته ابنة الملك الذي هلك والقدس في يده وعادتهم انه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده وسواء في هذا الميراث بين الذكور والاناث فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا للكبرى فاذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى وكان الملك العتيق كي أخذ الملك بسبب زوجته الملكه فعزلوه عن الملك لما

احتوت عليها يد الهلكه و بقيت هذه زوجة هنفري فأصبح المركيس عليه يجترى ويقول لست من أهل الملك لتكون الملكة لك زوجه ولا بدلي من تقويم هذا الامر حتى لا أبقي فيه عوجه وغصبها منه وصرفها عنه واتخذها له عروسا وأحضر لنكاحها قسوسا وقيل انها كانت حبلى ولم تخرج من حبالة الحبل فاشغلتهم حرمة الرحم المشتغل وادعى المركيس ان الملك انتقل بها اليه وان أمر الفرنج بشرعهم في يديه فلما جاء ملك الانكتير تظلم اليه هنفري والملك العتيق فانفتح بذلك له الى مؤاخذة المركيس الطريق فاستشعر المركيس منه وماقر وأخذ معه الملكة وفر

《ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الاسلامية》

وفي يوم الاثنين انسلاخ جمادى الاولى قدم عسكر سنجار وقد سد بسواد عديده النهار وأفاض ببياض حديده الانوار ومقدمه مجاهد الدين يرنقش الشهم الشديد والسهم السديد والالمعي اللوذعي والكميش الكمي والنقاب النقي والعف التقي وهو ذو همة في الغزو عاليه وعزمة بالمضاء المضيء حاليه وقيمة في سوم السلطان لقربه غاليه وسريرة خالصة صافية من الكدر خاليه وأكرمه السلطان في استقباله بنفسه واقباله عليه بأنسه وسار بعسكره الى أن وقف تجاه العدو من جانب البحر مما يلي الذيب وقد أحسن في عرضه التدبير والترتيب ثم عاد في خدمة السلطان مكرما الى جنبه مقدما على صحبه فأنزله في خيمته وخصه بمواكلته وتقدم اليه بالنزول في ميسرته وفي (يوم الاربعاء) ثاني جمادى الآخره وصل جماعة من عسكر مصر والقاهره بالعدة الوافرة والقوة الظاهره مثل علم الدين كرجي الذي يسرع الى لقاء أقرانه ولا يرجى وكسيف الدين سنقر الدووى ذي الزند الوري والسيف الروي وأمثالهما من المماليك الناصريه والمساعير الاسديه أسد العرين الشم العرانين الغر الميامين (وفي عصر هذا اليوم) وصل علاء الدين بن صاحب الموصل الى الخروبة ونزل بها ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر في أحسن أهبها فركب السلطان اليه ولقيه وعاد وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد وأصبح يوم الخميس في خيمه سائرا

بآساده في عرينه مقبلا بكل فارس من جيشه فارس من خيسه في غاب كأنهم أجادل والجياد مراقبها وخيل كأنها الظلماء والسترائك كواكبها ونقع كأنه الآتي والمقربات قواربه وبحر تصادم منا كب الآكام مناكبه وعلا الوهاد طوالعه وغواربه عاريات غروبه عاليات غواربه ثقال مذاكيه باعباء عواليه كأنما نهضت لاذكاء نار الهياج حواطبه وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه وتلقاه من أولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق وهو من جملتهم البحر بل الغيداق والملك المؤيد نجم الدين مسعود وهو كاسمه مسعود مجدود وتلقاه الامراء والعظماء والخواص والاولياء وساق على تعبيته واجابته دعوة الاسلام وتلبيته الى جانب البحر ليرعب أهل الكفر وعرض وتعرض وعلم العدو بانه اليه نهض واستنهض ولما انفصل السلطان أخذه معه الى خيمته وأحضر له أسباب تكرمته وآنسه بانبساطه ونظمه مع أصحابه في سمط سماطه وأجلسه الى جنبه وعقد له حبا حبه وخصه بخلع وثياب وحصن عراب وما يليق به من كل باب وانصرف عنه ونزل على ميمنته نزوله عام أول في منزلته (وفي يوم الجمعة) رابع جمادى الآخرة وردت من مصر كتيبة ثانية صارفة أعنة خيلها الى الجهاد ثانيه ساطية على الكفر بيأسها جانيه وقد علمت الوقائع انها الثمرات اليانعة من ورق الحديد الاخضر جانيه فما نزلت حتى عرضت على العدو مقانبها وأبرزت لعينه قناها وقواضبها وأرنت برسل المنية اليه قسيها ثم جاءت وألقت بمضاربها عصيها وكانت العساكر تتوارد والجموع تتوافد

((ذكر ضعف البلد))

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة آيست منه وأسلت القلوب عنه والمجانيق قد رمت شرافاته وسمت اليها آفاته وأعادت جوانبه مهدومه ونواجذه مهتومه وانحطت عنه بمقدار قامه فلم يتمكن أحد عليه من اقامه وضعف البلد والجلد وخلا بالهم عليه الخلد وقد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم ووكلوا بها فيالقهم ونحن لا نألو في الجهاد جهدا ولا نترك جدا ولا نجد من

مضايقتهم بكل نوع بدا وجاء الخبر ان ملك الانكتير قد أشفى من المرض وأشرف من المضض حتى حلق رأسه حلق لحيته واستاق لانتظار منيته فتثبط الفرنج وتثبتوا وسكنوا وسكتوا الى أن يركب فيركبوا ويثب فيثبوا وكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق وزوال فرق وانتعاش عثره وانجبار كسره وانطفاء جمره وانسداد ثغره

((فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد))

قدم علاء الدين دام علاؤه في مقدمي الجنود الانجاد ووقف اجتهاده على موقف الجهاد وما أكرمه قائما في المقام الكريم وعظيما خاطبا دفاع الخطب العظيم ووصل فوصل جناح النجاح وأنشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح وجاء والكريهة ذاهبة بالارواح والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفاح وقد برزت بنات الاغماد الذكور على أكف أكفاء الكفاح لنكاح الهام بالسفاح وشارك في الجهاد وشد الازر وسدد الامر وآزر وعضد وظاهر وأسعد ولا خفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع ملوكهم وكنودهم وتوافد أمداد حشودهم وقد استشرى شرهم واستضرى ضرهم وأعضل خطبهم واستفحل أمرهم واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات وتركيب آلات ودبابات وزحفوا الى بلد عكاء بجمعهم ووقدوا بجمرهم وأخذوا فيه نقوبا وحكموا في الاسوار من الاسواء بضرب المجانيق ضروبا والثغر الآن قد أشرف والعدو قد أسرف وكلما زحف الى الثغر زحفت العساكر الاسلامية اليه وهجمت عليه والعدو بخندقه محتجز وافرصة الغفلة عنه منتهز ومن هجوم الموت عليه في مجثمه محترز ولم يبق الا أن يتدارك الله الثغر بلطفه ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج ووضح لهم في ثبات جنانهم المنهج وفي كل يوم يسدون بأشلاء لهاجمين عليهم الثلم ويجلون عنهم بما يشبونه من نيران

الطبا الظلم والعدو قدلج والحديد من قرع الحديد قد ضج والبلد مشفى والبلاء عليه موف والمأمول من الله أن يأتى من نصره بما ليس فى الحساب وأن يعيد ماجنح من أمر الاصحاب الى الاصحاب ويكفى هذه النوبة الصعبة فهو كافى النوب الصعاب

﴿فصل فى وصف عسكر عماد الدين﴾

وصلت العساكر التى وفت بعدتها المناجده ووافت بعدتها المنى جده وأقبلت اقبال الآساد فى عرين الوشيج وماجت موج البحار فى غدير الزغف النسيج واستهلت استهلال الرواعد البوارق وألمت بالعدا المام العوادى الطوارق ولقد جاءت فى وقتها منجدة من جده موجدة للانتقام من الكفر بكل موجده واستظهر الاسلام بظهورها وسفرت وجوه النصر بسفورها فاحجم الكفر باقدامها وانتظمت أحداق المشركين فى عقود سهامها وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها وفض بالفضاء ختام قتامها وما أشكر الدين والاسلام لعزائم عماده وغياثه وأبعث أمداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه

﴿فصل فى الاستنفار﴾

قد عرف أن العدو قد احتشد بجميع ملوكه وغصت مسالكه وطرقه بطوارق سلوكه وهو حديد الشوكه شديد الشكه قد لج فى حصر الثغر ونصب آلاته وركب عليه منجنيقاته ووالى الضروب من الضرب وأخذ منه مواضع فى النقب وقد أشفى على خطر عظيم وخطب جسيم واذا لم يصل فى هذا الوقت فتى ومن أتى فى غير الوقت المحتاج اليه فما أتى وهذا أوان رفض التوانى ونهوض المسلمين من الاقاصى والادانى والوصول بكل مايقدر عليه من العسكر والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الاظهر والجد الاوفر وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره والنهوض بعسكره الى نصرة عساكرنا المنصوره فلا يجنح الى عذر فللاعذار أوقات ولا يلتفت الى غير هذا المهم الذى ليس للمسلمين الى سواه التفات وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم ويتقاعد عن هذا المقام العظيم وهو عظيم

﴿ذكر خروج رسل الافرنج﴾

كان قد خرج مذ أيام رسول وسأل أن يكون له الى السلطان وصول فاجتمع به الملكان العادل والافضل وقالا له لايمكن لقاء السلطان لكل من يرسل وما كل مقصود عليه يعرض ليعلم فى الاول هل هو مما يقبل أو عنه يعرض فاعلمهما الحال وعرفهما ماسبب لارسال فاحضراه بالنادى السلطانى فمثل بين يديه وأوصل تحية ملك الانكتير اليه وقال هو يؤثر بك الاجتماع ولخطابك الاستماع فان أعطيته أمانا خرج اليك وأورد مقصوده عليك أو شئت كان الاجتماع به فى المرج خاليين من مقتضيات الحرج وكلاكما عن عسكره منفرد ولحديثه فى الخلوة مورد فاجابه السلطان وقال اذا اجتمعنا فهو لا يفهم بلسانى وأنا لا أفهم بلسانه ونحيل بالبيان على ترجمانى وترجمانه فيكون ذلك الترجمان رسولا فلعله يرد برسول ويصدر رسولا فلما لج فى الطلب وألح فى الارب استقر أن يكون الحديث مع الملك العادل وان نجح من عنده وسائل الرسائل ودخل وقد أخذ أمانا وانقطع بعد ذلك زمانا فشاع عندنا أن ملوكهم منعوه ومن ركوب الخطر فزعوه فانفذ ملك الانكتير رسوله بعد أيام ينكر ماشاع من تأمر للفرنج عليه وأحكام وقال الامور مفوضة الى وأنا أحكم ولا يحكم على وانما تأخرت بسبب مرض عرض فأفاتنى الغرض ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاداه وان دامت بينهم الحرب والمعاداه وعند الملك مايصلح للسلطان فهل تأذنون فى حمله وقبوله وأخذه من يد رسوله فقال الملك العادل نقبل الهديه بشرط المجازاه واستدامة المكافأة للموازاه فقال عندنا بزاة وجوارح قد لقيتها فى سفر البحر جوائح وقد ضعفت فهى طلائح روازح ونريد طيرا ودجاجا تصلح لطعمها فاذا استوت حملناها للهدية على رسمها فقال العادل لاشك أن الملك مريض وقد احتاج الى دجاج وفراريج ونحن نحمل له منها كل ما اليه احتيج فلا تجعل حاجة طعم البزاة فى طلبها حجه واسلك غير هذه المحجة محجه وانفصل حديث الرساله على قوله الرسول هل لكم حديث تقلنا أنتم طلبتمونا لا نحن طلبناكم ومالنا معكم حديث قديم ولا حديث ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة خرج من عند الملك فى الرسالة مقدم ومعه أسير مغربى مسلم وأحضره على سبيل

الهديه وأوصل الى السلطان ماحمل من التحيه فشرفه بخلعته واعتد له بهديته ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثه وما كانت رسالتهم تسفر عن مقصود بل فيها رثاثه وغثاثه وهؤلاء طلبوا للملك فاكهه وثلجا ولم يسلكوا في غير هذه الحاجه نهجا فأكرمهم السلطان بما سألوا ووفر لهم منه فحملوا وسألوا أن يتفرجوا في الاسواق ففسح لهم فيه على الاطلاق

((ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر))

وكان غرض الفرنج من تكرير الرسالات تفتير العزمات وهم مشتغلون بموالاة الرمي بالمنجنيقات وتسوية المنصوبات وتعبية الآلات وتعديل العرادات وتثقيل الجارات حتى تحلل السور وحان انهدامه وتخلخل وبان انثلامه وتزعزت أركانه وتضعضعت أبدانه وكاد يهوى ليهوى ولا يبقى ولا يقوى كي يثوى وأهل المدينه قد كثر تعبهم لكثرة النوب وقلة العدد والجرحى والسهر ناهك والعمل دائم والخال لازم والقلوب قلقه والظنون مخفقه والمتاعب شاقة والمشاق متعبه والاحوال متصعبه والاهوال مرهبه وكانت في البلد منجنيقات تنصب وتفيض بها قوى الرجال وتنصب فلما اشتد الزحف وزاد الضعف احتاجوا الى رجال المنجنيق للمقاتله والتناوب على المنازله وهنالك ظهر أن العدد لا يقي ولا يفي وان القليل لا يكف ولا يكفي وان خروج من كان في البلد لاجل دخول البدل لم يكن صوابا وان تقصير النواب ابتداء في الاعطاء جاب في الانتهاء اعدابا ولما علم السلطان سابع جمادى الآخر يوم الثلاثاء بما عليه البلد من غلبة البلاء زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهم وطرق اليهم بوائقهم ونهب من خيامهم ما تطرف وأسرف في ارهاقهم بما أشرف وحمل الملك العادل بنفسه مرارا وأجرى من الدم أنهارا وأراهم بالنقع النهار ليلا وبالبيض الليل نهارا وأمسى السلطان تلك الليلة شاهدا لم يذق طعاما ولم يستطب مناما ثم أمر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساور الى الوثوب والفوارس الى التترس والانداب الى الندوب وأعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب بكل من يلق الجيوش على الجيوش ويرمى الوحوش

على الوحوش ويرعب الصدور بصدور الرواعب ويشير بالامن عن مواقف المخاوف وكل من للضرب في جبينه شامه وللطعن في جنبيه علامه على خيل كامثال القنا تحمل القنا وضمر كالحنايا تهوى هوى السهام الى الوغى

في غداة صباحها في حداد * نسجتها أيدي المطهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب فجرى ذلك اليوم من القتال أشد مما كان أمس واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس

وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها أن العجز بلغ بهم الى غايته وانتهى الضعف بهم الى نهايته ولم يبق الا تسليم البلد ان لم تعملوا شيأ ولم تنجحوا في الذب عنه سعيا فضقنا بهذا الكتاب ذرعا وقلنا لا حول ولا قوة الا بالله لا نملك لانفسنا ضرا ولا نفعا والسلطان من هذا في أمر عظيم وهم مقعد مقيم وهو مجتهد في بذل وسعه سائل من الله لطف صنعه معاود الى الحرب في كل صباح طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح وفي هذا يوم الاربعاء بعث العساكر على اللقاء ودخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم وذكر أنه وقف في ثغرة من ثلك الثغر أفرنجي كانه جني مستشيط للشيطان نجي وهو يدافع ويمانع ويكافح على تلك الثغرة ويقارع قد اتخذ طارقته لجسمه صدفا وصار لسهام المنيه هدفا وهو كأنه مما انشب فيه النشاب القنفذ وتلك السهام من لبس الحديد لا تنفذ فلم يزل واقفا الى أن أحرقه بقارورة النفط زراق فامسى وهو حراق ووقفت أيضا امرأة بقوس من الخشب ترمى وتديم اصماءها وتدمي فلم تزل تقاتل حتى قتلت والى سقر انتقلت

((ذكر خروج سيف الدين على المشطوب الى ملك الافرنسيس))

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكا من جانب وعروه بكل نائب وملّ أصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح وقلة البدل الذي كان قد اقترح ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه وزادت المخافة فلم يبق معها أمنه خرج المشطوب الى ملك الافرنسيس بأمان وحضر عنده بترجمان وقال له قد علمتم ما عاملنا كم به عند أخذ بلادكم من النزول عند طلب أهلها الامان على مرادكم وانا كنا

تؤمنهم ومن المسير الى مأمنهم نمكنهم ونحن نسلم اليك البلد على أن تعطينا الامان ونسلم واذا فعلت هذا فقد حزت المغنم فقال ان أولئك الملوك كانوا عبيدى وأنتم اليوم مماليكى وعبيدى فارى فيكم رأيى من وعدى ووعيدى فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظه وأغلظ له فى القول عملا بقول الله تعالى وليجدوا فيكم غلظه وقال نحن لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين ومتى عرف أن الاسد يسلم العرين

«ذكر هرب جماعة من الامراء والاجناد من البلد»

ولما عرف رجوع المشطوب ولم يظفر بالغرض المطلوب قال جماعة من الامراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء هذا الامير الكبير والمستشار والمشير قد اشتغل باله فسواه ماباله وعمروا بركوسا ورأوا فى هربهم رأيا منكوسا وربحا فى دار البقاء مبخوسا وذلك ليلة الخميس التاسع وقربوا عليهم الامر الشاسع وجاؤا الى العسكر مختفين ومن رفقائهم فى نسب الوفا والوفاق منتفين فنمى الى السلطان الخبر بهرب الجماعه وانهم خرجوا لله وله عن الطاعه وانهم جبنوا عن بذل الاستطاعه وخفضوا عنهم صيت الشجاعه وأبدلوا الاضاءة بالظلمة والحفظ بالاضاعه وكان فيهم من الامراء المعروفين وذوى الشهامة الموصوفين عز الدين أرسل وهو الذى كان المثل بشهامته يرسل وحسام الدين تمرتاش بن جاولى وهو شاب أول ما توفى والده وجاولى وسنقر الوشاقى من الاسدية الاكابر ومقدمى العساكر وكل منهم محفوظ بالاقطاع الوافر فقطع السلطان اقطاعاتهم وأقطعها وحبس عنهم عنده الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها واستعاد أرسل بالاسدية ثم بالملك الافضل المفضل المؤمل وتوسل ابن جاولى بالملك العادل وكلهم توسل بفضل الاجل الفاضل فلم تعد معيشتهم ولم تعذب عيشتهم وعادوا ممقوتين وبحدود ألسن الذم منحوتين وبضعف القلب وقوة الخور منعوتين وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبى نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها فشفع فيه على أنه يضمن على نفسه العودة ويلتزمها فعاد

فى ليلته وأسقط عنه المذمه بأوبته ووقع بعد ذلك فى الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة دينار

«فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل فى المعنى ووصف الحال»

قد سبقت مكاتبتنا اليه بشرح الاحوال ومانحن عليه من رجاء النصر الذى هو متعلق الآمال وان ملوك الفرنج وجوههم قد وصلوا ونازلوا الثغر واحتفلوا والآن فان منجنيقاتهم هدته بكثرة الضرب وكثرت ثلم الثور فى مواضع النقب وعظم الخطب واشتدت الحرب وأشفى البلد وأشرف واشتفى العدو بما فيه أسرف ولما لج العدو فى الزحف واستسهل فى التطرق الى البلد طريق الحتف ركبنا فى عسكرنا اليه وهجمنا عليه لكنه بسوره وخندقه محتم والى مطمعه البعيد من أمره مترتم ولما عاين أصحابنا بالبلد ماعليه من الخطر وانهم قد أشفوا على الغرر فر من جماعة الامراء من قل بالله وثوقه وأعمى قلبه فجوره وفسوقه ولقد خانوا المسلمين فى ثغرهم وباؤا بوبال غدرهم وماقوى طمع العدو فى البلد الا هربهم وماأرهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهبهم والمقيمون من أصحابنا الكرام قد استحلوا مر الحمام وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء أضعاف أعدادهم وانهم يبذلون فى صون ثغرهم غاية اجتهادهم وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج فى التسليم فاشتطوا واشترطوا فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم فى القوم وبسطوا فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من المكروب ونحن وان كنا للقوم مضايقين وبهم محدقين وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ويعلمون أنهم ان خرجوا الينا فى تبار والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع والعسكر على مركزهم منا ألف مجتمع ولله قدر لايرد وقضاء لايصد وسر لايشارك فى علمه وأمر لايغالب فى حكمه وعلى الله قصد السبيل ونجح التأميل وتدقيق ألطافه فى دفع الخطب الجليل وماتوفيقنا الا بالله وعليه توكلنا وهو نعم الوكيل

«ذكر ماجرى من الحال»

وفى ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس وحمى الوطيس وتحرك بالضراغم الخيس واسود الجو وانسد الضو وانقضت القضب انقضاض الشهب واشتبهت الدهم والكمت بالشقر والشهب واختضبت البيض وتألق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السمر على غناء الصواهل وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل فللدروع من الضرب قعاقع وللعواصف الالوية زعازع ولغربان الرماح نعيب ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ولحريق الظبا معمعه ولرحى الحرب الزبون جعجعه واللاحقيات سابقة ولاحقه والسمر بجيبات راعدة وبارقه وشموس الترائك على بدور الاتراك شارفه ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقه وأيدى الاسنة هاتكة لحرز النحور سارقه وثعالب الاسل فى لبة الاسد ضابحه ونشاوى اللدان من نجيع الاقران غابقة صابحه فى رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقود عقبانها العقبان وصفاح صفاحها شعاع الشمس فيكسو لجينها العقيان وتقدم السلطان الى الامراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا وهجموا على الضراغم فى آجامها واحوجوا بجد الاقدام الى اجامها ونصب صارم الدين قايماز النجمى علمه على سور الفرنج بيده ووقف عنده بجلاده وجلده ووصل فى ذلك اليوم عز الدين جورديك ومعه من النورية المماليك فترجل وقاتل وأبلى وأضرم نار الوغى وأصلى وما ترك من جهده شيأ ولا خلى وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظر النجح الامل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد انهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ويسرون بأجمعهم على جانب البحر مسرى السيل ويذبون عن أنفسهم بسيوفهم وينجون بأنفهم وعز أنوفهم ولو صح هذا الموعد لنجح المقصد لكن الفرنج اطلعوا على السر فاضطلعوا بالشر وحرسوا الجوانب والابواب وارتابوا بما أراب وكان سبب علمهم اثنان من غلمان انهار بين خرجا الى الملاعين واخبراهم بجلية الحال وعزيمة الرجال وأصبح العسكر يوم الجمعة العاشر وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر واقفة على ترتيبه صفوفه مرهفة على عدوه أسنته وسيوفه ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفه ولم يتحرك من القوم ساكن

ولم يظهر من العدو كامن بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من أقسام الرسائل وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط ولا ذى مقامه بمقامه مغيط وبتنا على تلك الحالة وأهل الهدى مراصدون لاهل الضلاله وأصبحنا يوم السبت وقد ركبت الافرنجية وتدرعت وتحزبت وتجمعت حتى ظننا أنهم على عزم اللقاء فهاجت العزائم منا الى الهيجاء وخرج من بابهم أربعون فارسا ووقفوا واستوقفوا واستدعوا بعض المماليك الناصرية فلما عطف اليهم اليه عطفوا وأخبروه أن الخارج صاحب صيدا فى أصحابه وهو يستدعى نجيب الدين أبا محمد العدل لخطابه وهذا العدل من أمناء السلطان وقد أنس الفرنج به لتردده فى الرسالات نحوهم فى سالف الازمان فلما حضر أرسله الى السلطان ليتحدث فى خروج من بعكاء بأنفسهم بحكم الامان وطلبوا فى مقابلة ذلك ما لا يدخل تحت الامكان وزادوا فى الاشتطاط وتناهوا فى الاشتراط فانفذ السلطان الملكين العادل والافضل ليفصلا المجمل ويحملا اذا اخذا المفصل فتردد العدل مرارا ووجدهم على الاضرار اصرارا ولم تحر رقاعده ولم تظهر فائده وانفصلوا على غير قرار وعادوا والامر بغير امرار

((ذكر جماعة من العسكرية وصلوا))

فى يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر وفى يوم الاربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر وفى يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد أبهج بقدومه العسكر وفى هذا التاريخ ضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لا يمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وباشروا الاسنة المشرعة اليهم بنحورهم وشرعوا فى بناء سور يقطع جانبا حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا

((ذكر ما طلبه الفرنج فى المصالحة على البلد))

وكانوا اشترطوا اعادة جميع البلاد واطلاق أساراهم من الاقياد فبذل لهم تسليم عكاء بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا وبذل لهم فى مقابلة كل شخص أسير فلم

يقبلوا وسمح لهم برد صليب الصلبوت اليهم فانفصلوا عن الامر ولم يفصلوا

﴿ذكر استيلاء الفرنج على عكاء وكيفية دخولها﴾

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخره ماجت الفرنج بحور جموعها الزاخره وسالت الى ثغر البلد سيل الاتى الى القرار وطلعت فى السور المهدوم طلوع الاوعال فى فرج الاوعار وانحدر عليهم أصحابنا انحدار الصخور المدهدهه وفرسوهم فرس الآساد المحرجة المكرهه وردوهم أقبح رد وصدوهم أقطع صد ومازالت الكرات تتناوب والحملات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا أن الفرنج يستولون وعلى أحد منهم لا يبقون ولا يخلون فخرج سيف الدين على بن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا باموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتى ألف دينار وألف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من المعروفين وصليب الصلبوت وعشرة آلاف دينار للمركيس وأربعة آلاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفرنجية على عكاء مركوزه وأعطاف أعلامها مهزوزه وما عندنا علم بما جرت عليه الحال وما أحد منا الا والبال منه قد عراه الوبال وعم البلاء وتم القضاء وعز العزاء وقنط الرجاء ولوت أعناق المسار اللاواء ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره الى تقى الدين وما عن له فى سفره فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وآثار فى ديار بكر الاختباط والاختلال والاختلاط وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم وكذلك لم يكن فى البلد عدد يفى بصونه وما كان يضبطه السلطان الى هذه الغاية لو لم يكن الله فى عونه ونقل الثقل تلك الليلة الى منزله الاول بشفر عم وأقام بخيمة لطيفه متلهفا متلهبا على ما تم ثم انتقل سحرة ليلة الاحد تاسع عشر الشهر الى المخيم صابرا على حكم القضاء المبرم وحضرنا عنده وهو مغتم وبالتدبير للمستقبل مهتم فعزيناه وسليناه وقلنا هذه بلد ذمم فتحه الله وقد استعادها عداه وقلت له ان ذهبت مدينة فما ذهب الدين ولا ضعف فى نصر الله اليقين وما وعكت بعكاء القلوب الا لكرم يوم النصر على الاعداء تنفيس

ولوحشتها بعد هذه الحادثة الموحشة تأنيس ولهذا الدين وان تداعت قواعد بقعة من بقاعه بالعز لبقاعه تأسيس وخرج فى هذا اليوم أقوش رسولا ندبه بهاء الدين قراقوش يخبر ما قرروه من القطيعه ويصف كيفية الملمة الفظيعه وقال أدركونا بنصف المال وجميع الاسارى وصليب الصلبوت قبل خروج الشهر وان تأخر شئ من ذلك بقينا تحت الاسر ونصف المال يصبرون به الى شهر آخر فاحضر السلطان الاكابر وفاوضهم فى ذلك وشاور فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون وهل لنا عذر ونحن لهم مسلمون فتقبل السلطان بتحصيله وتعجيله بجملته وتفصيله

﴿وأنشأت فى استيلاء الفرنج على عكاء هذه الرسالة وسيرت بها كتبا﴾

قد عرف أمر عكاء وان العدو قصدها ورصدها ونزلها ونازلها وقابلها وقاتلها وبرك عليها بكلكله وحفل عندها بجحفله وتواصلت اليها جموعه أفواجا وجلب البحر نحوها على أثباجه أمثال أمواجه أمواجا وجاءت رابضة أمامها ضاربة خيامها ملهبة بها غرامها ملهبة فيها ضرامها وانتهت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمدادها بحارا ويرد الماء باهل النار مستصحبين من ماء الحديد الجامد نارا وتصل مراكبهم كانها الاعلام السود والامواج ناشرة بيض اعلامها مائلة بجبال الهابا كامها مازجة اصباحها باظلامها وتتنافس ملوكهم الباغيه وطواغيتهم الطاغيه فى الورود بنفوسها ونفائسها والوصول بما نفضت فيه كنائن كنائسها مستخرجة ضمائر خزائنها مستفرغة ذخائر مكامنها موضعة ظعائن ضغائنها مستبضعة متاع متاعبها مسرعة الى مواطن معاطبها وترد بقناطير أموالها وجماهير رجالها ومساعير مصالها ومشاهير أبطالها ويحدقون بها من برها وبحرها ويجثمون بين سحرها ونحرها ومازالوا يقاتلون أبراجها بالابراج ويسومون جدتها بالانهاج ويرومون علاج كرامها برماة الاعلاج ويقارعونها ليلا ونهارا ويلقمون أفواه خنادقها أحجارا ويناجونها بألسنة المجانيق الطوال ويطيرون اليها على حمام الحمام كتب الآجال ويكافحونها قراعا ويدبون اليها للمضايقة خطا وساعا

ويناطحونها بالكباش ويقارعونها من حرابهم وحرابهم بكلاب الهراش وحيات النهاش ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلق كأنه حامل على الطلق لا تلد الا أمات الدواهي ولا تدع الراسخ الراسي اذا قابلته غير الواهن الواهي ويقتل الله منهم العدد الدهم والجمع الجم ويهلك ألوفا حتى يعود نافرهم للمنون ألوفا وقد تجاوزت عدة القتلى منهم في هذه المده سوى من هلك بالضايقة والشده خمسين ألفا قولا لا يتسمح فيه المعبر بالبيان بل يتصفحه المحرر بالعيان الى هذه السنه والحالة في تحقيق قمعهم وتفريق جمعهم جارية على الوتيرة الحسنه واشتعلت في قلوب أهل النار نار البواعث وتحدثوا في الحادث وثاروا للثار وزاروا بالزار وانبرى ملكا أفرنسيس وانكتير وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير وجاؤا في مراكب بحرية حربيه وبطس جمالة فرنجيه وأجروا في البحر منها السيول وجروا من ذوات الشراع عليها الذيول وحملوا فيها الخيالة والخيول ووصلت كل قطعة كأنها قلعه وكل بطسة كأنها تلعه وكل سفينة فيها مدينه وكل مجرة على سماء البحر بنجوم الرجوم مزينه فأحدقت بالثغر من البر والبحر وأحاطت بمركز الاسلام دائرة الكفر وأطافت منها الاسواء بالاسوار والظلماء بالانوار ومنعت الداخل والخارج وسدت على ناقل الميرة وحامل السلاح الموالج والمناهج وزاحفوه بكل منجنيق كنيق وكل برج وثيق وكل دبابة كأنها دابة الارض التي تقوم عندها القيامه وكل سهم لا ترجى معه السلامه وكل آلة آلت ان الفتح منها بالحتف وأقسمت أنها تقسم سهامها لذوى الحفز بالزحف هذا والعدو قد حفر من جانبنا وعمق وسور وخندق وتدرع باسواره وخنادقه وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه فلا يخرج منه الى معاركه ولا يدخل اليه لضيق مسالكه وهو متحرز متحرس متستر متترس حاص على الهجم عاس على العجم لا يقتحم سده ولا يثلم حده ولم تزل الحالة تتمادى والواقعة وليدها لا يتنادى والمدى يتطاول والمدد يتواصل والقضية تترامى والرمية تتقاضى ومقاتلة الثغر صابرون مصابرون مكابرون مضاربون فمن مستشهد عدله الجرح

ومن مستجد عطله القرح ومن دام بالجرح رام عنه ومن نازع في القوس نازع منه ومن متعرض للموت خوف عار عارض ومن ناه عن السلم آمر بالحرب ناهض ومن ندب فيه ندوب ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب حتى ضج الحديد من قرع الحديد ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد هذا وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص وظل المصابرة يقلص والعدم يتمكن من الوجود والقيام للاثخان في زى القعود وكاد البقاء يودع الباقين والمنون تلاقى الملاقين فلم يشعروا الا وبعض المقدمين المشهورين قد تأخر وتستر واستشعر الذعر فتعذر وتحذر واستبدل الجبن من الشجاعه واستملى العجز من الاستطاعه وقدم العصيان على الطاعه وظن انه لا نجاح له في الهزيمه ولا نجاة له الا في الهزيمه وجنب أمثاله من الجبناء وجمع الى أمره جماعة من الامراء فخرج بهم من الثغر فارا وذهب على وجهه معهم مارا ورهب فهرب وحسب فتسحب فاضعف قلوب البقية استشعارا وأعدمهم عدم قراره قرارا لكنهم ثابوا الى صبرهم وثبتوا على أمرهم ودفعوا مكر العدو بمكرهم ومابرحوا على مصابرة ومكابره ومقارعة ومعاقره ومكافحة وملاحمه ومواقفة ومواقعه ومطاحنة ومناطحه وجاء على الخنادق التي طمت ورمى في خروقها التراب ورمت وطرقها العدو بالسوء الى السور وطرف الظلمة الى النور وهجم على البنا بالديجور وكشف نقاب عروس البلد بالنقب وأسعر بمساعيره حر الحرب حتى ثلم حمى الثغر وكلم حاميه وأشرفت مراميه وكثرت ندوب نقوبه وكرثت خطاب خطوبه ودخل العدو في النقب فلم يجد لكونه مجدلا أو مجرحا مخرجا وتوغل في الباب فوجد باب الخلاص المرتجى مرتجا وكل من أصحابنا قد سد الثغرة بنفسه ولقى الوحشة بأنسه وفارق لوصال أهل الجنة أهله وأثبت في مستنقع الموت رجله ولم يزل النقابون يوسعون ويعمقون ويعلقون ويحشون ويخرقون ويحرقون ويجمعون ويفرقون حتى تساقطت الابدان فعادت تلولا وتعانقت الاسياف فزادت فلولا وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم قوائم اليمانية في الايمان وبرت بمجالدة أجلاد الشرك أيمان أنجاد الايمان وأصحابنا لا يهولهم الهائل ولا يعياهم الى الحذار

الجدار المائل ولا يزعهم الخطب الوازع ولا يردعهم الرعب الرادع يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع ويردون بغربهم الطالع ويقدون بحدهم الدارع اذا انتظموا مع العدو نثروه واذا نهضوا له أقعدوه وعثروه واذا صعد اليهم حدروه واذا بادر اليهم بدروه وندروه حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا وكم تركوا على تلك المصارع من جانبيها جثمانا وما زالوا يقتلون ويقتلون وينهلون من ورد النجيع وينهلون ويصلون ويقطعون ويشعبون ويصدعون ويكيلون بصاع المصاع ويجيبون للعمر الراحل داعى الوداع ويتناجون بألسنة المناصل ويتقابلون بوجوه الصواقل ويتشاكون بكلام الكلام ويتلاقون بسلام السلام ويتساقون بصحاف الصفاح ويتماشون بمراح الرماح ويستحلون ضرب الضراب ويستجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب الى أن انتقل القتال من السور الى الدور ومن الستائر الى الستور ومن الطوارق الى الطرق والسطوح ومن المضايق الى الفساح ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من المجاهدين الا سبائك زحوف وترائك حتوف وبقايا طرائح ورذايا طلائح ومسوقو جرائح ومشقوقو ضرائح قد فصلتهم المشرفيات وخاطتهم الخطيات ورشقتهم القسى القاسيه ورشفتهم الظبا الظاميه لا ينهض قويهم من الكلول ولا يفرى فريهم من الفلول وقد شغلوا بسد تلك المضايق ورد أولئك الخلائق فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها وتوغلت من أسوارها وازدحم العدو فى مشارعها وسبلها ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ولما عرف العدو الداخل والعادى الواغل ان القوم مستقتلون وللموت مستقبلون وانه لا طاقة له بمقاومتهم ولا قوام له بطاقتهم وانهم لا يسلمون وهم يسلمون ولا يبقون وهم يبقون أعطاهم أمانا أخطر من المخافه ودخل على الاغارة باسم الضيافه وعز أصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا وما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ولا مرد لما فيه لله من المراد ولا مدفع لحكمه فى البلاد والعباد وان ذهبت مدينة فلم يذهب الدين وان غاض معين فما غاب المعين وان ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين وان فتح المرتج فما فات المرتجى وان

ادلهم الديجور فلا بد ان يسفر عن الصبح الدجى ولا يشمت عدو الاسلام بما جرى فعند الصباح يحمد القوم السرى

«فصل من كتاب الى قطب الدين بن
نور الدين بن قرا أرسلان»

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر فى هذه السنة من مدد ملوكه وكثر على نهار الاسلام باظلام ليل الكفر وحلوكه فالاسلام ينشد ظهيره ويطلب الدين لكشف غمته من ابن نوره نوره وهذه عكاء التى كنا عنها ندافع وعن ثغرها نمانع ونجرى دماء الواردين فى البحر لقصدها فى بحرها ونرد للردع عنها مكايد العداة فى نحرها قد تمكن منها الكفر على كره من الاسلام واحتاج من أبى اسلامها بعد ان صابر وصبر الى الاسلام وكانت مودودة فعادت مؤوده وصارت مغصوبة بعد ان كانت عاريه من الكفر مردوده واذا أفكر من خذلها وما أخذلها وغاب عنها وما حضرها علم أنها أسيرة اهماله وأخيذة اغفاله وحاشى ان يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا وعن النجدة عند تحقق الحاجة اليها متغاضيا وما بقى للفرنج مع استيلائها على الموضع الا زائد قوة فى المطمح والمطمع وقد عزمنا على المصاف وصدمة الكافر بالجد الكافى الكاف والله كافل دينه بالنصر والمردى بمكره أهل المكر وما هذا أوان الونى بل هو زمان استنجاح المنى فان العدو الخادر قد آن أوان ان يصحر وليل الهدى قد قرب ان يسفر

«ومن رسالة أخرى فى استدعاء مظفر الدين من اربل تشتمل على
حادثة عكاء ووصف الحال الجاريه فيها»

قد علم ما دهم المسلمون من العدو الكافر والطاغية الحاشد الحاشر وانه ورد فى البحر بكل من للكفر فى البلاد والجزائر وما قصده الا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هو الذى تكفل بذلة أعدائه وعزته ولا شك انه عرف ما تم منه على عكاء بعد ذبنا عنها فى هاتين السنتين والمضايقة للفرنج ممن بعكاء ومنا بين الحصارين وانهم كلما دبروا أمرا دمرناه وكلما حققوا كيدا أبطلناه وكلما قدموا منجنيقا أخرناه وعطلناه وكلما ركبوا برجا أحرقناه وكلما كثفوا حجابا خرقناه

وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله حتى لم يبق لمكرهم مكر ولا لكيدهم مجال ولم يتسق في هذه المدة لهم حال وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين ألف مقاتل من فارس وراجل ولم نشك في استيصالهم بالردى وان حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى وحسبنا انهم بائدون فاذاهم زائدون وظننا انهم هالكون فاذاهم في نهج القتال سالكون وهم حطب نار الحرب وطعم الطعن والضرب وكم بذلوا أرواحهم على حب المقبره وحصلوا تحت الجزل زعمهم انهم يأتون بما فوق المقدره ولما دخلت هذه السنه أشفقنا على من في عكا من الاصحاب والاجناد وقلنا هؤلاء قد بذلوا في الجهاد ما كان في وسعهم من الاجتهاد ورأينا أن نجدد للبلد البدل وان نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل وكان فيه أكثر من عشرة آلاف رجل من كل ذمر شيخ وكمي بطل فخرج هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العده ولم يكن أيضا من دخل بذلك الجد وبتلك الشده فان البحر قبل استحكامها منع راكبه وحمى جانبه ووصل العدو وعجل مراكبه فاكتفى البلد بمن فيه وما فيه كفايه واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقايه وجاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام في جد واعتزام وحد واهتمام وجمع لهام وثار نجلها العد ومن جهنمه وضرام وغرام بالواقعة وعرام واحتداد للحادثة واحتدام وباس واقدام وناس وأقوام وحشد ملأت بها سفنها وأخلت منه مدنها ووصل ملكا افرنسيس وانكتير وقد أحكما التدبير وأجلبا بخيلهما ورجلهما وأناخا بكلكل كلهما وبركا بثقلهما وزحفا بجدهما وجهلهما ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق وكل آلة غائله ودبابة للابطال حامله ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد وأهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد وباشروا الباشورة بالهدم والخندق بالطم والسور بالنقب والثلم وخرج من نقابي البلد من ارتد عن الدين وأعان نقابي الملاعين حتى وقعت أبدان السور وأبراجه وتبادر الى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون ناكبون كابتون قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم وجعلوا حجارات الفرنج وجراحاتها مغافر رؤسهم وكشفوا وجوههم لقبل السهام وتلفعوا من

وقع بعضها بجمر اللثام ترشف شفاه الشفار دماءهم وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وسخاءهم كلما انتظموا مع العدو انتثر وكلما نهضوا لتلقيه عثر وكلما طلع اليهم ردوه بغربهم وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم وضربهم وهم يواقعون ويواقعون ويكافحون ويلافحون وكل قد وقف في موقف الكرام وسل نصله وأثبت في مستنقع الموت رجله وودع للجنه في لقاء أهل النار أهله فخانهم بعض الامراء الجبناء وأخذ للحياة بترك الحياء وفر من البلاء الى البلاء وحسب النجاة في النجاء وهرب في بركوس قد أعده لذلك اليوم وآثر على جراح السيف جراح السب واللوم واستصحب أمثاله واستتبع وأبعد في فراره وأبدع وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين وأطمع أفاعي الكفر في نهش الراقين على أن الاصحاب ما آذنوا بالاصحاب ولم يقابلوا الضراب بالاضراب ومازالوا يواصلون بالقواطع ولا يرتاعون للروائع ولا يرعون مقام المقامع ويطالبون من الارواح بالودائع حتى انتقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى الشوارع ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهه وأمن أخوف وأخطر من كريهه وقطيعة فظيعه كل منة لها غير مستطيعه ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من الاسباب الموهنه لم تكن عكا بالممكنة للعدو ولا المذعنه وان ذهبت المدينه فالدين لم يذهب وان عطبت فالاسلام لم يعطب وان ملكت واحتلت فما اختل الملك وان سلكت ووهت فما وهى السلك واغاثنا الله بها العزائم الراقده وأجرى مياه الهمم الراكده وبعث الحميات الناعسه وحرك النخوات المتنافسه وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره سيظهر عزنا بنصرته وظفره ونحن الى الآن كما كنا محدقون بخنادقهم آخذون بمخانقهم نوسعهم الرعب في مضايقهم ونجذبهم في كل يوم الى مصارعهم ونكدر بعلق نجيعهم صفو مشاربهم ومشارعهم فما خرج منهم من دخل وما انقطع الا من وصل وما أصحر الا من ندبه عريسه وعرسه وما برز الا من واراه من بطون الخوامع رمسه فهم مقيمون لا يرعون مخيمهم ولا يرومون أن يهجروا مجثمهم وما أنسوا بمرابض المضارب الا لنفرتهم من

مضارب القواضب وهم مع ذلك يرجعون تارة بالخروج الى المصاف وآونة بالنهوض الى بعض الاطراف وفي كل ذا قاصدين ان شاء الله دمارهم المعجل وبوارهم المؤمل فانا نعترضهم أين واجهوا ونواجههم أين اعترضوا ونعثرهم أين نهضوا ونثيرهم للموت أين ربضوا وربما غرتهم عكاء فطمحوا وطمعوا واتفقوا على المصاف واجتمعوا ووقعوا على نار الحرب وقوع الفراش وتعوضوا مصارع أمثالهم واثرى لهم وثير الفراش فان برز العدو فالمنون له بارزه والعزائم له مناجزه والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزه والمجلس أولى من ينتخي ويحتمي والى هذا المرام من قهر الكفر يرتمي وينتمي ويصل بجمعه اللهام الملتهم وبجمره الملتهب المضطرم وبعجره المحتدم وبفيلقه الفالق ترائك العدا السافك السابك في نار الوغى سبائك لظبا الخاص الحاسد بحدود الشفار سنابل الطلى وهو لا شك ينهض ويستنهض من وراءه ويستدعي من اذا ناداه أجابه وجاءه

((ذكر لطف من الله في حق خفي))

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكاء بسنة قد عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبة الاصحاب ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطي وخرج حكم عكاء في الكتابة عن شرطي فقلت لاصحابي ما صرف الله قلمي عن عكاء الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود وان النحوس تحلها وترحل عنها السعود واستعاذني الله من استعادتها وردها الى شقاوتها بعد سعادتها ولقد عصم الله قلمي وكلمي وعرف شيم مخايل ألطافه من شيمي وهذا قلم جمعت به أشتات العلوم مدة عمري وما أجراه الله الا بأجري فالحمد لله الذي صانه وعظم شانه وما ضيع احسانه وهو للفقه والفتيا ومصالح الدين في الدنيا وما عرف الا بعرف فما صرف الا عن صرف وما سفارته الا في نجح وما اسفاره الا عن صبح وما تجارته الا لربح فهو عين الدولة وأمينها ومعين الملة بل معينها بمداده يستمد امدادها وبسداده للثغور سدادها ودواته دوام المعضلات وبعقده حل المشكلات وبحله حط عوادي الخطوب وبقطه

قط هوادي الخطوب وببريه برء الامراض وبدره درء الاعراض وبدره انتظام عقود العقول وبدراريه ابتسام الاقبال والقبول وبجريه جري الجياد للجهاد وبسعيه سعي الامجاد للانجاد وبحركته سكون الدهماء وببركته ركون الرجاء فما كان الله ليضيعه في صون ما لا يصونه وعون من لا يعينه فخفت على عكاء من وقوف قلمي عنها وكان قد ألهمني الله فانه صانه ولم يصنها وشكرت الله على هذه اللطيفه والعارفة لطريفه

((ذكر ما جرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكاء من الوقائع))

وفي يوم الخميس انسلاخ جمادى الآخره خرج الفرنج من جانب البحر بالعدة الوافره وانتشروا بالمرج الى الآبار التي كان حفرها العسكر فضرب الكوس السلطاني فثار المعشر وقام المحشر ونهض السلطان الى اليزك من قواه واتبعه عدد تلاه وقد طار غراب الغبار وتبرقعت بالتراب عراب المضمار وشبت الوغى بكل شبوب تمانع سوى فارس هاركابها وتعبر الشمس من نسج حافرها نقابها في غلب كالقواضب يروون القواضب وطوالع من الغروب بعدن في الغوارب غوارب وحمل على ابطال الباطل حماة الحق فردوا الكفر بذلك الحرق المتسع متسع الخرق وانهزم الفرنج فحالت العرب دونهم وحالت بينهم وبين أسوارهم وأحالت عليهم منونهم وصرعوا زهاء خمسين رجلا كروا عليهم بكاسات المنون نهلا وعللا وردوهم الى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل على عاجزهم ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمه كادت تحدث هزيمه فوقف أصحابنا وثبتوا ثم وثبوا وأسعروا نار الحديد وألهبوا ونظموهم بالقنا ونثروهم بالظبا وفرشوا منهم قتلى على الربا واحتبت سيوفهم بالاعناق والطلى وحلت من حباة العدا الحبا ودخل القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء أسوارهم بأثارة عثيرهم آثار عثارهم وانتصف الاسلام من الكفر في ذلك اليوم بعض الانتصاف وأخذ النصر على المصافاة بعصا نخبة المصاف وفي يوم الجمعة ثامن رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقرره لخلاص الجماعة المستأسره وأخبروا ان ملك أفرنسيس سار الى صور ورتب الدولة نائبه وولاة الامور وانه قد عزم على العود الى بلاده بعد

ما جرى الامر بعكاء على مراده وانه وكل المركيس فى قبض نصيبه ورضى بتدبيره وترتيبه فانهض اليه السلطان وراءه رسولا بتحف تليق به يستخرج ضمائره فيما هو من أربه ونقل خيمته يوم السبت العاشر الى تل بازاء شفرعم وراء التل الذى كان عليه نازلا وخلى الموضع الذى حله وخلى الذى أخلاه عاطلا ومازالت الرسل تتردد والرسالات تتجدد والاراء والآراب تجتمع وتتبدد حتى أحضر مائة ألف دينار والاسارى المطلوبين وصليب الصلبوت ليوصل ذلك كله الى الفرنج فى الاجل المضروب والوقت الموقوت ووقع الخلف فى كيفية التسليم والتسلم وكيف يحصل الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم فقال السلطان أسلمه اليكم على أن تطلقوا أصحابنا أجمعين وتأخذوا بباقى المال على سبيل الرهن قوما معينين فأبوا الا أخذ الجميع فى زمن السريع والوثوق بأمانهم وأمانتهم والتفويض فى أصحابنا الى خيرتهم فقلنا لهم تضمنكم الداوية فما دخلوا فى الضمان وساء فيهم ظن السلطان وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم كان فيه على الاسلام غبن عظيم وعار الى الابد مقيم فلو أيقنا خلاص أصحابنا وعرفنا بتحاتم انتظام أسبابنا سمحنا لهم فى الحال بصليب الصلبوت والاسارى والمال وبقى الامر وقفا الى أن انقضى الاجل وانتهى النجم الاول وجاء الرسل وأبصروا الاسارى حضورا والمال موزونا موفورا وظنوا ان صليب الصلبوت قد أرسل الى دار الخلافة فليس له وجود فسألوا احضاره وهم شهود فلما أحضر خروا له ساجدين وأقروا به شاهدين وعرفوا أن الشرط بالوفاء مقرون وأن الاداء بخلاص أسارانا مرهون وظهرت علامات مكرهم ولاحت أمارات غدرهم وفى يوم الاربعاء العشرين من رجب أخرج الفرنج الى ظاهر المرج خياما ضربوها وقبابا نصبوها وخرج ملك الانكتير الى خيمته ومعه خلق من خيالته ورجالته

﴿ذكر غدر ملك الانكتير وقتل المسلمين المأخوذين بعكاء﴾

وفى عصر يوم الثلاثاء سادس عشرى رجب ركبت الفرنجية بأسرها وخرجت عن مستقرها وسارت بخيلها ورجلها وجحفلها وخفها وجاءت الى المرج الذى

بين تل العياضية وتل كيسان ونفذ اليزك وأخبر السلطان وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقة وشامت صوارم صادقة وعزائم صادقة وكان الملاعين قد أحضروا أسارى المسلمين فى الحبال واقفين وحملوا عليهم فقتلوهم أجمعهم وألقوهم على مصرعهم فحمل عليهم العسكر وهاجهم وضرب بأمواجه أمواجهم وقتل منهم خلقا وأوسع فيهم خرقا واستشهد منا كردى جندى وبدوى وكلاهما من الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر رويه فلما انصرف العدو الى خيامه وركد الروع عثار قتامه شوهد المستشهدون بالعراء عريا واغاعروا ليكتسوا من حلل الجنان التى أكرمهم الله بها وشيا ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم ووصفوا فى سبيل الله مواقفهم وما أكرمهم رجالا وأحسنهم فى الشهادة والسعادة حالا ولما غدر الفرنج بسفك الدماء وهتك ستر الوفاء تصرف السلطان فى ذلك المال وبسط فيه يد النوال وأعاد أسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى أربابها وترجع الى أيدى أصحابها فانهم كانوا جمعوا من أهل البلد للحاجة اليهم فلما استغنى عنهم ردوا عليهم وأعيد صليب الصلبوت الى الخزانة لا للاعزاز بل للاهانة فان غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا وأنفذوا بعد رسول رسولا فما وجدوا قبولا ولا صادفوا سولا

وفى يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر وقاربت البحر وضربت بينهما الخيام وأنبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام فقيل للسلطان ما حركة القوم الا قصد عسقلان فجاشت همومه وعب عبابه واجتمع بناديه لاجالة قداح الرأى أصحابه وسح سحابه وصح حسابه وحكم فأحكم ورى فأبرم واستشار وأشار واستثار وأثار واستورى زناد الآراء وامترى مراد الامراء وقال هذا العدو طغى واستكبر وأضحى له الافق وأفاق وأصحر وقد تحرك بعد سكونه وظهر بعد كمونه وغرته عكاء فطمع فى عسقلان واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان وهذه

جموعه بارزه وكمو به راكزه وعوراته باديه وثوراته عاديه ونكراته معروفه وغدواته موصوفه وكنا نقول اذا برز نبارزه واذا خرج نناجزه واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه واذا ركب الطريق نركب الى طريقه واذا توجه الى موضع أوضعنا الى مواجهته وأغرينا ألسنة الاسنة بمشافهته ومسافهته والآن ألان الله لنا الشديد وأدنى علينا البعيد وأخرج العدو من الضيق الى السعه وأبرزه من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه وان لم نلقه فى طريق مسيره ونجد فى التدبير لتدميره وصل الى عسقلان فصار لنا منها شغل عكاء وأصعب وحينئذ تتعب وصدعنا به الاشعب فقالوا هو يسير بالبحر محتميا وعن النهج منثنيا ويقصد الساحل ويقتصر المراحل والذى يلى الساحل فى الطرق اما آجام وغياض غلفة متأشبه واما رمال وتلال ضيقة متكثبه وهنالك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق ومواقعته بالعوائق فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بن جندر وأمير من أهل الخبرة آخر بالمسير الى تلك المناهج ومشاهدة مالها من المخارج والموالج وكشف المواضع التى يلقى فيها العدو ويؤمل مقابلته فيها من الله النصر المرجو فسارا ينفضان تلك المسالك ويكشفان الاماكن التى تكون معارك وتتخذها المبار المرام مبارك وللمدار المراد مدارك وعادا وقد ظفرا ببقاع وبقاع وعينا على أماكن ومكامن ومواطئ ومواطن ووقع الاجماع على الاجتماع على اللقاء والقراع فى مذاهب تعينت ومسارب تبينت وسهول عرفت وحزون وصفت وصمم العزم على أن الفرنج اذا ساروا عبرنا على عراضهم واستقمنا على جدد الجد فى اعترائهم واعتراضهم

(ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا للقائهم)

وفى سحرة الاحد غرة شعبان أضرم الفرنج فى منازلهم النيران وأصبحوا على الرحيل والاصوات مختلطة بالصهيل والارض مضطربه والسماء محتجبه والقباب تقوض والعياب تنقض والجعاب تنثل والهضاب تنقل والذئاب تعسل والرغف يفاض والحتف يخاض والخيل تسرج والسبيل يمرج وذوائب الذوابل تنتشر وانياب النوائب تكشر ولواء اللاواء يعقد وضرام

الضراء يوقد والبيارق تخفق والبوارق تأتلق والدودو والجوجو وللحديد نبوج وللعديد تموج وقد ثارت الجواء وفارت الجأواء ودجت الاضواء وربت الضوضاء وسال الوادى وعدت العوادى وسار الاعادى وعلم السلطان تدبيرهم وعرف مسيرهم فرعدت كوساته وغردت بوقاته وصاحت طبوله وساحت سيوله وانسحبت ذيوله واصطحبت خيوله وبرقت لوامعه وأشرقت طوالعه ومضت عزائمه ومضت صوارمه وحلقت العقبان الى مطار مطارده وتألفت الخرصان فى معاقل معاقده وسار وأرضه جرد الصوامر وسماؤه نقع الحوافر فى بحار سوابح تموج على شكائمها اللعاب وغدران سوابغ كزلال لمعه الحباب وجحر ملتهب الجوانب مشتعل القواضب وقب معقودة السبائب مفقودة الجنائب مصعوبة الهوادى هادية العصائب وعرب ملوية العمائم بالشهب ملونة البرود بالقضب وترك كالاقمار فى هالات الترك ومماليك فى حامات الملوك عتاق الوجوه على الوجيهيات العتاق قد خلقوا للثبات مع قلق الاخلاق وأعاجم على العراب هضاب على هضاب وكرد بحصون الدروع محتمين وبقباب اليلب مستعصمين فى مسرودة الحلق مسدودة الحدق تقهقر عنها اللهاذم وتقهقه اذا فلت بها الصوارم وجيش يصيب العدو ولا يصاب ويعيب الاقران ولا يعاب من كل ناصر للحق على ضامر للسبق خارق للنقع واقع للخرق فاتق للرتق راتق للفتق معنق الى الضرب ضارب للعنق وفيلق همه فلق الهام وجحفل ملتهم للجحفل اللهام يحوى كل أغلب عبل الزراع وأشم رحب الباع خواض الكتائب فياض القواضب رواض الرعان نضناض السنان موار العنان فوار الجنان قائد الخيل ذائد السيل رائد الليل وهاجت العساكر وماجت الزواخر فزأرت القساور وأزهرت الزواهر وتناوحت عذبات الحديد وعذبات الحرير واشتبه سهك المآذى بعبيق العبير وكانت نوبة اليزك فى ذلك اليوم للملك الافضل وهو فى نخبة الجحفل بدور ليل القسطل وشموس يوم المحفل فوقف لهم وقفا أثرهم وألهبهم بنيران النصال وأسعرهم وقطع طريقهم وقصد تفريقهم وسطا

على أوساطهم ونادى بإراء زناد ارتباطهم فانقطعت أواخرهم من أوائلهم وسدد سهام المنون الى مقاتلهم وأرهق اليهم الاجل وأحرق عليهم العجل وطرق نحوهم الوجل وانهزم من تقدم ولحق الاول وتعكس من تأخر وانخذل وانخزل وأوقد نارا على أهلها مشعله وترك تلك الوقعة للمجاهدين الحاضرين مشغله ونفذ لى والده يستنجده حتى يسرع اليه مدده ويقول ان أمددت بألف ما أبقيت من هؤلاء واحدا ومتى يتفق مثل هذه الفرصة لو أرى لى مساعدا وترددت الى السلطان رسل استنجاده واستمداده وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدرة لمرى در النصر على مراده فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم انجاده واسعاده ثم قيل للسلطان ما كما ركبنا بنية المصاف فى هذه المرحله والناس قد سبقوا الى المنزله وهناك عند قيساريه الحرب أمكن والقالب الى انتهاز الفرصة أسكن وأبطؤا عن الاصراخ فآذن روع الفرنج بالافراخ وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته وان الذى وراءه فى عاقته فصرف عنانه وصرف عناده وعاد بجمانه يحمى بعده أمداده والملك الافضل قد بذل وسعه وأوضح فى الجد شرعه وقتل من وصلت اليه يده ولقد كان يضعف عدد الاعداء لو تضاعف عدده وبقى يتلهف على ما فاته من الفرصه وأعوزه من حصة تلك الحصه فقد انماض بانتهاضه جناح الكفر وكان يفتح لارتجائه رتاج النجاح فى النصر ومن جملة من كان مع الملك الافضل من خواص الامراء والمماليك سيف الدين ياز كوج وعز الدين جرديك واتفق قولهم على ان العدو كان قد انكسر وتبدد نظمه وتبتر وانه لو اتصل بهم مدد لم يبق من الاعداء أحد ونزلنا تلك الليلة بالقيمون فى الوقت الميمون وعلى الساقة المنصورة لحفظ الاثقال لنؤمن على ما تخاف فيها من العدو والغاره علم الدين سليمان وحسام الدين بشاره ورحلنا يوم الاثنين ثانى شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الاساود وأمر السلطان للمشورة بحضور أوليائه وأمرائه الاماجد الاجاود والفرنج لما وصلوا الى حيفا وقد وصل اليهم الحيف وساق ساقتهم السيف وخلصوا من نواجذ النصال وأنياب النبال أقاموا

بها حتى يندمل جريحهم ويستريح طليحهم وتهب بعد الركود ريحهم وركب السلطان الى الملاحة وهى بعد حيفا منزلة القوم وكشف ما حواها بالحوم وعرف هل عليهم منها مدخل وهل يصاب منهم فيها مقتل ثم عاد الى منزلته وأقام بها يوم الثلاثاء وسير الاثقال الى مجدل يابا ليلة الاربعاء وأصبح راحلا فقاحل حياه بأرض الاسى ماحلا ونزل على النهر الذى يجرى الى قيساريه وعسكره قد طبق تلك البريه وكان العدو قد تحول الى الملاحه ومكث بها للاستراحه وأقام السلطان بتلك الناحيه يتحول من رابية الى رابيه ويرهف للقاء الفرنج بحضه وحثه كل عزيمة نابيه وأتى مرارا بأسارى خطفوا من مواقفهم وقطفوا من منابتهم وطرق الانكدار الى ثواقب ثوابتهم فأمر باراقة دمهم واطاحة رممهم وأخبره بعض الاسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفا حيارى وطرح منهم وجرح كثير سوى من أخذ فهو الآن أسير وهلكت بين عكاء وحيفا أربعمائة فرس ونجوا منكم بأنفسهم على آخر نفس ولو انكم كبستم كسبتم وأعز يتموهم من الحياة لو انكم بهم التبستم

(فصل من كتاب الى مظفر الدين بذكر ما جرى بعد الرحيل
من عكاء الى هذه الغاية لاستدعائه)

ولما فرغ العدو من شغل عكاء حسب ان كل بيضاء شحمه وان كل سوداء فحمه فرحل على صوب حيفا واقعا فى حيفه باحثا على حتفه بظلفه زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه فى قصده وزعمه وهو واصل منا على صده ورغمه وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكتير قائدهم الى البوار وواقد أهل النار الى النار ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار وقد رحلنا فى عراضهم لاعتراضهم وتعثيرهم فى طريق انتهاضهم ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديده وكل روعة لهم مبيده فانهم قطعوا ساقة العدو عن اللحاق بمقدمته وفلوا عن الحدة فى الحركة حد عزمته وقتلوا خيالا وخياله وفوارس ورجاله وقدروا وتمكنوا وجرحوا وأثخنوا ونهبوا وسلبوا وأخذوا رؤسا قطعوها ووقذوا نفوسا قلعوها وغنموا أقمشة وأسلحه وحصوا من اللاحقين بهم قوادم

وأجنحه ونزلوا على نهر جيفا وقد تم عليهم الحيف وتحكم فى فلهم السيف فاقاموا الى هذه الغاية لمداواة جريحهم ومواراة طريحهم واراحة طليحهم واثارة ماركد من ريحهم وقد رحلنا وسبقناهم الى طريقهم عازمين على تبديدهم وتفريقهم وتشتيتهم أيدى سبا وتغريقهم فقد تمكنت بنا أيدى الله أيد الابد من سبيهم وقتلهم والله يجمع شملنا ويفرق شملهم وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطه ولا عدائنا من عبطه الاونبادر ببشراه الى المجلس لتقوى فى نصرتنا عزيمته وتشيم بارق التوفيق فى مواقفنا شيمته وتروض مواحل الامال مع أوان الديمة الربيعية ديمته ويغلو فى سوق رواجه من الدين ما ظن انه رخصت قيمته وكيف لا يأخذ ذلك الكريم بثار الاسلام وقد سبيت من عكاء كريمته واذا تأمل عرف ان الخطب عظيم وما لدفعه الا العظيم والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعد المقيم وسيقتضى دين هذا الدين الغريم الزعيم

﴿وقعة قيساريه﴾

وفى غدوة الاثنين تاسع شعبان جاء من أخبر برحيل الفرنج السلطان وانهم سائرون ثائرون وعلى أجنحة الجرد طائرون وحول رجالتهم بخيلهم دائرون وهم فى جميع اهام وقد انقسموا ثلاثة أقسام كل قسم راجله بخيله محفوظ وباعين القسمين الآخرين من خلفه وقدامه ملحوظ وكان السلطان تقدم من الليل بركوب الخيل فركب فى كل خواص للغمرات فياض بالعزمات رواض للعامحات نهاض بالجامحات ملتثم مع اللثم بالنقع والدجى ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا مقتحم فى حومة الوغى مضطرم بجمرة الظبا على نزائع ينقلن الردى على صهواتها وصواهل يقذفن الحمام من لهواتها ويكشفن الظلام بجبهاتها ويبارين الصفاح بصفحاتها وتعاسل الرماح باعناقها وطلاتها وفيهم من رجال الحلقة المنصورة كل سابق الى المنون على سابق وكل تائق الى المارق مارق وكل طائر فى الغبار على سابح وكل غابق بالنجيع صابح فى عراب متمطية بالعراب ورقاق متخطية الى الرقاب وسار العدو وسرنا نباريه ونباريه ونجترى عليه ونجاريه والجاليشية ترمى وتدمى وتصم وتصمى وطيور

السهام تقصد من الاحداق أوكارها والاوتار تنشد بالارنان أوتارها وهم فى لباس حديد سد على السهام المنافذ واشتك النشاب فيهم فاشبهوا القنافذ وكانت هناك بركة كبيره ومياهها غزيره وهم على عزم ورودها والاحاطة بحدودها فخلاناهم عنها وأبعدناهم منها وكان الحزم تركهم حتى يخرجوا الى الفضاء فيدخلوا من تمكيننا منهم تحت حكم القضاء لكنهم ارتابوا وارتاعوا وطلبوا النزول بها فما استطاعوا فانحرفوا الى الساحل وانصرفوا بالفارس والراجل واجتمعوا سائرين وساروا مجتمعين ومازلنا نلزهم ونهزهم ونحفزهم ونحزهم حتى تمت مرحلتهم وعمت مقتلتهم وتثلمت الصفاح وتحطمت الرماح وأجرت الانهار الجراح وجرى بالارواح السماح وحضر السلطان مع الجاليشيه ناجح الارادة نافذ المشيه ونزلوا على نهر يقال له نهر القصب وقد انصبوا الى النصب وما كانوا يرجون وما كادوا ينجون ولما نزلت بهم فى مسيرهم النوازل نزلوا وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا

﴿مقتل اياز الطويل﴾

واستشهد فى ذلك اليوم الهمام المقدام الاسد الضرغام الطاعن الضارب الباسل السالب الغضنفر الهرماس الفارس الفراس أياز الطويل وطالما عرض نفسه فى سوق الشهاده وأقدم اقدام الساعى الى السعاده وكان الى الصريخ أسمع منتصت ولعطاس النقع أسرع مشمت والى ضيف الحمام أسبق متلفت واسيف الاقدام أرشق مصلت لا يروعه الروع اذا حفزته عزمته ولا يهوله الهول اذا همت به همته وهو أول من يركب وآخر من ينزل ويدبر سواه وهو يقبل ويسابق الى المضار ولا يمهل وهو أبدا يدعو الى المبارزه ويعدو على المناجزه ويقف بين الصفين على صافنه ويرحل على مطايا الحنايا من بنات كنائنه الى مقاتل المقاتلين ظعائن ضغائنه فبارز اليه الامن برزت اليه منونه وفاضت بالدم من عيونه عيونه فكم كف للكفر كفها وبكر للنصر زفها وأنف للشرك جدعه وذى أنف للقتل صرعه ولبة للغضنفر صبغت لثعالب رماحه وطلبة للمتغشم وطنت فيها أذبة صفاحه وأجفان

للاقران نبتت فيها أهداب سهامه ووجوه للشجعان تفصلت فى حساب حسامه فلما جاءه الاجل ما أجل ولكن الى الجنة به عجل فان حصانه خانه وما صانه فعثر به حالة الاقدام وجلا قره فى هالة الحمام ولم يخف لثقل الحديد للقيام وطعن وضرب وأتاه من الكوثر سلسبيله فشرب ولما أدركه الاصحاب ألفوه وقد فات ورافق فى عليين الاحياء فى سبيل الله لا الاموات ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركه شديدى الشوكه حديدى الشكه ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب فى أوله وهو الذى نزل العدو فى أسفله وتقاربت ما بيننا تلك الليلة المسافه وعندنا الامن وعند العدو المخافه ولما أصبح السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ينتظر ما يكون من خبر العدو وأقام الفرنج على حالهم لتعبهم وكلالهم ولاسباب منها جراحاتهم عدموا منهاج راحاتهم وكذلك ما ملكهم من رعب الهلاك والابتراك فى الارتباك

((وقعة لعز الدين بن المقدم))

وكان عز الدين بن المقدم فى ساقة اليزك مستيقظا للحفظ والدرك فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين ركبوا بغير عدة مسترسلين ولاخبار عسكرنا مستشرفين وهم بما تم عليهم غير متخوفين فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم فى اقائهم فقتل منهم عده ولقوا منه شده وأسر ثلاثه قبل أن ينالوا اغاثه ثم ركب الفرنج اليه وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمه جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمه وأحضر الاسارى عند السلطان بحزام الذل والهوان فاخبروا أنه جرح بالامس منهم ألف وسرى فيهم وهن وضعف وقد جرى عليهم أمر عظيم وبلاء مقعد مقيم ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء أرسوف فى الطريق الوعر ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب على قرية يقال لها دير الراهب ومضى السلطان جريدة الى قرب أرسوف وأطال هنالك الوقوف حتى رأى أرضا فى طريق العدو تصلح للقائه والاحداق به من أمامه وورائه وأقام يوم الاربعاء فى ذلك المنزل والعدو فى منزله الاول

((ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكتير))

كان فى اليزك علم الدين سليمان بن جندر قد ظهر فيه واستظهر فراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا يوم الخميس على التأسيس ثم تحدثا فى الحوادث وعوادى الحروب العوائث وان السلم متعينه والسلامه فيها متبينه والمصالحة مصلحه والفائدة مترجحه قال وما جئنا الا لاصراخ أهل الساحل فوقعنا فى الشغل الشاغل فان اصلحتموهم واصطلحتم استرحنا واسترحتم فقال له الملك العادل ما الذى فيه تحاوروله تحاول فقال رد البلاد برد البلاد وسلوك مسلك الاسعاف والاسعاد فقال العادل هذا لا مطمع فيه وهذا رسم باطل حقنا معفيه ودون حدود البلاد حدود الحداد وخلط القتام وخرط القتاد وصرف عنان صرف العناء الى المتصرفين بالعناد وأدركه حكم الحمية والحفيظه وعلى مرجل غيرته فى الكلمات الكالمات الغليظه وكان الترجمان بينهما هنفرى بن هنفرى فلما سمع ملك الانكتير ما راعه ما استطاع سماعه وثار ثورة المحنق المحرق وآل اجتماعهما الى التفرق

((وقعة أرسوف))

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ما جرى بينه وبين ذلك الطاغيه وانه مصر على تلك المباغى الباغيه جمع يوم الجمعة وقت الاصباح الاصحاب واستحضر من أسد غابه من غاب وأمر برحيل الاثقال وأقام فى رعيل الرجال وركب فى عجم أنجاب وعرب على عراب وكرد على جرد وكل سابق ورد على سابق ورد على خيل من سماتها آثار الطعن وعلى جبهاتها أنوار اليمن با كباد غلاظ على العدا ورقاق حداد على الطلى ونبال مصمية ابان المصمم ورماح لدن لدنها ضغم الضيغم المعلم فاقام العدو بسواد قومه بياض يومه وبات وقد فارق جفنيه غرارا نصله ونومه فلما أسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ركب العدو على صوب أرسوف وقد ضم الرجال والفرسان وهو سائر فى ليل حالك وسيل سالك وخيل حالك وحزب الشيطان وحرب الايمان وأصحاب الجحيم وأقطاب الضلال البهيم وخطاب الخطوب واندباب الندوب وتفاة الكفاح وصفاة الصفاح وأجناس الكفار وانجاس الداويه وأرجاس الاسبتار وكل غيران غيور وان

وأفعوان معتقل أفعوان . وكل أرقم في جلد أرقم وكل أزرق أشقر على أدهم فاحدقت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ونقلت بذور ضرامها الارض الى السماء وخاضت الغمرات وأفاضت الجمرات وأفاظت المهجات وشبت نيران الهنديات وأهبت رياح العربيات وألهبت شعل اليمانيه وألهت بها مقل الفرنجيه وجال عليهم في الجاليش الترك على الاكاديش وأحدقت سهامها كالاهداب بالاحداق وبرزت بيضها لمعانقه الاعناق ولمع شرار النصال في دخان العجاج وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج وأفضى فيض ينابيع النبع الى اعجال الاعلاج فان الفرنج أغذوا في سيرهم وجدوا واحتدموا واحتدوا وامتدوا وقربت منهم الاطلاب واختلط بهم الاصحاب وتعانقت لرقاق والرقاب وأحرج القوم وتقطعت بهم الاسباب وقربوا من أرسوف وقد لاقوا منا الحتوف والحسوف وضاق خناقهم وحاق بهم ارهاقهم ونشبت الجاليشة فيهم بالنشاب وشبت نيران المرهفة في أولئك الاوشاب فاحتملوا في جلودهم الجرح ومن أجلادهم الطرح ووجدوا الموت الغالي مسترخصا وأيقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصا وعرفوا أن البلايا عليهم متصلة غير منفصله وان قواهم لما فوق ما القوه من النكايه غير محتمله فحملوا على الاطلاب المنصورة حملة واحدة زحزحتها عن مواضعها وكادت تحلئها شوارع القطاريات عن مشارعها لكنها تحيزت الى القلب المنصور وفازت من وجوه النصر بالصفور واستشهد في تلك الفورة الثائره والثورة الفائره سعداء استقبلوا بالاسنة الاسنه وأجابوا دعوة الله بان لهم الجنه فصابروا حتى صرعوا ولما أشرعت اليهم الرماح أشرعوا ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة ارد تهم وردتهم وصدقتهم عن الاسنان في حد تلك الحملة وصدتهم وفرست منهم فوارس واتعست معاطس وفرشت بالعراء لهم أشلاء وأثخنوهم طعانا ورماء فنزلوا في أرسوف وقد كسروا وخسروا وقتل قوم منهم وأسروا وفي ذلك اليوم ثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين وحمل في أصحابه أسد العرين وسدد الى نحورهم الشوارع وقلع منهم قلائع وثبت عسكر الموصل وكذلك قايماز النجمي في

موضعه الاول وكانت العساكر في شعراء أشبه وشجراء متشبه فلما رأى العدو اندفاع المسلمين قدامهم لم يأمن رجعتهم واقدامهم فعاد وعبر أرسوف ونزل قريبا من الماء وبات السلطان تلك الليلة على نهر العوجاء وأقام العدو يوم الاحد في موضعه منكوبا بتعب تبعه ثم رحل يوم الاثنين سائرا الى يافا ليستدرك بها فارطه ويتلافى ونازلتهم العساكر بالنوازل الى أن نزلوا وقطعوا طرقاتهم حتى وصلوا

((فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من عكاء))

ساروا في مواضع ما للمبرك عليهم فيهم سبيل ولا لقداح القراع في مجالها مجيل وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق وتطرقهم بالبلابل المنايا في كل طريق وهم على البحر لا يفارقونه ومن المورد الى المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه فان المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة ما بين المنهلين واذا الزوالم يبعدوا بين المنزلتين وكانت لنا الى هذه الغاية معهم في كل بقعه وقعه وفي كل مرحلة مقتله وفي كل منزلة منازله وأوردناهم الردى في كل مورد وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد وسبلنا جماهم للحمام في كل سبيل وساء صباحهم ما في كل مغدى ومقيل وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ومواضع لا يتسع فيها مجال ولا يتهيأ قتال وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم وأرهفنا حدود العزائم والصوارم وأرهقناهم وجرت معهم عدة وقعات كادالكفر فيها يبور ودائرة السوء على أهله بنا تدور وماء أهل النار بفيض بأسنا عليهم يغور ولولا أن الله تعالى قد أخر موعده في نصر أوليائه وقهر أعدائه لوقع الفراغ من شغلهم وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم فهذا يوم رحيلهم عن عكاء أرهقتهم اليزكية الزكيه ونكأت فيهم منهم الرمية قبل المنيه وكان الولد الافضل يومئذ متولى اليزك فتولى اسعار لهب المعترك ووقف لهم في المضيق على الطريق وباشر جمعهم بالتفريق وقطع آخرهم عن أولهم وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتر وبتك وفتك وهتك وقتل وسفك وطلب وأدرك وعبر الفرنج نهر حيفا لما دهمهم من

من الامر واحتموا بالمنزل الوعر ووصل عسكرنا وقد تمنعوا بالنزول وتجمعوا في الوعر عن السهول ولم يبق اليهم نهج للوصول وأقام الفرنج في تلك المنزله أياما وقد نالت معاطسهم ارغاما حتى استنجدوا عددا واستنجدوا مددا واستنجدوا ممن وراءهم عددا وأحكموا التدبير واستأنفوا المسير ومنها يوم انفصالهم عن قيساريه بادرتهم الرماة وبرتهم بالمبريه وأنفذت اليهم رسل المنيه وقتلت منهم مقتلة جيده ولم تزل السهام الى مقاتلهم مصوبة مسدده الى ان احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البليه عنهم بالحلول وقد قتلت من خيلهم عدة ألف راس لم ينفصل راكبها الا وهو من ثوب النجيع كاس ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل والمسافات غير متباعدة المنازل فاذا نزلوا بالمنزله ارتزوا الى المنزله ولاذوا وهم أهل النار بالماء وقادهم العجز عن الاحتمال الى الاحتماء ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم وعاديتهم شاكين في منعتهم ممتنعين بشوكتهم وشكتهم والخيل تجري بهم جريان السيل والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل والعساكر الاسلاميه جائلة في عراضهم مائلة الى اعتراضهم موقفة في مراميها مفوقة لسهامها محرقة أهل الجحيم بضرامها ولما نشب فيهم النشاب وأعجزهم وأزعجهم وأحرجهم بكثرة النكايه فيهم وأرهجهم كابروا وصابروا الى ان وصلوا أرسوف وقد شارفوا الحسوف وقاربوا الحتوف فحملوا بجملتهم حملة واحده وجاؤا كالسحاب بارقة وراعده واندفعت الاطلاب الاسلاميه امامها ولم تثبت قدامها حتى أبعدوا بجملتهم في حملتهم وتفردوا بحركتهم في معركتهم وظنها السلطان هزيمه وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة فان القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز وموئلا للمتفوز المتحرز ووقف الاخ العادل ثابتا قلبه نابتا طابه وكر عليهم في حزبه ذوي الحميه والانف والابيه والهمم العليه كرة ردتهم واردتهم وصدتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم فاستدركت ما فرط في النوبة من النبوة واستمسكت بما استأنفته في العزمة من الفتوه وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا ونزلوا بأرسوف واغمي الانوف قد فل جندهم وقتل كندهم وهذا طاغوتهم الهالك

بسيف سيف الدين كان مطاع أولئك الملاعين وابليس تلك الشياطين والمعروف بسيرجاك واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونيه ونفذ أمره على الداويه والاسبتاريه وكان من عظم شانه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فاقتتل حتى قتلوا ولا بذل روحه حتى بذلوا وجزع ملك الانكتير لمصرعه وفزع من ورود مشرعه ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار وخيمت عليه بحكم الاضطرار ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا وكل منهم استدرك بقصده اياها تلفه وتلافى فجال دونهم لقدح منونهم مجيلا ومن جمعهم بقمعهم مديلا وعلى قومهم بوقمهم محيلا حتى باسطهم في ميادينها وخالطهم في بساتينها ورابطهم بالاسود في عرينها وأسرى الحين الى سراحينها فما وصلوا المدينة الا وقد تخطفوا من حولها واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها وخافوا من فريضة مسئلة النكاية وعولها وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا وعلموا أنهم ان خرجوا أخرجوا وان سلكوا اهلكوا وزعموا أنهم اذا صبروا ملكوا

﴿ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا﴾

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرمله واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحله ورحل ليلا وأصبح على يبنى وجاوزها الى نهر أمر أن الخيام به تبنى وزرنا بيبنى قبر أبي هريرة رضوان الله عليه وتبادر الناس للتيمن به اليه ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر وشرع فيما عزم عليه من الامر

﴿ذكر خراب عسقلان﴾

لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الامراء وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها للعجز عن حفظها على ما بها ووافقه الجماعه وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعه فان هذه يافا وقد نزلوا بها وسكنوا فيها مدينة بين القدس وعسقلان متوسطه ولا سبيل الى حفظ

المدينتين ولا تفي الحال بحماية البلدين فان كل واحد منهما يحتاج في حفظه الى عشرين ألف مقاتل والى الاستكثار لاجل ذخائره من كل حاصل فانظر الى أصوب الرأيين نقدمه وأبصر أخطر الداءين فاحسمه واعمد الى أشرف الموضعين فحصنه وأحكمه وتيقن أن عسقلان اذا وصلوا اليها وهي سالمة تسلموها واستظهروا بها وأحكموها وتقووا بها على سواها وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها واقتضت الاراء اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الامراء حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ومن قصده على عزم ووصل السلطان الى عسقلان وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ولو حفظت لكان حفظها متيقنا وصونها ممكنا لكن وجد كل له متجنبا متجبنا وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين وقال من تعلل واعتذر عن دخولها وحل عقد عزمه عن حلولها تدخلها أنت أو أحد أولادك فندخلها اتباعا لمرادك فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها وغض أنوارها وفض سوارها وتعفية آثارها وتطفية نارها ولو كان وقع الاعتناء باتنائها منذ يوم فتحها واقتنائها لما تطرق الى أيدها خلل ولا الى يدها شلل ولا الى حدها فلل ولا الى ودها ملل وقد ركبت اليها وطفتها واستحسنتها واستلطفتها ورأيت سورها قبل فصم سواره ونورها قبل ذبول نواره فما رأيت أحسن منها ولا أحصن ولا أحكم من مكانها ولا أمكن وسكانها كانوا في رفاهيه فانتقلوا منها على كراهيه وباعوا أنفس الاعلاق بابخس الاثمان وتجمعوا بالاوطار والاوطان وساءت أسواؤها ونأت أنواؤها وأناخت لأواؤها وباخت أضواؤها وسمع غناء المعاول في مغانيها المعوله ورأيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزله وناحت تلك النواحي ومسحتها المساحي وجرفتها الجارف وأخافتها المخاوف ونكرتها المعارف وبهرجتها الصيارف ونعتها النواعب ونابتها النوائب ونزلتها النوازل وغالتها الغوائل وسفتها السوافي وعفتها العوافي وخلت مدارس آياتها من التلاوه وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوه وصوحت مجاني مبانيها وطوحت معاني مغانيها ودجت مجالي معاليها وعادت

مقاوي مقاريها ووقفت على طلولها واستوقفت وأسيت عليها وأسفت وتلهبت وتلهفت وشاهدتها وقد حسرت وحفيت ومحي سنا محاسنها وخفيت وبكيت تلك الربوع وأهديت لسقياها الدموع فلقد أصيب الاسلام بعروسها وعبست الوجوه لعبوسها حين ثار نقع بوسها فلما خلت مساكنها من سكانها وتخلف بالبيوت رماد نيرانها رحل السلطان يوم الثلاثاء ثاني شهر رمضان ونزل على يبنى بعد أن ترك سور عسقلان وقد تعذر أن يبنى ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرمله وتفضيل جمله بادعلى التفصيل والجمله وأمر بتخريب حصنها وتخريب لد وبذل كل في ذلك الجهد وركب جريدة الى البيت المقدس وأتاه يوم الخميس وأعاد اليه رسم التأنيس وخرج منه يوم الاثنين ثامن شهر رمضان بعد الظهر وبات في بيت نوبه وقد نال بما رتبه من مصالح القدس المثوبه وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه وقد أكمل من كل ما رامه حظوه وفي يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وصل صاحب ملطيه معز الدين قيصرشاه بن قلج أرسلان ملتجئا من أخيه وأبيه الى السلطان فتلقاه الملك العادل وجاءته منه الفواضل وأقام في الخدمة السلطانيه مده واستجد بها جده وقوة وشده واستظهر بالمصاهره وقوى منها بالمضافره فانه تزوج بابنة العادل وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل

وفي هذا التاريخ وهو يوم الاثنين خرج ملك الانكتير في خيالته متنكرا ليكون الحشاشه لهم وحطا به مخفرا فخرج عليه الكمين ونشب به اللعين وجرت قتال عظيم وكان لاصحابنا موقف كريم وكاد الملك يؤخذ ويوقذ والطعن في لبته ينفذ ففداه فارس من أصحابه بنفسه وشغل طاعنه بما عليه من حسن لبسه فاشتغل به وأسره وأفلت اللعين وأخفى أثره وقتل وأسر من خيالته جماعه وانهزموا من أمر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعه وجرت أيضا يوم الجمعة ثاني عشر الشهر حرب بين اليزكية وبين أهل الكفر سفرت لنا بها وجوه النصر وقتل مقدم لهم معروف بالشجاعة موصوف ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل على تل عال عند النطرون وهي قلعة منيعة مجبة

للظنون والعيون فامر بهدها وهدمها وقل غربها وثلمها وأشاع بها الاقامه وأفاض فيها على العسكر الكرم والكرامه وتمكن الناس هنالك من الاحتياط على الاثقال وانفاذ الجمال لنقل الازواد والغلال

«فصل من كتاب الى الديوان العزيز فى وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح»

قدمنا العسكر طول البيكار وانضاه قتال الكفار بالليل والنهار لاسيما فى هذه السنين الاربع فانه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع ولا مشتا ولا مصاف الاحيث صف العدو وصاف وقد تكررت عليه الزحوف وتعثرت به الحتوف وتفللت منه السيوف وتحللت به الصفوف وتغضت بآحاده الالوف وتمعضت لجنى بيضه وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف حتى سئم وملّ وضجر وكلّ وكم عقد عزمه وحلّ وأنهل نصله من دم الكفار وعلّ وأمل النصر فقال عسى ولعل وأما خيوله فقد أجهدها الجهاد وأنضاها الطراد وفرى جلودها الجلاد وعرت منها لكثرة الجراح الجياد وأعادت شهبها كمتا حدود البيض الحداد وحيث داخلها الرعب من خروج الجروح للجروح وتفريق السهام منها بين الجسم والروح صارت تنفر من رنة الحنيه وانة المبريه كان عندها للاوتار أوتارا واطائرات النصال فى لباتها أوكارا أوكانها المارآت انها تباريها فى انظار وتجاريها فى المضمار ثارت لادراك الثار وهذا سبب ما حدث من النفار وما عادت الآن تدخل على راجل الكفار وأما العدد فقد فقدت بالكليه وعدمت وتكسرت وتحطمت وتقصفت وتقصبت وتقصمت وقتلت قبل المقاتل بها وفى يد من استشهد استشهدت وأما النشاب فانه قد فنى بعد أن اتخذ من أخشابه جميع ما وجد واقتنى وقد عدمت أشجاره فى منابتها وأعوزت أخشابه من منابتها ونفضت الكنائن وانفضت منه ومن كل ما يدخر الخزائن وما برح الصناع فى الممالك بمصر والشام وما يجرى معها من بلاد الاسلام يبرون ويريشون وينصلون ويعملون ويكملون ويحملون واحتيج فى هذه السنين التى استمر

فيها القتال الى أحمال كثيرة لا يفى بها الصناع ولا يرفعها العمال وحسبها ان نصولها أعدمت من حديدها المعادن وخلت من ذخائرها الاماكن هذا والخادم قائم باداء هذا الفرض وحده مسترهف فى قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده وما استمر على مساعدته وموازرته ومعاقدته الا صاحبا الموصل وسنجار وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد ما جار فهو يحضر تارة بنفسه وآونة بولده ويستمر من جد الموازرة على جدده ويواظب بعدده وعدده ومدده فى مطاولة مدده

«ذكر ما تجدد لملك الانكتير من المراسلة والرغبة فى المواصلة»

وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصافحة على المصافاه والمواتاة فى الموافاه والاستمرار على الموالاه والاخذ بالمهاداه والترك للمعاداه والمظاهره بالمصاهره وترددت الرسل أياما وقصدت الشاما وكادت تحدث انتظاما واستقر تزوج الملك العادل بأخت ملك الانكتير وان يعول عليهما من الجانبين فى التدبير على أن يحكم العادل فى البلاد ويجرى فيها الامر على السداد وتكون المرأة فى القدس مقيمة مع زوجها وتشمسها من قبوله فى أوجها ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداويه والاسبتار ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون التى فى الذرا ولا يقيم معها فى القدس الا قسيسون ورهبان ولهم منا أمان واحسان واستدعانى العادل والقاضى بهاء الدين بن شداد وجماعة من الامراء من أهل الرأى والسداد وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا تمضون الى السلطان وتخبرونه عن هذا الشان وتسألونه أن يحكمنى فى هذه البلاد وأنا أبذل فيها ما فى وسع الاجتهاد فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب وما أخر الجواب وشهدنا عليه بالرضا وحسبنا انه كمل الغرض وانقضى وذلك فى يوم الاثنين تاسع عشرى رمضان وعاد الرسول الى ملك الانكتير لفصل أمر الوصله واراحة الجملة وازاحة العله واعتقدنا ان هذا أمر قد تم ونشر انضم وصلاح عم وصلح أدم وحكم مضى واستحكم به الرضا وان الانثى تميل الى الذكر وتزيل وساوس الفكر وان

وركوب الفحل النزول عن الذحل وان الشكر يجلب الشكر ويبدل بالعرف النكر وان الوقاع يؤمن من الوقائع وان القراع ينقضى بانقضاض القارح القارع وان الحرب بكسر الحاء وحذف الباء سلم وان غرم العرس فى العسر يسر وغنم وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو وان هذا العقد للخرق المتسع رفو وان الكدر يعقبه صفو وان التزويج ترويج وتقويم لما فيه تعويج وشاع الذكر وضاع النشر وذاع السر وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤسهم فقصوه على قسوسهم وعسروا على عروسهم فجبهوها بالعذل واللذع ونجهوها بالقدع والقذع وقالوا لها كيف تفجئينا بالفجع ملم مؤلم وتسلمين بضعك لباضعة مسلم فان تنصر تبصر وان تسرع فما تعسر وان أبى أبيناه وان أنى أتيناه وان خالف خالفناه وان حالف حالفناه وأى وجه ههنا للائتلاف ونحن لاختلاف الدين ندين بالخلاف فرهبت بعد ما رغبت وبطلت بعد ما طلبت وسلت بعد ما سالت ونزت بعد ما نزلت وكرهت وكانت شرهت وكانت اكتحلت فودت أنها مرهت فأرسلت الى الرسول وأقبلت عليه بالقبول ثم تصلبت فى القسم وأقسمت بالصليب أنها مجيبة الى التقرير والتقريب وانها مسارعة الى التمكين لكن بشرط الموافقة فى الدين فأنف العادل وعدل عن استئناف الحديث وأبى الله أن يجمع بين الطيب والخبيث واعتذر الملك بامتناع أخته وانه فى معالجتها وتعرف رضاها فى وقته وكان قد استقر مع تمام العهد وانتظام العقد مفاداة كل أسير بأسير كبير بكبير وصغير بصغير وبشر أولياء الطاغوت بصليب الصلبوت فبطل التدبير وعطل التقدير وذلك ثانى يوم العيد

وفى يوم العيد وهو الثلاثاء أعد السلطان من الليل خلع الاكابر حتى سارت اليهم بكره وأحدث بحسن احتبائه لكل عين وقلب قرة ومسره ثم استدعاهم الى سماطه ونشر لهم بساط نشاطه وجلس الملك معز الدين قيصرشاه بن قليج أرسلان عن يمينه وأعزه بتقريبه وتمكينه ويليه حسام الدين خضر أخو صاحب الموصل ولسمو منزلته دنو المنزل وعلاء الدين بن نائب الموصل عن يساره وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بايثاره ومجاهد الدين برنقش مقدم عسكر سنجار

جالس والاكابر كلهم هنالك فى منزلته منافس ثم تفرق الناس بأنس جامع وعرف شائع وعرف ضائع

(ذكر نزول السلطان جريدة بالرملة ليقرب من العدو ومواقعته له فى كل يوم)

تواتر الخبر بأن الفرنج على عزم الخروج وانهم على الاجتماع فى تلك المروج فسار يوم الاثنين سابع شوال وقد أركب العسكر للقتال فلما بلغ قبلى كنيسة الرمله جبل الحال حالى الجمله خيم وبات ونوى البيات والثبات وجاء الخبر فى غد بأنه خرج العدو الى بازور فى أو فرمدد وتسارع العسكر اليهم وتكاثروا عليهم وقربوا من خيامهم وأخذوا عليهم من ورائهم وأمامهم وناشبوهم بالنشاب وكاثروهم بالاوباش والاوشاب فركب الفرنج اليهم ركبه أوجبت رهبه وحملوا على الناس حملة واحده وحلت بحاجة عليهم عاقده فاندفعوا بين أيديهم فادركوا صعا فاطمعوا فيهم وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهاده وكانت مسعاتهم الى السعاده وكذلك فى كل يوم يركب السلطان ما يخلو من وقعه ولابد للكفار فيها من صرعه

(ذكر وقعة الكمين)

وفى ليلة الاربعاء سادس عشر شوال أمر السلطان رجال الحلقة المنصوره بأن يكمنوا فى جهة عينها فى المواضع المستوره فكمنوا وأمنوا وصبروا وانتظروا وخرجت الفرنج للاحتشاش وباشروا عثار انحصارهم فى الاصحار بالانتعاش ولقيتهم اعراب على عراب بصوارم فى اعمانهم كانها بروق فى سحاب فركبت اليها من الخيام ورحبت فى ترحيب صدورها بصدور الحمام فاندفعت العرب أمامها وحققت انهزامها وما قدرت على قصد موضع الكمين لانسداد الطريق بالآساد الشم العرانين دون العرين فمرت العرب فى جانب والكمين فى جانب والخيل تركض بسالب من سالب وناهب من ناهب ونجا العرب وفاتهم الطلب وحضر وأسارى ونهاب وافراس واسلاب فأما أصحابنا فى الكمين فانهم أبصروا الفرنج ناهضين وفى المعترك راكضين فخرجوا على ظن انهم على قصدهم فلما بصروا بهم نشبوا بردهم على وردهم وركضوا اليهم

على بعد فانعبوا الخيل بما جدوا فيه من احضار وشد ووصلوا الى الفرنج والجياد قد رزحت والقوى قد نزحت فاضطروا الى القتال وقاتلوا على الاضطرار وقتلوا جماعة من كفاة الكفار واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار وهم اياز المهرانى وجاولى الغيدى وصار ووسروا فى جنات النعيم بما اليه صاروا وأسر من الفرنج فارسان معروفان وأحضرا عند السلطان وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب الكفر وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه والخيل تقاد اليه والاسارى يحضرون بين يديه وأخوه العادل عنده جالس وكلاهما لاخيه مؤانس

《ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير》

وفى يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لاجل ملك الانكتير ثلاث خيام وأعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة ودامت المثافنة والمنافثة ثم افترقا عن موافقة أظهراها ومصادقة قرراها ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلى المعروف بالصنيعة ليتفقد الاسارى الذين بيافا ويتدارك أمرهم ويتلافى وكان قد وصل صاحب صيداء من صور برسالة المركيس وانه يرغب فى سلوك نهج التأنيس وأن يكون للسلطان مصالحا وله على الطاعة مصافحا حتى يقوى يده على ملك الانكتير وينفرد هو بالملك والتدبير وعرف ملك الانكتير بالحال فوصل رسوله أيضا بالاحفاء بالسؤال ومضى العدل مع صاحب صيداء الى المركيس على شرائط قررت ونسخ أيمان حررت وأمارسلة الملك فلم تسفر عن المقصود ولم يخرج من تلونه الاعلى المعهود وكلما أبرم عهدا نقضه ونكثه وكلما قوم أمرا عكسه وعاثه وكلما قال قولا رجع عنه وكلما استودع سرا لم يصنه وكلما قلنا بنى خان واذا خلنا أنه يزين شان وعن كل خزى أبان وفى يوم الاحد سابع عشرى شوال عاد السلطان الى المخيم بالنطرون وأقام على الثبات والسكون وفى يوم الخميس مستهل ذى القعدة سار ابن قلج أرسلان صاحب ملطية مودعا وركب السلطان وسار معه مشيعا وعقد له

على ابنة الملك العادل بصداق مائة ألف دينار ومضى وقد حصل على ذخائر من استبشار وافتخار واستبصار واستنصار ويسر ويسار

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذى القعدة وتقدموا الى الرملة ونزلوا بها وخيموا فى أقطارها وسهوبها ولم نشك فى أنهم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس وأقام السلطان وفى كل يوم له سرايا للكفر منهار زايا ولنا فى كل يوم وقعة شديدة وفتكة بالكفر مبيدة وما يخلو يوم من أسرى تقاد وغنائم تستفاد ثم توالت الأمطار وتوعرت السهول وتوحلت الاوعار فعزم على الرحيل وأمر بالتحويل

《ذكر الرحيل الى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين من ذى القعدة》

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل والنصر شامل وفضل الله متواصل ونحن معه سائرون ومن بركة الجهاد الى بركة القدس صائرون والقاضى بهاء الدين ابن شداد يسايرنى وفى مسئلة من الخلاف يباحثنى ويناظرنى حتى وصلنا الى القدس قبل العصر وقد نشر للسلطان لواء النصر ونزل بدار الاقساء المجاورة لكنيسة قمامة ونوى بها الاقامة وشرع فى تحصين المدينة لتحصيل السكينة وصلى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة فى قبة الصخرة وضجت الالسنة فى الدعاء له بالنصرة

وفى يوم الاحد ثالث ذى الحجة وصل حسام الدين أبو الهيجاء من مصر بعسكر مجر وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية ووصل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون وآذن ذلك بتزاحم الافكار وتراجم الظنون وتزايل السكون وسرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة تم على العدو بها مصرعه فان السلطان نفذ تلك الليلة الى اليزك قريب بيت نوبة عدة من الفرسان مجرة لم يستصحبوا الا حصنهم المجنوبة فوقعوا على سرية للفرنج يستأصلوها وأسروها وقتلوها ووصلوا بزهاء خمسين أسيرا الى القدس وعاد ذلك منا ببرد القلب وطيب النفس وكانت بشرى عظيمة ونعمى كريمة وحسنى جسيمة وكذلك سابق الدين صاحب شيزر ومن معه من العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة وأسر أربعة وترك بالمعركة

منهم مصرعه وكسب منهم خيلا وكسبهم وبلا

((يوم عيد الاضحى بالقدس))

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة فى هذه السنه وتضاعفت للحجيج الحسنة على الحسنه غير أن العيد بالقدس كان يوم الاحد فلم ير ليلة الخميس الهلال أحد ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه الخاص وصلى الناس فى القبة العيد وملؤا حواليها العراص ثم انصرف السلطان وقد بر عمله ودر أمله ووفر أجره وأسفر فجره

((وقعة))

فى يوم الجمعة خامس عشر ذى الحجة أغار على طريق الفرنج بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهما يجد فى الجهاد ولا يقصر وأخذا غنائم وأموالا وساقا خيلا وبغالا وكسبا أجمالا وأثقالا وأسرا ممن كان مع القافلة لاثنين ووقفوا بين يدى السلطان على ركب الذل جاثين وتوالى على الفرنج النهوض والنهوب وكثرت منهم المكسوب واستعرت فيهم الحروب وزادت المكروب وضاقت عليهم الارض واستولى على عقود عزائمهم النقض ورأوا أنهم قهروا فقهقروا وأحاط بهم البلاء من الجوانب فاصبروا ورحلوا الى الرملة عائذين وبالسهول من الحزون عائذين فان الثلوج دامت على أولئك العلوج وصدتهم عن الدخول والخروج ونزلت بهم النوازل فى تلك المنازل فنفروا راحلين الى السواحل وذلك فى يوم الخميس الثامن والعشرين من ذى الحجه فطابت قلوبنا عما وضح فى النصر من المحجه وثبت للحق على الباطل من الحجه

((ذكر ما اعتمده السلطان فى عمارة القدس وحفر خندقه
وتجديد سوره واعادة رونقه))

وفى هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين وعدتهم خمسون رجلا اذا اجتمعوا قطعوا جبلا وقد سيرهم صاحب الموصل الى القدس للعمل فى الخندق وتعميق الحفر والقطع فى الصخر وقد سفرهم بنفقه وجعلهم من الاحسان على ثقه واصحبهم بعض حجابه وناداهم بندى سحابه وسير مع المندوب ما لا يفرقه عليهم فى رأس كل شهر ويتعاهدهم فى كل يوم بتفقد بر فأقاموا نصف سنه

وأتوا فى صنعتهم بكل حسنه وصمم السلطان على حفر خندق جديد عميق وانشاء سور وثيق واحضر من أسارى الفرنج قريب ألفين ورتبهم فى العمارتين وجدد أبراجا حربية من باب العمود الى باب المحراب وأنفق عليها من المال ما خرج عن الحساب وبناها بالاحجار الكبار الثقال فجاءت أرسى وأرسخ من الجبال وكان الحجر الذى يقطع من الخندق يستعمل فى بناء السور واذا تكملت العمارة على ما رتبه للقدس المعمور كان آمنا من قصد العدو المدحور وفى عصمة الله من المخوف المحذور وقسم بناء السور فى مواضعه على أولاده وأخيه الملك العادل وأمرائه وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه ويخرج الناس لموافقته على حمل الحجر الى مواضع البناء ويتولى ذلك بنفسه وبجماعة خواصه والامراء ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفيه وحواشى العسكر والاتباع والرعية والسوقيه وكنت أركب فى غلمانى وأتباعى وأحفظ قلب السلطان فى نقل الحجر وأراعى فبنى فى أقرب مدة ما تعذر بناؤه فى سنين وبذل جهده فى التحصين لتأمين المؤمنين

((ذكر من توفى من الاكابر والمعروفين فى هذه السنة))

((وفاة تقى الدين))

توفى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخى السلطان يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان وهو على حصار ميلازكرد من عمل ارمينيه وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيره لاستمداد الامداد الكثيره واستنجاد الانجاد والاستنجاد بالاجناد والجمع من جميع الجهات للجهاد والعود سريعا بالحشود الجامعة والجموع الحاشده والجيوش المترادفة المترافده والجنود المتوافرة المتوافده والقواضب القاصله والهواضب الهاطله والمصافحين بالصفاح والمختالين فى أعطاف المراح باطراف الرماح والحاملين الجبال على الرياح والمتعطشين الى انتجاع النجيع لارواء الارواح ومكث السلطان على انتظاره متوجسا لاخباره متوحشا من ابطائه متعطشا الى انبائه منتظرا لوفائه فلما أخذ الفرنج عكاء نسب ذلك اليه واحتسب الله عليه

فأما تقي الدين فإنه عن له أن يمضي الى ميافارقين واستصحب اليها عسكر ماردين ونفذ الى السويداء وانتزعها من أيدي أصحابها واستحوذ على جميع ما بها وحاصر مدينة حاني فتملكها وكانت له مقاصد في ديار بكر فاركها واقتطع بلادا من ولاية ابن قرا ارسلان وأقطعها وأرعب القلوب بما ابتدأه وابتدعه وروعها وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر ديار بكر وحصلت منه على عذر وذعر وراعت هيبته وهبت روعته ودبت الى الخواطر مخافة أخطاره وشبت في القلوب لوافح ناره وارتجت تلك الآجام من زاره وازورت من خزره وبليت تلك البلاد ببلائه وهابت الأعداء هيبة أعدائه وزلت الأقدام لإقدامه وانخفضت الأعلام لإعلاء أعلامه ونفى عدله من جبل الجور جبلة الجور وأذهب بذهابه اليها فوران الفتنة على الفور ودخل قلب قلب وحكم في عداتها الغلب القضب وقصد عسكره عسكر بكتمر فكسره ثم سرح بالاحسان وأطلق من أسره فغار بكتمر واشتعل بنار الأنفة أنفه واعتلق بإذن الشنف شنفه وانتخت حميته وحميت نخوته وغيرته غيرته وعبرته رعيته وأودعته الهم همته وحركته عزمته فاجتمعت جماعته وأمته أمته وما أرجأه نجح رجائه رجاله وما أبطأه عن إعانته أبطاله وأجناه ثمر الطاعة أجناده وأنجاه بجهد الاستطاعة أنجاده وجر عسكرا مجرا وساق الى الحرب بحرا وأرقد بالجمع جمرا وجاب بيضا وسمرا ودهما وشقرا وصوارم بترا وصواهل ضمرا وانهض كمته وكماته وحشد رعيته ورماته وذوي حميته وحماته وساكني ولايته وولاته ونسوره وبغاثه وسمانه وغثاثه ومتانه ورثاثه وشباعه وغرثاثه وجاء في سواد اسود منه الجو وانسد بظلمه الضو وتحلى بنجومه ليل العجاج وتجلى بنوره صبح الهياج وأبرق وأرعد وتحدر وتصعد وسار بين الآكام بالآكام وضاهى الأعلام بالأعلام وأذكى مذاكيه الجياد وأجرى ضوامره وهواديها قد ملأت الوهاد وأدنى الى الآساد الآساد وأغرى بالجلاد الأجلاد وجذب الجماح عرانه وجلب الكفاح رعانه وأشرع المواح رماحه وأطلع في سنا الصباح صفاحه وماجت غدران دروعه وهاجت غدران جموعه ومالت

المران وجالت الأقران وسال المرت وهرت السيول وتسهلت الوعور وتوعرت السهول وانفض الفضاء وانقض القضاء واشتكت الأرض من الحوافر الحوافر وقعا فأثارت لفرط تألمها على شرط تظلمها الى السماء نقعا وحثت في وجه الفلك ترابا وحثت لأتراب الأتراب طعانا وضرابا وخاف على خلاط واختلط من المخافة فقصر الى الملك المظفر طول المسافة فلما عرف أصحار خادره وانتشار بوادره وانتهاض قوادمه وارتكاض صلادمه وانتضاض شهب قواضبه وانفضاض دهم سلاهبه اصطف له بمن اصطفاه من الأنجاد الأنجاب وفض على الفضاء سحاب السحاب وبسط على البسيطة رداء الردى وأعدى بعلوه على العدا وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب وكل بطل يلحق المبطل محق الطلب وكل باسل سالب من كباش الأقران القرون وكل عاسل يعاسل بعين بالمنى وعيون المنون وكل شجاع أشاجعه وصائل القواطع وكل مقدام قوادمه عوائق الوقائع وكل طائر بأجنحة السوابق زائر بأسلحة البوائق محلق بخوافي الخوافق مطرق لطوارئ الطوارق وكل ذمر مشيح بالذمار شحيح وكل قاس قوسه عاطف وكل راع نصله راعف وكل صادع عزمه صادق وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامق وأيد رجاء الرجال بأياديه وقوى عزائم أوليائه لإضعاف أعاديه ورغب بالرغائب وأملى ضيوف الآمال بفيوض أمواه المواهب ونخى المنتخين وانتخب المنتخبين وأقدم في كل مقدم مقدام وضيغم ضرغام وهمام همام ومعتقل أسمر يرشف ظلم القلوب ومشتمل أبيض يكشف ظلم الحروب وكل من يخال الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام وكل من ينال اعتزاز الجد بجد الاعتزام وكل من يعد أغاني البيض شقائق ويصل بها اذا فارقت أغمادها المرافق وكل من عنانه في عين الجماح وسنانه مورد عيون الجراح وكل من ذبال سمهريه يلتهب وذباب مشرفيه يضطرب ووجوه صوارمه تبكي وتضحك وعيون لهاذمه تقتل وتبتك ولحاظ سهامه عن حواجب قسيه ترمي وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمد وتدمي وكل أشعث الهامة ذي همة تشعب صدع كل ملمة وكل شهم شيظمي أبي حمي

مجرب محرب مقرب على مقرب مطهر على مطهم جار بجرجم بار بغذم ضار بارقم جواد حليم تحمد فى الوغى جهلاته على جواد كريم تدعو الى الردى صهلاته وكل بحر مستلئم بغدير وكل من عنده اذا لبس الحديد انه لابس حرير فلما ابصر عسكر خلاط بعسكره اختلط ودلوا استدرك الغلط وجاش وطاش ورام من عثرته الانتعاش وولى هزيما ولوى هشيما وأغنم العسكر التقوى سلاحه وخيله وجر على تراب الذلة ذيله وظفر الملك المظفر بالملك وأسلم العدا الى الهلك وقيد اليه أمراء أسروا وأصحاء كسروا فأطلق سراحهم وأنهض بتشريفاته جناحهم ثم رحل من صحراء موش وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصارها فأقرها بسلب قرارها وعرج على قلعة شميران فتشمر لها وفتح مقفلها وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ومن حياته يؤوسا فخلصه واستخلصه وكسر حتى طار منه قفصه وانه لمن أعجب القصص لو شرحت قصصه ثم راح الى ميلازكرد ونازلها بالتضييق وقاتلها بالمنجنيق وحشد اليها الامداد وأورى فيها من عزائمه الزناد وجاءته عساكر ارزالروم منجدة من جده موجدة لما لها من موجده تقدمها الملكة ماماخاتون بنت سلدق كانها فى الاهبة والابهة من ملوك سلجق ووفدا الى تقى الدين الجنود ووافقته السعود وخافته فى غاباتها الاسود وغربت به العقول وعلقت به العقود وتوطدت له البلاد وتوطأت وتهيبت وتهيأت واستدنته الممالك القاصيه وأطاعته المقاصد العاصيه وتشنفت له مسامع الاقطار بأقراط السمع والطاعه وعم الامحال تلك المحال ففض بما أفاضه من فواضله مجاعة الجماعه ورجى وخشى واعتنى وغشى وامتلأت الطرق بالوفود والجنود وتوالت اليه أمداد البأس والجود فبيناهو فى غفلة من القدر وغفوة من الكدر وغرة من الغير وقد ألهاه حديث الدنيا عن الحادث الدانى وجنى الحياة عن الموت الجانى وزيادة الامل عن زيارة الاجل ونزل المنى عن نوازل المنون وسكن الاتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب المكتوم وأدركه القضاء المحتوم ومرض أياما ثم قضى وانقرض عهده وانقضى وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته الى أن خرج من

ذلك الاقليم وجاوزه وفاته وفتحت ميلازكرد بابها وسلم الزب أربابها وخرج ولد تقى الدين بعسكره وماله سالما وجد فى مقام والده باظهار شعاره قائما وجاءت رسله الى السلطان تسأله فى ابقاء بلاد أبيه بيده حتى يبقى مستمرا على جدده وطلب من السلطان الميثاق له بأغلاظ الايمان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول ما منه فرط ونسبوه فى استيحاشه الى العصيان وسعوا له فى أسباب الحرمان حتى انتخى له الملك العادل فمضى لاحضاره وجرى الامر على ايثاره وسيأتى ذكر ذلك فى حوادث سنة ثمان

«وتوفى فى هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين
ابن أخت السلطان»

توفى بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقى الدين فأصيب السلطان بابن أخيه وأخته فى يوم واحد وكلاهما له أقوى ساعد وأوقى مساعد فيالله من حسام أغمد وهمام ألحد وركن وهن وكنز دفن وبحر غاض وزند هاض وصبح كسف وبدر خسف لقد غامت الايام لغمه وثكلته الدولة ثكل أمه فانه كان واحدها وعضدها ومعاضدها وهو الذى فتح نابلس وأبقاها السلطان معه وأبقى فيها من سنن العدل ما شرعه وقد سبق فى الكرم اذكره وذكر فى المكارم سبقه وقرظ حذقه ووصفت مقاماته وقمت بصفاته فان له مواقف فى الجهاد مشكوره ومقاطف لجنى النصر مشهوره فقطع الاجل عليه طريق الامل وأعاد حلية الزمان به الى العطل وأوهن عقد شبابه الطرى وحله وثلم حد شباه الطرير وفله ومازال فى غزواته مثيرا للترب الى أن سكن عليه التراب وسكنه وطالبه الثرى بحق خلقه منه فاسترهنه وغارت عليه الارض بانطلاق سموه الى السماء فاعتقلته ووجدته فى أوج الفلك فى النيرات فنقلته وما كان أذكاه وأزكاه وأصحه وأصحاه وأجمعه وأبهاه وأضوعه وأضواه وأوعاه للفضائل وأحواه ولقد فجعت به صديقا صدوقا وشفيقا شفيقا ورفيقا رفيقا فلهفى عليه من شهم توطن التراب وسهم أصيب بعدما أصاب وجواد بالاحساب

لم يخطر بالبال من رزئه حساب لكل أجل كتاب

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ومواقفه ومقاماته وكان في الخدمة مقيما والسلطان الى الانس به مستنيما فعرض له مرض استأذن لاجله في العود الى وطنه بحلب وسمح له السلطان بجميع ما طلب وتوجه من القدس سادس عشر ذي الحجة واستقام على المحجة وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قرية غباغب وستر التراب منه المناقب ووصل الخبر بوفاته الينا يوم الخميس ثامن عشري الشهر

وفي هذه السنة قتل أتابك مظفر الدين قزل أرسلان بن أيلدكز في همذان ليلة الاحد مستهل شعبان

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف ببهلوان في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت اراداته ورجحت سعاداته وصلحت بداياته وكان السلطان السلجقي طغرل ابن أرسلان تحت حكمه وهو ابن أخيه لامه وله اسم السلطنة ولقزل حكمها وله سموها وسمها فانف السلطان من كونه تحت حجره وبحكم نهيه وأمره فانه لم يكن له صاحب ولا غلام الامن عنده ولم ينفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل واتصل به بعد ذلك من انضم اليه من الخيل ودام غائبا في نواحي دامغان مده واشتد مصابه وأصاب شده فاتصل به عدة من مماليك بهلوان الخواص وسلكوا معه نهج الاخلاص وأعادوه الى سرير ملكه واتسق أمره في سلكه وقويت يده وتأيدت قوته واجتمعت كلمته وتمكنت في الامر والنهي جماعته ورهبه قزل أرسلان ولازم ذعره وأخذ منه حذره وتنافس الامراء ومماليك بهلوان الذين تبعوه وأعلوا شأنه ورفعوه وسعى بعضهم ببعض وقابلوا كل ابرام من مكرهم بنقض وقالوا له هؤلاء البهلوانية يغتالونك وبالسوء ينالونك فابطش بهم قبل أن يبطشوا وعثرهم قبل أن ينتعشوا فسمع مقالهم وتبع محالهم وقتلهم بحضرته وهم غارون وساءهم باغتيالهم وهم بالمغالاة فيه سارون فنفر منه كل آنس وحفظ نفسه كل منافس وزال بشره وبقي بوجه عابس وفارقه بنو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم ولقوه بتأبيهم وقصده

قزل أرسلان فأزعجه وأخرجه من دار ملكه وأحرجه وأجلس سلطانا آخر موضعه وكدر عليه بالشوائب والنوائب مشرعه وخطب لمعز الدين سنجر بن سليمان شاه وأطعمه وأطمعه وأرضاه بالاسم وأجراه على الرسم وكان سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد وانتظمت بينهما أسباب الاتحاد وكان السلطان طغرل اذا خلت همذان من قزل أرسلان يعود اليها ويستولي عليها ثم اذا عرف قربه بعد واذا علم بعده قعد وشرع بقتل أصحابه بالتهم ويشتد في النهب لشدة النهم فقتل فخر الدين رئيس همذان وبث العدوان وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لامر توهمه ولخاطر لم يكشف مبهمه فالجأه الزمان الى الوصول الى الامير حسن بن قفجاق وشكا اليه من أهله وأصحابه الشقاق فخرج معه وآزره وضافره وظاهره بعد أن صاهره وزوج أخته منه وحمى جانبه وذب عنه وراسل سلطاننا قزل أرسلان حتى يصالحه ويصافحه على الوفاء ويسامحه وكاد أن يتم الصلح ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح فلما تقاربا للمصالحة تحاربا واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا وأوقع قزل أرسلان به وبالتركمان وعادت الفتن ملتهبة النيران وساق السلطان طغرل الى همذان فضى وراءه قزل أرسلان فخرج اليه ثقة بما سبق من الايمان فصرف عنانه وقبضه وأعرض عنه واعترضه وحبسه في بعض القلاع وأبعد عينه وأثره عن الابصار والاسماع فاتسقت له المملكة واستقر منه السكون والحركة وكانت أصفهان منذ توفي البهلوان قد اضطربت واحتربت واقتربت الساعة بها وخربت وقتل في ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف وتوالت بها حتوف وزحوف وكانت الشحن من جانب قزل على الشافعيه وقووا أيدي الترابيه في تخريب المدرسة النظاميه فأحوجت الضرورة الى ان أصحابنا دعوا بشعار السلطان ووجدوا القوة به امام قوته والامكان فلما اعتقل طغرل واستمر أمر قزل مضى الى أصفهان فأخذ رؤساء الاصحاب في الحال وأجرى عليهم حكم القتل والاغتيال ثم عاد الى همذان وقد قوي وروي ونال ما هوي ونشر من أمره ما كان طوى

وجلس على سرير الملك وضرب النوب الخمس ووجد لعدم من يوحشه الانس ولها ولعب وشرب وطرب وغفل عن القضاء المشتبه ونام عن القدر المنتبه واغتر بالعيش الرفه وحلم عن الخطب السفه وبات في قصره وقد غاب في عسكره وهو بين خدمه وحشمه وعسسه وحرسه وعتقائه وارقائه ومختصيه ومستخلصيه فوجد على فراشه وهو قتيل ولم يدر كيف قتل ولم يكن عليه سبيل فنسب قتله الى الاسماعيلية تارة والى الخاتون الاينانجية أخرى والله أعلم بما به حكمه أجرى ولما أصبحوا فقدوا صاحب بابه وحل العقاب به دون أربابه وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان موضعه وجمع له ملكه ومنعه ومضى أخوه نصرة الدين أبو بكر الى اذربيجان وأرانيه سائقا اليها واستولى عليها وأما السلطان فانه أيس منه وسلا من كان يواليه عنه فتعصبت له امرأة متولى القلعة ودبرت في خلاصه وهونت على زوجها أمر استصحابه واعتياصه واستعانت بمن أعانها وأعلت باعلاء شأنه شأنها ولما برز دخل مدينة تبريز وكان غما الكبير أخرج الابريز ثم جمع ومضى على سمت همذان فلقي قتلغ اينانج وعسكره بين أوه وزنجان فكسره وهزمه وفل حده وثلمه ومضى الى همذان وجلس على سرير ملكه وذلك في سنة ثمان وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله

وتوفي في هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان صفي الدين أبو الفتح بن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا وبالحمد حريا وفي حلبة المكارم جريا ومن الخيانة في ولايته بريا ومن العار عريا ولم يزل زنده مضائه وريا وكانت له سياسة ورياسة ونفس ونفاسة ورأى وفراسة وفطنة وكياسة ومروة وفتوة وثبات جنان وقوة وكان قدم السلطان أيام عدمه وهو في كفالة أبيه وعمه فلما ملك مصر أمرجه في أموالها وحكمه في أعمالها حتى نال المنى ووجد الغنى فقال له قد اكتفيت واستغنيت وان صرفت الآن ما باليت فاصرفني عن العمل فقد نلت غاية الامل فعاش غنيا ومات جشريا وورث السلطان بعض ماله وذلك ما فضل عن افضاله فانه فرق على مماليكه املاكه وماله وأخفى بعد وفاته بما بذله حاله

وفي هذه السنة في شهر ربيع الاول توفي الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا ظريفا نظيفا عفيفا وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ونال أسباب الاحترام وتقدم عند السلطان وما شانه كبر وهو كبير الشان وكانت له دراية ودراسه وذكاء وفراسه ولم يزل متلطفا في طبه متعطفا بحبه متحببا الى القلوب متقلبا من قبوله في المحبوب صبيح البهجة فصيح اللهجة صحيح الحجة بوضوح المحجة ولم يزل له عند السلطان وذوي الجاه جاه وللجدة انتباه وللمداواته بالشفاء شفاه حتى حان أجله وخان أمله وبان عنه حلي حاله وبان عطله وكانت له عندي يد أذكرها وأشكرها وعارفة أعرفها ولا أنكرها وذلك انني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان وفي صحبته متوليا للانشاء منفردا برتبته فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهري العرض وانتهى اليه بدمشق ما الم بي من الالم فتقسم فكره من خبر السقم وركب ووصل في يومه حتى أدركني ومرضني وما تركني وداواني حتى أبللت وأزال الله انحراف مزاجي بطبه فاعتدلت وصحبني الى دمشق وسبق الى أوليائي بالبشرى وشكرت الله على النعمى وكذلك كان يطلب مرضاتي في جميع مرضاتي فلما مرض الطبيب لم ينجع في مرضه الطب وتوفاه الرب

وفي آخر هذه السنة توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الخبوشاني بمصر وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعي رضوان الله عليه وأحيى شعار التوحيد وبنى أمره على التسديد والتشديد وحفظ شمل الشافعية من التبديد وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا وأعطاه في بنائها الوفا فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء فلقوا بالاباء ثم شفع الملك العادل في صدر الدين علي بن حمويه وهو شيخ الشيوخ ويعرف في العلم والعمل الرسوخ فكتب بها له ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله وذلك في أواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسه وبدلت الوحشة من الانسه

(فصل كتب الى بعض الاكابر في الدخول الى القدس)

اتفق دخول الشتاء وتواتر الانداء وتوافر الانواء وشح الارض وسح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء وبعد الراحلة لقرب الاعداء وملل العساكر لدوام الهيجاء والمقارعة واللقاء وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والذخيرة ورأيناها من حسن المدن وأحصنها وأحكمها وأوجدنا بها جدتها بعد عدمها ورتبنا بناء سوارها على جوانب أوديه وسفوح متى تم لم يبق فيها الطمع من طموح وهذا أمر الله وفى طاعته ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولاعلاء كلمته ولحماية أمته ومالنا فيه الا الميسرة ومارجاؤنا الا الاجر والمغفرة ومانصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجدين والمؤمنين المعدين للدين فما أسعد من ساعد فيه ووفى باسعاف عافيه هذا والكفر قد أناخ بكلكله وحفل بجحفله وبرز الى الاسلام بكليته وعراه ببليته وقامت قيامته لقيامته وثار لثار قمامته ورمى مهجته على الموت لمقبرته والبيت المقدس الذى شرفه الله وكرمه وعصمه كما عصم وحرم حرمه مقام الانبياء المرسلين ومقر الاولياء والصديقين وموضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين وفيه نزل جبريل بالبراق وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم الى السبع الطباق وأهدى الله ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الاشراق الى الآفاق وهؤلاء الملاعين قد أغذوا القصد وأعدوا الورود ورده وقد فرض فى هذا الاوان رفض التوانى واستدعاء ذوى الحمية من الاقاصى والادانى وان لم يتساعدوا فى الربيع القابل على انهاض الجحافل صعب الامر واشتد واحتدم الخطب واحتد

((فصل فى شكر صاحب الموصل على انفاذ الجصاصين لحفر الخندق))

قد أصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ويعرب من فضيلة منجده ويفصح فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح رجاءه الحامون بحفر خندقه رجاءه ومافيهم الا من أبان عن جده وأبان بجده والان الشديد بشده وثلم الحديد بثلم الصخر وهده وهذه لاشك مقدمة لما وراءها من نتائج النجدات وجدوى سابقة اللواحق فى مناهج الجدات وعارفة معرفة فى قمع العداة باجراء العادات فى انجاز

العدات وللعدو انتظار النجدات بحرية وارتقاب ووميض جمر تحت رماد كيده يوشك أن يكون لها التهاب والهمة السامية لا تفتقر فى هذا الباعث الى باعث وعند عزائمه حديث كل حادث

وفى شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشور حسام الدين سياروخ النجمى بولاية القدس

وكانت ولاية القدس منذ يسر الله فتحه وحقق للامل فيه نجحه وأطلع للنصر صبحه الى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضه وصعاب أعماله وشعاب أحواله بنضرة آرائه ونصرة آلائه مروضه وقد استناب فيه أخاه الظهير ظهيرا ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شهيرا الى أن استشهد فى شعبان سنة خمس وثمانين وتوفى الفقيه عيسى فى ذى القعدة منها وانتقل الى عليين فابقى السلطان نوابه من بعده محافظة على عهده وكان الامير سياروخ بالقدس مقيما وللنظر فى مصالحه مستديما ويضم من أمره ما يراه منشورا وكتبت له فى التاريخ المذكور باستقلاله منشورا الحمد لله الذى أقصى من المسجد الاقصى من داناه من الكفر ودنسه ونزه البيت المقدس من رجس أعدائه المشركين بايدى أوليائه الموحدين وطهره وقدسه وانطق محرابه ومنبره بتلاوة الذكر المبين وأسكت الناقوس وأخرسه نحمده على ما عصمه من الحوزة وحرسه وفرجه من الشدة ونفسه ونسأله أن يصلى على نبيه محمد المصطفى الذى شرع الدين وشرحه ومهد الشرع وأسسه وبطل الكفر وعطله وأرغم الشرك وأتعسه وعلى آله وأصحابه الذين أعلى الله بهم منار الحق وأضفى ملبسه وأصفى مورده وأزكى مغرسه وبعد فانا منذ فتح الله لنا بيته المقدس وخفض باعلاء أعلامنا راية الكفر ونكس وكسا بأيامنا وجه الدين البشر من بعدما كان تعبس وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا به الحظ الاجزل الافضل الاكرم الانفس ماتزال نطلب وليا لله يكون له واليا ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن آثاره وايثاره حاليا ويرجع بنظره الشافى وتدبيره الكافى ما انخفض من منار الهدى عاليا ولا يزال على بال منا أن نحيى به من رسوم الايمان ونجدد من معالمه ماظل بعقام أهل الضلال

يه دارسابالبا وقد اختبرنا الامير حسام الدين فألفيناه لاهلية هذه الولاية جامعا والى مضمار السبق فى هذه المكرمة مسارعا ووجدناه بأعباء الامانة ناهضا ولزبد المناصحة والمحة فيه ماخضا ماحضا فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه فى ولاية مدينة القدس وأعمالها وعدقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام أشغالها وحكمناه فى تحصيل مصالحها وتسهيل مناهجها وسداد ثغرها وسداد أمرها ورعاية أمورها وعمارة حريمها وسورها وتطويل باع ساكنها وتأهيل رباع أماكنها واسكان مواطنها وتوطين مساكنها وتطهيرها من أدناس أدنى الناس وتعميرها بالعدة والعدد والشدة والقوة والباس فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قويه وروية مبصرة وبصيرة رويه وليستشعر تقوى الله التى تقوى بها العزائم وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم جاريا على مقتضى الشرع فى كل ما يحله ويعقده ويقدره ويعهده ويصدره ويورده والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس فى دار الاقساء جوار قمامه وأظهر بها النقويه البلد الاقامه وقد قسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فشرعوا فى انشاء سور جديد محدق به مديد وكان يركب كل يوم مصبح مشمس مضح فينقل الصخر على قربوس سرجه فيتبعه الاكابر والامراء فى نقل الحجارات بنهجه فلو رأيته وهو يحمل حجرا فى حجره لعرفت أن له قلبا كم حمل جبلا فى فكره ولقد جد فى حماية الصخرة المقدسة حتى حل لها الصخور وانشرح صدره لانضمامها الى صدره حتى باشر صد ورحما الكه بها الصدور وما تغلو دار بينها فى الجنة بنقل حجارتها ليكون ملكا فى دارها وقمرا فى دارتها وكل بناء قلت حجارته ووقفت عمارته ركب وبكر اليه وجمع الحجر بنفسه وأجناده عليه فاذا كنفى انتقل الى موضع آخر ونقل اليه الحجر ولقد بنى به فى غرفات الجنات الحجر وأثر رواة سيرته الحسنة منه الاثر وما أعمر احسانه وأحسن ما عمر وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم للشحوب والتزم الامر التزام الوجوب ولان له الصخر لين الحديد لداود وجد فى فض جدته وأفاض الجود وكان حجر

الخندق صلدا لا يتأتى قطعه ولا يتهيأ بكل آلة صدعه فاتخذ من الفولاذ قطاعات واخترع على الحدادين آلات فأمكن الصلد ووهن الجلد وتيسر الصعب ولان الصلب وصرخ الصخر لما خاف الحفر وضج الحديد لجلد الجلمود وصفا قلب الصفا لاصاخة الصيخود وأعولت المعاول وجدلت الجنادل وسمعت الصماء صوت السطو وخرج جرح الاساءة اليها عن الاسو وقلقت القطع وقطعت الفلق واتسع الضيق وتعمق الخندق وطاب العمل وطال الامل وحزا الحزم وحزن الحزن وركنت القوة وقوى الركن فلا ترى الاسوار ايعلو وخندقا يسفل وبناء يسمو وحفرا ينزل وبرجا يسقف وبدنا يشرف وحجارة تبنى وعمارة تشنى وكلسا يحرق وأسا يوثق وطاقا يعقد وروافا يمهد وطلاقات تطلق ومرامى تخرق وستائر تحجر وحفائر تقعر ومصاعد تهندس وقواعد تؤسس ومعارج تسفح ومخارج تفسح ومولج تسرب ومدارج ترقب حتى أحكم المكان بكل ما فى الامكان واتصلت الابراج بالابدان مشيدة الاركان والسلطان يشرف فى كل يوم على عمل قوم فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم باحسانه ويعير جنان المتولى من قوة جنانه ويدركه بما يستأنفه من عمله ويحلى بالفضل ما يبدوله من عطله وكان ذلك دأبه مدة اقامته وقد جد غرامه بغرامته بل يرى أن كل مال ينفقه ذخر باق وانه ان فاق كريم فبانفاق وما عنده خشية املاق بل يده جارية باطلاق جوائز وأرزاق وانه تجلى له أعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق وان وفق الله واستمر ما دبره فى حفر الخندق وبناء السور بقى بيت الله المقدس مع الاسلام على عمر الدهور ولا يبقى عليه لمسلم فزع ولا فيه لكافر طمع ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه وسلب عز الاسلام عزه ورأى من المعجزات ما حيره وقهقر عن الباس الذى ان ثبت له قهره فسبحان الذى أقدر السلطان على ما أعجز عنه الملوك وهداه من الفضل الى نهج ضلوا فيه السلوك

(ذكر الحوادث مع الفرنج فى هذه السنة)

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة الى عسقلان ونزلوا يوم الاربعاء

بظاهرها وتشاوروا فى اعادة عمارتها وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والاسدية نازلين فى بعض أعمالها مجدين فى نقل غلالها وركب ملك الانكتير عصر يوم الخميس ومعه حزبه من جند ابليس فشاهد خاناً على البعد وما عرف ما عنده من العسكر المعد فساق متوجها الى تلك الجهة وجد وتبعه عسكره وامتد فما شعر أصحابنا الا بالكبسة وقد بغتت فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار فارغة الافكار من شغل الكفار وكانوا نازلين فى موضعين مقيمين فى منزلين فلم ير العدو الا أحد القسمين فقصده بحزبه وأطلق عنانه لحربه فعرف القسم الآخر هجوم العدو فهجروا مهاد الهدو وركبوا الى العدو فدفعوه حتى ركب رفقاؤهم المقصودون واجتمعوا وهم المسعودون وردوا العدو شوطا وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا ثم تكاثر الفرنج عليهم وتواصلوا وسبقوا اليهم فاندفعوا من بين أيديهم والفرنج تبادرهم وساقوا أثقالهم قدامهم وقد ثبت حفظها على الاقدام أقدامهم وما فقد من أصحابنا ممن عرف الا أربعه ونجا الباقون وخواطرهم لاجل أولئك متوزعه وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها وهون ضررها

وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان على عادته فى نقل الحجاره والجد فى العماره ومعه الملوك أولاده والامراء والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والاولياء وخرج كل من بالبلد وجاء المدد بعد المدد وهو قد حمل على سرجه واستوى فى نهجه والناس ينقلون معه على خيولهم فى قفافهم وذيولهم ولما دخل الظهر نزل فى خيمة ضربها ولده الملك الظافر بالصحراء وأحضر فيها السماط لمن يدعوه من الامراء فحضر على ذلك السماط وأحضر طعام مطابخه وبسطه على ذلك البساط وكنت قد مضيت فردنى وبتقريبه أدنى فلما فرغ وفرغنا وبلغ مراده وبلغنا صلى هناك الظهر وركب عائدا الى داره آيبا بايثاره وحسن آثاره فائزا بسرور أسراره وخير اختياره

«ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت»

كان عز الدين جرديك تجرد فى سرية سريه بارية رقاب ذوى الغلول من الغل

بريه فأغارت يوم الاربعاء الحادى عشر من المحرم على يبنى وفيها الفرنج بنية السكنى فغنمت اثنى عشر أسيرا وخيلا ودواب وأثاثا كثيرا

وفى يوم الثلاثاء ثانى صفر أغارت السرية وفيها جرديك وعسكر القدس وجماعة من المماليك على ظاهر عسقلان وأوفدت بتناصرها على الكفر الخذلان وغنمت ثلاثين أسيرا قيدت فى الاغلال سوى ما كسبته من الخيل والبغال

«سرية فارس الدين ميمون القصرى»

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر بتل الجزر وسرت حتى أصبحت على يبنى وكمنت وصبرت الى أن استرسلت الفرنج الى الطريق وأمنت ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبرت فكبست وكسبت وكسرت وأسرت وأخذتها بأسرها مع رجالها وبغالها وأحمالها وأثقالها ثم أغارت على يافا فقتلت وفتكت وسفكت دماء وهتكت وعادت بالغنيمة والسبايا واستغنت بنقودها عن النسايا وعجز جماعة من الاسارى عن المشى فضربت أعناقهم وأوجب ذلك للباقين فى المسير اعناقهم وعادت سالمة سالبه غانمة غالبه

«ذكر خروج سيف الدين على بن أحمد المعروف بالمشطوب من الاسر»

قرر على نفسه قطيعة خمسين ألف دينار فأدى منها ثلاثين وأعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر فقام اليه واعتنقه وتلقاه بالوجه الباشر واقطعه نابلس وأعمالها وحلى بايالته لها أحوالها وعاش الى آخر شوال من هذه السنه وتوفى الى رحمة الله بأعماله الحسنه فعين السلطان ثلث نابلس وأعمالها لمصالح البيت المقدس وتشييد ركن سوره المؤسس وأبقى باقيها على ولده وتركه فى تصرفه ويده

«نكتة»

لما خرج المشطوب من الاسر تلقاه ولده روى السرى قوى الازر فوجده على زى أولاد الاتراك مضفور الشعر فبدأ منه الانكار والاكبار وقال ما للاكراد فى شعورهم هذا الشعار فقطع ضفيرته وقصر وفرته فتطير الناس من قطع شعره على أبيه وقالوا هذا دليل مصابه الذى يأتيه

﴿هلاك المركيس بصور﴾

اضافة الأسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر فاستوفى رزقه لموافاة أجله ووصل الى الباب قاطع أمله وقد دعى الى جهنمه ومالك على انتظار مقدمه والجحيم فى ترقبه والدرك الاسفل من النار فى تلهبه والسعير فى تسعره واللظى فى تلظيها المنتظره وقد قرب أن تكون الهاويه له حاويه والحاميه عليه حاميه والزبانيه فى ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه وقد فتحت النار له أبوابها السبعة وهى جائعة الى التهامه وهو ملته بالاكل يستوفى الشبعه فأكل وتغدى وما درى أنه يتردى وأكل وشرب وشبع وطرب وخرج وركب فوثب عليه رجلان بل ذئبان أمعطان وسكنا حركته بالسكاكين وذكاه عند تلك الذكاكين وهرب أحدهما ودخل الكنيسه وقد أخرج النفس الخسيسه وقال المماركيس وهو مجروح وفيه بقيه روح احملونى الى الكنيسة فحملوه وظنوا أنهم حاطوه لما نقلوه فلما أبصره أحد الجارحين وثب اليه للحين وزاده جرحًا على جرح وقرحًا على قرح فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفدائية الاسماعيلية مرتدين فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير فقالا ملك الانكتير وذكر عنهما انهما تنصرا منذ ستة أشهر ودخلا فى ترهب وتطهر ولزما البيع والتزما الورع وخدم أحدهما ابن بارزان والآخر صاحب صيداء لقربهما من المركيس واستحكما لازمتهما أسباب التأنيس . ثم علقا بركابه وفتكا به فقتلا شر قتله وجهل عليهما أشد جهله فيالله من كافرين سفكا دم كافر وفاجرين فتكا بفاجر فلما طل المركيس مركسا وفى جهنم منكبا منكسا تحكم ملك الانكتير فى صور وولاها الكندهرى وعدق به الامور ودخل بالملكه زوجة المركيس فى ليلته وادعى انه أحق بزوجته وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها وذلك أفظع من سفاحها فقلت لبعض رسلهم الى من ينسب الولد فقال يكون ولد الملكه فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركه ولم يعجبنا قتل المركيس فى هذه الحاله وان كان من طواغيت الضلاله لانه كان عدو ملك الانكتير ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه فى القليل والكثير وهو

يراسلنا حتى نساعده عليه وننزع ما أخذه من يديه وكلما سمع ملك الانكتير ان رسول المركيس عند السلطان مال الى المراسلة بالاستكانة والاذعان وأعاد الحديث فى قرار الصلح وطمع فى ابل ضلاله باسفار الصبح فلما قتل المركيس سكن روعه وروعه وذهب ضوره وضوعه وطاب قلبه وآب لبه واستوى أمره واستشرى شره وكان قد تعصب لمضادة المركيس للملك العتيق فأظهر له ود الشفيق الشفيق وولاه جزيرة قبرس وأعمالها وسدد بسداده اختلالها فلما هلك المركيس عرف أنه قد أخطأ فى تقويته وخشى أنه لا يسلم من عاديته ولا يأمن من غائلته فلما عدم عدوه وجد هدوه وآب سكونه وثاب جنونه وغاض غيظه وحضه حظه وفاض من منبع الشرك فظه ومع هذا لم يقطع محادثته ولا يحدث مقاطعته وجرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخاتلته ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته وراسل فى طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقى لنا بمدينته وقلعته سوى كنيستهم المعروفه بقمامه فانهم يعتقدونها الملتهم الدعامه فأبى السلطان أن يقبل هذا القرار وأبدى لهم الانكار وسامهم أن ينزلوا عن يافا وعسقلان ويأخذوا على ما بقى فى أيديهم الامان

﴿ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم﴾

وهذه قلعة الداروم على حد مصر وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركت وأبقيت وبالميره والذخائر والرجال مليت وخربت عسقلان وغزة دونها وتسلمها علم الدين قيصر على أن يصونها فلما شرع الفرنج فى اعادة عمارة عسقلان ترددوا مرارا اليها وداروا حواليها وأشرفوا عليها وأنفق السلطان فى جماعة وقواها بها وشد بالنجدة قلوب أربابها ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم وسمرهم وبيضهم وفارسهم وراجلهم وصارمهم وذابلهم ورامحهم ونابلهم واشتد زحفهم عليها ونهوضهم اليها عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان أخذوا فيها نقبا وخرقوه وحشوه وأحرقوه وطلب أهلها الامان فلم يجدوا وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم يجدوا ولما عرف

الوالى أنهم مأخوذون وانهم موقومون موقوذون عمد الى الخيل والجمال والدواب فعرقبها والى الذخائر فاضرمها وألهبها وفتحوها بالسيف وعرضوا أهلها على الحيف وأسروا منهم عدة يسيره وكانت هذه النوبة على الاسلام كبيره ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها ونزلوا على ماء يقال له الحسى وقد طاش بهم الغى والبغى وذلك فى يوم الخميس رابع عشر الشهر وقد أنسوا بما ظنوه من أسباب الغلبة والقهر ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحباب فخرجت عليهم أسد اليزكية المكمنة من الغاب فقاتلتهم قتالا شديدا وتركتهم بحد الحديد بديدا وغادرت حبل قصدهم الجديد جديدا وكرت عليهم فكررت فى ردهم عن جهتهم ترديدا وقتل منهم فى جملة من قتل كند كبير وأتاهم من مباريها لهم مبير وعادوا مفلولين مثلومين مخذولين مهزومين مثلولين مهضومين ثم رحل الفرنج من الحسى يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين وبعضهم عاد الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبرين فتقدم السلطان الى العساكر والامراء بأن يكونوا لهم مبارين وفى يوم السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافيه بجموعهم الوافرة الوافيه ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون فأرجفت الالسنة بأنهم على قصد القدس على حسب تراجم الظنون ثم ضربوا خيامهم يوم الاربعاء على بيت نوبه واجتلينا نيرانهم المشبوبه وسرت منا اليهم السرايا وتوالت عليهم البلايا وأظهر السلطان مقامه بالقدس لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانس وفرق الابراج والابدان على الامراء والاجناد وذوى القوة والاستعداد وأمرهم بنقل الازواد ثم زال الرعب وطاب القلب وخرج الناس الى خيامهم يتخطفونهم ويعسفونهم ويحيفونهم وجرت وقعة بعد وقعه وكبسناهم دفعة بعد دفعه ومن ذلك أن بدر الدين دلدرم كان فى اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من دافا من لزم الكمين فجازت بهم فرسان من الفرنج مستقيمون على النهج فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا وفازوا ونصروا وفى يوم السبت نزل الناس اليهم وقاتلوهم فى خيامهم

وألهبوهم بضرامهم وركب العدو وساق الى قلونيه وهى ضيعة من القدس على فرسخين ثم عاد بائد الشأن بادى الشين وعساكرنا قد ركبت أكنافه وهى تقطع أطرافه وتهز أعطاف البيض لتحز أعطافه وفى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخره خرج كمينا فى طريق يافا على السابلة العابره فظفروا وفازوا وحوروا وحازوا وكسروا وأسروا

((ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل))

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله ويدعوه نجدة لاهل القدس على الكفر وأهله فضرب العسكر خيامه على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق وتهيأ لمن تأخر عن السابق اللحاق وانضم اليهم التجار وحصل لهم بكثرتهم الاغترار وللعدو لقدومهم الانتظار وعنده بجواسيسه الاخبار فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ان العدو وملك الانكتير ركب فى سبعمائة فارس وألف تركبول ومعه ألف راجل وسار عصر يوم الاحد سير مخادع مخاتل ولا يدرى أى جانب قصد ولاى نائب رصد فجرد السلطان أمير آخر أسلم خوفا على الواصل ليسلم وندب معه الطنبة وعدة من العادليه وأمرهم بأن يأخذوا بالناس فى طريق البريه فعبروا على ماء الحسى قبل وصول العدو اليه واتصلوا بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه وكان مقدم العسكر المصرى فلك الدين أخو العادل ولم يسأل عن المراحل والمنازل وقصد أقرب الترق وغفل عما يعرو من الفرق والفرق وترك الاحتمال على ترق أخرى سائره ورأى الامنة ظاهرة واوجه السلامة سافره وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفه ولاماني تغره بالمواعيد المخلفه ونادى تلك الليلة اناجزنا مظان المخافه وفزنا بالسلامة من الآفه فلا رحيل الى الصباح فاغتر الناس بالنداء الصراح وناموا مسترسلين وباتوا متغفلين فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة الشاقة والحدمة الحاقه وعاق ابن ذكاء باذكاء بنت الداهية العاقه فجاءهم فجاءه والصبح لم يبد اضاءه والخيط الابيض من الخيط الاسود لم يتبين وهبوب الاعين من هبوة الغفوة لم يتعين وكل غرار فى جفنه قار وكل قلب بأمنه

سار وكل جنب على فراش وكل عاش له النعاس غاش فلما اغتوا بهتوا وطلبوا أن يفلتوا فما التفتوا وركب كل منهم على وجهه وربما كر بكرهه وفيهم من ركب بغير عدة حصانه وأسلم اخوانه وغلمانه وانهزموا وانحوا الاثقال فاوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والاحمال فوقع العدو فى سوابقها واشتغل بها عن لواحقها فتفرقت فى البريه وعاد معظمها الى الديار المصريه ومنهم من عاج الى طريق الكرك فلم يقع فى الشرك ولم يحصل فى الدرك فأخذ الكفار جمالا لاتعد واحمالا لاتحد وكانت هذه نكبة عظيمه ونائبة عميمه ونوبة ذات نبوه وكبة ذات كبوه ووقعة ذات روعه وعولة ذات لوعه فظنت الظنون وأرجف المرجفون وقالوا قد حصل للفرنج من الظهر ما يحملهم وينهضهم ومن المال ما يبطرهم ويحرضهم ومن الآن يقابلهم وبأى عسكر وعدة نقاتلهم ووصل الجند مسلوبين منكوبين منهوبين فسلاهم السلطان عن أموالهم بما قوى من آمالهم وحضهم على الحظ من الاخذ بثارهم والجد فى دمار القوم وبوارهم ولها الملاعين بما ملأ العين من المال عن القيل والقال والقتل والقتال وحلالهم ما حاولوه من الحال وجرى هذا كله والملك الافضل والملك العادل غائبان وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة فى الاتيان

((ذكر سبب غيبة العادل والافضل وماجرى لهما من الاول))

كان الملك الافضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ونزل عن جميع ماله من الولايات وانه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان وعناله من بها من ملوك الاطراف ودان ورحل من القدس فى ثالث صفر وقد أزمع السفر ووجه عزمه الماضى المضىء قد سفر وأقام فى دمشق حتى استعد واستجدى من أبيه ما كمل به الخزانه واستجد وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى ما أصحبه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ثم سار فى مجر مجر سيل خيله جار ذيل نقعه على المجره شاغل بالسير والسرى أمرا ذوى الاسره بادية على صفحات صفاحه نضرة النصره ووصل الى حلب وقد مرى أفاويق التوفيق وحلب واحتفل أخوه الملك الظاهر لقدومه وقام له بسنن الكرم ورسومه

ورحب للترحيب به صدره وجنابه وسحب على روضه سحابه وأصحب فيض فضله صحابه ووقف لخدمته ماثلا وهز عطف الابتهاج اليه مائلا وأحضر له مفاتيح بلده وقدم له كل ما فى يده ولم يبق من الجميل شيأ الا عمله ولا نوعا من الفضيلة الا كمله . وعرض عليه الحصن العراب والتحف والثياب وخلع على خواص أصحابه وعوام أجناده وخصهم وعمهم من الجود بامداده وعول أن يسير معه الى الجهة التى يقصدها ويساعده على الضالة التى ينشدها وسمع ناصر الدين ابن تقى الدين بما أقلقه ودفع منه الى ما أرهجه وأرهقه ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله راجيا الفضله لائذا بجنابه عائذا ببابه مستجيرا بارعائه مستجيبا الدعائه مفوضا ما حل به الى أنوار آرائه مرتضيا ما حل أمره بانواء آلائه فاحتمى له واحتمله وقوى على تقويته أمله وخاطب السلطان فى حقه واستعطفه وشفع فى أمره واستشفعه وقال انا أمضى اليه وأستحضره وأؤمنه مما يحذره وتبقى هذه السنة عليه حران والرها وتشد من رجائه بذلك ماوهى وتعطيه فى السنة الاخرى حماة والمعره وتكفى المضرة والمعره ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ تلك البلاد ويحويها ويملك حوزتها ويحميها ويكف عنها ويكفيها واستقر ان ينزل عن اقطاعاته بمصر ونصف خاصه واذا أخذ تلك البلاد فما يجاوره يجتهد فى استخلاصه فابدى على الرضا بذلك التوجه كراهيته واعتياصه واستزاد قلعة جعبر فمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من أبيه باضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل فى العشر الاول من جمادى الاولى وكتب السلطان بعود الملك الافضل فجاء هذا راجعا وذهب ذاك مسارعا ووصل الى حران والرها ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى وبلغ من مراده الى أمد الامل المنتهى وعاد فى آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقى الدين ووصل فى هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل علاء الدين وصاحب آمد بن قرا أرسلان قطب الدين وعسكر صاحب سنجار ومقدمه مجاهد الدين يرنقش واجتمعت بدمشق فى هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس والكفر يستوحش وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير فى خدمته وتجلى راياتها

في مطالع رايته

((ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكا مظهرا انه على قصد ثغر بيروت))

لما تعذر على الفرنج قصد القدس وعرفوا أن مرضهم به في النكس ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم وعراهم من القوة ما منه عراهم وانه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه وقد جمعوا عصائبه ونوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين وقصده متعين واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخلا القدس من جهة كتائبه وجرة مضاربه فتبادر اليه من يافا وعسقلان من يجد في تملكه الامكان فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من القصد ودبروه من الكيد أمر الملك الافضل بمباراة القوم في الرحيل وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل وسبقهم الى مرج عيون حتى اذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر الى بيروت ودخلتها ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها وكتب السلطان الى العساكر الواصلة لى دمشق ان يكونوا مع ولده وان يضموا أمدادهم الى مدده ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد لم تجاوز ولم تعد

((ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها))

ولما رحل ملك الانكتير وسار وخلى وراءه الديار ترك في مدينتي يافا وعسقلان جمعا من منتخبي الرجال والفرسان ووصاهم بالجلد في حماية البلد فانتهز السلطان فرصة الغيبة وأوفد الى مساغ رجائهم غصة الخيبة ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لانتظار العساكر ووافى يافا ووفاها بكيل المجنيق أحجارا وأراق دماء وساق دمارا وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ورفعت منها السكينة وقتل من بها ومسح وأخذ ما جا وكسح ووجدت الاحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الايدي والسيوف من الدماء والاموال ونهلت ونفضت كنائن ونظفت خزائن واستخرجت دفائن وولجت مكامن وحصل استمتاعنا بأمتعة وانتفاعنا بكل منفعة وامتلاء لبلد الكافر بالمسلمين وبقيت القلعة وطلب حماتها الامان ليكونوا الها مسلمين وكان الناس قد سبقوا اليها وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب وقد شارف

من فيها الشجب فلما طلب الامان رد الناس وكفوا فظن ان الغنيمة تصفو فانه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الاكابر على ان يدخلوا تحت حكم الاسار ويسلموا جميع المال والعدة والذخائر على أن يطلق كل واحد منهم بأسير ويفدى صغير بصغير وكبير بكبير وشرعوا في الخروج آحادا وعشرات وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا الى الصباح وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ما عينوه من الاقتراح ومازال يخرج منهم من يستدعي زيادة التوثقه وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقه حتى وصل ملك الانكتير في البحر في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر ودخلوا القلعة من الجانب البحري ونادوا بشعار الغدر فاكتفينا منهم بمن حصل في الاسر وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم ولا نفع بعد فوات الفرصة للندم ولو أن السلطان توقف في تأمينهم واستمر على توهينهم لقلعت أساس تلك القلعه ونفضت رقعة تلك البقعه ولقد كان ذلك فتحا عظيما وفضلا من الله عميما فقد امتلأت الايدي بغنائم المدينه ووهت أسباب قواهم المتينه واستعيد مانهبوه من الكبسة المصريه وفزنا بالغنائم السنيه وقتل من أقام بالبلد وأسر وكشط جلد تلك المدرة وبشر وحصل في اليد من مقدمي القلعة نيف وسبعون وتركوهم بالثبور يدعون وكان القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت وخشى على فرصة حفظها أن تفوت فمن الله تعالى بحصول المقصود وفزنا بجنى الجهاد بغير بذل المجهود وجرى الامر على الوجه المحمود وانما وقع التندم كيف لم يقع في أخذ القلعة التسرع والتقدم فتعاصت بعد الاذعان وتعذرت بعد الامكان وجمحت بعد الاصحاب وجنحت بعد الاكثاب وأفلتت وقد وقعت في الحبالة واستقلت بعد العثرة والاستقاله وضعف الفرنج من تلك الكره وآذن نشاطهم بالفتره وما انتعشوا ولا انجبروا من تلك العثرة والكسره وعاد السلطان وخيم على النطرون والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء اليه الملك الافضل ولده والملك العادل أخوه وأسفرت بالمسار الوجوه وكان ولده الملك الظاهر أيضا قد وصل وفي

هذه الغزاة حضر وبينها حصل وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا ارسلان حاضرا وأخذ من السعادة حظا وافرا وحصل بيده جرح يئس ان يؤسى وظن تلك النعمة يؤدى ثم اندمل جرحه وفازت قداحه وحاز السنا قدحه وأقام السلطان حتى اجتمعت العساكر ولحقت أوائلها الأواخر ووصل الملك المنصور ناصر الدين بن تقيه فى بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه هذا والملك العادل متأخر فى المخيم بسبب عارض السقم ومـلم الالم ورحل السلطان ونزل بالرملة والعساكر فى عدد الرمل والاسلام قرير العين من أهله بجمع الشمل والفضاء قد امتلأ والقضاء قد اجترأ والقدر قد أسعد والسعيد قد قدر والنصر قد أبدى الصفو وأذهب الكدر وتلك البريه قد حوت البريه وجمعت العسكريه والكمت الجاريه والكماة الجريه والاعراب والعراب والمحارب والحراب والاجاود والجياد والاساود والآساد والبياض والسواد والعدد والاعداد

((فصل فى وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز))

الخادم حاله على ما انهاه غير صرفة فى مرابطة أهل الكفر مستمره وأفاويق النصر على حفولها تارة وبكئها أخرى مستدره والحرب سجال وللاسلام فى مضمار الظفر مجال وقد تجاوزت القصة عن حد الانهاء وكلما اشارفت القضية الانتهاء عادت الى الابتداء والحادثة متصلة والواقعة مستقبله والنعمة من الله فى اجراء أوليائه على أجمل عاداته بانجاز عداته فى قمع عداته مؤمله وما ينقضى يوم الاعن نصرة تتجدد ونعمة تتمهد وجمع للعدو يتبدد وجمر نكاية فيه يتوقد وخد السيف من حده بدم الشرك يتورد وفتح بكر من الحرب العوان بلقاح البيض الذكور يتولد وآخر ماتم فى هذه الايام من مرهجات الكفر ومبهجات الاسلام حظوة حلوه ونوبة ما لها نبوه وهى أن الفرنج لما أعجزهم قصد البيت المقدس ولم يستقم لهم ماسولوه فى الانفس عكسوا زعمهم ونكسوا عزمهم وعادوا خائبين ونكصوا هائبين واستأنفوا مكيدة أخرى. وشرعوا فى شر خلف الشرك به عرى واجمعوا على قصد مدينة بيروت وتآمروا على الاتجاه نحوها أعداء الله أولياء الطاغوت فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم لمضايقتهم فى مضايق

طرقاتهم وتجرد الخادم فى خواصه ووافى يافا موقنا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافى وحمل اليها من معتقلى نبات الاسل ومشتملى بنات الخلافى الاسد والعرين فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين فأخذها بالسيف عنوه وأعاد ضرام النيران بها جنح الليل ضحوه وأتى القتل والنهب على من وجد فيها من الكفار واستخرج ما بها من الاموال والعدد والاذخار وخلص من المسلمين من كان بها فى الاسار وأضحت الفرنج فيها نبارى بالتبار وطلب من بالقلعة الامان على أن يسلموا من القتل ويستسلموا للاسر ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبيناهم مشتغلون بالنزول ومنقطعون الى الوصول جاءهم الغوث فى البحر وظهر منهم أمارة الغدر ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله ونصر الاسلام وأخذله وسره بما يسره له وأجذله ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله وكان المقصود ردهم عن موردهم وصدهم عن مقصدهم فاربى ماقيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الارب واهتزت أعطاف البيض والسمر المنتشية من كأس نجيعها للطرب والقوم الآن قد اشتغلوا بمصابهم واجتمعوا والضم ما انتشر من أسبابهم وراسلوا فى الصلح على أن نخلى لهم عسقلان فما أجيبوا وعلوا بجهلهم انهم ما أصابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيبوا والعساكر الاسلامية اليوم عليهم مجتمعه ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعه وقد آن أن تحل معاقد معاقلهم التى هى ممتنعه وكل ما يجدده الله من علو يظهر وعدو يقهر ونصر يزهر ونصل بالظفر يشهر فهو ببركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية وبحمد الله وعن أيامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهره وأسباب الظهور متناصره ووجوه الآمال بنشر نجاحها وبسر ما فى اقتراحها سافره

((ذكر الهدنة العامة))

لما عرف ملك الانكتير ان العسكر قد اجتمع والخرق عليه قد اتسع وان القدس قد امتنع وان العذاب به وقع خضع وخشع وقصر الطمع وعلم أنه لا قبل له بمن أقبل ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل فاظهر انه ان لم يهادن أقام واستقتل وللشر

استقبل وانه عازم على العودة الى بلاده لامور مردها يعود الى مراده والبحر قد آن ان يمنع راكبه ويسنم بالامواج غواربه فان هادنتم وطاوعتم تبعت هواى وان حاربتم وعصيتم القيت ههنا عصاى واستقرت نواى وقد كل الفريقان ومل الرفيقان وقد نزلت عن القدس وأنزل عن عسقلان ولا تغتر وا بهذه العساكر المجتمعة من الجهات فان جمعها فى الشتاء الى الشتات ونحن اذا أقمنا على الشقاق والشقاء رمينا أنفسنا على البلاء فاجيبوا رغبتى وأصيبوا محبتى وأودعونى العهد ودعونى وادعونى وودعونى فاحضر السلطان امراءه المشاورين وشاورهم فى الامر وأظهرهم على السر واستطلع ما عندهم من الراى وسرد لهم الحديث من المبادئ الى الغاى وقال لهم نحن بحمد الله فى قوه وفى ترقب نصرة مرجوه فأنصارنا المهاجرون اليناذو ودين وكرم ومروه وقد ألفنا الجهاد وألفينا به المراد والفطام عن المألوف صعب وما تصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ومالنا شغل ولا مغزى الا الغزو وما نحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو واذا تركنا هذا العمل فما العمل واذا صرفنا عنهم الامل ففيم الامل وأخشى ان يأتينى فى حالة بطالتى الاجل ومن ألف الحلية كيف يألفه العطل ورأيى ان أخالف رأى الهدنه ورائى وأقدم بتقديم الجهاد اعتزازى واليه اعتزائى وما أنا بطالب البطاله فارغب عن استحالة هذه الحاله وقد رزقت من هذا الشئ فأنا ألزمه ولى بتأييد الله من الامر أجزمه وأحزمه فقالوا له الامر على ما تذكره والتدبير ما تراه والرأى ما تدبره ولا يستمر الا ما تمره من الامر ولا يستقر الا ما تقرره وان التوفيق معك فى كل ما تعقده وتحله وتورده وتصدره غير انك نظرت فى حق نفسك من عادة السعاده وارادة العباده واقتناء الفضيلة الراجحه والاعتناء بالوسيلة الناجحه والانف من العطله والعزوف للعزله وانك تجد من نفسك القوة والاستمساك ويقينك يعرفك بالامانى الادراك فانظر الى أحوال البلاد فانها خربت وتشعثت والرعايا فانها تعكست وتعلثت والاجناد فانها نصبت ووصبت والجياد فانها اعطلت وعطبت وقد أعوزت العلوفات وعزت الاقوات وبعدت عنا العمارات وغلت الغلات ولا جلب الا من الديار

المصريه مع ركوب الاخطار المهلكة فى البريه وهذا الاجتماع مظنة التفريق ولا يدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق فان المواد منقطعه والجواد ممتنعه والمترب قد ترب والمعدم قد عطب والتبن أعز من التبر والشعير ليته وجد وان كان غالى السعر وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنه بذلوا وسعهم فى استفراغ المكنة واستنفاد المنه وصبروا على المنية فى طريق الامنيه وأبوا فى الاقبال على دينهم قبول الدنيه والصواب ان نقبل من الله الآية التى أنزلها وهى قوله وان جنحوا للسلم فاجنح لها وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها وتكثر فى مدة الهدنة غلاتها وأثمارها ونستجد الاجناد عدتها وتستريح زمان السلم ومدتها فاذا عادت أيام الحرب عدنا وقد استظهرنا وزدنا ووجدنا القوت والعلف وعدمنا المشاق والكلف ففى أيام السلم نستعد للحرب ونستجد أدوات الطعن والضرب وليس ذلك تركا للعباده وانما هو للاستجداء والاستجداد والاستعداد على ان الفرنج لا يفون وعلى عهدهم لا يقفون فأعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا وقد شقوا العصا فلا يلتئموا وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومه ويستقل بالملازمه ومازال الجماعة بالسلطان حتى رضى وأجاب الى ما اقتضى وكانت قد بقيت بين العسكرين منزلة واحده والعجاجات على الطلائع متعاقده فلو رحلنا ارحلناهم وعلى الهلاك أحللناهم لكن مراد الله غلب وأجيب ملك الانكتير من الصلح الى ما طلب فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكتبت نسختها وعينت مدتها وبينت قضيتها وذلك فى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لاول أيلول لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر وتتصل أمدادهم على الحشد والحشر وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور وأبدوا بما تركوه من البلاد التى كانت معهم الغبطة والسرور وأدخلوا فى الصلح طرابلس وانطاكيه والاعمال الدانية والنائيه

((فصل من كتاب الى الديوان العزيز فى شرح نوبة يافا

((ثم افضاء الامر الى عقد الهدنه))

قد سبقت مطالعة الخادم بانهاء حاله وما هو لا يزال مستمرا عليه من جهاد العدو وقتاله وما كان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب والحشر والحشد المضطرم المضطرب وانهم على قد اجتمعوا لقصد البيت المقدس وعزموا على بذل المصونين من النفائس والانفس وسلكوا في القصد كل طريق وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق ودنوا على ظن ان جنى الفتح لهم دان وان شبا الحتف عنهم وان ولما قربوا عرفوا أن المرمى بعيد المرام وانهم لا يستطيعون مقاومة عسكر الاسلام فنكصوا على اعقابهم ونكسوا ما ضربوه من آرائهم وآرابهم وعلموا عقبى ما جهلوه وقطعوا من أسباب العزم ما وصلوه ونكثوا من عقد القصد ما أبرموه وشرعوا في أمر آخر توهموه ومضوا واستأنفوا الاستعداد واستنهضوا الامداد وحصنوا بلادهم وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعه والعدة النافعه والشوكة الرادعه والشكة القاطعه واستظهروا فيهما بكل ما قدروا عليه من المنعة الحاميه ورجال الصبر على النار الحاميه ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشوده وظلال الضلال الممدوده وصلال الصلادم المقوده مستمطري شآبيب الانابيب مستنفري سراحين السراحيب وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنية الحصر وغفلوا عما أجراه الله لاوليائه على أعدائه من عوائد النصر ولما بلغنا خبرهم وطار شررهم وخيف ضررهم أنهض الخادم العساكر المنصورة الى مقابلتهم ومباراتهم ومقاتلتهم ونزل في مماليكه وخواصه ورجال الاقدام ذوي استخلاصه على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوه وجب بها من سنام الكفر ذروه وحل منه بغزوته اليها عروه واستكمل للاسلام بتملكها حظوه وقتل كل من دونه وسبى ونأب المشركين بما نبى مجده ومضى حده فيه وما نبا وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل وأسر من وجد فيها وقتل ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدثر للذخر وطلب أهل القلعة الامان من القتل خاصة دون الاسر وشرطوا انهم لا يمكنون من الدخول اليهم من

جاءهم للنجدة من البحر وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم وكنودهم ومقدميهم مثل البطرك الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجري مجراهم من الفرسان فلما أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا وامتنعوا بعد انقيادهم للعجز حين قدروا وخيم العدو هنالك في جموعه وندب الى عسكره من يأمره برجوعه ووافت في البر جحافله حافله وتواردت في الاسراع الى الصريخ ظلما نا جافله فأجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق وسيرهم الى دمشق في أقياد الوثاق ورجع الى القوم فهزمهم وردهم الى عكا بعد ما نكى فيهم وأضحك من دمائهم البيض وأبكى وعاد الى العدو ونزل عليه وكدر الموارد لديه حين زحف اليه واجتمعت من أهل الاسلام العساكر واتسعت على المشركين في المضايقة الدوائر ورجا المؤمن وخاب الكافر وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر وعاينوا العذاب الواقع وعدموا الدافع وشاهدوا المصارع فما زالت رسلهم تتردد بالضراعه وبذل الطاعه والنزول عن الاشتطاط والدخول تحت الاشتراط والغبطة بما هزله الاسلام عطف الاغتباط واحتوى عليه بيد الاحتياط وكانوا لا يجابون الا بالاباء ولا تلقى رسلهم الا بتصميم عزم اللقاء حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها وأولياء الطاعة وألباؤها وأشاروا بعقد الهدنه والانتهاز فيها الفرصة الممكنه واستقرت المهادنة على ما أعز للاسلام الانوف وأذل من الكفر الرقاب ورجح وأنجح من أهل الايمان الآراء والآراب بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها وبعدوا عن الطرق التي سلكوها وسألوا الامان على الاماني التي استدركوها وما أدركوها وسلموا عسقلان وغزة والداروم ويبنى ولد ونابلس الصافيه وغير ذلك من الاعمال والاماكن الوافرة الوافيه واقتنعوا بيافا وعكا وصور واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور ورأوا عزهم في ذلهم وصونهم في بذلهم وسلامتهم في سلمهم وغناهم في عدمهم ولانوا بعد الاشتداد ودانوا للانقياد وهانوا بعد الاعتزاز وهانوا بعد الاغترار وأقروا بعد الانكار لتعود جفونهم الى الغرار وأمورهم الى القرار وخلوا ديارهم وأخلوها وما سألوا عن حب الاوطان

والاوطار وسلوها ومدة الهدنة التى أخذا بها اليد وأعطوا اليمين ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين ووضعت الحرب أوزارها ورحضت بماء السلم أوضارها وأخذت من أهل النار نارها وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها ولا شك أنهم يستعدون فى هذه المده ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعده ويستجدون عزمة العوده وقد شرع الخادم فى تحصين الثغور وامرار الامور وابرام معاقد المعاقل واحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل واتمام أسوار القدس وخنادقه حتى يبقى على الدهر آمنا من طروق العدو وطوارقه واعادة الاعمال والاحوال الى عادة عمارتها وحلية نضارتها واجمام العساكر واراحتها ليوم تعبها الذى هو عين راحتها ولقد كان الخادم للسلم متكرها ولا يرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها لكنه أجمع من عنده من الامراء وذوى الآراء على أن المصلحة فى المصالحه راجحه وان صفقة الكفر فيها خاسره وصفقة الاسلام رابحه وان فى اطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما وأمنا تاما وتفريقا لجمع الكفار لشمل النصر عليهم ضاما فهى سلم أنكى من الحرب فيهم وانها تقصيهم من هذه الديار بل تنفيهم والى متى تجتمع هذه الاعداد الهائلة لهؤلاء الاعداء وتتفق هذه الامداد المتواصلة من أهل النار فى الماء وما صح لهم هذا الجمع على التكسير الا فى خمس سنين وما وافى اليهم مددهم من ألوفه سوى مئين وكل ما كان لهم من أموالهم فى بلادهم نقلوه وأنفقوه وأيقنوا ان مرامهم صعب وتحققوه فحتى انفضوا انفضوا وقد آن أن يرفضوا ويرفضوا والى أن يتفق مثل هذه الجموع ويعزم ذاهبهم على الرجوع يكون الاسلام قد استظهر بقوته واستكثر من نجدته ومن جدته فرأى موافقة الاجماع وقبل مناصحة الاشياع وتفرق جمع الكفر وباخ جمره وأمن نكره ومكره وانشرح صدر الاسلام وتضوع نشره وتوضح بسنا النصر فجره

«ذكر ما جرى بعد الصلح»

عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سعادته واشتغل باتمام السور والخندق

وتكميل عمارته وفسح للفرنج كافة فى زيارة قمامه فجاؤا ووجدوا الامن والسلامه وزاروا وازدروا ولما عجزوا أن يحتازوا سألوا أن يجتازوا ففسح لفريق من بعد فريق وتوافوا فى طريق وراء طريق وقالوا انما كنا نقاتل على هذا الذى وجدناه مع الصلح وما زلنا سائرين فى ليل القصد حتى وصلنا الى الصبح وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسأل منع الفرنج من الزيارة الا من وصل معه كتابه ورسوله ورغب فى أن يجاب سؤاله فى ذلك ويصاب سوله فقيل مقصوده أنهم يرجعون الى بلادهم على حسرة الزياره فيبقون على الاستنفار والاستثار ومن زار برد قلبه وتنفس كربه ولم يبق له فى مشقة العود أرب ولم يتصل له بهذه الديار سبب فكان الامر كما حسب فاعتذر اليه فى الجواب الذى كتب وقيل له أنت أولى بمنعهم وردهم بردعهم فانهم يصلون الينا وافدين ولزيارة الكنيسة قاصدين وما يقتضى كرمنا ان نرد الوفود ولا نبلغ من يقصدنا المقصود ومرض ملك الانكتير مرضا ألهاه عما اشتهاه ولم يبلغ فى هذا الغرض الى منتهاه وركب البحر وأقلع وعجل فى مفارقته وأسرع وسلم الامر الى من يليه وهو الكندهرى ابن أخيه من أمه وهو ابن أخت ملك افرنسيس من أبيه وتبعه فرنج الجزائر ولم يقف الاول منهم على الآخر

«ذكر ما عزم عليه السلطان»

عزم على الحج وصمم وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم وأمر بان يحمل له فى المراكب كل ما يحتاج اليه من الازواد والنفقات والثياب والكسوات فقيل له لو كتبت الى أمير المؤمنين وأعلمته بجدك وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه برىء ويعلم أن قصدك فى المضى مضىء والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الآفاق ثم هذه البلاد اذ تركتها على ما بها من الشعث لم نبرم من حبلها المنتكث وهذه المعاقل التى فى الثغور حفظها من أهم الامور ولا يغتر بعقد الهدنه فان القوم على ترقب المكنه والغدر دأبهم وملء البغى اهابهم فما زال الجماعة بالسلطان حتى حلوا من العزم ما عقده وأطفؤا من نار جده فيه ما أوقده فشرع فى ترتيب قاعدة القدس فى ولايته وعمارته وتهذيب عمله ومعاملته وكان

الوالى بالقدس حسام الدين سيار وخ وهو ترك يقتدى به فى زهادته وحسن سيرته الشيوخ وكان فيه دين ولين وحبله فى الخير متين ولم يزل مستوفيا لحق الامانه مستعفيا من الولايه لطلب الصيانه فانصرف حميدا أثره كريما مورده ومصدره وفوض السلطان ولاية القدس الى عز الدين جورديك وقال تمهيدك فى الامور يغنيك عن ان نهديك وانما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال الكفاية والشهامة والديانة فيك فتول آخذا بالحزم فى تثبتك وتأنيك وترويك وتأنيك وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها فخرج اليها وتولاها وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين واعانة المقطعين وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر الى أعمال عسقلان ليعيد اليها الزراعة والعمران وسأل الصوفية عن أحوالهم وآذن سؤاله عنها باجابة سؤلهم وسؤالهم فانه كان وقف دار البطرك مجاورة قمامة لهم رباطا وجعل لهم كل يوم فيه سماطا وزاد فى الوقوف وحكمهم فى الانفاق بالمعروف وكان قد جعل كنيسة صندحنا عند باب الاسباط للفقهاء الشافعية مدرسه وردها بنية على التقوى مؤسسه وزاد فى أوقافها ووفر مواد تلادها وطرافها وأمر بان تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة بيمارستانا للمرضى واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامراض على اختلافها تقضى ووقف مواضع عليها وسير أدوية وعقاقير عزيزة الوجود اليها وفوض القضاء والنظر فى هذه الوقوف الى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم وعول منه على أمين كريم

((ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون))

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال وقد دبر الاحوال وأقام بعدله الاعتدال وأفاض الفضل والافضال وجاوز ناحية البيره وقد جلا جلاله سنا راياته المنيره وبات على بركة الداويه بالهمة الرويه والعزمة القويه ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعه وجمع شتات مصالحها المتوزعه وكثرت الاستغاثات على سيف الدين على المشطوب صاحبها وانه قد طرق الرنق الى مشاربها وزاد فى رسومها ونوائبها فاقام بها الى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالمها واضحك

بالعدل والاحسان مباسمها وأسقط رسومها الجائره وأمات سننها الضائره وأصفى بها شرعة الشريعه وأضفى ظلال الرعاية للرعية فى مراعيها المريعه ورحلنا بعد الظهر وبتنا ليلة الاحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسه ورتعنا فى مروجها الانيسه وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين وهنالك ودعنا المشطوب وداع الابد فانه انتقل بعد أيام الى رحمة الواحد الصمد وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال ورحلنا يوم الاثنين وجئنا ضحوة الى بيسان وأزال حلول السلطان عنها البؤس وأشاع الاحسان وصعد الى قلعتها المهجورة الخاليه فابصر قللها العاليه وقال هذه اذا عمرت دامت فى حضانة الحصانه وكان جبلها الوثوقه مستودع الامانه والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب ولم يزل حتى بين كيفية بنائها ورتب ووعد باحكامها واعلاء أعلامها ثم ظهر ظهرا وبات على قلعة كوكب وشاهدها وصعد نظر رأيه فيها وصوب ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء وهنالك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الاسر وتلقيناه بالبشر والسر وأقمنا بها يوم الاربعاء لتوافر الانداء وتواتر الانواء ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل وصعد السلطان اليها وأمر بتسديد ما فيها من الخلل ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الجش وهى عامرة محتوية على سكانها كأنها العش وسرنا منها وخيمنا على مرج تبنين وبتنا بأحوال قلعتها معتنين وأصبح السلطان حوالى حيطانها باحوالها محيطا ممتطيا قرا قلعتها ولاسباب اختلالها مميطا ووصى الوالى بعمارتها وجل مصالحها بكفايته منوطة وسدادها بسداده منوطا ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا على قلعة هونين ونزلنا من الجبل وبتنا على عين الذهب واجتمعنا بالثقل ورحلنا يوم الاحد وخيمنا بمرج عيون وجلس السلطان على عادته معنا فى تدبير الممالك تلك الليلة وسهرت العيون ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسرى وقطعنا فى الطريق الوعر الوهاد والذرا وعبرنا بين عمل صيدا وبيروت وعمل وادى التيم عطفة على الضياع والقرى وعرسنا على مرج تلفيانا مقابل مرج القنعبه ودفعنا الى

سلوك المسالك الصعبه ثم أصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل الى البقاع من تلفيا نا فخيمنا على جسر كامد والسلطان مشغول فى طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد ثم غدونا يوم الاربعاء وخيمنا بناحية قب الياس وقد أصحرنا الى الفضاء وأقمنا ذلك النهار راتعين من الفواضل السلطانية فى النعماء ولما جن الليل جمعتنا بالحضرة السلطانية الانوار وسرت أسماعنا منه أسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الاسمار ودخل السلطان يوم الخميس الى بيروت وأنجز بالوصول اليها وعده الموقوت ونزلت الاثقال على مرج قلبطية بالبقاع وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والايداع

«ذكر وصول السلطان الى بيروت ودخول بيمند الابرنس صاحب انطاكية عليه والاستجارة به وذكر أسامة»

ولما وصل السلطان الى بيروت تلقاه واليها عز الدين أسامة بكل ما توفرت به الكرامه واستقبل الاصحاب بصدر رحيب وظل خصيب وسماحة أريب وسجاحة لبيب وفتحت الاهراء على غلاء الغلات بالثغور ورفع أغلاقها وسبلها وما قيد اطلاقها وقرى وأضاف وأدنى القطاف وأصفى النطاف وتلطف فى الهدايا وأهدى الالطاف وفرق على الصغير والكبير التحف وأحضر للسلطان ولكل من معه الطرف وأغنى وأقنى وأعدم فى الجود الموجود وأفنى وأعطى الخيل والممالك والجوارى والملابس وبذل النفائس وزف على أكفاء المحامد من أبكار المناقب العرائس وأظهر فى مكان الشدة الرخاء وفى مظنة الضن السخاء وأهب فى اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء وأحضر كل ما عنده مما كسبه فى الغنيمه جريا على كرم الشيمه من الجوخ الافرنجية والثياب البندقيه والهنابات الفضية والاكواب اللجينيه والسروج واللجم والاكسية والحزم والمهاميز والملاليط والغفافير والعروض والدراهم والدنانير ففرق من ذلك ما جمعه ورفع الى كل منه ما أسمى قدره ورفعه وما انفصل عنه الا كل مواصل بشكره مساجل أمثاله بذكره

مضوع كل ناد للكرام بنشره وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه وأعجب وأعجز ما صدق من اهتمامه

«ذكر وصول الابرنس بيمند ودخوله على السلطان»

ولما أراد السلطان عن بيروت الانفصال وذلك فى يوم السبت الحادى والعشرين من شوال قيل له ان الابرنس الانطاكى قد وصل الى الخدمه مستمسكا بحبل العصمه داخلا فى حكم الذمه فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل وأذن للابرنس فى الدخول وشرفه فى حضرته بالمثول وقربه وآنسه ورفع مجلسه وأظهر له البشاشة والهشاشه وسكن من روعه الحشاشه وكان معه من مقدمى فرسانه أربعة عشر بارونيا ووهب كلا منهم تشريفا سريا وأجزل له ولهم العطاء وأبدى بهم الاعتناء وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار وخص أصحابه بمبار وأعجبه استرساله اليه ودخوله عليه بغير أمان فلا جرم تلقاه بكل احسان وودعه يوم الاحد وفارقه ووافق مراد السلطان انه بمراده وافقه وانصرف المذكور مسرورا بين أسرته مذكورا محبوا بالمنح والمنن محبورا

«ذكر وصول السلطان الى دمشق»

لما خرج السلطان من بيروت يوم الاحد بات بالمخيم على البقاع وأحضرنا تلك الليلة فى نادى فضله للمؤانسة والامتاع وتجاذبنا أطراف الآراء وهززنا منه أعطاف الآلاء واستدنينا قطاف النعماء وقد قرب الدخول الى البلد والوصول الى الاهل والولد وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ويظهر الى سكنه ومسكنه ارتياحا والتياحا فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر وبتنا على مرج يبوس وقد شرح الله الصدر وأطاب النفوس ووصل الينا من أعيان دمشق من سبق للتلقى والاستقبال وأظهروا بقدومنا أسباب الاحتفاء والاحتفال وجاءت نافوا كه دمشق وأطايبها واغتصت بالواصلين الينا مسالكها ومذاهبها ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا بالعراده وجرى المتلقون فى التحفى بالتحف على العاده وأصبحنا يوم الاربعاء ودخلنا الى دمشق وقد أخرجت أثقالها وأبرزت

نساءها ورجالها وكان يوم الزينه وخرج كل من بالمدينه وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشارا وفرحا وكانت غيبة السلطان عن دمشق أربع سنين فى الجهاد طالت فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بقضائه الاعين وأقرت بفواضله الالسن وذاعت أسرار السرور ورافت حبرات الحبور وطابت الانفس وغابت الابؤس وانجلت المكاره وتجلت المكارم وافترت المباسم وهنيت بوسمه المواسم وتهودت التهانى وهديت الامانى وغنت المغانى ولانت المجانى وسفرت المجالى وظفرت المعالى وتحلت الاحوال وتملت الآمال وراج الرجاء وارجت الارجاء وفاض الجود واستفاضت السعود وعم العدل وتم الفضل وأشرقت الآفاق وأفاق الاشراق وكرم الفضلاء وفضل الكرماء وحل فى القلعة حلول الشمس فى برجها وقد جلت أوجه السعود بأوجها وأخذت بحار سماحه فى موجها وسلكت المناجح فى نهجها وجاءت المنائح فى فجها بفوجها وصفت شرعة الشرع لواردها وضفت حلة الكرامة على وافدها وفتحت مرتجات أبواب الآلاء لمرتجيها واستجدت عادات انجاز عدات الجوائز لمستجديها ويسر اليسار لاسعاف العافى ونمت على ألسن الانام أوصاف الصافى وجلس السلطان فى دار العدل فأعدى المستعدى ولبى المستدعى وأجاب وأجار وأنال وأنار وجاد وأجاد وبدأ وأعاد

وفى هذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الاسر واجتمع بنا يوم وصلنا الى طبريه ولقى من السلطان الالطاف الخفيه ووصل معه الى دمشق وأقام الى أن خلص أصحابه من الاسر وتوجه الى مصر وقد صان نفسه ببذل ماله وأخرج ثروته ودخل فى اقلاله وخرجت السنة والسلطان فى أسنى سنائه وأبهى جلاله وأجلى بهائه والناس راتعون فى رياض نعمائه ورسل الممالك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه وينتظرون عزمه ويرقبونه وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره وابتسام ثغر الربيع وافتراره والتهاب زهر ازهاره وانتهاب سرح اسحاره وانتباه عيون بهاره واندلاق غرار عراره وائتلاق أنوار نواره وانطباق نواظر غماره واصطفاق أوراق أشجاره وانفتاق كمامه واتساق

نظامه وانتثار منظومه وانتظام منثوره وانفجار صبح اسفاره وانفراج وجه سفوره واجتماع لفيف أعشابه واستماع حفيف أقصابه والتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه وانشقاق شقائقه وانعقاق عقائقه واشتمال شمائله واقتبال قبائله وتأرج صبا صباحه وتبلج صباح صباحه وتوردو جنات جناته وتوقد جمرات غدرانه وتبسم ثغور أقحوانه وتنسم ضمير ضيمرانه وتصور خدود تفاحه وتدور نهود رمانه واخضرار آس عذاره واحمرار خد جلناره وتشنف أقطار البادى باقراط قطار الندى وتفوف حافات الوادى بالوشى الوشيع من حوك الرباب حول الربا فاذا طاب النسيم ونسم الطيب ودعا البلبل ولبى العندليب وتعطر عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ووافق مراد المرعى من المراد المريع وحلا الجنى اللجينى وحلى النضير النضارى وبقل العذار البنفسجى واشتعل الخد الجلنارى النارى ونجم فى الروض النجم السمائى المائى وابتسم الثغر الاقاحى وتنسم الضوع الصباحى وتحرك العرف السحرى الشجرى وتأرج النشر الروضى وتبلج البشر الوضى وانتشى النشأ الشمالى الشمولى وانتعشت عاثرات أعشاب الشعاب وقابلت القبول خطبة الفضل بفصل الخطاب وصبت الصبا فى محل خطيئة المحل بصوب الصواب فحينئذ آل جماح الأصحاب الى الاصحاب وصرفت أشاجيع الشجعان وايمان أهل الايمان كل مواج العنان رواج السنان ونزعت النزائع الى الحلاب ورشفت القواطع بشفاه الشفار ضرب الضراب واجتمعت العساكر وعسكرت الجموع وسرت الطلائع وسر الطلوع ونهض أهل الجد وجد النهوض وفاضت المنابع ونبعت الفيوض وضرب السرادق السلطانى حيث النصر ينزل والسعد يقبل واليمن يشمل والنجح يسهل والظفر يعشل والامر يمتثل والجد يسمن والهزل يهزل والعزم يولى والونى يعزل ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ولا يتنفس الا بحديث الطاعة من يحدث نفسه بعصيان وأقمنا على هذا العزم الى آخر السنه والاجفان مغضوضة على طيب السنه وظل البرد الشديد مديد والجلد واه والهواء جليد وحد الشتاء فى الآة تشتيت حديد والجبال قد اشتعلت رؤسها

شيبا والثلوج قد زرت على أعناق أطوادها جيبا والجو فى نظم ونثر والثرى من الثرات مثر والهتون ناكب ناكت والهتوف ساكن ساكت والمزن مزين والحزن حزين وللسماء سماط وللنشاص نشاط وللسحاب حساب وللبرق والرعد انتداء وانتحاب وللبرد من نجمه برد وللمطر فى نهجه طرد وللغيث عيث وللوحل ريث وكانون قد أكن الربا وشباط قد شب الشبا والنار محبوبة مشبوبة وحدود النكب مذروبة وخدود الترب مضروبة والسلطان مشغول بالصيد والقنص منتهز فى العمر للفرص مبتز بالبزاة والصقور حشاشات الوحوش والطيور بكل جار جارح وطائر طارح يدنى أجل الجل وحمام الحمام كأنه غريم لها لاهى الغرام وكل شهم ينقض انقضاض السهم ويبط بطن البط بالحزم وأكثر الجلوس بدمشق فى دار العدل وأعز لمنتجعيه در الفضل وحكم وقضى وأسخط بالحق وأرضى ووقف وأمضى وما منع بل أعطى وأصاب وما أخطا وجاد وأجاد وأبدى وأعاد وأوفد وأفاد وأحسن وزاد وأغنى وأقنى وأجدى وأسدى وأولى وولى وأجار واجاز وحاز وفاز وقرب العلماء وأكرم الفضلاء وفضل الكرماء وتكلموا عنده فى المسائل الشرعية وظفروا من جوده بالوسائل المرعية وما كان أحسن الى الحق اصغاءه وأسرع للباطل الغاءه ولكل ذى فضل منه حظ ولكل ذى حفظ منه حفظ ولكل محروم منه رزق ولكل مرزوق الى جده سبق ولكل فهم عنده سوق ولكل سهم عنده فوق ولكل أدب لديه داب ولكل عاتب عدم من جوده اعتاب ولكل مكرمة عنده باب ولكل دعوة عاف من اسعافه جواب ولكل مستجد اجداء ولكل مستهد اهداء ولكل سائل نائل ولكل ماحل وابل ولكل ظام رى ولكل حائم ورد هنى فما أسمح حزنه وما أصح وزنه وما أسمح يده وما أوضح جاده وما أعلى جده وما أجد علاه وما أجدى كفه وما أكفى جداه وما أكثر حياءه وأغزر حياه وأرج رياه وأبلج محياه

وممن توفى فى هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان وكانت وفاته يوم الخميس منتصف شعبان

كان له عشرة من البنين فولى كلا منهم اقليما وقصد به لما ند أمر ذلك الجانب تقويما فقوى كل منهم فى ثغره واستقل بأمره ودب فى طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ومد عينه الى ما فى يد صاحبه من البلاد وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد استحكمت قواه واستطال هواه وهو حينئذ متولى سيواس فأطاع فى التملك على أبيه ملكه الوسواس وسعى الى ان أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن عفراس وصور له انه يريد ان يستولى على الملك وينفرد بانتهاج المسلك وانتظام السلك وساعده صاحب أرزنكان وأمن اختيار الدين الى المذكور واختاره واستأذن السلطان ان يقصد دياره ويقيم عنده الى ان يصلح أمره مع أولاده ويأذن له فى العود الى بلاده فاستصحبه صاحب أرزنكان وأوقع عليه فى الطريق التركمان فقتلوه شر قتله ومثلوا به وبولده أقبح مثله فلما عرف ملكشاه ان وجه والده خلا وانه عن حسن بن عفراس سلا ساق اليه وأخنى عليه ودخل قونية دار مملكته واستبد بحوز حوزته وقوى بعزته وعز بقوته وقال لوالده انا بين يديك أشفق عليك وانفذ أوامرك وأوفر ما نزلك وقتل أمراء كانوا لابيه وألزم خدمته من لا يشتهيه فبقى معه كالمعتقل يظن حاليا وهو فى العطل واستكتبه انه ولى عهده والقائم بالسلطنة معه ومن بعده وتصرف فى خزانته وملك أقسرا وفرع وفرى وقرع وقرا وقطع وبرى وقد مضى حديث ملك الالمان فى ذلك الاوان وكيف وصل وعبر الى الشام وكيف قوى بهم فى وهن الاسلام واستصحب معه والده الى قيسارية لقسر أخيه نور الدين سلطانشاه وحصره وأظهر انه بأمر والده وانه شاد ظهره وخرج عسكر البلد وصف ووقف وكف ورأى قليج ارسلان ان ولده عنه مشغول وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصف مفارقا للولد وساق ودخل الى البلد فأضافه الولد الآخر وأكرمه وبره واحترمه وانفصل ملكشاه الى قونية وملك تلك الامكنة وقد استبد بالسلطنة وبقى قليج ارسلان يتردد فى بلاده وفى ضيافة أولاده ينتقل من بلد الى بلد ومن ولد الى ولد وكلهم يضجر منه ويعرض عنه حتى

حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو فقواه وآزره وضافره وظاهره
وجمع وحشد له وأخذله وماخذله وجاء به الى قونيه فدخلها وحلى به عطلها
وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت واسترغب الاوجيه
وجمع العسكريه فمرض فجاء به وقد توفى الى قونيه فى محفه ونزل يمشى قدامها
ويظهر انه من المرض الثقيل فى خفه حتى دخل المدينة وقلعتها واحتازها واحتاز
مملكتها واستدعى الاعيان فاستحلفهم واستمالهم وتألفهم ثم أظهر لهم وفاة
أبيه وانه وارث ملكه ومتوليه وقوى على قطب الدين ملكشاه أخيه

وتوفى فى هذه السنة القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن
الفراش كان من أهل الفضل والرياسة والنبل وهو قاضى العسكر الحاكم المحكم
والكريم المكرم والسلطان يعول عليه فى المهام وفى الامور العظام ويؤهله
للرسائل وأخذ المواثيق والعهود وتولى الولايات والعقود ولما أخذ شهرزور
سلمها اليه وعول فيها عليه ومابرح بها حتى أنعم بها على صاحب اربل مظفر الدين
فعاد القاضى شمس الدين فأرسله السلطان الى قليج ارسلان وأولاده ليصلح بينهم
ويعيد أمرهم الى سداده فتردد بينهم سنه ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنه
وعاد ووصل الى ملطيه وقد استكمل من عمره الله العطيه وتوفى بها فى شهر ربيع
الآخر من السنه وانتقل الى الله بأعماله الحسنه

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق فى داره وممالك
الآفاق فى انتظاره والايام مشرقة بمطالع أنواره والليالى مترقبة صباحها
لاسفاره ورسل الامصار مجتمعون على بابه منتظرون لجوابه والوافدون قاطفو
جنى جنابه والضيوف فى فيوض انعامه عائمون وبفروض حقوقه قائمون
والفقراء فى رياض صدقاته راتعون وفى كلا كلاءته راعون وداعون ودار العدل
بالفضل داره واسرار المنى بالمناجح ساره والسلطان يجلس فى كل يوم وليلة
لاسداء الجود وابداء السعود وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم
وامضاء العزائم وتشييد الدعائم وتقرير العظائم والاهتمام بمصالح الاسلام
ومناجح الانام والاغتمام للمسلمين بما يتم فى بلادهم من الخطوب ويتم من

الكروب وبمجالسة العلماء ومساجلة الفضلاء وموالاة الاولياء ومصافاة
الاصفياء واعداء الملهوف واسداء المعروف ومل ملازمة البلد وخرج عن
حكم الجلد وبرز الى الصيد شرقى دمشق براد خمسة عشر يوما واوسع من لم يوافقه
على الخروج لوما واستصحب معه أخاه العادل وأبعدوا فى البريه وظهروا عن
ضمير ضمير الى الجهة الشرقيه وطابت له الفرص ووافق مراده القنص ثم عاد
يوم الاثنين حادى عشر صفر ووجه بشره قد سفر ووافق ذلك عود الحاج الشامى
فخرج للتلقى وسعاداته فى الترقى ولما لقى الحاج استعبرت عيناه كيف فاته من
الحج ماتمناه وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومحلها وكم
وصلهم من غلات مصر وصدقاتها وعن المجاورين والفقراء ودوا بها وادراراتها
وسر بسلامة الحاج ووضوح ذلك المنهاج ووصل من اليمن ولد أخيه سيف
الاسلام فتلقاه بالاكرام وأنزله فى كنف الاهتمام

﴿ ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق ﴾



جلس ليلة السبت سادس عشر صفر فى مجلس عادته ومجلى سعادته ونحن عنده
فى أتم اغتباط وأتم نشاط حتى مضى من الليل ثلثه وهو يحدثنا ونحن نحدثه
ثم صلى به وبنا امامه وحان قيامه وانفصلنا باحسانه مغتبطين وبامتنانه
مرتبطين واصبحنا يوم السبت وجلسنا فى الايوان ننتظر خروجه لوضع الخوان
فخرج بعض الخدام وأمر الملك الافضل ان يجلس موضعه على الطعام فجاء وتصدر
وتربع فى دسته وجلس بسمته وسمته وتطيرنا من تلك الحال وتقلنا بحدث ذلك
الفال ودخلنا اليه ليلة الاحد للعياده ومرضه فى الزياده وتوفى فى بكرة الاربعاء
السابع والعشرين ونقله الله فى دسته العالى الى أعلى عليين ومات بموته رجاء
الرجال واظلم بغروب شمسه فضاء الافضال وغاضت الايادى وفاضت الاعادى
وانقطعت الارزاق وأدلهمت الآفاق وخاب الراجون وغاب اللاجون وخاف
الآمن وخاب الآمل وقنط السائل وشحط النائل وطردت الضيوف ونكر
المعروف ودفن بالقلعة فى داره وفجع الزمان بانواره وعدمت الايام صباحها
والآمال نجاحها ودفن معه الكرم وغلب بعد وجوده وجوده العدم العدم
وبقيت تلك الايام لاأفرق بين الدجى والضحى ولا أجد قلبى من سقم الهم وسكره

صح ولا صحا وحالت حالى وزال ادلالى وزاد بلبالى وبطل حقى واتسع خرقى وتنازل جاهى وتنازق أشباهى وأعضلت ادواء الدواهى وبقيت المعارف متنكره والمطالع مكفهره والعيون شاخصه والاظلال قالصه والايدى يابسه والوجوه عابسه وعادت أبكار خواطرى عانسه ونجوم قرائحى وشواردها الآنسة خانسة كانسه وبقى باب كل مرتجى مرتجا ومنهج كل معروف منهجا وظن الغنى عنى واخاف فى ضن الاخلاق بى ظنى حتى تولى الملك الافضل بدمشق مقام أبيه وقام بالامر بعزم تأنيه وحزم تأنيه وعز تأبيه فعرف افتقاره الى معرفتى وفقرى والى عطل الملك ومحله من غزارة حاب درى ونضارة حلى درى فكتبت له وحليت من الملك عطله ووشيت الكتب ووشعتها وجليت الرتب ووسعتها وهززت البراعه وأغزرت البراعه وهجرت الجماعه ولزمت القناعه

﴿ ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده ﴾

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيره وأبقى لهما آثرا أثيرة ومحاسن كثيره ولم يخلف فى خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما فانه كان باخراج مايدخل من الاموال فى المكرمات والغرامات مغرما وكان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول فاذا عرف بوصول حمل وقع عليه باضعافه وخص الآحاد من ذوى الغناء فى الجهاد بآلافه ولا يجبه أحدا بالرد اذا سأله بل يلاطفه كأنه استمهله فانه يقول ماعندنا شئ الساعة ومفهومه أنه يعطى وان كان يبطى وانه يصيبه بالنوال ولا يخطى وكان ولى عهده بالشام الملك الافضل نور الدين على وانه كاسمه سام على ونور فضله كسمته جلى وهو الذى حضر وفاته وفاز بملكه فلما يقال حضر وفاته وقام بسنة العزاء وفرض الاقتداء بأبيه فى ايلاء الآلاء وادناء الاولياء وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وكان بالباب رسل ووفود وملوك ورجال لهم فى مسالك الرجاء سلوك فخابوا وغابوا وذهبوا وما آبوا

﴿ ذكر من تولى ممالكه بعده من أهله ﴾

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها واحيى سنتى الجود والباس وثبت

القواعد من حسن السياسة على الاساس وأطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاه وضاعف ما كان يطلق برسم العفاه وجاد وأجاد وأبدى الكرم وأعاد وبسط وقبض وأبرم ونقض وحل وعقد وبر وافتقد ووضع ورفع ومنح ومنع وأبصر وسمع وضر ونفع وقطع وأقطع وأصل وفرع ووعد وأنجز وأوعز بغنى من أعوز وبرز وأبرز وجاهد وجهز وعرض الكتائب وفرض المواهب وأجرى الصدقات وتصدق بالجرايات وأدر وأدار وأجاز وأجار وأغنى وأسعد وأدنى وأبعد وقدم أمر بيت الله المقدس واعتمد فيه اعتماد الاشوس الاسوس وتجمل له بعشرة آلاف دينار مصريه لتصرف فى وجوه ضروريه ثم أمده بالجمل وأفاض عليه من الفضل وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالانس وجلس فى دار العدل ففصل ووصل وأحسن وعدل وقضى وحكم وأمضى وأحكم وأحضر نواب ديوانه فى ايوانه واستعرض منهم قوانين سلطانه واستقرى الضياع والاقطاع وعمم الاصطفاء والاصطناع وحل اقطاع من أقام بالشام وألزم جند مصر بالخدمة والمقام وما أبقى الا ما فى يدى من الضياع وصان حقوقى من الضياع وأمر بتخليده وأجد جدى بتجديده فجاءنى كتابه الكريم بكل كرم مكتوب ومحبو به من الرفد محبوب ورعى فى عهد الوالد وأضاف الطارف عندى من العرف الى التالد هذا وأنا غائب وبرائى راتب ولسواه كاتب ونائب وما أحوجنى فى النوال الى السؤال وأغنانى استرساله فى اغنائى عن الارسال ولم تفتقر مقاصدى ووسائلى الى تسيير القصائد والرسائل وما أغرب بدار فواضله للملول بدار الافاضل ثم أشفق من غدر الفرنج فى فسخ الهدنه فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما فى المكنه ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم وتابعهم وشايعهم قد خرجوا فى أعمالهم عائثين ولعقد ايمانهم ناكثين فخيم ببركة الجب واستشار أمراءه أهل الرأى واللب وجهز جيشا جائشا وبعثا لعثار الدولة ناعشا فى كل مقدم مقدام وهمام همام وضيغم ضرغام وقرم قمقام فوصلوا الى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم وهزمهم

أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم فرأى أن الحمد أعود والعود أحمد وسيأتى ذكر ذلك فى مكانه عند ذكر الملك العادل ومارفع له من شانه

﴿ذكر دمشق وما يجرى معها ومن تولاها﴾

وتولى الملك الافضل نور الدين أبو الحسن على ولد السلطان دمشق والساحل وما يجرى مع ذلك من البلاد ونفذت فى البلاد أوامره ونفدت فى الرجال ذخائره ورتب الامور أجمل ترتيب وهذب الشؤن أكمل تهذيب وجلا السرير السلطانى بنوره وأسفر صباح الاقبال باقبال سفوره وهدى وهدأ وملأ بالبشر المتبلج والنشر المتأرج الملأ وهذب وأذهب ورغب وأرهب ورتب وربت وأصلى وأصلت وأثر وارث ولم الشعث وأبهى وأبهج وأجد المنهج المنهج وروج ونجح ومن ومنح وأرسى وأرسخ وبذو بذخ ووعد وأوعد وجد الجدد وأذاع بحميته سر حمايته وأعاذ ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ وأمر وأمر ونصر ونظر وعز وأعز وحاز وحز وساس وراس وملك الباس والناس وأشاع البر وأعاش وأشبع الجياع وروى العطاش واستخلص ذوى الاختصاص واختص أهل الاخلاص ونهض واستنهض وعرض واستعرض وربط عزمه الرباط وأحاط علمه وحاط وحفظ أولى الحفائظ ولاحظ العرف وعرف انه لاحظ لغير اللاحظ وصنع واصطنع وأبدى وأبدع ومد الظل وأسبغ وسوى الفضل وسوغ وأهمى العوارف وأمهى الرواعف وحقق الحقوق ورتق الفتوق وضم الملك ونظم السلك وجلس فى دار العدل وأتى بالحكم الفصل وحزم وجزم وعزم والتزم وزاد وزان وأغاث وأعان وأبر أرباب الهوى وأمر من أرباب التقوى القوى وحمى المنابه ومحا المكاره وفاض بغزارة العطايا واستفاض بطهارة السجايا وآوى اليه اخوته وضم جماعته وجهز اخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا وأصحبه عسكرا مجرا وأنهضه لانجاد عمه الملك العادل فأنار فى فضاء الفضائل وسار بجحفله الى الجحفل الحافل الشمروفا لتزم ع وهزم الجموع وقارع القروم وكان الهازم والعدو المهزوم وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجرى معها فى المملكة الافضلية داخله وأمداد طاعات الولاة والاولياء بها متواصله وصاحب حمص والرحبة

الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو أثير الشان أثيل المكان فوصل الى دمشق مطيعا ولسر صدقه ونشر صداقته مذيعا مشيعا فأحلى له الملك الافضل جنى شهيا وأحله جنابا وسيعا وعقد له حبا الحب وحباه بكل ما سفر عن سفور مودة القلب ووفور مواد القرب

وكذلك وصل صاحب بعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب طائعا وللامر الافضل تابعا فأدناه واجتباه وأحبه وحباه وأسناه أسماه وآواه وآساه فتأكدت بينهم القرابة المنتجه وتشبكت اللحمة والمنتسجه وتمهدت الآصرة الممتزجه وتفتحت أبواب الالفة المرتتجه وتوافقوا على التوافق وتصادقوا على التصادق وتعاضدوا على الاخذ بالتساعد وتعاقدوا على ترك التقاعد

﴿ذكر حلب وما يجرى معها﴾

وتولى حلب وأعمالها وحصونها ومعاقلها وكرائم البلاد وعقائلها الملك الظاهر غياث الدين أبو الفتح غازى وهو برجاحته وسماحته للطود والجود الموازن الموازى وتلك مملكة أقطارها واسعه وأمصارها شاسعه نخواها وحماها وعماء العدل رواها وقواها وأعز رجال الرجاء وهز أعطاف العطاء ورحب لوراده ورواده رحابه وسحب بحيا الاحياء سحابه وأبرت مبراته وأثرت مأثراته وسح وصح غيثه وغيانه ورعى رعيته فشبعت ورويت ظماؤه وغراثه وزخرت أمواجه وزهرت بثواقب المناقب أبراجه وصابت سماء سماحه وطابت صبا صباحه وعزت بسيرته كتب التواريخ وعزى قلمه وسيفه الى عطارد والمريخ وسعدت وفوده ووفدت سعوده وأثر من أمره النفاذ وكثر بظله اللياذ وأدنى الابرار وأقصى الاشرار وخص الاعزة الخواص بالاعزاز وأوعز بما يعود به الى نضارة الغنى العود الذى ذوى لذوى الاعواز وعهد لسلطانه الاساس واطرد لاحسانه القياس ووجد من عثر من ايديه الانتعاش وعشا الى جدواه المجتدى وعاش وفرض الفرص ورفض الرخص وأدى الفروض وقضى القروض واستدنى من المناجح شاحطها واستدرك من المصالح فارطها وملك خلق التحفظ وسلك طريق التيقظ وفرق وجمع وخرق ورقع

وغلب وبلغ ودمر أهل الكفر والنفاق ودمغ وشفى واشتفى وكفى واكتفى وراع وراق وفات وفاق وطلب وأدرك وأخذ وترك وفاض بالفضل وراض بالعدل وقدم الحزم وصمم العزم وأحيى السنن وأولى المنن ولها بالجد عن اللهو وانتهى بالعدو الى اليأس المر وبالولى الى النائل الحلو وأمر ونهى وأوهى معاقد ذوى المكايد وأوهى ووفى للوفى وصفى للصفى وأقر البيرة وأعمالها وما يجرى معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود ولم يزل مقبولا أمره غير مردود ودخل فى أمره صاحب حماه وأعزه وحماه وهو ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين واتسع الملك واتسق السلك وكاتب الجوانب وراسل وفارق من رأى وواصل وطال باعه وأطاع أشياعه وهمت همته بالزياده وسمت لسمت السياده

《ذكر الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب أخى السلطان وماجرى له بعد وفاة أخيه》

كان الملك العادل مع السلطان فى الصيد قبل وفاته وكان موافقه ومرافقه فى مقتنصاته فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى الى حصنه بالكرك للاستراحه غير مطلع على سر الغيب فى الاقضيه المتاحه فنابه النائب ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب فلما عرف وصل الى دمشق بعد أيام ولم يقم لتنفيس كرب الحادث ولم يحدث نفسه بمقام ولم يرم ثلاثا ولم يرم لباثا ورحل طالبا لبلاده بالجزيره حذرا عليها من أهل الجزيره وكان السلطان جعل له كل مافى شرقى الفرات من البلاد والولايات ومضى كما ومض بارق وتخوف أن يطرق بلده طارق فلما وصل الى الفرات وجد مما خافه دلائل الفترات فأقام بقلعة جعبر ولم يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة فى السلم والسلامه ومحبة للدعة المستدامه وسير الى الولايات الولاه ووصى برعاياه الرعاه واستناب فى ميافارقين وحانى وسميساط وحران والرها وشحنها بالشحن واستقام أمرها وحسب أن الاعداء اذا سمعوا بسمعه جمعوا الجمعه وتدافعوا الدفعه وسكن وسكت وتبين وتثبت وعلم العدا أنه فى خف خفوا وعرضوا وصفوا وما كفاهم ماهم فيه فهموا وما كفوا وسافوا تراب الطمع وأسفوا فجرت حركتهم هلكتهم وأذهب الله عند مجيئهم بركتهم

《ذكر أهل الشمات وماقدر الله لجمعهم من الشتات》

كان الامير بكتمر صاحب خلاط قد هجر الاحتياط ووصل النشاط وضرب البشائر لزره صلاح الدين وظهر فى النوب الخمس بشعار السلاطين وتلقب بالملك الناصر وحدث أمله بجر العساكر وراسل صاحبى الموصل وسنجار وطير اليهم كتب الاستنفار وضم اليه من ماردين وطار وطاش وارتاش وانتاش وخلط من خلاط الاوشاب والاوباش فبيناهو فى أتم غرور وأتم سرور وأحب حبور وأشب سفور وأرقد عين وأركد عين وأغفل قلب وأذهل لب وأطول أمل فى أقصر أمد وأكثر مدد فى أقل مدد وقد خرج من الحمام ولم يدر أنه داخل الى مغتسل الحمام استشهد على أيدى الاسماعيليه ولعل الله غفر له ونقله بشهادته الى جنته العليه وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنه وكان أيامه كانت أحلاما رؤيت فى السنة وأول بادئ بالخروج متولى ماردين فانه مرد وحشد المدد ونزل على حصن الموزر بالعزم المزور والجد المزور وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين كان أهله عليه ماردين فلما صالحهم استبقاه واستثناه وأضافه الى نائبه بالرها وأعطاه ثم تحرك عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وخرج فى الجحفل الحفل وأضافه أخوه عماد الدين زنكى بنصيبين وخرجوا النداء اللقاء مجيبين وقدموا الرسل الى الملك العادل سيف الدين وقالوا اخرج من بلادنا وتدخل فى مرادنا فكتب الى بنى أخيه يستنجدهم ويستنفرهم ويستصرخهم ويستنصرهم فانجدوه بالامداد وامدوه بالانجاد فجاؤه من كل فج ووفوه فوجا بعد فوج وكان انجاد حلب أقرب ولدر الاسعاف أحلب ولما عرف الملك الافضل اغتم واهتم وجمع عسكره وضم وخص وعم وكتب الى صاحبى حمص وبعلبك واستدعى عسكرهما الترك فسار أخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر والملك العادل لقدومه منتظر وأما المواصلة فانهم ماأسرعوا بل أبطؤا وما أصابوا بل أخطؤا وسمعوا ان الامداد العادليه الوافيه متوافيه وان فئته كافة كافيه مكافيه فتجنبوا وتجبنوا وكانوا قد وصلوا الى رأس عين فأقاموا وسكنوا والملك العادل مخيم بظاهر حران فى

جموعه وجنوده واعلامه وبنوده ومساعديه وسعوده وعزمه على اللقاء مصمم وقلبه بحب الظفر متيم وجده غالب وحده ساب وجده لظباء النصر حالب واطيب الذكر جالب وسيف سيف الدين باتر واتر ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر فاتر وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه ورجال النزال تتناجى وتتناجه وكان من قضاء الله المحتوم وسر قدره المكتوم تقليل غروب القوم وتقليلهم وحار تأملهم وخار تأميلهم وجفل رألهم ورتع رعيلهم وذلك بما قدره الله من مرض أتابك صاحب الموصل ولم يطق الاقامة بالمنزل وأشفى على الخطر وأشرف صفو حياته على الكدر فعاد الى الموصل فى محفه ورجا أن يتبدل ما ألم به من ثقل ألم بخفه وقهقر عماد الدين راجعا ولمن وثق به من أشياعه فاجعا وتضرع صاحب ماردين وتذرع وتشفع بالامراء والاكابر وخضع حتى وقع عنه الرضا وصفح له عما مضى وأجرى على القاعدة السلطانية معه وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وما وسعه ورأى عماد الدين أن القوم خانوا واستكانوا وما رعوا له العهد كما كانوا فاضطر الى الانكفاء وكف عن اللقاء فخلا الجو وجلا الضو وعلا النو وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن أخيه الملك الظافر الى الفرات فى عسكر دمشق أهل الثبات فكاتبه بمنازلة سروج وهى من أعمال عماد الدين وأمده بابن تقى الدين وابن المقدم عز الدين ليث العرين فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم الاحد تاسعه واستولوا على البلد وأماكنه ومواضعه ورحل الملك العادل منتصف رجب الى الرقة وتسلمها فى العشرين منه وكانت اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ما ذكر عنه ثم رحل وتملك بلد الخابور جميعه وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه وجاء الى نصيبين ونزل بظاهرها وشرع فى ضم ذخائرها فجاءت الرسل العمادية فى طلب الصلح واسفر ليل الحرب بسنا السلم عن الصبح ورحل ونزل دارا وكان صاحبه دار مع القوم وما دارى فبسط عذره وقبض ذعره وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلاده من بعده الى نور الدين رسلان شاه ولده وجرى بينه وبينهم صلح وكان له فى كل سفرة تجارة وربح وكتب الينا ان أهل خلاط كاتبوه وعلى تأخره عنهم عاتبوه وان كل صاحب حصن قد ضبط

موضعه وانتظر مطلعه فانه تولاهم بعد بكتمر المعروف بالهزار ديناري فلم يرضوا بايالته لخلاط ولم يروه كفوا لتلك الهدى ثم أشرف العادل على خلاط فوجد أهلها قد كملوا الاحتياط ورأى ان البرد يشتد وأمد الحصر يمتد فعاد الى حران والرها وأعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع أمرها

﴿فصل فى المعنى أنشأته الى الديوان العزيز فى آخر رجب عن الملك الافضل﴾

لا شك فى احاطة العلم الاشرف بحال الذين حالوا عن الانصاف ومردوا ومروا أخلاف الخلاف وعادوا عن خلق التلاقى الى الاتلاف وبدوا بالانتظام فى سلك الغدر شمل الائتلاف ونكثوا بعد أيمانهم حتى قيل كفروا بعد ايمانهم وباؤا فى بغيهم ببغيهم وأبدوا قوتهم فى وهيهم وزعموا انهم اذا عزموا نالوا فرصه ووجدوا اذا جدوا فى العزيمة رخصه وجاؤا الى البلاد التى للخدم من انعام أمير المؤمنين صلوات الله عليه ليتملكوها واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم واصيبوا اذ لم يصيبوا ببصائرهم وأبصارهم ودخلوا فى دائرة السوء وخرجوا من ديارهم واجتمع صاحب الموصل وأخوه صاحب سنجار وصاحب ماردين وحسدوا وحشدوا وما الظن بشر الحاسدين الحاشدين ووعدهم الشيطان وأحزابه فصدقوا كذب الواعدين وكان العم الملك العادل سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد لابقاء أمرها على السداد وانقامهم بالمواثيق محتفلا بالوفاق الحافل الافاويق وهو فى خواصه وذوى استخلاصه لم ينتظم عسكره ولم ينضم اليه معشره ولم يصف لدفع الشوائب وردع النوائب مورده ومصدره فلما عرف نكرهم وعلم فى مكرهم مكرهم توافت اليه الجموع وحنت على قلبه الضلوع وحنت الى أصله الفروع وتوافد اليه بنو أخيه فى الجنود وتوافوا أنجدة ساعدت بالسعود وأمد الاخ الملك الظاهر من حلب بالامداد المتظاهره والانصار المتناصره وندب الخادم أخاه الظافر خضرا وأنهضه وسار معه عسكره الذى بدمشق عرضه وسمع الاخ الملك العزيز بخبر القوم وانهم من حول ورد الردى على الحوم فأخرج المضارب وأبرزها وأنفق فى العساكر وجهزها وذكر عدة النجدة فانجزها واهتبل فرصة الفريضة وانتهزها وأقبل على ذخيرة

الفضيلة فأحرزها وتحركت السواكن وثارت الكوامن وهاجت الاقطار وماجت البحار وشابت الاكدار وأصابت الاقدار وأظهر الله قبل الاجتماع معجز آياته فى أهل الشمات وخص جمعهم بالشتات وحبلهم بالبتات وحص من تلك الثبات أجنحة الثبات وشغل كل منهم بوباله ووباله وحطه من يفاع اعتلائه الى حضيض اعتلاله وأعادهم على أعقابهم ناكصين وبعقابهم ناكسين وفى آرائهم وآرابهم ناقصين وأظهر الله فى كل واحد من أعداد الاعداء آية للعادة خارقه وقدرة الاقدار الاولياء للسعادة خالقه وقتلهم وما قاتلوا وقابلهم وما قابلوا وغادر الغادرين عبرة للمعتبرين وعظة للمتفكرين وعلم صاحب ماردين أنه أخطأ وما أصاب فأبان عن ندمه وأناب وتعرض للعفو عنه وتضرع وتشفع الامراء فى أمره وتذرع فأبديت له صفحة الصفح وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح وأجرى على القاعدة المستقرة له فى عهد الوالد رحمة الله عليه فرضوا بما فرضوه من الطاعة وتابوا اليه وكان الاخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات حين حكم الله لجموع أولئك بالشتات فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب وقلب العدو من الفتح الذى وجب وفتحها يوم الاحد ضحوه وجاءت هذه المنحة من الله حظوه ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقه لاسترجاع وديعتها المستحقه وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة وبيمن الائتمار بأوامرها وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها وما السعادة الا لمن شملته سعودها وما المجد الا لمن وصله جودها وما الكرامة الا لمن كرمت عنده بالوفاء عهودها وما العصمة الا لمن لزمت فى جيده النعماء عقودها

﴿ذكر سيف الاسلام باليمن﴾

واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أخى السلطان وهو هنالك سلطان عظيم الشان مستول على جميع البلدان مختص فى مكانه بالامكان وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام فلم يظفر بمرام ووصل كتابه الى أخيه وهو غير عالم بتوفيه فلما استقر الملك الافضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام بنعمه وهم فى كتابه بما كتب الله من همه والكتاب بانشائى عن الملك الافضل يشتمل على شرح ما ألم وخص به الرزء وعم

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو وصدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم والخطب الجسيم والرزء العميم والحادث الاليم والكارث المقعد المقيم والنائب الباغت والمصاب الساحت والفجيعة الفاجيه والنكبة الناكيه والطارقة الطاريه والملمة المؤلمة والبلية الباريه والواقعة الرائعه والصدمة الصادعه والحدمة اللافحه والروعة الفادحه والغمة التى غامت بها الايام وغم لها الانام واعتل منها الاسلام واختل النظام فقد عدمت المطالع ضياءها والمشارع صفاءها والثغور سدادها والامور سدادها والعيون قرتها والنفوس قرارها والقلوب ثباتها والجفون غرارها والايدى أيدها والوجوه سفورها والصدور انشراحها والاسرار سرورها فقد فقدت الدنيا بهجتها وضلت العلياء محجتها واهتدى الضلال الى الهدى وأقوى نادى الندى وأقفرت مغانى الغنى واكفهرت مجالى السنى وأمرت مجانى المنى وخفيت مناهج المناجح وعطلت مناهل المانح وعميت مذاهب المواهب وأظلمت مطالع المطالب وارتجت أبواب الفتوح ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالى وطمست زواهر الليالى واضطربت الدهماء واضطرمت الدهياء وبطلت مواسم الحق وأبهمت مظالم الخلق وانقطعت مسالك الجهاد وتفجعت ممالك البلاد وأخلفت عدات الاعداء وانكشفت أنوار آمال الاولياء وذلك بما أجراه الله من قضائه المحتوم وأظهره من سر قدره المكتوم بمصاب مونا الملك الناصر روح الله روحه وروض فى جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه فقد عظم الخطب وجل وحل عرى الجلد حين حل وثلم غرب الصبر وفل وأجرى غرب الدموع وأذكى كرب الضلوع وبت حبل اللاجين وشت شمل الراجين وأعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث وحباؤها غثاث وعقودها انكاث وسهولها أوعاث وقصورها أجداث وسرورها غرور ومواهبها أحداث وسكونها قلق وأمنها فرق وصحتها سقم وأملها ألم وغبطتها ندم ووجودها عدم وبقاؤها فناء ونعيمها بلاء وراحتها عناء وملكها هلك وسترها هتك وأخذها ترك وسلمها حرب وصلحها فتك ووفاؤها غدر ووفاقها مكر وعرفها نكر ووصلها هجر وخبرها شر ونفعها ضر وجبرها كسر ومتاعها قليل وباعها فى التطاول

طويل وما العثار ها مقيل ولا فى ظلها مقيل ولا ارب فيها لاريب ولا اللباب فيها للبيب فان ظلها قالص وفضلها ناقص وعمرها قصير وغنيها فقير وربها جرع وزبها خدع وحليها عطل وسعيها زلل واجداؤها اجداب واعطاؤها اعطاب واصباحها اظلام وارغابها ارغام وسماحتها بخل وسجاحتها خبل وعقدها مفسوخ وعهدها منسوخ وربحها خسار وجرحها جبار ويسارها اعسار وخصبها محال وحبها محال وعمارتها شعث وشيمتها عيث وعبث وترابها تراث ولا لمسكنها أساس ولا لساكنها أثاث ولا كيدها فى كيدها ايد ولا لمكرها فى جد مكرها جد والسعيد من استعد فى معاشه للمعاد واستكثر مدة مقامه فى الدنيا لسفر الآخرة من الازواد ومن نظر اليها بعين القلى وعرف انهادار البلاء والبلى وتقوى فيها بالتقوى وجد فى الاعراض عن جدواها للفوز يوم العرض بالجدوى ولقد كان السلطان السعيد قدس الله روحه بحقيقتها عارفا ولطريقتها عازفا ولزخرفها عائفا ومن ملكها آنفا وعن مالها متعففا فاشتغل عن الدنيا بالدين وخصه الله بتأييده فى علم اليقين واقتدى بسنة النبى صلوات الله عليه فما زاغ بصره وماطغى ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ووقف حياته على احياء معالم الهدى والاعلان بشعار التقى واعلاء منار الجهاد واشاعة سنن العدل والاحسان فى البلاد والعباد وافاضة سجال الفضل والافضال حتى كفل جوده بفيض الارزاق ووفى بنجح الآمال واخلص لله عمله ولا ملك ملكا ولا تمول مالا الا فى سبيل الله أنفقه وبذله وكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم من كان لله كان الله له فلاجرم اذل الله له الملوك الاعزه ووهب لاعطاف الدولة للتباهى بملكه الهزه وملكه الاقاليم والامصار وأجرى باقداره الاقدار فازال عن مشارع الشريعة الاكدار وعطل البدعة بمصر واليمن والشام وقمع أعداء الاسلام ومد الله فى عمره حتى بلغ المراد وفتح البلاد ووفى فى حق الجهاد الجد والاجتهاد وقدر على ما أعجز عنه الملوك ونهج فى نصرة الدين نهجا أعوز من قبله فيه السلوك وأخرج الفرنج عن الساحل واباده وملك عليها ديارها وبلادها وأوهى على الكفرة معاقد معاقلها وطال بحقه على باطلها واقصى عن المسجد الاقصى مذنبه وأزال عنه أيدى غاصبيه وأصرخ الصخرة المطهرة وطهرها

من الارجاس وأبعد عنها اجناس الانجاس وقهر الكفر وخذله ونصر الايمان وأخذله وأحيى للكرم كل سنة حسنه واستمرت محاسن أيامه سنة بعد سنه وتعدلت بعدله الجوانح وتذللت ببأسه الجوامح ودانت ودنت له الممالك القاصيه وأذعنت اذ عنت لحكمه الامانى العاصيه وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته وعمت الخواص والعوام عارفته وعاطفته ونفذت فى الشرق والغرب مراسمه وقامت بالحمد والشكر مواسمه ووفت بأمل الدانى والقاصى والطائع والعاصى مكارمه وأسعده الله وأمهله حتى حقق فى ذويه أمله وولى فى كل اقليم من يعمل لله فى العدل والاحسان عمله ثم توفاه حميد الاثر كريم الورد والصدر ظافر الرجاء رائج الظفر صالح العمل ناجح الامل طاهر الفطره ظاهر النصره كاسيا من الفخار عاريا من العار مرتديا بثوب الثواب مرتقيا من صوب الصواب مبتهجا بنضرة النعيم متأرجا بعرف نسيم التسنيم وما كان أبهج الايام بأيامنه والاعصار بعزائمه والامصار بمحاسنه والاسلام بسلطانه والآفاق بسنا احسانه وما كان أسعدنا بجدوده وأجدنا بسعوده وأغنانا بعدله وجوده فقد فقد الصباح فلا سنى ودفن السماح فلا جدى ولاجنى وغاض البحر فلا غنى وهوى الطود فلا ثبات وذوى الروض فلا نبات ووهى الركن فلا سند وانتهى اليمن فلا جدد وغلب الكمد فلا جلد وعز العزاء فلاعز ولا قوة ولا عضد انا لله وانا اليه راجعون ولامره تابعون ولحكمه طائعون لا راد لارادته ولا صاد لمشيئته ولا صادف لمصادف قضائه ولا صارف لصرف بلائه ولقد كادت الانوار تغرب والانواء تعزب والمنابع تغور والصنائع تبور والاحوال تحول والاهوال تهول وأضواء المعارف لا تضئ وأفياء العواطف لا تفئ وزهر السماء لا تشرق وأزهار الروض لا تونق ومعاقد الاسلام تهى وميامن الايام تنتهى لولا أن الله تدارك الارماق بألطافه وتلافى الآمال باسعافه وجلا وجه النعمى من خلال البؤس وأهدى البشر بعد العبوس وأنزل السكينة عند الزلزال على النفوس وأجرى الدولة على أحسن العوائد وأرشد المقاصد وأثبت القواعد من استمرارها على الالتئام واستقرارها فى النظام واستدرارها بأفاويق الوفاق واهلال بدورها غب المحاق وطلوع شموسها من الآفاق وارتفاع فروعها

فى سماء السمو وامتداد أصولها فى منابت النمو وانفتاح احداقها النواظر عن نور الابصار وانفتاق حدائقها النواضر عن نوار الازهار حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت وانتظمت الالفة المتبددة وتأكدت وسكنت القلوب الراجفة وأنست وسكتت الالسنة المرجفة وخرست وأنارت الخواطر المظلمة وأفاقت الظنون الراجة والافكار المتقسمة وزاد الرونق وزال الرنق وانجلى الغسق وتجلى الفلق واستقامت الامور واستنامت الى حفظها الثغور ووصلت الكتب العزيزية والظاهرية من مصر وحلب بكل ما أنجح الارب ووصل السبب وهرى در النصر وحلب وبكل ما أظهر القوة وقوى الظهر وشد الازر وأمر الامر وسر السر ونصر الحق وحقق النصر من الموافقة والموافاه والموالاة القاضية من الجدة المتجددة بالموالاه والمتابعة والمشايعة فى كل أمر يبرم وكل حكم يحكم وكل عزم فى قمع العدا يصمم وكل عقد فى نصر الهدى يلزم ويتمم ووصل المولى الملك العادل فتولى أمر المملوك بكل ما وافق ايثاره وأشاع على عادة الواحد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره وأخلى من كل شاغل باله ورفه أسراره وأراح أفكاره ومافى الجماعة الامن خطب الجمعية وخطب فى الجمع وأعرض عن الهوى للحق المتبع فالكلمة متحدة وان كانت الانفس متعدده وما أخلقت هذه الدولة بل استمرت على تجدد الايام متجدده وانما أشفقت فى حال الصدمة الاولى وبدء الرزية الطولى على بيت الله المقدس ومن غدر الفرنج بقصدها فان الغدر شيمة لهم فى الانفس فوقى الله شرهم ودفع مكرهم وأوهى أمرهم ولم يزل من قلوبهم الرعب ولم يؤثروا على الصلح الحرب بل طلبوا بقاء السلامة بابقاء السلم وخطبوا اجراءهم فى الوفاء بعقد الهدنة على الرسم وبركات نية المرحوم شملت ووصاياه نفذت وكملت وتوجه الملك العادل الى بلاده الجزرية شرقى الفرات لاصلاح تلك الولايات واخراس شقاشق الهادرين بالارجاف من أهل الشمات ليؤذن بهيبة الاسد جمع النقاد بالشتات وليعيد الى الانس شارد الولى الراشد ويرد بالبأس مكايد الحاسد الحاشد والحمد لله الذى أجد الامن وقد عرت المخافه وأزل الرأفه وقد نجأت الآفه وأبقى الاسلام بعزه والكفر بذله وثبت قواعد الملك الناصرى بجمع شمل أهله وأحيى بهم سنتى احسانه وعدله وشيمتى افضاله وفضله

وفى دوام اقبال المجلس السامى دوام اقبالهم ونظام أحوالهم وسبوغ ظلالهم وبلوغ آمالهم

《ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة المعظمة
وانفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا》

لما استقر الملك الافضل بدمشق فى مقام والده وشفع طارف ملكه بتالده وأضاف موروث الفضل الى مكتسبه وأكرم نسبه بكرم حسبه بدأ بالاهم الافرض والاتم الامحض فقدم الى الديوان العزيز النبوى تجابين بالكتب وأنهى الحال فيما ألم من الخطب ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهرزورى فى الرساله الى منزل الرسالة وموقف الجلاله وأصحبه عدة والده فى الغزاه آلات لقاء العداه وسيفه ودرعه وحصانه وأضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه فانتهى مسير الرسول الا فى أواخر جمادى الآخره حتى حصل كل ما أراده من الهدايا الفاخره وحتى كاتب مصر وحلب وأعلم بمسير رسوله حتى لا يظن انه انفرد برسوله وقصد مدارة اخوته وتفضل بفضل نخوته وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمتى أمير المؤمنين وولى العهد عدة الدين وأمرنى بانشاء الكتب وتحريرها وتقريب المقاصد فيها وتقريرها

《فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء》

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء وقلبه معمور بالصفاء ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء ولسانه ناطق بشكر النعماء وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء وطرفه مغض من الحياء ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء وهمته فى العبودية فارعة ذروة العلاء وهو للارض مقبل وللفرض متقبل وبالطاعة مائل وللاستطاعة باذل وللجهد والاخلاص عارض ضارع وبنحره من الصحة والمناصحة صادق صادع وهو يثبت بما قدمه من الموات وأسلفه من الخدمات وذخره ذخر الاقوات لهذه الاوقات واتخذه عصمة من النائبات وعوذة من الطارقات وعدة عند الملمات وعمدة لدى الخطوب الكارثات ومصرفا لصروف الحادثات ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصار

بها فى أزمن الازمات وسلوة من الاسى وآسوا لجراح المصيبات ولاخفاء بما أخافه
وفاض له من بحر البرح وضافه وأغاض نطافه وعاق أوان رجاء جنى النجاح
قطافه لولا أن الله تداركه بفضله وأولاه ألطافه فانه دهمه ما هدمه وبخاه ما فجعه
وبغته من الرزء ما صدعنه العيش وصدعه ونابه ما رابه وجرعه مصابه صابه
هو وافاه من وفاة والده رحمه الله ما كدر صفو الحياه ومحا عن صفحة صحته آية الاياه
وألم بألم الامل وأحال الحلى الى العطل وحلأ عن النهل والعلل وأذهب بهجة
الايام وأشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ما ساء التوحيد وقرب من اشفاق
القلوب واشفاء الكروب البعيد وعطل الجهاد وأراح الحديد وشب حقود العداة
على انها ما شبت الا لتخمد وشام حدود العتاة على انها ما شيمت الا لتغمد وهذا
الحادث أرجف المرجفون بحديثه وآثار واكوامن الثار وحركوا سواكن
الاوتار بتأثيره وتأريثه وأخرج أهل النفاق رؤسهم من كل نفق وعاد ثبات ثباتهم
الى نفار وقلق ومن كان متمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى مستلئما
من عدد أيامها ومدد انعامها بالدرع الاقوى الاوقى فانه لا يحتفل بحفول أخلاف
أهل الخلاف ولا يتحلحل طود جاه الراسى وحصاه الراسخ لعواصف ذوى
الاجحاف وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله بأن الوالد السعيد الشديد
السديد المبير للشرك المبيد لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته مستقيما على
حد الجد مستنيما فى صون فريضة الجهاد الى بذل الجهد مستنفدا فى كل
ما يحوز به المراضى الشريفة وسعه مستفرغا طاقته فى الشغل الدينى الذى يهدى
بصره وسمعه فكم قبض يدا بسطتها الفتنة الفئة العاديه وكم فرض سنة أعلت
سناها للمجتلين وأحلت جناها للمجتدين الدعوة الهاديه ولكم أخرس دعاة
الادعياء وحرس ولاية الاولياء وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للاقاليم
أقاليد ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان فى الممالك بمماليك الدار العزيزة
وعبيدها عباديد وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب وأقام بها منار
الاسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها أنابيب وأسعرها من كماة الوغى وحماة
الورى بمساعير وأنجدها بضوامر ضوامن الظفر بمضامير وهذه فتوحه تفوح
بنشر النصر وتضوع وعقوده تروق فى سلك الملك وتروع ومصر بل الامصار

باجتهاده فى الجهاد شاهده والانجاد والاغوار فى نظر عزمه واحده والبيت
المقدس من فتوحاته والملك العقيم من نتائج عزماته وتوفره على العبودية لمالك
رقه سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته وكل ذلك فى طاعته ومناصحته وبركاته
وما زال ظاهرا على العدا ناصرا للهدى معليا معالم العلى محييا مواسم التقى
مستنيما سنن الشرع وفروضه مدعما بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه وهو
الذى ملك ملوك الشرك وغل أعناقها وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها
وقمع عبدة الصلبان وقصم أصلابها وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها ونظم
أسبابها وسد الثغور وسدد الامور وأذل للدار العزيزة كل عدو وأخذ لها
على يد كل ذى عتو واستمرت على الايام مساعيه فى الخدمة ناجحه ومعانيه
على موازين الموازين راجحه وسيرته حسنة وحسناته سائره ومحاسنه ظاهرة
وسريرته طاهره وختم الله له بالسعاده وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعباده
وقضى وقد قضى من آرائه آرابه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه وقبض
وعدله مبسوط وأمره محوط ووزره محطوط وعمله بالصلاح منوط وأمله
بالنجاح مشروط وملكه بحفظ الله وكلاءته مضبوط والمذاهب مهذبة والمراتب
مرتبه والاسباب محكمة والاحكام مسببه والاحوال حاليه والاعمال راضيه
والمصالح مصونه والمناجح مضمونه والرعية مرعيه والعوائد مرضيه
والقواعد متأثله والمقاصد محصله والثغور مسدوده والخطوب مصدوده
وأصول الدولة ثابته وفروع الدوحة نابته وما ترك أمرا بعده غير مستقيم
ولا نهجا غير قويم ولا خلف لمن خلفه ما يحتاج الى تقريبه وتقريره ولا أبقى لمن
بقى له ما يفتقر الى ترتيبه وتدبيره وما خرج من الدنيا الا وهو فى حكم الطاعة الامامية
داخل وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على
جادتها والاستكثار من مادتها والاستسعاد بسعادتها والاستعداد لعبادتها
والاستجارة بظلالها والاستنارة بجلالها والاستعاذة بفضلها والاستزادة من
افضالها وما بنيت القواعد الا على أساس وصاياه ولا أمضيت العوائد الا على
قياس سجاياه ولا أبرم الا ما عقده ولا أحكم الا ما أكده واقتفيت آثاره
واجتليت أنواره واتبع ايثاره وائتمرت فى ائتمار الاوامر الشريفة أوامره

ومن كان فى نصرة الدولة الامامية الناصرية فان الله ناصره ومايفتخر العبد الابما ورثه فى ولائها من الفخار وبعثه من آلائها الغزار ونعشه برفعه من العثار وعرفه بعرفه المبر المبار ولايتسم بالملك الامن يتسامى بانه لها مملوك ولايوصل الى السعادة الابدية الامسالك الى رضاها مسلوك ولئن مضى الوالد على طاعة امامه فالمماليك أولاده وأخوه فى مقامه والامر فى كل مكان بالامن والسكون جار على نظامه والكفر مفلول الغرب مخذول الحزب مجبول على الرعب مغلول بقيد السلم عن الحرب فان الله أجرى المشركين مع كثرتهم على حكم القله وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية بالذله وقد استمرت الحال الى الآن على الهدنه وهم لايؤمنون اذا أحسوا بالمكنه فان الغدر فى طباعهم مركوز والسوء فى غرائزهم مغروز والعبد آخذ بالحزم عائذ بتأييد الله فى العزم متيقظ لخوف غدرهم متحفظ من مكرهم مستعد بكل امكان مستجد كل مايفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان مستظهر بما أكدله من مظاهرة المواقف المقدسة فى أموره مستبشر بوجه وجاهته منها بسفوره ظاهر بقوته من أيدها وأياديها قوى بظهوره مدل بماله من المواة الاكيده والسوابق الحميده والشوافع المقبوله والذرائع الموصوله موقن ان الرعاية تدركه وان العناية تملكه وان اختصاصه بفضيلة المانة القديمة يحدله فضل الاختصاص وان فاتحة الخدمة والاخلاص تفتح له باب الاحماد والاستخلاص ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول وانه يزداد بما يزداد به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحليه وقوة النصرة والحول عول على القاضى ضياء الدين فى المثول بالخدمة الشريفة وانهاء حاله والانتهاء الى مناهج آماله والسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد ونجح المقاصد ونصح العقائد وشرح الاحوال فى المصادر والموارد وان بلاغته وفية بالابلاغ مليه باشباع القول فى اعتفاء الطول الملى بالاسباغ وقد فاوضه فيما فوضه اليه واعتمد فى استنجازه واستنجاحه عليه لازالت أيادى الدار العزيزة دارة غزيرة سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جديره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله﴾

كان مشغوفا فى سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه فى الاعداء بادناء الآجال وفى

الاولياء باجراء الارزاق وماعقر فى سبيل الله فرس أو جرح الاوعوض مالكه بمثله وزاده من فضله وحسب ماوهبه من الخيل العراب والاكاديش الجياد للحاضرين معه فى صف الجهاد مدة ثلث سنين مذنزل الفرنج على عكاء فى رجب سنة خمس وثمانين الى يوم انفصالهم بالسلم فى شعبان سنة ثمان وثمانين فكان تقديره اثنى عشر ألف رأس من حصان وحجر واكديش طمر وذلك غير ماأطلقه من المال فى أثمان الخيل المصابة فى القتال ولم يكن له فرس يركبه الاوهو موهوب أوموعود به وصاحبه ملازم فى طلبه وماحضر اللقاء الااستعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده فكلهم يركب خيله ويطلب خيره وهو يستعير جوادا ويستعر فى الجهاد اجتهادا وكان لايلبس الامايحل لبسه وتطيب به نفسه كالكتان والقطن والصوف وكسوته يخرجها فى اسداء المعروف وكانت محاضره مصونة من الحظر وخلواته مقدسة بالطهر ومجالسه منزهة من الهزء والهزل ومحافله حافلة آهلة باهل الفضل وماسمعت له قط كلمة تسقط ولالفظة فظة تسخط يغلظ على الكافرين الفاجرين ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الحديث بالاسانيد وتكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة فى القضاء أعلم منهم بالاحكام الشرعيه والاسباب المرضيه والادلة المرعيه وكان من جالسه لايعلم انه جليس السلطان بل يعتقد انه جليس أخ من الاخوان وكان حليما مقيلا للعثرات متجاوزا عن الهفوات نقيا تقيا وفيا صفيا يغضى ولايغضب ويبشر ولا يقطب ماردسائلا ولاصدنائلا ولاأخجل قائلا ولاخيب آملا

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه فى بعض سفراته الامير أيوب بن كنان مشتغلا بمهماته فلما وصل سأله عن سبب تخلفه وما الذى وقفه عن موقفه فذكر ان غرماءه لجوا وألحوا وضنوا باطلاقه وشحوا فاحضر غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين وأمرنى بان أحيلهم على مصر فحسبتها وهى اثنا عشر ألف دينار مصرية وكسر فقدم نوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل

ولما كنا بالقدس فى سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة بن منقذ من مصر وهو

بها نائبه وقد وضحت فى الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها ألفى دينار ونهب وربما وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب فجاء الى السلطان من أخبره أن الرجل على الباب وخال أنه اليه به تقرب فقال قل له ان ابن منقذ يطالبك فأجهد أن لا تقع فى عينه فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل بقدمه الى حينه ومما أذكره له فى أول سفرى معه الى مصر فى سنة اثنتين وسبعين ووردت بها من فضله العذب المعين انه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه فى زمانه فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه فما طالبها ولا ذكرها وأراه كأنه ما عرفها على ان صاحب الديوان ما أنكرها وكان يرضى من الاعمال بما يحصل عفوا صفوا ويحصل عذبا حلوا وكله يخرج فى الجود والجهاد ورعاية الوفاد والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطله ولم يرا نزواءه فى بيت العزله فولاه ديوان جيشه وأولاه ما دنت له به مجانى جاهه وعيشه

ولما كنا بظاهر حران فى سنة احدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه فى الولايات باخراج الصدقات وقال لى اكتب الى الصفى بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صوريه فقلت له الذهب الذى عنده مصرى قال فيتصدق بخمسة آلاف مصريه واشفق من صرف المصرى بالصورى فيكون حراما ويرتكب فى كسب الاجر آثاما فسمح ومنح وتاجر الله وربح وسمعت بعد ذلك الصفى وكان فى الخير مجلى كل مضمار يقول قد أحصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فاطلقت لهم ستمائة دينار ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لى يوم الرحيل أنظر كم بقى بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم وفضل على أقدارهم فى القسم وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة ولم تجد ميسره فعينت لكل اسم قسما وعينت بهم خلقا منى ورسما فبلغ أربعمائة دينار ثم وقفت أفكر واردد النظر اليه وأكرر فسألنى ما الذى عملت وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت جرى قلمى بقسمة أربعمائة دينار فهل أنقص من كل اسم ربعا فقال أجر ما جرى به القلم واحسن صنعا وكان رحمه الله اذا أطلق لعارف عارفه وقلت له هذه ما تكفيه ردها مضاعفه وكان أصحاب المظالم وأرباب المطالب والراغبون فى

الرغائب والذاهبون فى المذاهب يحضرون عندى ويعرفون فى انجاز أمرهم وانجاح قصدهم بذل جهدى فاكتب لهم توقيعات بموقعاتهم وانتهى فى الاملاء بنهاية مأمولاتهم فيجريها ويمضيها ويضع علامته فيها ويرتضيها واذا ألفى توقيعا بخطى علم فيه ولم يقف بنشره على سر مطاويه ألفاها ألفه من صحبتى ومساعى وكفاءتى للملمات وكفايتى للمهمات بكفايتى وكان يأمرنى باجابة كتب الملوك وأصحاب الاطراف عن كتبهم فى حالتى سلمهم وحربهم وهى تشتمل على أسباب متنوعه وآراب متفرعه بحسب الحوادث المتجددة والبواعث المتمهدة فاذا قلت له ماذا أكتب وما الذى أخاطب فيقول أنت أعرف وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف فاكتب من عندى بالاجابه وتوافق منه الاصابه فقد كنت مطلعا على سره مضطلعا بأمره ما يخفى عنى مراده وأنا أتيقن لمن ولاؤه ووداده فآتى بمداناة الاغراض ومداواة الامراض وموازنة الجواهر والاعراض والتمييز بين أهل القبول وأهل الاعراض فكم أصلح قلمى بينه وبين من عاداه وراض الجامح من سخطه وقاده الى مدى رضاه

وكان يغضب للكبائر ولا يغضى عن الصغائر ويرشد الى الهدى ويهدى الى الرشاد ويسدد الامر ويأمر بالسداد فكان مماليكه وخواصه بل امراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد ورأى يوما لى دواة بالفضة محلاه فأنكر حل الحليه وادعى حظر القنيه فقلت على سبيل المدافعه وطريق المناظرة والممانعه أوليس تحل حلية السلاح واستصحابه فى الكفاح فدواة دوانى أنجع ومدد مدادى أنفع ويراع يراعتى القصير أطول وسلاح قلمى أحدوا حد وأفتك وأقتل وما اجتمعت هذه العساكر الاسلاميه الا بقلمى ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلمها من جوامع كلمى فقال ما هذا بدليل ولا يعيد تحريما الى تحليل حتى قلت له ان الشيخ أبا محمد والد الامام أبى المعالى قد ذكر وجها فى جوازه ونحن نتبعه فلا وجه مع هذا الوجه المحلل لمن يحظره ويمنعه ثم لم أكتب بعدها عنده الا من دواة الشبه وتجنبت طرق الشبه وتركت الحلاة مخلاه وعادت الشبهيه مجتباه مجتناة وكان محافظا على الصلوات الخمس فى أوائل أوقاتها مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها فما رأيته صلى الا فى جماعه ولم يؤخر له صلاة من ساعة الى ساعه

وكان له امام راتب ملازم مواظب فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم وكنت لملازمتى اياه يقدمنى اماما فى الصلوات ومستشارا فى المشورات وكان يأخذ بالشرع ويعطى به وينفق من حل المال وطيبه ويجود بالموجود وبالمعدوم فى الحال رجاء الوجود فما تجدد جدة الا ويستوعبها انجاز الوعود ولم يكن الى المنجم مصغيا ولم يزل لقوله ملغيا فما عنده منجا لمن جاء بين المنجمين ولا قبول لمنطق المنطقيين فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين فى كل قاص ودان ولا يتعيف ولا يتطير ولا يعين وقتا ولا يتخير بل اذا عزم توكل على الله وأقبل على محكم أمره وأعرض عن مظان الاشتباه فكم فل سفه ذى الفلسفه ودل بمعروفه على المعرفه ومازال ناصر التوحيد قاهرا جمع أهل البدع بالتبديد مستجليا سنا السنه مستحليا جنى الجنه شافعى المذهب أصولا وفروعا معتقداته معقولا ومسموعا يدنى أهل التنزيه ويقصى أهل التشبيه ويديم استفادة فقه الفقيه واستزادة نباهة النبيه ووجاهة الوجيه فالعالمون فى عدله والعالمون فى فضله والبلاد فى أمنه والعباد فى منه والبرية فى بر سعيه والاسلام فى حماية حميته والدين فى اد لقدولته وشرعة الشريعة صافية بصفائه ومادة المودة له وافية بوفائه وقامت بعده طورة طريه من العار عريه وبر البرية من الشائبات والشائنات بريه وبالحرية حريه وبسرور السر سريه فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وأفضلها وظاهرها ونخرت بمفاخرها ورويت برواتهم آثار مآثرها وتبلجت الآفاق وتأرجت بحسن تباشيرها وطيب بشائرها وبرزت الارض فى أزهارها والسماء فى زواهرها والحمد لله مجرى الاقدار ومصفى الاكدار ومدبر الليل والنهار ومدبر الايراد والاصدار وسلم تسليما كثيرا آمين

تم بعون الله الفتح القدسى فى الفتح القدسى بالمطبعة الخيريه
لمالكها ومديرها (السيد عمر حسين الخشاب)
بمصر المحميه سنة ١٣٢٢



